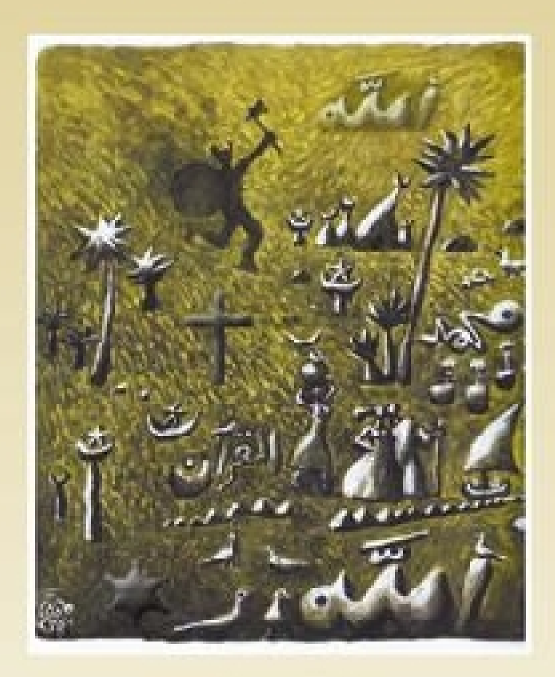
الآثار الكاملة (٢٩)



ALI SHARIATI

علي شريعتي



تاريخ ومعرفة الأديان

(الجزء الأول)

دار الأمير

تاريخ ومعرفة الأديان


بسم الله الرحمن الرحيم

سلسلة الآثار الكاملة ـ ٢٩ـ

تاريخ ومعرفة الأديان

الجزء الأول

الدكتور علي شريعتي

ترجمة

د. حسين النصيري

تحقيق وتعليق

الشيخ منذر آل فقيه

دار الأمير

إسم الكتاب : تاريخ ومعرفة الأديان/ج ١

إسم المؤلف : د. علي شريعتي

ترجمة : د. حسين النصيري

تنضيد وإخراج : زهرين

تصميم الغلاف : أحمد قصير

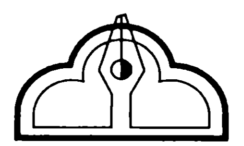
تحقيق وتعليق : الشيخ منذر آل فقيه

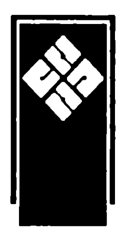
الترقيم الدولي : ISBN 978-9953-494-30-2

الطبعة الأولى : ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م

الناشر : دار الأمير للثقافة والعلوم ش.م.م

التوزيع في العراق:
دار الباقر ـ النجف الاشرف هـ :07801263579





دار الأمير للثقافة والعلوم
مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر ـ بيروت ـ لبنان

تلفاكس: 49 64 27 1 961+
ص.ب: 113/5551 الحمرا ـ بيروت ـ لبنان

Website: //http:/www.daralameer.com
E-mail: daralameer@daralameer.com

مؤسسة نشر آثار
الدكتور علي شريعتي

تلفاكس: 2232729 21 98+
ص.ب: 19395-6516 طهران
www.shariati.com

وتستمر دار الأمير ...

إذا كانت مسؤولية المثقف تجاه أمته وتحديات لحظتها التاريخية هي الهم والرسالة التي حملها علي شريعتي، فإن نشر فكر الوعي الحضاري بدوره مسؤولية، إذ كيف يصل هذا الفكر للناس دون ناشر مسؤول؛ يعطيه العناية ويكفل أن يظل هذا الزاد الثقافي حاضراً في الوعي؛ متاحاً للأجيال لتنهل منه في صياغتها لرؤى التجديد والنهضة وتستثمره في حركة التغيير وصناعة المستقبل.

وقد وعت دار الأمير هذه المسؤولية منذ تأسيسها عام ١٩٩١م، وحملتها بأمانة، وتحملت تبعاتها المادية والمعنوية في مواجهة حسابات السوق وفكر الجمود، ورغم الدمار الكُلّي الذي لحق بالدار في حرب تموز ٢٠٠٦م، والذي كان أول ضحاياها كتب علي شريعتي التي أحرقتها صواريخ الهمجية الصهيونية؛ حين دكّت مقرّ دار الأمير في بيروت ومعرض الدار في بنت جبيل، فإن إرادة البقاء وعزيمة الإنتصار بقيت متوهجة، وها هي دار الأمير تستأنف دورها ونضالها بعد أشهرٍ معدودةٍ من العدوان، وتقدم من جديد فكر شريعتي في إخراج متميز، وتنهض من بين الركام مستعيدة دورها المسؤول في نشر ثقافة العودة إلى الذات، والنهضة، والمقاومة في مسيرة الفلاح التي شعارها: **إلهي علمني كيف أحيا . . ، أمَّا كيف أموت، فإني سأعرفه.** والحمد لله الذي نصر عبده.

محمد حسين بزي

بسم الله الرحمن الرحيم

بقلم سماحة الشيخ منذر آل فقيه
أستاذ في الحوزة العلمية

على عَتَبَة الترجمة:

كنتُ أتمنى أن يتصدّى لترجمة هذا الموضوع الهام «تاريخ ومعرفة الأديان» -الحافل بالمصطلحات الخاصة والمتميّزة- مَن هو أكثر اختصاصاً وقدرةً من الأستاذ نصيري، الذي بذل جهداً مشكوراً في شَمْلَنَة أفكار شريعتي -التي احتضنها هذا الكتاب- وصبّها في قالب لغة العرب، فأفلح في الإجمال، وسقط في التفصيل.

ليس تهجّماً إن قلنا، أن المترجِم أسقط فقراتٍ من الكتاب، وفي أحيانٍ معدودة أسقط صفحاتٍ كاملة، فلَمْ يترجمها. ولعلّه اعتمد في ذلك، على قول القائل الذي يقول، إن الأمانة مطلوبة في كل شيء إلا في الترجمة، فالترجمة الحرفيّة غير نافعة وتؤدي إلى اختلال المعنى أكثر ممّا تؤدّي إلى توضيحه وبيانه، خصوصاً أن الكتاب هو مجموعة دروس ومحاضرات في

تاريخ الأديان، وأسلوب المحاضرات يختلف عن أسلوب الكتابة النصيّة.

لكنْ، غير السديد في الترجمة هو، أن يُغفل المترجِم جلّ المصطلحات العلمية الواردة في الكتاب فلا يأتي على ذكرها أصلاً، فضلاً عن أن لا يترجمها.

اختُتِمَ الجزء الأول من هذا الكتاب، بثلاثة أوراق ونصف الورقة تقريباً، جاءت تحت عنوان «ضميمة»، لكننا، لم نجد أثراً لهذه «الضميمة» ولو بمقدار سطر واحد ضمن النص المُتَرجَم. ووجدنا في مواضع «مكرورة» أن الصفحة الواحدة، أو الصفحة ونصف الصفحة، قد تمّت ترجمتها إلى «فقرة» متواضعة وفقيرة الحال.. وهكذا.

ما بعد العتَبَة:

خبط المُترجِم خبطَ عشواء في ترجمة المصطلحات وأسماء الأعلام، التي قلنا أن الكتاب حافل بها بشكل متميّز، ويبدو أن الفرصة قد أُتيحت لنا أن نفصح عن «عدائيّتنا المستَتِرة» للمُترجِم، والتي تأسّست منذ قراءتنا لكتاب «تاريخ الحضارة» وهو كما أزعُم الأخ الأوسط لهذا الكتاب، والذي ترجمه الأستاذ نصيري نفسه، ونعطف على هذين الكتابين الأخ الثالث وهو الأصغر بينهما، عنيتُ به «الإسلام ومدارس الغرب»،

والمترجِم غير المترجِم، والأخطاء أقل بكثير من الأخطاء في الكتابين اللذين ترجمهما الأستاذ نصيري.

ألُمِعُ على عَجَل إلى أن أسماء الأعلام والأماكن -في الكتابَيْن- بقيت كما وردتْ في النص الفارسي، لم تتغيّر، أي لم تُترجَم إلى اللغة العربية، حيث نقرأ اسم «ولتر» والمقصود به الكاتب والفيلسوف الفرنسي الشهير «فولتير». ونقرأ اسم «كورويج» والمقصود به عالِم اجتماع المعرفة الروسي الأصل «جورج غورْفيتْشْ» الذي أثّر تأثيراً ملموساً في المنهجية الأفكارية لشريعتي. ونقرأ اسم «رنه كنون» والمقصود به الباحث الفرنسي «رينيه غينون». ونقرأ اسم «دركيم» والمقصود به الفيلسوف وعالِم الاجتماع الفرنسي «دوركهايم». ونقرأ اسم «كنفوسيوس» والمقصود به الفيلسوف المشهور «كنفوشيوس». ونقرأ اسم «بكت» والمقصود به الروائي والكاتب المسرحي والشاعر الإيرلندي «بيكيت». ونقرأ اسم «وان كوك» والمقصود به الرسام التشكيلي «فان غوغ». ونقرأ اسم «ماكس وبر» والمقصود به عالِم الاقتصاد والاجتماع والسياسة الألماني «ماكس فيبر». ونقرأ اسم «لوى برول» والمقصود به الفيلسوف الفرنسي «ليفي برول». ونقرأ اسم «لئونارد داوينجى» والمقصود به أشهر وأهم فنان إيطالي في عصر النهضة الأوروبية «ليوناردو دافنشي». واللائحة أطول من أن نتمّها أو أن نستطيع تلخيصها بصفحات قليلة.

من التقشّف غير المستحب أن أُغفِل كلمة سبّبت لي جنوناً أدوارياً -بحسب تعبير الفقهاء- وهي كلمة «زنوا»، فنكتشف بعد تعبٍ كبير أنها مدينة «جَنَوَا» في إيطاليا. وأعطف عليها كلمة «ليسبون» لنكتشف بعد لَأْيْ أن المقصود بها هو مدينة «ليشبونة». . وهكذا.

نأتي بعد التحريض الآنف، إلى الصعب غير المسْتَصْعَب في التهجئة كما هو عيناً في التلفّظ، وذلك بمقتضى التغاير بين الحروف الأبجدية في اللغة العربية والحروف الفارسية، فيرِد علينا سريعاً ودون إبطاء اسم «تائو» والمقصود به «الطاو»، ثم ترد كلمة «تائوئيسم» والمقصود بها هو «الطاوية»، ويرِد اسم «لائوتسو» والمقصود به هو «لاوْتسو» أو «لاوْتزو»، وترِد كلمة «توتميسم» ومعناها «الطوطميّة». ثم يأتي ما هو أنكى وأدهى، عندما يترجم المُترجِم اصطلاح «اكزيستانسياليسم» إلى «الفكر الاشتراكي»! مع أن معناه هو «الوجودية». وأكثر من هذا وذاك وذيّاك، عندما يترجم مصطلح «أومانيسم يونان» إلى «الفكر اليوناني» مع أن المقصود به هو «أصالة الإنسان عند اليونان». وهكذاءات كثيرة.

إن أسماء الأعلام وكذا الأماكن وأسماء الأديان والمذاهب والحركات الإصلاحية، وأيضاً المصطلحات العلمية، من شديد أسف (ولا تقُل: للأسف الشديد) بقيت كما وردت في اللغة

الفارسية، بحيث يصعُب كثيراً على القارئ العربي أن يفهم هذه الأسماء وأن يفهم ما المراد منها! وما المقصود بها! بل الأصعب عليه أي على القارئ العربي -وهنا مكمَن الانجراح النفسي- أن ينطق أو أن يتلفّظ بها.

بعد الإسراع والإلماع الآنِفَيْن، أتلبّث قليلاً لأقول، أنه وردت في النص الفارسي عبارات لطيفة جداً ومبتكرة، اجترحها شريعتي لتعبّر عن واقع معيّن، وهي تتحدّث عن صفات محدّدة لأشخاصٍ وضعهم شريعتي تحت مبْضَع النقد والتحليل والتصوير، إلا أننا لم نعثر على ترجمة لهذه العبارات، بل عثرنا ووجدنا وقرأْنا عبارات أخرى لا تُعطي ولا تكشف عن المعنى المطلوب.

وعلى سبيل المثال والتمثيل أو الإلماح والتلميح: استخدم شريعتي في وصف طبقةٍ من الناس لفظاً له رنينٌ خاص وجرس مُؤنِس-خصوصاً أن اللغة العربية تعتمد على السّماع- ألا هو لفظ «الزعفرانيين».

أراد شريعتي أن يشير إلى ازدواجية المسلكيّة عند بعض الناس، فأشار إلى أنهم يحبّون ذواتهم، وأنهم «زعفرانيّون»، ولم يترجم المترجم كلمة «زعفراني»، التي تعني «الموقف الأصفر»، أي الرياء كما أثبتناه في المتن، أو بعبارة أسْطع وأوضْح: الخوف أو الطمع، الذي يوّلد «الرياء».

لفظ «الزعفرانيين» ورد في الجزء الثاني من هذا الكتاب، إلا أنني آثرت الإشارة إليه هنا، حتى لا أضطر إلى التعليق -على أقرانه وأمثاله من الألفاظ- في الجزء الثاني، وهو الجزء الحاشد بالمصطلحات والتي تزيد بأضعاف مضاعفة على هذا الجزء، والأخطاء فيه، أيضاً، أشد وأعمق وأخطر. ولكننا سنكتفي بهذا المقدار.

مُسْتصفَى:

إن الترجمة غير الدقيقة لا تنتقص من «المُترجِم» وحده، بل تمتد لتشمل صاحب «الفكر المُتَرجَم»، و«دار النشر»، وصاحب «الدار»، و«القارئ». ونحن هنا، أشرنا فقط إلى بعض النواقص في إطار «النقد»، لا «الانتقاد»، ومن أجل تسهيل «الاستيعاب» والتثمير والعمارة والحراثة داخل المنظومة الإفكارية لشريعتي، والتي نحترمها غاية الاحترام.

حاولنا بكل ما في وسعنا من جهدٍ واجتهاد أن نعيد صياغة الكتاب برمّته، لغوياً ونحوياً، وأن نعيد ضبط المصطلحات وأسماء الأماكن والأعلام، وأنا زعيم بأنه لم تسلم فقرة واحدة من مشْرَط إعادة التمَوْضع والتركيب، سائلين المولى عز وجل أن نكون قد وفّقنا لهذا الأمر، فهو سبحانه وليّ الأمر والتوفيق.

خالص شكرنا واحترامنا لجناب الأستاذ نصيري، على

تصدّيه لترجمة الكتابيْن الركيزييْن للدكتور شريعتي، ونعطف الشكر والتقدير والاحترام للأستاذ محمد حسين بزي، على جهوده الدؤوبة في نشر آثار المعلِّم الكبير رحمه الله تعالى. ولن تفوتني الإشارة إلى نقطة مهمّة تُعطي الأفضلية للمُترجِم علينا، ألا وهي اتقانه للغة الفارسية، التي لا أفقه منها حرفاً واحداً.

منذر آل فقيه

حاريص ـ جبل عامل

٢٠٠٨/٦/٢٣

مقدمة المترجم

«بسم الله الرحمن الرحيم»

حمداً لله على هدايته لدينه، وأفضل صلواته على خير خلقه الرسول الكريم محمد وآله الطاهرين وأصحابه المنتجبين.

عزيزي القاريء الكريم.. نلتقي اليوم مرة أخرى في رحاب الفكر الحديث والقلم المنير والكلمة الواعية، في رحاب كتابات المفكر الإسلامي الشهير الدكتور علي شريعتي حيث كنا قد أعطينا وعداً في الكتاب الذي ترجمناه من قبل وهو تاريخ الحضارة أن نقدم ترجمة لكتاب تاريخ الأديان. وهذا هو الجزء الأول بين يديك.

إن ما يهم الإنسان معرفته هي تلك المسائل والأمور التي يرتبط بها والتي يكون لها تأثير مباشر على حياته ومستقبله ومصيره، سواء أكانت تلك الأمور مادية أو معنوية، وحينما تكون الحياة مليئة بالأمور المادية والطبيعية التي تفاجئ الإنسان

بين الحين والآخر فإنه لا بد أن يحتاج إلى من ينقذه وينجيه من مفاجآت الطبيعة، هذا من جانب، ومن جانب آخر فإن الإنسان يسعى دائماً إلى فهم ومعرفة ما يدور حوله وما يدور في ذاته وكيانه، وما هي القوة التي تسيِّر وتحرّك هذا الوجود وهذا الكيان. فهو يسعى لمعرفة ذلك الشيء الغامض الذي لا يلمسه بيده ولا تدركه حواسّه ولكنه يشكّل الركن الأساسي في حياته ووجوده ومصيره، فهو يريد أن يعرف هذه الروح التي تتحرّك بين جنبيه، ما هي طبيعتها؟ ومن أين جاءت؟ وإلى أين ستنتهي؟

هذا السؤال ظلّ يراود الإنسان منذ القدم ولا يزال، لأن الإنسان وإن طغت عليه الماديات، فهو يعتقد أيضاً بوجود قوى غامضة لا يمكن رؤيتها تسيّر هذا العالم وتحرّك هذا البدن.

إن ارتباط الإنسان بالأديان وإيمانه بها جعله يؤمن بحقيقة وجود هذه الأشياء الغيبية ويعتقد بها، أما أولئك الذين لا يرتبطون بالدين ولا يعتقدون بما وراء الطبيعة، يظلّون أيضاً في حيرة مع أنفسهم حول تفسير ما يحدث وما هو موجود خارج نطاق الرؤيا وإدراك الحواس، تبقى مسألة الأمور الغيبية وخاصة الروح لغزاً بالنسبة لهم يصعب حلّه والإيمان به بطريقة الأديان والتسليم للأمر الواقع لأن هذا يتطلّب منهم الاعتراف بالدين وبالمرسَل والرسالات ومن ثم بوجود خالق لهذا الكون، وليس المادة والطبيعة.

فالفلسفة المادية وكما هو معروف عنها مبنية على إنكار كل شيء ما وراء الطبيعة وهي فلسفة قديمة جداً، حيث إن الذين عارضوا الأنبياء والأديان وشككوا في ما وراء الوجود هم الأساس في تكوين الفلسفات المادية فيما بعد.

فالإنسان عندهم يموت وينتهي فلا معاد ولا جنّة ولا نار.. ولكنهم يجب أن يقدموا تفسيراً لهذه الأمور غير المادية التي يشعر بها الإنسان ويرتبط بها ارتباطاً مصيرياً...

فما هي الروح؟ وكيف يفسرون وجودها ومصيرها؟

حاول الفلاسفة الماديون الخروج من هذا المأزق فقالوا: (إن سلسلة الأعصاب تؤدي إلى الإدراكات، إلى العضو المركزي، وهو الجزء الدماغي على التوالي، وفي نهاية السرعة. ففي مجموعة ممتدة ذات وضع واحد لا يتميّز أجزاءها ولا يدرك بطلان بعضها وقيام الآخر مقامه، وهذا الواحد المتحصّل هو نفسنا والتي تعطّل بالموت وتنتهي.

فيرون أن مجموعة حركة هذه الأعصاب وتفاعلاتها هي النفس، وبموت هذه الحركات المادية تموت النفس وتنتهي.

وهذا مطابق للتفسير الذي يقدمه بودا لأحد تلامذته حينما يسأله عن وجود الروح وأين هي؟ فيشبه بودا البدن بالعربة ويسأل تلميذه (أنانادا) ويقول له:

هل إن الحصان هو العربة؟ فيقول التلميذ كلا.

فيقول بودا: هل إن العجلات هي العربة؟ فيقول التلميذ كلا.

فيسأل بودا: هل إن الصندوق هو العربة؟ فيجيب التلميذ: كلا.

فيقول بودا.. إن هذه كلها مجتمعة تشكّل العربة.

وهكذا البدن مجتمعاً كله يشكّل نفس الإنسان، وروحه هي القوة المحركة، فإذا تلف البدن انتهى دور الروح فيه.

عزيزي القارىء ـ إن سعي الإنسان لمعرفة هذه الأمور المهمة وتقديم التفسيرات اللازمة لها من جانب، ومن جانب آخر شعوره بوجود أمور غيبية ما وراء المادة تحرّك المادة هي التي دفعته إلى أن يبحث عن الوسيلة التي تربطه بها.

فالأديان السماوية ربطت هذا الإنسان ووجهته الوجه المطلوب والطريق الصحيح لفهم هذه الأمور وإدراكها والعمل في سبيل الوصول إلى الحياة الأفضل، الحياة التي تمثل بالنسبة له الهدف المطلوب الذي يسعى من أجل تحقيقه ليسعد في ذلك العالم.

أما ابتعاد الإنسان عن الدين وعن الأنبياء جعله يتخبّط

بأمور أملاها عليه مشعوذو وسحرة العصور ورجال دين السلاطين والملوك، فصار السحر والشعوذة وخدمة الحاكم وطاعة رجل الدين، هي الدين والخروج على هذه الأمور خروجاً على الواقع الديني وعلى الآلهة، وهذا يسبب غضب الآلهة وجلب الشر والخراب.

إن الأستاذ الشهيد في هذا الكتاب القيّم الذي جاء بصورة محاضرات ألقاها على طلابه يبحث فيه هذه الحقائق جميعها، ويبحث هذه المعتقدات ولكن على أسس فلسفية ومنطقية، ثم يوضح علاقة الدين بالإنسان بالتاريخ، وكيف بدأ صراع الإنسان خلال التاريخ مع الطبيعة، وما هو دور الدين في هذا الصراع.

يرى المؤلف أن الصراع يحتاج إلى المنطق والعقل في معرفة الدين، فلا يمكن للإنسان أن يشخّص الحقيقة بدون العقل الذي يهديه إلى الطريق القويم ـ فاختيارنا للدين يجب أن يكون مبنياً على معارفنا العقلية وليس على الخرافات والوهم والقصص والأساطير الوهمية، ثم إن هذه المعرفة العقلية في نظره لا تكفي لأن يكون الارتباط ارتباطاً محكماً بين الإنسان وبين ما يعتقد به، فلا بد أن تكون هناك إشراقات روحية وعرفان قلبي وإحساس ذاتي عند الإنسان، لتقوي علاقته ورابطته مع ذلك المعتقد، فهو لا ينكر دور المعرفة الروحية والإشراقية في بلورة الأفكار العقلية ومنحها الثبات والثقة العالية في الالتزام

بما آمن به العقل البشري، فهو يرى أن المعرفة، تعني العشق، والمعرفة الخالية من العشق معرفة جافة وجامدة، ولو كان قابيل يحمل هذا العشق وهذه المحبة لما أقدم على قتل أخيه هابيل، الذي عرف أن الدين يعني العشق والمحبة.

فالإنسان الذي يعرف الدين، ويحمل معه العشق والمحبة، فهو الإنسان المضحّي ومثله مثل الإله (بروسته) الذي سرق النار من إله السماء ليهديها إلى إنسان الأرض ليستضيء بها الناس، فكانت عاقبة بروسته من وراء هذا العمل الجبار، هو النفي والطرد من قبل الآلهة.

فالمؤلف في هذا الكتاب لا يستعرض لنا تاريخ الدين الفلاني مثلاً وعدد الأنبياء والكتب، أي أنه لا يثبت حوادث وتواريخ الأديان، بل أن يقدم لنا تاريخ معرفة الدين وماذا تعني هذه المعرفة؟ وكيف تتم معرفة الدين؟ وكيف يتم اختياره؟ ولا نريد أن نطيل المقدمة عزيزي القاريء، لأن مطالعتك لهذا الكتاب هي التي ستوفر لك ما نريد قوله وتعطيك الإجابة التي تتوخاها لمعرفة ماذا يريد أن يقوله المؤلف عن الدين وعن الإنسان.

حسين عبد الأمير النصيري

١٧/ ٢/ ٢٠٠٣

الدرس الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

قبل كل شيء أتقدم بالشكر لمؤسسة الإرشاد، ولو أني لم أتعود على هذا الأمر لأن الشكر أصبح كثيراً في وطننا، وحتى في المناسبات التي لا يحتاج فيها الإنسان إلى تقديم الشكر نراه يقدم هذا الشكر في الأماكن التي يخشاها، أما تقديم شكري فيأتي من باب أنهم قبلوا أن يبدلوا برنامجاً خطابياً إلى موضوع درس، وأنا أعتقد أيضاً أنه لا يمكن لأي شخصية أن تقدِّم خدمةً للآخرين عن طريق الخطابة. بمعنى أنني لا أعتقد شخصياً بهذا الأمر، وكذلك المستمعون أيضاً، وإذا كان بالإمكان أن أقدّم شيئاً فهو هذا الدرس الذي أقدّمه وذلك ضمن إمكانياتي المحدودة.

وأنا هنا على خلاف المتعارف، فأنا أتصوّر نفسي مثل السمكة الحرة التي تعيش في الماء، أستطيع أن أفكر بحرية وأن أقول ما أريد، وإذا كانت هناك فرصة، كما هو الحال خلال

دروسي، وضمن إطار الدرس والبحث، وبالنسبة للأسئلة المطروحة من قبل الطلاب، فأنا سوف أجيب عليها لأن قيمة الدرس تكمن في هذه الأسئلة، ولكن هذه الفرصة للأسف غير متوفِّرة لأن العدد الموجود أكثر من قابلية استيعاب الصف لهم، لذلك فإن مسألة طرح الأسئلة والجواب عليها مسألة غير عملية خلال الدرس، لذا أرجو من الأخوة والأخوات أن يدوّنوا أسئلتهم على ورقة ويسلّموها إلى الأخوة، وبعد استراحة قصيرة سوف أجيب عليها.

وهناك مسألة أخرى وهي، أرجو من جميع الأخوة والأخوات أن يواظبوا على الحضور في جميع الدروس حتى يستفيدوا من هذه الدورة، لأن فرق الدرس عن الخطابة هو أن الدرس الواحد غير مستقل بنفسه فلا يستطيع الفرد أن يعطي رأيه خلال جلسة واحدة، لأن رأيه سوف يكون ناقصاً، وإذا حضر الشخص جلسة واحدة أو جلستين فإنه يستطيع أن يعطي رأيه في هذين الدرسين فقط وسوف تكون وجهة نظره غير متكاملة ومتناقضة أيضاً، لهذا نحن سوف نطرح المقدمات والأصول في الجلسة الأولى، وفي الجلسة الثانية سوف نستعرض الوجوه المختلفة لنظرية أو لنظريات تخالف تلك المقدمات والأصول، وفي الجلسات التي تليها سوف نصل إلى النتيجة والغاية العلمية النهائية.

وإذا حضر أحدٌ بعضَ هذه الجلسات ولم يحضر البقية فإن وجهة نظره العلمية ورأيه سوف يكونان مورد إشكال، وهذا الرأي أو وجهة النظر، هي من صفات عوام الناس أو أولئك الذين يخدعون عوام الناس.

أما الأمر الثاني وهو طريقة تدريسي كمعلم: فمثلاً، هناك أحد السادة العلماء يقول: إذا كان هناك مرشد وواعظ ناشيء مثلاً، يريد أن يتحدث عن أصول الإسلام فإنه يقول: إن أصول الإسلام ثمانية وعشرون أصلاً، وبعد أن يبدأ حديثه وحينما يذكر منها سبعة وعشرين أصلاً وينسى واحداً منها فسوف يصبح في حيرة من أمره. أما الخطيب الجيد فهو الذي يقول إن أصول الإسلام ثابتة وحتى لو ذكر منها أربعة فهو موفّق في خطابه. إن البعض أذكياء واقعاً فهم حينما يريدون طرح نظريةٍ أو دينٍ ما، فإنهم يطرحونه بطريقة سلِسة وبسيطة حتى يتمكّنوا من الرد عليه، أو أنهم منذ البداية حينما يطرحون نظريةً أو فكراً يخالفونه فإنهم يطرحونه على أنه فكر ضعيف ومغلوط ومُدان من قِبل الآخرين، وذلك حتى يتمكّنوا من الرد عليه بسهولة، ومن ثم يطرحون النظرية أو الفكرة التي يؤمنون بها، وهنا يكونون موفّقين في طرحهم بذكائهم وبلباقتهم، ولكن هذه الموفقية إنما تكون من الناحية العامة، ومن ناحية التبليغ، ولكن هذا الأمر ليس صحيحاً من الناحية العلمية.

إن الإنسان المُنصف والمستقيم حتى لو كان يعتقد بدين أو فكر معين، فإن عليه في مرحلة المعرفة والتحقيق أن يطرح الفكر الآخر المُخالف لاعتقاده بصورة دقيقة وسليمة وكأن فكره أو دينه لم يكن معارضاً لذلك الفكر المُخالف، فعليه أن يطرح المسألة بصورة علمية وتحليلية مجرّدة عن التعصّب.

وطبيعة الجدال سوف تُبرز مشكلة في عمله، ولكن هذه المشكلة لو تغلّب عليها بواسطة هذا الطرح وذلك الأسلوب فإنه يستطيع أن يثبت أحقّية دينه وعقيدته وهذا الإثبات سوف يبقى في ذهن الحقيقة والمنطق، ولكن إذا طرح العقائد المخالفة له والأفكار الأخرى بطريقة العناد والتحريف والمسخ والتوهين فإنه ببساطة يمكنه أن يثبت رأيه، إلا أن الناس الذين يستمعون إليه لن يكونوا مسلّمين بالأسلوب العلمي، وسوف يُطرح هذا الأمر بصورة مقالة تُقرأ بعد يوم، ومن ثم سوف يعرفون أن هذه المسألة قد طُرحت بصورة متناقضة وخاطئة وخاضعة للتعصب المذهبي، وفي النهاية وببساطة فإن القاريء سوف يرجع عن تلك المقالة وسوف يصبح تابعاً لذلك المذهب ولتلك العقيدة التي تمّ نقدها من قبل.

وكما أن توجُّه وقراءة العلماء الأوروبيين المُنصفين في القرون الجديدة، للإسلام، يُعتبر عكس التوجّه الذي قدّمه الروحانيون المغرضون في القرون الوسطى عن الإسلام، إلا

أنني لستُ بهذا المستوى من الطرح، لأنني شخصياً حينما أطرح نظرية معيّنة وحتى لو أنني كنت مخالفاً لهذه النظرية من الناحية العلمية أو الاعتقادية، فإنني أطرحها بشكل يوحي للمستمعين أنني لم أكن مخالفاً لها، وأيضاً أجعل المستمع يشعر بأنه لو كان هناك شخص آخر يتّفق مع هذه النظرية فإنه سوف يطرحها بنفس الطرح الذي طرحته، وحينما أريد نقد تلك النظرية فإن نقدي لها سيكون مبنياً على الضوابط والموازين العلمية وطبق البحوث والأدلة العلمية المعتبرة، وليس على أساس التعصب والمصلحة وحُسن استقبال المستمعين، ومن ثم إذا كان هناك اعتماد على نظرية معينة، فإن هذا الاعتماد والاستناد يجب أن تتوفر فيه القيمة العلمية وجانب التحقيق.

لقد كنت ألقي محاضراتي في مشهد في السنين الماضية وكان هذا الدرس نفسه وهو تاريخ الأديان، وكان لكل دين من الأديان درس معيّن، وكان المستمعون يحضرون للاستماع، فكانوا يأتون في جلسة ولا يأتون في الجلسة التي تليها، وكان رأيهم بي يتشكّل من خلال تلك الجلسة التي حضروها، فكنت في الجلسة الأولى «بودائي»[1] الفكر، وفي الأسبوع الأخير من

(١) بودائي: نسبةً إلى بوذا (٥٥٨ ق.م. - ٤٨٣ ق.م.) واسمه الأصلي «سيذهارتا غوتاما» (صاحب الهدف المحقَّق). ولد في إقليم ساكيا «جنوب النيبال». توفيت أمّه «مايا» وهو في السابعة من عمره، فربّته عمّته. تزوّج في السادسة عشرة من عمره إحدى قريباته، وترك البيت =

الشهر التالي «ودائي»[١]، وفي الأسبوع الأول من الشهر الثالث

= الزوجي في التاسعة والعشرين ليعيش اختباراتٍ روحيّة ويعلن عقيدته، ومات وهو في الثمانين من عمره. لكنّ كتّاب سيرة حياته أضافوا إليها بعض الأمور الملحميّة الأسطوريّة كي تكون حياته قدوة، ويمنحوا مؤسّس ديانتهم صفة قدسيّة إلهيّة. وتظهر هذه الملامح في الفنّ البوذيّ والعبادات والطقوس.

وُلد بوذا في الأبهة والفخامة، ولكنه كان في غاية التعاسة. فقد لاحظ أن أكثر الناس فقراء، وأن الأغنياء أشقياء أيضاً، وأن الناس جميعاً ضحايا المرض والموت بعد ذلك. وقد فكر بوذا كثيراً، واهتدى إلى أنه لا بد أن يكون في هذه الحياة العابرة شيء أبقى وأنقى من كل ذلك.

البوذيّة هي الديانة الوحيدة الّتي لا يعلن مؤسّسها أنّه إله أو حتّى رسول الله أو نبيّه، بل يعلن أنّه البوذا (الساهر أو اليقظ) الّذي يعلّم البشر طريقة خلاصهم، ولكنّ أتباعه حوّلوا تعاليمه إلى مباديء دينيّة وألّهوه.

وتتمحور العقيدة البوذية حول ٣ أمور (الجواهر الثلاث): أولها، الإيمان ببوذا كمعلّم مستنير للعقيدة البوذية، ثانيها، الإيمان بـ «دهارما»، وهي تعاليم بوذا وتسمّى هذه التعاليم بالحقيقة، ثالثها وآخرها، المجتمع البوذي.

وتعني كلمة بوذا بلغة بالي الهندية القديمة، «الرجل المتيقّظ» (وتترجم أحيانا بكلمة المستنير). وتجدر الإشارة إلى أن اللفظ الأصلي لمؤسس الديانة البوذية (بوذا) هو «بودا»، بالدّال، وليس بالذال.

(١) ودائي: نسبةً إلى دين «ودا».. من أعرق الأديان الموجودة دين البرهميّة أو دين (Veda) الذي له أصول ترجع إلى ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة أي من زمن دخول الأوروبيين القادمين من خراسان إلى تلك المناطق قبل ثلاثة أو أربعة آلاف سنة. ويعتبر الهندوسيون عمر ديانتهم خمسة آلاف سنة بل ويعدونها الشريعة الأبديّة (Santana Dharma). قامت ديانتهم في الأساس على التوحيد ولهم كتابهم المقدّس ودا (Veda) أي بمعنى العلم والمقصود العلم الإلهي. وقد صاغه شخص روحاني يدعى وياسا =

«لاوتسائي»[١] الفكر، وفي الأسبوع الأخير كانوا يقولون هذا من أتباع كونفوشيوس[٢]، وفي الأسبوع الآخر يقولون مسلم ووو. . . .

صحيح أن هذا النوع من الحكم لم يكن مهماً، ولكن أيضاً هو غير صحيح حتى لدى الشخص نفسه الذي أصدر هذا

= أو واياسا (Vyasa) منذ ثلاثة آلاف سنة. يحتوي الكتاب على أربعة أقسام متناولاً فيها العبادات والأدعية والمناجاة والأحكام الدينيّة المذهبيّة والتعاليم الأخلاقيّة. وأسماء الكتب الأربعة أو بالأحرى الأسفار الأربعة لـ«ودا» عبارة عن: (الريجافيدا Rig-Veda)، (السامافيدا Sama-Veda)، (الياجورافيدا Yajur-Veda)، (الاثرافافيدا Athrava-Veda). وقد أضيفت إلى الكتاب بعد ذلك ما يعادل الفصول أو الأسفار الأربعة من تفاسير البرهميين أو علماء الدين وسمي باسم برهمانا (Brahmana).. وسيتعرّض الدكتور شريعتي إلى دين «ودا» و«الودائية» بتفصيل دقيق في الصفحات اللاحقة.

(١) لاوتسائي: نسبةً إلى (لاوتسي لاونزو) «٦٠٤- ٥٣١ق.م»، فيلسوف صيني. يُعتبر عادةً مؤسِّس الطاويّة. وليس يُعرف على وجه اليقين غير النزر القليل عن حياته. ويُقال إن كونفوشيوس وكان بعدُ شاباً، قد وفد عليه وإنه أُعجب به وشبّهه بتنّين يمتطي متن الرياح والسحب.
من أقواله: «الكلمات الصادقة ليست جميلة، والكلمات الجميلة ليست دائماً صادقة».

(٢) كونفوشيوس: اسمه (كونج فو تزو) (٥٥٠-٤٧٩ ق.م)، هو أول فيلسوف صيني يفلح في إقامة مذهب يتضمن كل التقاليد الصينية عن السلوك الإجتماعي والأخلاقي. ففلسفته قائمة على القيم الأخلاقية الشخصية وعلى أن تكون هناك حكومة تخدم الشعب تطبيقاً لمثل أخلاقي أعلى. وقد ظلت هذه الأفكار تتحكم في سلوك الناس أكثر من ألف عام. ويُلقّب بنبيّ الصين.

الحكم، ولم يكن قانعاً به. لهذا يجب أن تُطرح جميع المسائل وأن يتم تجميع المعاني ثم تؤخذ النتيجة الغائية والنهائية، فإن الدرس سوف ينتهي وسوف تنتهي هذه الدورة، عندها يمكن أن نكون مطمئنين أن جميع النظريات والأفكار قد طُرحت في هذه الدورة ويمكن أن نقول إن تلك الأمور التي طُرحت في هذا الصف قد طُرحت بأسلوب علمي جامعي بعيد عن التعصّب المذهبي.

سيقولون أيضاً حينما تُبحث مسألة الأديان في مؤسسة الإرشاد(١) أن النتيجة سوف تكون معلومة(٢)، وسيقولون عن هذا البحث أنه لم يكن بحثاً علمياً ومحايداً، صحيح، ولكن إذا كان البحث بحثاً علمياً محايداً فعلينا أن نقبل نتائجه، وكما أنني أعارض التلاعب بالأفكار فإنني أعارض أيضاً مسألة عدم الإنصاف التي يتبناها بعض العلماء اليوم. وإن هناك طريقاً ثالثاً غير طريق المصلحة وطريق عدم الإنصاف، وهو مسألة الالتزام الفكري والذي نحن بحاجة إليه. ومن الممكن أن يُطرح هنا

---

(١) مؤسسة الإرشاد: مؤسسة تابعة لحسينية الإرشاد في طهران وهي التي تقام فيها المسابقات القرآنية الدولية في كل عام (المترجم).

(٢) بعد عودته من فرنسا، أسّس الدكتور شريعتي عام ١٩٦٩م حسينية الإرشاد لتربية الشباب، وعند إغلاقها عام ١٩٧٣م اعتُقل هو ووالده لمدة عام ونصف، خرج بعدها ليجد جميع سُبُل الحياة مسدودة أمامه في طهران، فسافر إلى لندن، فلم يبقَ شهراً واحداً فيها حتى اغتيل عام ١٩٧٧م في ظروف غامضة.

سؤال وهو: أنه في هذه الدورة وفي هذا الوقت وفي هذا المجتمع الذي نعيش فيه، ومع هذه المشكلات التي نعاني منها كشرقيين أو كمجتمع إسلامي أو بعنوان إنسانٍ يعيش في القرن العشرين، ما هي الفائدة المرجوّة من طرح مسألة العقيدة أو تاريخ الدين أو علم الاجتماع المذهبي؟

فهل أن مطالعة تاريخ المذهب أو الدين والذي يُعتبر بداية لعملي هنا، هو مسألة مهمة ومورد احتياج هذا الجيل، أو أن هذا العمل هو نوع علمي حقيقي يمكن بحثه في الجامعة وفي التجمعات العامة حيث إن هذه المسألة لم تكن تجذب إليها الأذهان، ولأن الدين أصبح اليوم بهذا الشكل وبهذه الصورة حيث إن المتدينين يكتفون بما لديهم من معلومات ويعملون بما يعتقدون، وغير المتدينين صاروا يبحثون عن الأهداف والغايات وهم مشغولون بالحياة ومعاناتها، لذا ما هي الفائدة من طرح مسألة الدين بهذا الشكل وفي هذا الوقت؟

وعلى خلاف هذا التصور وهذا السؤال المطروح، فإن مسألة طرح الدين وبهذه السرعة له أهميتان، أو دليلان، وهما:

الدليل الأول: وهو أننا نحن المثقفون أو الجامعيون في هذا المجتمع لم نكن أناساً معزولين عن الآخرين، وأكبر خطأ يرتكبه المثقفون هو حين يرون أنفسهم أنهم مجموعة مجرّدة ومعزولة عن المجتمع، وهذه النظرة قد طُرحت في الفلسفة العلمية

والاشتراكية العلمية في القرن التاسع عشر والتي تقول إن المثقفين والدارسين وبالنظر لمطالعاتهم الكثيرة وبحثهم المعمّق أصبحت لديهم حالة من الشعور بالحساسية العلمية أو الأدبية أو الدينية أو الفلسفية، وهذا ما دفعهم أن يكونوا بعيدين عن الناس وعن مجتمعهم الفارغ، وأن يشعروا بأنهم مجموعة معزولة عن المجتمع.

هذا هو خطأ ومرض المثقفين في العالم اليوم، ونحن بأي طريقةٍ فكّرنا أو بأي طريق آمنّا من الناحية الدينية أو الفلسفية، أو بأي فكرٍ اعتقدنا، فإننا جميعاً نشترك في أمر واحد ألا وهو انتماؤنا لهذا المجتمع، بمعنى أننا أعضاء مرتبطون بمجتمع واحد، وهذا المجتمع هو هذا المجتمع الذي نراه والذي يعيش على هذه الأرض وفي هذه المنطقة وفي هذه الزاوية من العالم وفي هذا الطابور من طوابير العالم والذي يتمتع بعينيّة واضحة. وعلى أي شكل كان هذا المجتمع! وبأي إحساس ورابطة وخاصيةٍ كان يتّصف! ومع أي نوع من الآلام والمعاناة يعيش! نحن المثقفون كيفما كنّا وأي فكرٍ اتّبعنا فنحن جزء لا يتجزأ من هذا المجتمع. وإن هذا المجتمع هو مجتمع عقائدي، ولا يمكن الشك في هذا من الناحية العلمية، لأن مجتمعنا هو مجتمع عقائدي، وتاريخنا أيضاً هو تاريخ عقائدي.

وهذا يعني أننا لو نظرنا إلى تاريخ إيران لوجدنا أنه ومنذ ما

يقارب أربعة عشر قرناً من القرون الإسلامية أصبح واقعاً تحت تأثير المسائل الدينية، وبهذا الشكل تكوّنت هويته وبناؤه، وكذلك فإن ثقافتنا هي أيضاً ثقافة دينية ولم تكن ثقافة يونانية أو رومانية، فلا يمكن القول عنها أنها ثقافة غير دينية أو أنها ثقافة قومية، لا بل إنها ثقافة دينية. وإذا تعدّينا هذا، فإن مجتمعنا اليوم يمتلك روابطَ اجتماعية وعادات وتقاليد، ومؤسسات ثقافية اجتماعية دينية، وكذلك فإن وجدان وروح مجتمعنا اليوم، هو وجدان ديني مائة في المائة. لذلك فلا يمكن أن يضيّق المثقفون كل مجتمعنا حسب ما يقتضيه وجدانهم وذوقهم وما يشعرون هم به، وهذا هو أحد اشتباهات المثقفين. فنحن نعيش في مجتمع عقائدي واحد ونرتبط بتاريخ ديني واحد، ونعيش في جوٍ ثقافي مشترك وهو أيضاً جو ديني، وكذلك فإن ثقافتنا هي ثقافة دينية واحدة.

وإذا كان المثقفون عبارة عن مجموعة واعية وعالِمة، فعليهم أن يشعروا بمسؤولية هداية وتعليم المجتمع الذي يعيشون فيه، وعليهم أن يفكّروا وبأي وسيلة كانت أن يجدوا جسراً ورابطاً جيداً بينهم وبين مجتمعهم، وأن هذا الرابط وهذا الجسر هو الدين الذي يجب أن يعتمدوا عليه، ويجب أن يعلموا أن معرفة الدين والتحليل العلمي والدقيق له، هي أساس الأمور التي يعتمد عليها المثقف في بناء روح المجتمع الذي يعيش فيه. هذه هي النقطة الأولى أو الدليل الأول.

أما المسألة الثانية: وهي أننا نحن المثقفون لنا بُعد وارتباط آخر، وهو ارتباطنا الروحي والفكري مع المثقفين الآخرين في العالم. ففي الوقت الذي نتغذّى فيه من مجتمعنا وتاريخنا وحياة أمّتنا الاجتماعية، فإننا واقعون أيضاً تحت تأثير الفكر والنظريات العالمية.

ونحن بعنوان أننا مجتمعات شرقية حينما نتكلم عن الصناعة أو عن التكنوقراطية(١) أو عن البيروقراطية(٢) أو عن أصحاب

---

(١) التكنوقراطية :Technocracy: الكلمة ذات أصل يوناني. وقد انتشر استعمالها بسبب التأثير الحاسم للتقنيات، أي للمناهج الصناعية في العالم الحديث وتُستعمل الكلمة لوصف السلطة التي يستحوذ عليها التقنيّون في المُجتمع الصناعي عندما يتحوّلون إلى تكنوقراط. والتكنوقراطي هو الشخص الذي يستند إلى كفاءته التقنية في ميدان من الميادين من أجل مدّ نفوذه وسلطته إلى ميادين اجتماعية أخرى تخرج عن اختصاصه. وبما أن مُعظم المُعضلات التي تُواجه المجتمع الحديث، ومنها المُعضلات الخاصة بالتنظيم الاجتماعي وبتخطيط التطور الاجتماعي لا تجد حلاً لها بدون اللجوء إلى التقنيات، فإن خطر استحواذ أشخاص يملكون كفاءة تقنية وينظرون إلى المصلحة العامة من زاوية كفاءتهم المُحدّدة، إن خطر استحواذ مثل هؤلاء على إدارة المجتمع كلّه يبقى خطراً ماثلاً. صحيح أن إدارة المجتمع مسؤولية سياسية، لكن التعقيد الذي أصاب الحياة الاجتماعية في المجتمع الحديث جعل السياسيين يعجزون في أحيان كثيرة عن التحكم في الآلية المعقدة لهذا المجتمع، لذلك كثيراً ما يلجأ السياسيون إلى إيكال مهمة إدارة المجتمع إلى التقنيين الذين يتحولون عند ذلك إلى «تكنوقراط».

(٢) البيروقراطية: يُعتبر max weber و Bernardو Herbert Simon من مؤسّسي المدرسة الاجتماعية في الإدارة ويُعتبر «فيبر» وهو عالم اجتماع من=

رؤوس الأموال وعن التنافس في الصناعات هناك، فلا نتكلم عنها بعنوان أننا مُجبَرون على التحدّث عنها لأننا واقعون تحت تأثير وضغط التكنوقراطية والفاشية أو أمثالها، ولكننا عندما نتحدّث عن هذه الأمور فإننا نتحدث عنها بعنوان أننا نعيش معها في قرن واحدٍ، ولغةٍ واحدة، وروابط عالمية مشتركة واحدة، حيث إن جميع المسائل العالمية تُطرح وتناقش من خلال هذه الروابط المشتركة، ولأننا نعيش في هذا القرن فلا يمكن أن نغضّ طرفنا عمّا يدور فيه من مسائل مهمة.

ومن الأمور المهمة لمعرفة إنسان الحاضر أو إنسان اليوم هو بحث الدين وطرحه عن طريق الاجتماع أو السياسة، أو عن الطريق الفلسفي والعلمي والفكري، لأن الدين قد أخذ مكانه مرة أخرى عند الإنسان الجديد وخاصةً بعد الحرب العالمية الثانية.. ولكن كيف تمّ طرحه؟

هل هذا يمثّل رجوعاً لإحساس ديني سابق؟ لا، إنها ليست

= أشهر روّاد الإدارة في بلورة مفهوم البيروقراطية. وكلمة بيروقراطيه Bureaucracy مكوّنة من مقطعين الأول Bureau وهي تعني مكتب، والثاني Cracy وهي مشتقة من الأصل الإغريقي Kratia ومعناها The Strong أي القوة، والكلمة في مجموعها تعني قوة المكتب أو سلطه المكتب. وقد استُخدمت كلمة البيروقراطيه للدلالة على الرجال الذين يجلسون خلف المكاتب الحكومية ويمسكون بأيديهم بالسلطة، ولكن هذا المفهوم توسّع ليشمل المؤسسات غير الحكومية، كالمدارس والمستشفيات والمصانع والشركات وغيرها.

حالة ارتجاعية، ولكنها تمثّل حالة تكامل الإنسان، لأن إنسان اليوم لا يريد أن يعود ويرجع إلى القرون الوسطى وإلى الدين اليوناني والروماني القديمَيْن، وأن يرتبط بديانات وعقائد غير علمية، فرجوعه ليس رجوعاً للعقائد القديمة، بل رجوعه إنما هو إلى نفس الدين بما هو دين، فهو ومن خلال تكامله العلمي يشعر أنه بحاجة إلى أمرٍ ما وراء العلم والمادة، وهذا الأمر أمر معنوي، وهذا النوع يسمّيه الإنسان اليوم «الدين» وهو ما يبحث عنه، فإن إنسان اليوم يبحث عن هكذا إيمان ودين، حيث يشعر أنه قد فقده في حياته الجديدة وبدأ يشعر بفقدانه وضياعه. ونحن اليوم بعنوان أننا أتباع أكبر دين وآخر دين في التاريخ، علينا أن نساعد المثقفين والمفكرين في سعيهم وبحثهم لأجل إيجاد عقيدة إيمانية بما وراء العلم، ولكن يجب أن تكون عقيدة منطقية ومعقولة، حتى نكون قد ساعدنا العالم والبشرية في إيجاد هذا الأمر.

ولكن يجب علينا أولاً أن نعرف أنفسنا وثقافتنا معرفة صحيحة ودقيقة، وليست تلك المعرفة المنزوية والمنحطّة الموجودة عندنا الآن، بل يجب أن يكون فكرنا فكراً واضحاً ونيّراً، وحتى نوفّق في هذا العمل، علينا أن نتّبع طريقاً دقيقاً وعلمياً وليس طريق المؤتمرات والإعلانات، بل طريق المحاضرات والدروس البسيطة، وأن تكون دروسنا هذه نابعة من الصميم والواقع، وأن لا يعلوها الهَوَس والضجيج، ولا

تعتمد على التظاهر والعواطف السريعة الزوال، أو على التكرار والتلقين وعواطف العوام، بل يجب أن تكون مبنية على الدقّة والتريّث والصبر والسير خطوة خطوة، كما يفعل المحقق والطالب المبتدئ، حينها نكون قد أنهينا مرحلة علمية، ومهدّنا لأرضيةٍ عامة وجيّدة.

عندها، ستكونون أنتم روّاداً لثورة ثقافية، تمدّونها بروح ثقافية ومعرفة ذاتية إسلامية جديدة، تحلّ وسط هذا المجتمع المتحجّر ووسط الفراغ الموجود في هذا القرن، وستكونون أنتم عنوان طلائع هذا القرن والمثقفين الواعين المرتبطين بهذا المجتمع.

وعلى أيّة حال، فإن هذا العمل يُعتبر خطوة صغيرة في هذا الطريق الطويل، ولكن يجب أن توضع هذه الخطوة الصغيرة في مكانها المناسب، وإن من مستلزمات هذا العمل: الصبر، وتحمّل المشاق، والعمل الصحيح.. وعلى هذه الصورة نستطيع أن نتحمّل الدرس الشاقّ الذي سيحل مكان الخطابة المهيّجة والمملّة، وإذا كان تحريك العواطف مهماً فيجب أن نكفّ عن تكراره ولا نعيده ويجب أن نهتم بالمعرفة، ولو كان الإيمان وحده يكفي لحصول المعرفة لوجدنا أن هؤلاء الخمسمائة مليون مؤمن ومسلم كلهم عارفون، ولكن الإيمان حينما يحقّق المعجزة فهذا إنما يكون بعد تحقّق المعرفة والاطّلاع.

كانت برجوازية[1] ولم تكن عِلماً:

إن المسألة التي نطرحها الآن، هي مسألة خسارة إنسان اليوم، وكذلك خسارة جميع الأفكار المهيّجة له. ففي القرون الوسطى، كان عامة الناس يعيشون كما هو الحال اليوم. فالعادات والتقاليد الأخلاقية مثل احترام الكبار، واحترام القادة، واحترام الشخصيات الأدبية والدينية، وكذلك احترام المراسم والمناسبات الدينية المختلفة، كل هذه الأمور كانت أموراً محترمة ولها قيمة أخلاقية، وكان الدين يمثّل المسائل والأمور المطلقة والحقائق البديهية، وكانت له الحاكمية المطلقة على الناس. فكانت هذه الأمور في أي مجتمع من المجتمعات تعتبر هي الأصول الدينية المهمة، ولا يوجد شيء سواها، وكانت تُطرح بعنوان أنها حقائق سماوية متعالية لا يصل إليها الشك، وكانت مورد قبول جميع مَن عاشوا في ذلك

---

(١) البرجوازية: هي الطبقة المسيطرة والحاكمة في المجتمع الرأسمالي، وهي طبقة غير منتجة لكنها تعيش من فائض قيمة عمل العمّال، حيث إن البرجوازيين هم الطبقة المسيطرة على وسائل الإنتاج، ويقسِّمهم «لينين» إلى فئات حيث يشمل وصف البرجوازيين بالعديد من الفئات تنتهي بالبرجوازي الصغير، وهم المقاولون الصغار وأصحاب الورَش الصغيرة. على الرغم من عيوب البرجوازية، إلا أنها ساعدت على تمويل الثورة الفرنسية حتى تمَّ لها النصر.
سيتعرّض الدكتور شريعتي لنشأة البرجوازية وأبعادها وتأثيرها على المجتمع في الصفحات اللاحقة.

العصر، وهذه الروح المطمئنة والنظرة الإيمانية التي لا تقبل الشك هي التي أعطت الناس حياةً سعيدة ومطمئنة.

لقد عاش عامة الناس المتدينين في مجتمعنا، وكذلك في الغرب خلال القرون الوسطى، بدون أن تواجههم اضطرابات دينية، وهذا الأمر لم يكن خالياً من سبب، والسبب هو أن الدين حمل جميعَ العناوين والمسمّيات مثل العادات والتقاليد الاجتماعية والروابط الإنسانية والأخلاقية والعقائد، واستطاع بهذه الطريقة أن يحلّ جميع المشاكل التي يعاني منها أتباعه آنذاك، فقد كان تكليف الجميع واضحاً، والعالم كان أشبه بنجمة كبيرة، وهذه الدنيا الصغيرة المختصرة كانت مرتبطة بنافذةٍ وجسمٍ مغلق ومعلوم، ويتكوّن من أربعة عناصر: ففي الأسفل البشريّة، وفي الأعلى الإله والملائكة، وهناك أسرار وحقائق الوجود وهي موجودة في الدين وجميع المذاهب ترجع إليه وحده، وأما القديسون والروحانيون فهم المشرفون على أمور الخلق، وهم الرابطة بين الإله ومخلوقاته، ولا يوجد شيء وراء هذه الأمور الأربعة.

لقد كان أتباع أي دين من الأديان في القرون الوسطى ينظرون إلى الدنيا بأنها مرتبطة من الشمال بـ(ليسبون)[1]، ومن المشرق

(١) ليسبون: لشبونة أو «ليسباوا» باللغة البرتغالية، هي عاصمة البرتغال منذ عام ١٢٥٦، تضم العديد من الميادين والكاتدرائيات والمعالم التاريخية. تقع على ساحل المحيط الأطلسي.

بـ (جنوا)[١] و(فنيز)[٢] وهذه الدنيا كلها من جانب (فنيز) إلى هذا الجانب - أي جانب الشرق - كلها بلاد كافرة، ومن جانب (ليسبون) إلى الجانب الآخر من البحر كلها ظلمات، وإن السماء تشبه سقفَ حمام وهي عبارة عن قبّة مغلقة، وهناك إله موجود في الأعلى حيث إنه يكون مرةً روح القدس ومرة الآب ومرة الابن[٣]. هذا الإله يسكن في السماء وعنده خليفة في الأرض، فمن هو؟ البابا! (قديس للإنسانية وأب لأمة الإله!) وهو المتولّي والمشرف على الدين، وهو الذي يأتي بـ «الروح المقدسة» من السماء، روح الإله أو روح المسيح.

---

(١) جنوا: مدينة شمال غرب إيطاليا، ميناؤها هو الأهم في إيطاليا وهو أحد أكبر موانيء البحر الأبيض المتوسط وتقع على مقربة من الحدود الفرنسية. المركز التاريخي للمدينة أعدّته «اليونسكو» ضمن مواقع التراث العالمي. تم تأسيس مدينة «جنوا» في القرن السادس قبل الميلاد.

(٢) فنيز: «فينسيا» أو «فنيز - Venice» مدينة إيطالية تطل على البحر الأدرياتيكي، وتتمير ببنائها الفريد في العالم وهي عبارة عن عدة جزر متصلة ببعضها عن طريق الجسور وكل شوارعها أنهار ووسيلة النقل فيها هي القوارب. يُطلق عليها العرب اسم (مدينة البندقية).

(٣) الثالوث الأقدس: في المسيحية، الثالوث الأقدس هو عقيدة مسيحية تقول إن الله هو إله واحد - متواجد في نفس الوقت وإلى الأبد - في ثلاثة أقانيم: الآب (المصدر، صاحب العظمة الأبدية) والابن (الكلمة الأزلية، متجسّد بيسوع الناصري) والروح القدس (البارقليط أو روح الله الذي يثبّت المؤمنين).

منذ القرن الرابع، في الكنيستين المسيحيتين الشرقية والغربية، هذه العقيدة تنص على أن الله واحد في ثلاثة أقانيم.

هذه الروح تُدار بصورة دقيقة ومفصّلة من قبل مؤسسة، وهي تتولى مسائل الأمور الأخروية أيضاً، وهذه المؤسسة هي الكنيسة. البابا يتولى الأمور الدنيوية طبق سلسلة مراتب «الكرادلة»، وهؤلاء هم روحانيّو المناطق. وهؤلاء هم عمّال هذه الإدارة وحاملو الروح ويسمّون بالروحانيين. وهؤلاء الروحانيون يمنحون الروح إلى «الأجساد» يعني إلى عامة الناس.

وهنا تصبح فلسفة حياة الناس، والغاية من وجود الخلق وجِهة الحياة، واضحة جداً، ومعلومة أيضاً، وهي بعبارة واحدة: إن آدم ارتكب معصية في الجنة، وإن الناس بسبب هذه المعصية أصبحوا مورد غضب الإله، ودائماً مطرودين وبعيدين عن الجنة.

إذاً، فما هو هدف هذا الإنسان المحكوم بالذنب؟ طبعاً يكون التبرئة من الذنب. ما هو دور الدين؟ دور الدين هو التوسّل بهذه الروح، وبواسطة الروحانيين يمكن أن ترجع الرابطة والعلاقة المقطوعة بين الإنسان والجنّة. إن كلمة (Religion) تعني الدين، وهذه من أهل R E التي تعني «مرة أخرى» والكلمة اللاتينية (Leger) التي تعني «الاتصال».

إن أسرار جميع الموجودات، منذ بداية خلق الكون وآدم وحتى النهاية، موجودة في التوراة. أما أعمال وأخلاق وفلسفة

حياة الإنسان فإنها موجودة في الإنجيل، والوظائف والمسؤوليات أيضاً معلومة وواضحة، وإذا كانت جميع الأمور واضحة ومشخّصة مثل: الطاعة لكنيسة، واتّباع البابا، وإطاعة الروحانيين الرسميين في جميع المسائل الفلسفية والعلمية والاعتقادية والإنسانية والسياسية. وأيضاً غُسل التعميد، وتناول الشراب والخبز المبارك، والاشتراك في صلاة الجماعة أيام الأحد (مس Messe ـ صلاة الجماعة)، ووضوح العالم، والطريق المشخّص، والهدف المعلوم، والحياة السعيدة، والمستقبل المضمون، والنجاة في هذه الدنيا وتلك الآخرة، وإذا كان كل شيء واضحاً وثابتاً، فماذا تريد أيها الإنسان؟ إذا كنت تريد الموت فاذهب إلى المقابر! فإذاً، لا معنى للاضطراب.

في هذا النوع من الدنيا وهذا النوع من الحياة، لا معنى لكلمة ـ لا أعلم ـ ولا مكان لوجود الشكّ والإبهام والحيرة، ولا معنى أيضاً لأن يصبح عالمنا عالماً غريباً والإنسان وحيداً، ولا معنى للمصير المظلم والحياة المجهولة وتمرّد الروح والنظرة الفلسفية المتشائمة، ولا معنى لليأس الفكري وعدم وضوح الرؤية.

لا يوجد هناك فراغ، ولا توجد زاوية في هذا الكون خالية، فوجود السماء اللامحدودة والأرض الواسعة، والإنسان

الأوروبي، ومذهب الكاثوليك[١]، والرب، والنبي، والآب والابن وروح القدس، وجبرائيل، وصورة الناس[٢] وغير ذلك، كلهم هم المسيح، وعليه فإن الكنيسة والآباء والرؤساء ورعاة غنم الرب (أي: كل الناس)، هم البابا!.

وفجأة تظهر الهيئة الجديدة وينفجر هذا الإطار المُحكم، وتأتي الحروب الصليبية، وتنهار جميع الجدران العالمية المحكمة والضيّقة والقديمة، وتسقط الأرض من مركز الكون، وتُرفع السماء فوق الأرض، ويعلنون أن (ليسبون) و(جنوا) هما وسط الدنيا. ويتمّ اكتشاف أمريكا من جانب، وفي الجانب الآخر أي في الشرق، إيران والبلاد العربية وتركيا والهند والصين. . . تظهر فيها المذاهب والأفكار، فتتزلزل جميع الحوادث التاريخية الجميلة، والحضارات الغنية المتنوّعة، والثقافات الكبيرة القوية، والأفكار والعقائد والمدارس

---

(١) الكاثوليك: المسيحية الكاثوليكية هي أكبر طوائف الدين المسيحي. يقع مركزها في مدينة الفاتيكان، مقر البابا. يتواجد أتباعها في كثير من دول العالم وخاصة في جنوب أوروبا وأمريكا اللاتينية.
من الطوائف المسيحية الكاثوليكية: كنيسة الروم الكاثوليك، كنيسة السريان الكاثوليك، الكنيسة المارونية، الكنيسة الكلدانية الكاثوليكية، الكنيسة الكاثوليكية القبطية، كنيسة الأرمن الكاثوليك، كنيسة اللاتين في القدس.

(٢) يقصد شريعتي بصورة الناس: صورة الخِلقة، أي الصورة التي خلق الله الناس عليها، بمعنى أنه خلقهم على صورته.

والبعثات والمجتمعات وجوانب الحياة الأخرى.

إن الحروب الصليبية التي استمرّت لسنين عديدة، جعلت هناك تماساً واتصالاً بين المسلمين والمسيحيين خلال القرون الوسطى، أدّيا إلى زوال وانحسار ذلك الجمود والتعصّب وتلك النظرة الضيّقة التي كانت موجودة.. وبعدها بدأ الاعتراض على المقدّسات من قِبَل الحركة «البروتستانتية»[١] التي أسست لحركةٍ جـديدة، وتحوّلٍ وتمدّنٍ جديدين.

لقد أدّت الحروب الصليبية إلى انهدام ذلك الجدار والطوق

---

(١) البروتستانتية: هي إحدى مذاهب الدين المسيحي. يتواجد أكثر تابعيها في شمال أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية واستراليا. نشأت على يد مارتن لوثر في ألمانيا وقد انشقت الكنيسة البروتستانتية عن الكنيسة الكاثوليكية في القرن السادس عشر، ويتفرّع منها العديد من الكنائس الأخرى. والبروتستانت هي كلمة معناها المحتجّين. ومن أهم ميزات البروتستانت عن الطوائف المسيحية: «الإيمان بأن الكتاب المقدس فقط (وليس البابوات) هو مصدر المسيحية». «إجازة قراءة الكتاب المقدّس لكل أحد، كما له الحق بفهمه دون الاعتماد في ذلك على فهم بابوات الكنيسة». «عدم الإيمان بالأسفار «الأبوكريفا» السبعة». «عدم الاعتراف بسلطة البابا وحق الغفران وبعض عبادات وطقوس الكنيسة الكاثوليكية». «يعتبرون الأعمال الصالحة غير ضرورية للخلاص». «لكل كنيسة بروتستانتية استقلالها التام». «يمنع البروتستانت الصلاة بلغة غير مفهومة كالسريانية والقبطية، ويرونها واجبة باللغة التي يفهمها المصلّون». «يمنع البروتستانت التبتل، ويوجبون زواج القسس لإصلاح الكنيسة».
ويتفق البروتستانت مع الكاثوليك في انبثاق الروح القدس من الأب والابن كما يوافقونهم في أن للمسيح طبيعتين (إلهية وبشرية) ومشيئتين.

الحصين، الذي كان مضروباً على الغرب في القرون الوسطى، وكذلك على المسيحية الموجودة هناك. وقد حصل هذا الانهدام على جبهتين، إحداهما هو ما حصل للجهة الاقتصادية وانهدام البنية التحتية لها، وكذلك انهدام البناء المادي الغربي. والثانية: هو انهدام البنية التحتية للأفكار والعقائد والرؤية الكونية التي كانت موجودة. لقد كانت البنية التحتية للمجتمع في القرون الوسطى متمثلة بالنظام الإقطاعي، والبنية الفوقية متمثلة في الدين، في الحروب الصليبية يتعرّض الاثنان دفعة واحدة لحملة مما يؤدي إلى انهدامهما معاً.

في درسنا الآن، نحاول إن نسلّط الضوء أولاً على التاريخ بدون الدين، حتى نصل إلى تاريخ الأديان.

هناك حملتان بدأتا معاً وهذا الأمر لم يكن من باب الصدفة[١]، وهاتان الحملتان وإن كانتا مختلفتين في الظاهر، لكن من ناحية العلة والمعلول هما متصلتان.

في المسائل الإنسانية وخاصة في موضوع الفلسفة الاجتماعية، أنا، أرى أن أصل العلة أمرٌ صادق ومقبول ولكن الفرق الموجود في العلة من الناحية الفلسفية أو في العلوم الطبيعية، هو أن الرابطة بين العلّة والمعلول لم تكن من

---

(١) صدفة: نفضّل التعبير بالمصادفة بدلاً من الصدفة.

طرف واحد بل من طرفين، وبين كل ظاهرتين اجتماعيتين متقاربتين توجد هناك رابطة علّة ومعلول متقابلة في حالة جريان، فمثلاً في الطبيعة، النار هي علّة تسخين الماء الذي يعتبر معلولاً، ولكن غليان الماء هنا وهو المعلول، لم يكن ليؤثر في شعلة النار، بمعنى أن الطريق مغلق من المعلول إلى العلّة[١].

أما في الظواهر الاجتماعية فإن العلّة تأتي بالمعلول،

---

(١) (العلّية): هي العلاقة الوجودية بين شيئين بشكل يكون أحدهما تبَعاً للآخر، ومَن يرى أنّ علاقة العلّية عبارة عن ظهور حادثين على التعاقب فإنّ هذا التعريف يكون ناقصاً، فصحيح أنّ المعلول يحدث بعد علّته ولكن ذلك لا يكفي لتوضيح مفهوم العلّية، بل لا بدّ أن يكون هذا الأمر ناشئاً من العلاقة بينهما ومن تبعية الوجود الثاني (المعلول) إلى الوجود الأوّل (العلة). ولو فقدنا قانون (العلّية) فإنّ (الفلسفة) سوف تتزعزع بكلّ فروعها، وعليه فإنّ العلوم والأفكار والفلسفة مبنيّة على هذا القانون. والعلّة لها مفهوم واسع وأقسام عديدة: «العلّة التامّة» وتعني أنّ الشيء إذا وجد فإنّ معلوله سوف يوجد مباشرة.
وهذا المعنى هو المعنى الذي أراده «شريعتي» من قانون العليّة الفلسفية والطبيعية، أي أن المعلول إنما ينوجد بوجود علّته وينعدم بانعدامها.
و«العلّة الناقصة» وتعني أنّ الشيء يحتاج ـ في وصوله إلى المعلول ـ إلى إنضمام أمور أخرى.
كما تُقسّم العلّة إلى (العلّة الفاعلية) و(الغائية) و(المادّية) و(الصورية).
أما العليّة الاجتماعية التي أرادها «شريعتي» فهي تختلف عن العليّة الفلسفية والطبيعية أي السببية، حيث إن العلية هنا تتبادل التأثير، فالعلة تؤثر في المعلول، والمعلول بدوره يؤثّر في العلّة، وهذا بخلاف العليّة الفلسفية والطبيعية التي يكون المعلول فيها تابعاً للعلة وجوداً وعدماً.

والمعلول الذي ظهر في هذه الحالة فإنه سوف يترك أثراً على العلّة، بمعنى أن المعلول يلعب دور العلّة مقابل العلّة التي أوجدته.

فالخطابة تعتبر (عِلّة)، والمجلس بحالته المتفاعلة مع الخطابة هو (معلول)، والمجلس وبحالته وهيجانه تراه يترك أثراً على الخطيب ويهيّجه أيضاً، ومن ثم هذا التهييج للخطيب يترك أثراً في المجلس أيضاً.

وإن هذا الترابط الثنائي للعّلة والمعلول وبين قطبين، فما دام الترابط موجوداً بين الحالتين، فإن التأثير المتبادل بينهما موجود ومستمر. هذا الترابط موجود أيضاً بين البنية الاقتصادية التحتية للمجتمع، وبين البنية الفوقية الاعتقادية له.

الماركسيون يرون أن هذا الترابط هو من جانب واحد، فهم ينكرون وجود ضد للماركسية[١] مع قانون العلّية، ويرفضون

(١) الماركسية: مصطلح يدخل في علم الاجتماع والاقتصاد السياسي والفلسفة، سُميت بالماركسية نسبةً لمنظِّر الماركسية الأول «كارل ماركس»، وهو فيلسوف ألماني، وعالم اقتصاد، صحفي وثوري أسَّس نظرية الشيوعية العلمية بالاشتراك مع «فريدريك أنجلز» وهما من معلّمي الشيوعية، فقد كان الاثنان اشتراكيين بالتفكير، لكن مع وجود الكثير من الأحزاب الاشتراكية، تفرّد ماركس وأنجلز بالتوصل إلى الاشتراكية كتطوّر حتمي للبشرية وِفق المنطق الجدلي وبأدوات ثورية، فكانت مجمل أعمال كلٍّ من كارل ماركس وفريدريك أنجلز تحت اسم واحد وهو «الماركسية» أو «الشيوعية العلمية».

مسألة أن نظام الإنتاج والاقتصاد يكوّنان بُنية تحتية، ويحاولون وبصورة غير موفّقة أن يضعوا بديلاً مثل العِرق أو الجغرافيا، أو الصراع مع الطبيعة، أو الغريزة، أو الثقافة، أو غيرها من الأمور.

وأما من وجهة نظري، فلم يكن هناك قانون كلي يمكن أن نطبقه على جميع المراحل الاجتماعية التاريخية. فأنا أعتقد، أن البنية التحتية للمجتمعات البَدوية (القبائل)، أعتقد أن هناك عاملاً تاماً هو عامل الجغرافيا، فهو العامل الذي يتحكّم في بناء وتعيين شكل المجتمع ومؤسسات المجتمع ومن ضمنها الاقتصاد. أما في المجتمعات المتحضرة أو المتقدمة، فإن العامل الاقتصادي أو الإنتاج الاقتصادي هو العامل الذي يتحكّم في شكل المجتمع. وفي المرحلة الثالثة أي في عصر التحقيق؛ فكلما ازداد علم الإنسان، وكلما تطور علم معرفة الإنسان، وعلم الاجتماع، وعلم معرفة التاريخ، فإن الأمر يتطوّر ويبدأ الإنسان بإيجاد عوامل بناء المجتمع، والعوامل المحرّكة للتأريخ والقوانين، ويصبح الإنسان أكثر اطلاعاً ومعرفة بعوامل التحوّل والانحطاط والرّقي للمجتمع، فهنا العامل الأساسي يكون الإنسان نفسه أي معرفته الذاتية، وبتعبير آخر الإيديولوجية[١]، أي فكر الإنسان وإرادته وعلمه وتفنّنه.

---

(١) الإيديولوجية: الإيديولوجيا ideology أو العقيدة السياسية أو الفكرية ويترجمها البعض إلى «الفكرانية»، هي كل مجموعة منظّمة من الأفكار تشكّل رؤية متماسكة أو طريقة لرؤية القضايا والأمور التي تتعلّق بالأمور اليومية أو تتعلق بمناحي فلسفية معينة سياسية بشكل خاص. أو قد تكون=

إن هذا البحث، بحث دقيق ومعقد ومفصّل ولا يوجد الآن مجال لطرحه، أما ما أريد قوله أو أن أتحدث عنه الآن، هو أن قانون «العلية المتقابلة» في الرابطة الموجودة بين البنية التحتية والبنية الفوقية للمجتمع، أيضاً رابطة صادقة.

فلو فرضنا أن إنساناً تعرّض فكره للتغيير (البنية الفوقية)، فإن حياته الاقتصادية وعمله سوف يتغيران أيضاً (البنية التحتية). وإذا تغيّر عمله ووضعه المادي، فإن شكل تفكيره سوف يتغير أيضاً. وهذان الأمران يرتبطان معاً برابطة العلة والمعلول ثنائية الجانب.

لقد كانت أوروبا في القرون الوسطى تمتلك بنية تحتية اقتصادية إقطاعية، وأما البنية الفوقية لها فهي الدين «المذهب الكاثوليكي»، حيث إن هذا المذهب يحتوي الفلسفة والأخلاق والنظرية الكونية والتقاليد، وهذه الأمور كانت متطابقة ومنسجمة

= مجموعة من الأفكار تفرضها الطبقة المهيمنة في المجتمع على باقي أفراد المجتمع (كما في تعريف ماركس لها).
ومفهوم الإيديولوجيا مفهوم متعدّد الاستخدامات والتعريفات؛ فمثلاً يعرّفه قاموس علم الاجتماع كمفهوم محايد باعتباره نسقاً من المعتقدات والمفاهيم يسعى إلى تفسير ظواهر اجتماعية معقّدة من خلال منطق يوجّه ويبسّط الاختيارات السياسية/ الاجتماعية للأفراد والجماعات، وهي من منظار آخر نظام الأفكار المتداخلة كالمعتقدات والأساطير التي تؤمن بها جماعة معينة أو مجتمع ما وتعكس مصالحها واهتماماتها الاجتماعية والأخلاقية والدينية والسياسية والاقتصادية وتبرّرها في نفس الوقت.

مع النظام الاجتماعي آنذاك، لأن الأديان والمعتقدات الرسمية دائماً تحكم المجتمعات وتتحمل هذا الدور، سواءً كانت على علم ومعرفة أم لم تكن كذلك. وإذا كانت هناك أمور في الدين تخالف النظام الاجتماعي أو لا تنطبق معه، فإن هناك مجموعة من المشرفين الرسميين وهم جزء من النظام الحاكم، يسعون للتحريف والتغيير حتى تتلاءم القوانين الدينية مع حالة النظام الاجتماعي.

في القرون الوسطى هذه التي نتحدث عنها، تكون الحياة الاجتماعية والاقتصادية فيها مبنية على النظام الإقطاعي،(١) فهناك أجزاء عديدة تحمل اسم المقاطعات حيث إن لكل واحد منها جيشاً خاصاً، وعادات وتقاليد خاصة، ورئيساً خاصاً، ومناسبات خاصة، وشعباً خاصاً، وحياة مستقلة خاصة. وإن كل

---

(١) الإقطاع: الطبقة الإقطاعية هي طبقة كبار ملاكي الأراضي، ارتبط الفلاحون بالعمل في أراضي النبلاء وكبار الملاكين ضمن أعمال القنانة (العبودية) تطورت لاحقاً بأعمال سُخرة جَماعية لكل من يسكن من الفلاحين ضمن إطار ممتلكات هذا الإقطاعي أو ذاك، يلتزم الفلاح بالدفاع عن المالك الذي يعيش الفلاح ضمن ممتلكاته فضلاً عن التزامه بضريبة سنوية تكاد تُجهز عن كل ما ينتجه الفلاحون طوال العام، أقامت الكنيسة تحالفاً مع الإقطاعيين لأنها أيضاً كانت تجبي عوائدها من الجميع سواء كان ذلك على شكل عشور (عشر الدخل) يدفع لها من رعاياها أو على شكل صكوك غفران لمن يدفع الثمن وصكوك حرمان لمن يعترض على سلطتها الروحية.. وقد أوضح «شريعتي» هذا المعنى بشكلٍ وافٍ ومفصّل ودقيق في أكثر من موضع في هذا الكتاب.

مقاطعة من هذه المقاطعات منفصلة عن البقية، ولكن هناك رابطة وعلاقة تربطهم بالمركز، وهم بصدد تشكيل منظومة مشتركة تربطهم مع بعضهم البعض، فما هي هذه المنظومة أو الوسيلة؟ إنها الكنيسة الكاثوليكية، لذا فإن هناك قدرة عالمية تُسمّى الكاثوليكية العالمية، إن الدين المسيحي في أوروبا يُعتبر الغطاء الذي يغطي جميع هذه المقاطعات، ويجمعهم تحت عنوان الأمة المسيحية المتكوّنة من المقاطعات المختلفة.

ما هو شكل النظام الإقطاعي؟ إنه يتألف من مالك كبير يتبع رسوماً وعادات وتقاليد سيادية، وأيضاً يتشكّل من مجموعة أرباب ورعيّة. وهو نظام مغلق وغير متّصل بالخارج ومرتبط بالأرض، ماذا يعني النظام المغلق؟ إن النظام المغلق يمتلك خاصيتين؛ إحداهما النظرة الكونية المغلقة، والثاني هو الإنتاج والاقتصاد المغلق. ماذا يعني نظام الاقتصاد والإنتاج المغلق؟ انظر إلى القرية:

إن القرية لم تكن واقعة مباشرةً على طريق أصلي، ولم تصل إليها السلع والمنتجات الحديثة، وفي القرية توجد آلات الحراثة والبقر والحليب، وإن القماش الذي يصنعون منه ملابسهم يقومون هم، بحياكته وخياطته ولبسه.

فهذه القرية تملك اقتصاداً مغلقاً، فالحنطة والشعير تُجلب إليهم من الصحراء؛ فالشعير يُقدّم للحمير وهذا مورد صرفه،

والحنطة تستخدم من قِبلهم. والقطن يقومون بتصنيعه ويعملون منه الملابس اللازمة التي يلبسونها هم، ويعطون حليب الأبقار ليأخذوا مكانه البيض، ويستبدلون الفواكه بالصوف، والآخر يبدّل الصوف بمادة غذائية أخرى. وهذا يبدل مادته ليأخذ البصل مثلاً، فهذا الإنتاج وهذا التوزيع، يتمّ ضمن دائرة اقتصادية مغلقة.

والقرية نفسها حينما ننظر إليها، نجدها مجتمعاً مغلقاً. وهذه القرى لا تزال موجودة في إيران، فعندما تنظر إليها تجدها قلعة لها أربعة جدران أو أبراج وباب واحد، وهذا يدل على أن هذه القرية هي مجتمع مغلق. وإن من علائم المجتمع المغلق هو الإنتاج المغلق، وهذا يعني أن الإنتاج والاستهلاك يدور في دائرة واحدة، بمعنى أنهم ينتجون وأنهم يستهلكون فلا يحتاجون البضائع الخارجية، ولا يصدّرون ما ينتجون إلى الخارج. ومن صفات الاقتصاد المغلق، هو أن الإنتاج والتوليد يعادل الاستهلاك.

في مثل هذه القرية، حينما يأتي شخص ويحفر بئراً عميقة، ودفعة واحدة يزرع مادة الشمندر بقيمة مائتي ألف تومان، ويحصل على ثلاثمائة ألف طن من هذه المادة، فهنا سوف تُفتح تلك الدائرة الاقتصادية المغلقة، لأن هذه الكمية المتولّدة تحتاج إلى سيارات حَمْل لتنقلها مسافة عشرة أو عشرين كيلومتراً حيث معمل السكر (نرى هنا أن دائرة الإنتاج المغلقة أصبحت مفتوحة)، وهذه المادة في هذا المصنع سوف تتحول إلى مادة

السكر حيث توزّع إلى أماكن عديدة، بمعنى أن نظام الإنتاج المغلق في هذه القرية قد انفتح على الأسواق الخارجية، وهذا هو معنى الاقتصاد المغلق والاقتصاد المفتوح. وهكذا تكون النظرة الكونية المغلقة أيضاً، فما هي النظرة الكونية المغلقة؟

إن النظرة الكونية المغلقة، عبارة عن التصوّر الذهني الذي يملكه الإنسان. ولكن أي إنسان؟ الإنسان الذي يعيش في اقتصاد مغلق، فإن عالمه سيكون مغلقاً أيضاً، فهو ينظر إلى السماء وكأنها غطاء محيط بأطراف قريته ولا يوجد شيء خارج هذا المحيط، فيكون عالمه عالماً مغلقاً وصغيراً. القرية التي تجاور تلك القرية التي أنا منها، فيها سيد، وَصْفُه ليس جيداً فلم يبقَ منه إلّا شاربه الأصفر، حيث كان الناس في السابق رعيةً له وكان لهم معه حساب، فلا تزال تلك الهيبة وذلك الرجل باقٍ في أذهانهم وقد قال لي أحدهم، أنت حينما ذهبت إلى تلك الدول الخارجية، هل وجدت هناك أشخاصاً كثيرين مثل هذا «الحاج» أو «السيد» الموجود عندنا؟ إن الدنيا بكاملها في نظر هذا الرجل عبارة عن سوق كبير، وفي وسطه هذا السيد، وفي الأعلى خالق هذا السيد الحاكم. لقد كانت المجتمعات في القرون الوسطى كهكذا مجتمع، ولكن مجيء عاملَيْن غيّرا النظرة الكونية في القرون الوسطى، وكذلك البنية التحتية المغلقة لاقتصاده. وهذان العاملان هما:

أولاً: النمو السريع للبرجوازية في عمق الإنتاج الزراعي للإقطاعية. والثاني: هو النظرة الكونية المادية التي تبناها المثقفون الجدد. وهذان العاملان يشكلان العلة والمعلول أحدهما للآخر[١]. إذاً فما هو البرجوازي؟ لو أخذنا بنظر الاعتبار قرية صغيرة، ومن حسن الحظ نحن على خلاف الأوروبيين الذين عليهم أن يطالعوا الموضوع في الكتب، فنحن نستطيع أن نشاهد هذا الأمر في مجتمعنا والذي هو في حالة تحوّل: فهو انتقال من نظام اقتصادي مغلق وزراعي، إلى نظام برجوازي استهلاكي. لذلك يمكننا مشاهدة علم الاجتماع[٢].

ففي قرية قديمة مغلقة يعتمد إنتاجها على الزراعة، وقبل أن يُفتح فيها (دكان) كان هناك حمار يحمل على ظهره قطع قماش وبعض الأمور الأخرى المتفرقة التي يضعها صاحب الحمار، وهذا الرجل حمّل على حماره بعض المحصولات الزراعية وذهب إلى أطراف قريته حتى قايضها بتلك الحاجات التي رجع بها، ومن ثم عاد وكرّر العملية مرة أخرى بعد أسبوع أو شهر وبادل في السوق ما يحمله بما يريد جلبه.

هذه الظاهرة، وبعد مدة من الزمن، سوف تتحول في القرية

---

(١) العلة والمعلول بالمعنى الاجتماعي، لا الفلسفي، كما أوضحناه سابقاً.

(٢) علم الاجتماع الذي يدرس الظواهر والتحوّلات الاجتماعية من خلال المشاهدة والعيِّنة.

إلى (دكان)، وحينما يأتي الدكان، يكون القدم الأولى التي توضع للبرجوازية داخل المجتمع الإقطاعي.

إن شكل عمل صاحب المحل هذا، يختلف مع شكل عمل أهل القرية. فأهل القرية يحصلون على المواد من الأرض التي يزرعونها، وهذا الشخص يجلب المواد من المدينة. هؤلاء، إنتاجهم إنتاج زراعي، ويعتمد هو على الصناعة اليدوية والمصنع، فهو يبيع القماش، وذلك يبيع القمح أو يبادل بضاعة بأخرى (تبديل الحنطة بالصوف). ولكن صاحب المفازة أو المحل، يتعامل بالنقود، وحينما تكون المعاملة بالنقود بدلاً من المقايضة، فهنا سوف تحل البرجوازية، ولو كانت هذه البرجوازية على صورة طبقة صغيرة أو شخص واحد.

ماذا يعمل صاحب المحل هذا؟ إنه يشتري البضاعة من المدينة أو من القرى الأخرى بالنقود (لأنه يملك مادة) ويعرض هذه البضاعة في القرية التي يعمل فيها، وهذه الأجناس لم يكن لها استهلاك أو وجود سابق في هذه القرية. وبالتدريج، فإن رغبة واندفاع الناس يتغيّر، وسوف يتعرفون على هذه الألبسة وهذا الأثاث وهذا النوع من الأغذية، وهذه الاحتياجات المنزلية، فيبدأون بشرائها. وعلى هذا، فإن صاحب المحل أصبح بائعاً جديداً بواسطة هذه الأمور والحاجيات، ولكنه لم يعرض شيئاً جديدَ الصنع والإنتاج، وفي هذه الحال فإن عامة

الناس لا يمكنهم الإقدام على الشراء بل يكتفون بالنظر إلى الحاجيات فقط. أما المالكون الصغار، والإقطاعي وعائلته، فإنهم يمتلكون الأموال، وكانوا يجمعون هذه الأموال أو يشترون بها أراضٍ زراعية يضيفونها إلى أراضيهم، أو يشترون بيوتاً ويعمرونها، أو يشترون مواشٍ تُضاف إلى مواشيهم، أو يسافرون إلى مكة والعتبات المقدسة الأخرى، ويقيمون حفلات الزواج العجيبة أو الولائم الكبيرة. أما الآن، فإن جميع أموالهم ستكون موضوعة لشراء الحاجات من هذا المحل الجديد، فالإقطاعي يحاول تبديل قبعته ويضعها جانباً ليشتري بذلة جديدة أو لباساً أنيقاً، وزوجته تحاول أيضاً استبدال تلك العباءة (الشادور) القديمة بعباءة جديدة عصرية، ثم يبدأون بتغيير نمط استقبالهم ومكان ضيوفهم، ومن ثم أثاث منزلهم، ثم شكل بناء منزلهم، وبالتدريج فإن كل شيء يملكونه يعملون على تغييره، وفقط لهجتهم وإنتاجهم لم يتعرّضا للتغيير.

في هذه الحال، يبدأ الاستهلاك بالارتفاع ويبدأ الإنتاج بالانخفاض، حتى عن صورته القديمة، أو على الأقل يبقى ثابتاً ولا يحصل له تغيير. أما صاحب المحل، فإنه يبدأ بكتابة قائمة الأسعار لمواده، وتبدأ الأسعار بالارتفاع من ألف تومان إلى ثلاثة آلاف، إلى خمسة آلاف تومان، وفي السنة الثانية، يزداد الاستهلاك ويكثُر العرض للبضاعة.

وكلما ازدادت البضاعة وازداد العرض، فإن هذا الإقطاعي وعائلته الموجودين في القرية، يصبحون مجبورين على شراء السلع والحاجيات الجديدة، عندها لا يمكن أن يلبّي الإنتاج قيمةَ الطلب والشراء. فنراه يبدأ الشراء بالدفع المؤجل، وخلال عام أو عامين يصبح مديوناً لصاحب المحل، وعندها أيضاً يكون مجبوراً على بيع ما يملك بالتدريج لتسديد الأقساط التي تراكمت عليه، فيبدأ ببيع المواشي وبعض الأراضي حتى يمكنه تسديد ما عليه وما يريد أن يشتريه من البضاعة الجديدة. وطبعاً، خلال مدة من الزمن نرى أن تلك المفازة وذلك المحل بدأ بالتطور، حيث المحل الذي كان واحداً أصبح اثنين وثلاثة، وهكذا يزداد عدد المحلات في كل عام، وتزداد معه نفقات شراء الإقطاعي، ودفعةً واحدة نرى أن الإقطاعي أصبح مديوناً للبرجوازي، ولا يمكنه تسديد ديونه، مما يضطره إلى ترك القرية والفرار منها، فيأتي البرجوازي ويحل محله.

وهذا هو معنى المقالة التي تقول في علم الاجتماع «البرجوازي ولد من داخل الإقطاعي». وبالتدريج، فإن شوكة البرجوازي سوف تقوى ويصبح نفوذه أوسع، فيتغيّر النظام المصرفي ويصبح النظام الإقطاعي ضعيفاً، مما يؤدي إلى ثورة البرجوازية على الإقطاعية وطردها من الساحة. وحينما تصبح الحاكمية والسلعة بيد البرجوازي، فإن تلك الألقاب وتلك

الشخصيات مثل «الحاج فلان» وعائلته و«الشيخ فلان» وحرمه، كل هذه سوف تزول، وتظهر شخصيات ثرية ومتمكّنة بزيٍّ جديد ولباسٍ جديد، ولا محاسن في الوجه. وهنا تزول المشيخة والرئاسة الإقطاعية، وتحلّ محلها الأموال والحياة التجارية، ويصبح الكسب اليومي هو العمل، ويحل الإنتاج والتوليد محلَّ الزراعة التي كانت موجودة.

لقد كان هذا البحث بحثاً اقتصادياً اجتماعياً، والآن نحاول أن نضرب مثالاً أو نوضح أمراً وهو المسألة الأخلاقية لطبقات المجتمع، وكذلك طريقة التفكّر أيضاً[١]. وإذا استطعنا أن نوضح هذه المسألة بصورة جيدة فإن المعلومات التي تلقاها المثقفون وبصورة خاطئة سوف تصبح واضحة عندهم الآن.

إن عصر الإقطاعية يمتلك خصائص خاصة به، وهي:

١ـ الأخلاق المبنيّة على السيادة والأشراف.

---

(١) طريقة التفكر، يقصد بها الدكتور شريعتي (آلية التفكير) أو (منهجية التفكير)، ويأتي هذا، انسجاماً مع تنظيره السابق حول (البنية التحتية) أي العلائق الاجتماعية والاقتصادية، و(البنية الفوقية) التي تشكّل الأفكاريات والعقائد. وقد التزم شريعتي أن إحداهما تتبادل العليّة والمعلولية مع الثانية. فإذا تغيّرت الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية، تغيَّر نمط التفكير، وكذلك يجري الأمر نفسه فيما لو تغيّرت الأفكار وعقائد وأخلاقيات المجتمع، فإن وضع ذلك المجتمع اقتصادياً واجتماعياً سوف يتغيّر.
﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾

٢ـ النظرة الكونية المغلقة.

٣ـ الحياة الجامدة.

٤ـ المقدسات الثابتة غير القابلة للتغيير.

٥ـ التقاليد الأصلية والمُحكمة والتي لها عمق اجتماعي.

٦ـ الجمود وتقليد الآباء والأجداد في العبادة، والتفاخر بالآداب والعادات العائلية.

٧ـ الاعتماد على بعض الفضائل الأخلاقية الخاصة مثل الغيرة، الحميّة، الشهامة، الكرم، استقبال الضيف، احترام الكبير، التضحية، التعصّب للقومية، حب القيم المعنوية، الإحساس بالقوة الدينية.

٨ـ الخوف من العبادات الجديدة، الاكتشافات، التغيير والتبديل، الوقوف بوجه جميع العناصر التي يمكن أن تُفرض من الخارج.

هذه هي خصوصيات النظام الإقطاعي المغلق[١].

أما خصوصيات المجتمع الإقطاعي فهي:

لا يقبلون الأمور الجديدة، فهم يخافون حتى من تغيير شكل حلاقة شعرهم، لا يغيّرون شكل لباسهم، لا يغيّرون شكل

---

(١) عَنَى شريعتي (بالنظام الإقطاعي) طبقة الأسياد والأشراف الذين يحكمون المجتمع إقطاعياً. وعنى (بالمجتمع الإقطاعي) عوام الناس المحكومين بواسطة ذلك النظام.

حلاقة ذقنهم، والفرد منهم على استعداد لتقديم رقبته ولكن لا يقدِّم شاربه، وكل عاداته وتقاليده وتشريفاته الاجتماعية والإحساسات القومية والروابط الاقتصادية والأخلاقية تكون مرتبطة بالدين من جانب ولها احترام وتقديس، ومن جانب آخر بأسياده ورؤسائه. فالروابط الاجتماعية في المجتمع الإقطاعي وحتى اللباس والحلاقة والطريقة الموروثة في الحياة، وجدت لها احتراماً وتقديساً وتوجيهاً من جانب الدين، وذلك لأن الذين يتولّون أمور الدين هم مرتبطون بالمشرفين والمسؤولين عن هذا النظام، لذلك فإن ارتباطهم أصبح بالنظام أيضاً، واستطاعوا أن يقنعوا الرعية أو عامة الناس أن رعاية هذه الأمور هي من صلب الدين، وهي سُنّة ثابتة ومقدسة[١].

لذلك فإن من أكبر وأهمّ خصائص هذه الدورة أو هذا النظام هو مقاومته ووقوفه أمام الأمور الجديدة، وهي البدع الجديدة وتغيير الحياة، وأما روح الإنسان في هذا المجتمع فهو التفاخر بآبائه وأجداده وسابقيه، ويسعى أيضاً أن يحتفظ بشكل منزله القديم، لأن فيه ذكريات قديمة لآبائه وأجداده وعشيرته.

---

(١) في كتابه «دين ضد الدين»، بل في أكثر من مكان من مكتوباته، يوضح شريعتي أن دين الله «تعالى» الحقيقي يكون دائماً إلى جانب الفقراء والمستضعفين والجائعين، وأن الدين الذي يستغل هؤلاء الناس من أجل تكريس ظلم الحاكم وطمعه وجشعه، هو دين «بلعم بن باعوراء» المتحالف مع «فرعون» و«قارون»، وهذا الدين هو أبعد ما يكون عن رسالات السماء.

أما الخاصية الثانية لهذا المجتمع: فهي المقاومة والوقوف في وجه كل وافدٍ جديد، وكذلك الخوف من المستقبل. لذا يقولون إنه في النظام الإقطاعي يوجد أصلان أساسيان من وجهة نظر الأخلاق والشعور والروح: التفاخر بالأمور القديمة أو تقديسها. الخوف من المستقبل، والمقاومة والوقوف بوجه كل ما هو جديد. أما صاحب المحل والبرجوازي، فهو بالضبط يختلف عن الإقطاعي فهو ينتمي إلى عامة الناس وقد خدمته الظروف ليصبح موفقاً واستطاع أن يبني طبقةً وسطى أعلى مرتبة من الرعية أو عامة الناس وأقل درجة من الأسياد، فلم يكن أجداد هذا البرجوازي وآباؤه من أصحاب الثروة والمرموقين أو المعروفين في المجتمع، فهو لا يمتلك جذوراً عميقة في المجتمع، والناس لا ينظرون إليه على أنه شخص أصيل في المجتمع، بل إنهم يعتبرونه شخصاً بسيطاً كاسباً واستطاع أن يصل حديثاً إلى هذه المرتبة وهذا الثراء، فهذه هي نظرة المجتمع لهذا الكاسب الجديد الذي وصل إليه الدور الآن.

والبرجوازي على خلاف الإقطاعي، فهو لا يفتخر بماضيه ولا يتذكّره، لأن الماضي قد يكشف عيوبه ووضعه المتواضع الذي كان عليه. فالماضي وتقاليده وعاداته متعلقة بالإقطاعي، وهذا الذي جاء يريد أن يقطع هذا الأمر، يريد البرجوازي أن يبدأ من الوقت الحاضر، فحينما كان الإقطاعي يخاف التجديد

ويقاوم الإبداع لأن كل تقدُّم يزلزل مكانه! فإن البرجوازي على خلاف الإقطاعي، يتقبّل جميع هذه الأمور.

يكون البرجوازي إنساناً منفتحاً على العالم ويحب التجديد ويطلبه على خلاف الإقطاعي الذي يمتلك النظرة الضيّقة وعدم الانفتاح على العالم، وما يعرفه وما ينظر إليه هو ما يحيط به من قبيلة ومواشٍ وأرض. أما البرجوازي فإنه سافر وشاهد القرى والمدن المحيطة به واختلط مع مختلف القبائل، ولأن عمله عمل متحرك فهو قد اطلع على جميع أنظمة الإنتاج المختلفة وشاهد كذلك أشخاصاً مختلفين، فهو يرى العالم برؤية أكثر انفتاحاً. لذلك فهو في حالة تغيير وحركة، وكذلك فإن من أهم ما يمتاز به البرجوازي هو عداؤه للعادات والتشريفات والتقاليد الاجتماعية القديمة، فهو يحب المستقبل ويحب التغيير والتبديل والتحوّل ويحب البناء والتعمير.

أما إذا أردنا أن نقارن بين هاتين الدورتين أو النظامين من الناحية الأخلاقية، فإننا نرى أن البرجوازي يمتلك خاصية ممتازة، وهي قابليته واستعداده للتغيير والتحوّل، بمعنى أنه يمتلك التقدّم في داخله، كما جاء في صفاته المتقدمة الذكر. أما منافسه، فهو على عكسه، حيث لا يمتلك تلك الصفات التي يمتلكها البرجوازي، ولأن تفكيره ونظرته للحياة هي دائماً نظرة متخلّفة وغير واقعية.

ومن الصفات والخصائص التي يمتلكها البرجوازي، عدم إيمانه بالمُثل الأخلاقية، فهو ينتقد بشدّة ويرفض تلك الأسماء والمسمّيات الموجودة في القرية مثل «الشيخ» و«الملّا» و«السيد»، وكذلك يرفض بعض العادات والتقاليد الاجتماعية والتي يعتبرها البعض مقدّسة. إن أول شخص جلب جهاز المذياع إلى منزله هو البرجوازي، وكذلك يُعتبر البرجوازي أول من لبس «الشروال»[1] و«السترة» في القرية. أما زوجة البرجوازي فتُعتبر أول امرأة استعملت اللباس الجديد الذي لم يتعوّد أهل القرية عليه، وكذلك تُعتبر أول من استعملت أدوات ومواد التجميل في القرية.

أما لماذا؟ فلأن هذه الأمور لا تربطه بالماضي، وفي حال تحوّل المجتمع فإن مكانته ستصبح أكبر وأعظم. لأن هذه الأمور لا تُقيّم بماضيها وليس لها ارتباط بما مضى، فالبرجوازي يسعى

---

(١) الشروال: هو لباس يستر النصف الأسفل من الجسم ويُشدّ حول الخصر بدِكّة. جمعه «شراويل». وقيل أصل اللفظ «آرامي» وبعضهم يرى أنّه من الكرديّة، انتقل إلى العرب بواسطة الفرس الذين عُرف عندهم باسم «الشلوار»، وعُرّب باسم «شروال» أو «سروال». وأكثر الباحثين يُجمعون على أنّه لباس شرقي أصيل عُرف منذ أقدم الأزمنة. فقد ورد ذكره في التوراة (سفر الخروج ٢٨: ٤٢). وجاء في صحيح البخاري أنّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلّم) أشار على الحُجّاج باستبدال السراويل بالإزار، ممّا يؤكد أنه كان قيد الاستعمال أيضًا في العهود الإسلامية الأولى.

لكسب مكانة مستقبلية في المجتمع على حساب هذه الأمور وليس على حساب الماضي.

هذه الشخصيات وهذه الأشكال يطلقون عليهم «برجوازيي القرية»، ونحن نسمّيهم أصحاب الأموال أو التجار أو الكسَبة. وحياتهم حياة مدنية ومتجددة ويعملون بواسطة الأموال.

وعلى أية حال يمكن القول إن البرجوازية هي طبقة يسمّونها بـ «أصحاب الدخل الجديد»، صاحب الأموال، شخصية، ليس له جذور، يفكّر بالمستقبل، يحب التقدُّم والحركة، صاحب نظرة منفتحة يخالف الماضي، يرفض العادات والتقاليد، يحب الإبداع والاختراع والتغيير، ولا يمتلك الأصالة وهو فاقد للعقيدة ومادي، لا يمتلك الفضائل العالية ويؤمن بمذهب الربح. وأخيراً، فإن روحه متعطشة للعمل والكسب.

إن ما نقرأه في التاريخ عن مجيء الطبقة المثقفة في أوروبا في القرنين السادس عشر والسابع عشر، فإن مجيئهم كان بسبب البرجوازية، فهؤلاء جاؤوا في هذين القرنين بصورة طبقة، تُسمى الطبقة البرجوازية، بمعنى أن طبقة الإقطاع كانت قد انتهت وبصورة كليّة بواسطة هؤلاء، وبما أن هؤلاء كانوا تجاراً وأصحاب مصانع وأموال في أوروبا فإنهم سيطروا على العمل هناك، وبدؤوا بمخالفة ورفض العادات والتقاليد والتشريفات القديمة، وحتى العبادات التي كانت مفروضة من قِبل الكنيسة

آنذاك أي في النظام الإقطاعي، فإنهم أبدوا مخالفتهم لها، وأحد اعتراضاتهم المهمة تركّز على الدين الحاكم، حيث إنهم كانوا يعتبرون أن شكل الحكومة التي كانت قائمة على أساس ذلك الدين، مناسب ومتناسب فقط مع النظام الإقطاعي.

أما البرجوازي الجديد، الذي يتطلّع إلى المستقبل ويرفض كل ما هو قديم ويخالف الدين، فإن مخالفته للدين يمكن أن تكون على معنيين؛ الأول: هو أن النظام القديم كان يؤمن بالكنيسة التي ترتبط بالمذهب الكاثوليكي، أما البرجوازي فله ارتباط بالمجتمع الرأسمالي والصناعي، وهؤلاء هم أتباع مذهب البروتستانت وهم مخالفون للكنيسة وخاصة أواخر القرون الوسطى، وكذلك للبابا، لأن الكنيسة والبابا يرتبطان بالنظام الإقطاعي. لذا فإن البرجوازي مخالف لهذا الشكل من الدين.

السبب الثاني: هناك بعض الأشخاص من البرجوازيين لم يكونوا مؤمنين بالدين، وكان بعض هؤلاء يعمل ضد الدين، فهم لا يؤمنون بالمذهب الكاثوليكي، ولا بالمذهب البروتستانتي، أما بأي فكر يؤمنون؟ إنهم لا يؤمنون بفكر معيّن ولا يجاملون أي دين، وإنما هدفهم الوحيد في الحياة هو القضاء على جميع العادات والتقاليد القديمة، حتى يصبح المجتمع كله مجتمعاً حديثاً وجميع استهلاكاته وحاجاته جديدة، وكل ما يعترفون به من القيم هي القيم الحديثة في المجتمع الجديد. وإن نشاطاتهم

هي نشاطات اقتصادية مادية، وأكثر ما يفكرون به هو الشيء الذي يدرُّ عليهم ربحاً كثيراً ويزيد رأس مالهم، وهو الاستهلاك العام طبعاً.

وحينما يفكر البرجوازي بهذا الشكل، فعليه أن يزيل من المجتمع الأمورَ القديمة ومن جملتها الدين الذي كان يحفظ العادات والتقاليد القديمة، وبعد القضاء على تلك الأمور فإن البرجوازي سوف يضمن أن المجتمع لن يقاوم الأمور الحديثة وأن السوق سيصبح تحت تصرفه.

وبعد الحروب الصليبية وحينما بدأ التَّماس والاختلاط بين الأوروبيين والشرق، وحينما صنع الأوروبيون السفن وسيطروا على البحار، وحينما اكتُشفت أمريكا وبعدما استعمروا أفريقيا وآسيا وأمريكا وصارت التجارة رائجة بين الشرق والغرب، فإن النظام الإقطاعي الراكد والمحدود بدأ بالانهيار وحلّ محله النظام البرجوازي ورؤوس الأموال والمصانع والتجارة العالمية وأخذت هذه كلها بالنمو والتطوّر.

وفي الوقت نفسه، وحينما نمت البرجوازية واشتدّت شوكتها وتوسّعت الحياة، وأصبحت المادة والكسب وجمع الثروة هي الهدف وكذلك ظهور الاستعمار والسيطرة على أمم جديدة، نرى بروز مسألتين في هذا الوقت وفي آنٍ واحد، هما أولاً: ارتفاع قدرة الاقتصاد المادي في أوروبا، وسيطرة الطبقة

البرجوازية على الإقطاعية في المجال الاقتصادي والاجتماعي.

وثانياً: ظهور نوعين من الاعتقادات؛ أحدهما اعتقاد ديني، والآخر غير ديني. والأول هو مذهب البروتستانت، والآخر هو مهاجمة الدين. أما ما هو وجه الاشتراك بين هذين الاعتقادين؟

الأمر واضح جداً، وهو تجلّي الروح المادية البرجوازية التي ظهرت حديثاً.

إن مارتن لوثر[1] الذي ظهر معارضاً للكنيسة الكاثوليكية خلال القرن السادس عشر والذي طلب من المجتمع أن يثور على سلطة البابا، حرّض المسيحيين أيضاً على قتل الأساقفة والقسيسين، وفي حقيقة الأمر أنه دعم صوت البرجوازية الذي اعترض على التقاليد القديمة، وعلى الزهد الديني، وعلى النظام الإقطاعي. إن فكرة البروتستانت هي فكرة مسيحية ولكنها لا تقول بفكرة الآخرة التي يقول بها الكاثوليك، وتعاليمهم تقضي وتحثّ على حب الحياة المادية والعمل والصناعة والثروة، وفي

---

(١) مارتن لوثر: مصلح ديني مسيحي شهير، ومؤسّس المذهب البروتستانتي المسيحي. ولد في «إيسليبن» في شمالي ألمانيا يوم ١٠ نوفمبر ١٤٨٣، وتوفي في نفس البلدة في ١٨ فبراير ١٥٤٦. كان أبوه عامل مناجم.. و«مارتن لوثر» المؤسّس للبروتستانتية هو غير «مارتن لوثر كنغ» القَس الأميركي الأسود الذي اغتيل في ١٤ فبراير عام ١٩٦٨ ببندقية أحد المتعصبين البيض ويُدعى «جيمس إرل راي».

النهاية فإن أصحاب رؤوس الأموال يؤيدون هذه العقيدة.

نلاحظ الآن وكما قال الكاتب المعروف (ماكس فيبر)[١] إن جغرافية أوروبا تعطي انطباعاً بأن هناك ترابطاً بين تقدُّم أصحاب رؤوس الأموال، وبين الفكر البروتستانتي. ولكن، في ليلة ظلماء، قامت مجموعة من الكاثوليك في فرنسا بقطع رؤوس عشرة آلاف شخص من البروتستانت، وفي الحقيقة فإن نظام الأسياد الذي كان نظاماً إقطاعياً والذي أصبح مهزوماً، سعى جاهداً حتى يطفىء شعلة اعتراض البرجوازيين المنكرين للقيم والتقاليد القديمة. على أية حال، إن البروتستانتية المادية والتي تسعى لامتلاك المال، كانت مسيحية.

في هذا الوقت نرى أن نهضة العِلم بدأت بالتوسعة، بمعنى الرجوع من الذهنيات والمعنويات والإحساسات العرفانية والنظريات الأخلاقية إلى واقعية الحياة المادية وأصالة الحياة الاقتصادية والروح الدنيوية والإعلان عن أن «طلب الاقتدار» حلّ محل «طلب الحقيقة». حيث يقول

---

(١) ماكس فيبر (٢١ أبريل ١٨٦٤ - ١٤ يونيو ١٩٢٠): ألماني، عالم في الاقتصاد والسياسية ومن مؤسِّسي علم الاجتماع الحديث ودراسة الإدارة العامة في مؤسسات الدولة، عمله الأكثر شهرة هو (مقالة في الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية) وهو الكتاب الذي اقتبس منه «شريعتي» هنا، ويُعدّ هذا الكتاب من أهم أعماله المؤسِّسة في علم الاجتماع الديني وأشار فيه إلى أن الدين هو عامل غير حصري في تطور الثقافة في المجتمعات الغربية والشرقية.

(بيكون)[١] في كل جانب وفي كل حديث توجد أسماء «أصالة الطبيعة» و«أصالة المادة»،[٢] الراديكالية،[٣]

---

(١) فرانسيس بيكون (٢٢ يناير ١٥٦١ - ٩ أبريل ١٦٢٦): فيلسوف ورجل دولة وكاتب إنكليزي، معروف بقيادته للثورة العلمية عن طريق فلسفته الجديدة القائمة على «الملاحظة والتجريب». من الرواد الذين انتبهوا إلى غياب جدوى المنطق الأرسطي الذي يعتمد على القياس.

(٢) يذهب القائلون بأصالة المادة والطبيعة إلى أنهما أصل الوجود ولا يوجد شيء وراءهما، فالأصل للمادة وللطبيعة، بينما يذهب أصحاب الفكر الديني إلى أن أصل الوجود ينبع من المبدأ الأول وهو الله سبحانه وتعالى.

(٣) الراديكالية: مصطلح قديم منذ العصور الوسطى، وهي تعريب للكلمة الإنجليزية «Radicalism» وأصلها كلمة «Radical» ومعناها في اللغة العربية «أصل» أو «جذر»، ويُقصد بها عمومًا - مثل كلمة «أصولية» - العودة إلى الأصول والجذور والتمسك بها والتصرّف أو التكلم وفقها، ويصفها قاموس «لاروس» الكبير بأنها «كل مذهب محافظ متصلّب في موضوع المعتقد السياسي».

ويمكن القول أيضًا بأن الراديكالية هي نهج أو سياسة تسعى لإدخال إصلاحات جذرية على النظام الاجتماعي القائم، والأحزاب الراديكالية في بعض الدول اليوم يمثلها عادة الأجنحة السياسية اليسارية المتطرفة. ومن معاني الراديكالية كذلك التطرّف، أي النزعة إلى إحداث تغيرات متطرفة في الفكر والعادات السائدة والأحوال والمؤسسات القائمة.

وقد ظهرت في بداية الأمر للإشارة إلى تصلب رجال الكنيسة الغربية في مواجهة التحرر السياسي والفكري والعلمي في أوروبا، وللدلالة على تصلب رجال الكنيسة و«راديكاليتهم» (أي تعصّبهم وتصلّبهم وإصرارهم على الأصول القديمة دون تجديد).

ولكنها أصبحت تشير فيما بعد إلى العكس وإلى التغيير، ليس بمعنى العودة للجذور فقط، ولكن التغيير عموماً بشكل جذري؛ حيث أصبحت تنسب إلى جذور الشيء، ويقال إن «الجذريون» أو «الراديكاليون» هم الذين=

والليبرالية،[١] والحرية.

= يريدون تغيير النظام الاجتماعي والسياسي من جذوره، ولهذا فسّرها البعض على أنها تعبّر عن الإصلاح الأساسي من الأعماق أو الجذور.. لكن الغرب صبغ مصطلح «الراديكالية» بمعنى آخر هو التطرّف، وأضاف إليه معنى العنف والإرهاب، وألصقه بالإسلام والمسلمين في العصر الحديث، ولهذا قال المستشرق البريطاني «هومي بابا» (أستاذ الأدب في إحدى الجامعات البريطانية) أن: «الراديكالية كلمة ذات دلالات سلبية تلصق بالعالم الإسلامي، مع أن الظاهرة عالمية ولا تقتصر على ما كان يُسمى دول العالم الثالث مثل الهند ومصر، بل وجدت طريقها إلى العالم الأول حيث الراديكالية الإنجيلية على أشدّها في الولايات المتحدة الأمريكية مثلاً».
ويقول المؤرخون إن الصحفيين العرب تداولوا - بعد الاجتياح الإسرائيلي للبنان عام ١٩٨٢ - ومن بعدهم الباحثون والمحللون الناطقون بالعربية، مصطلح (الأصولية) على نطاق واسع وذلك ترجمة لمصطلحين غربيين استعملتهما الأوساط السياسية والإعلامية والثقافية في الغرب للإشارة إلى حالة اليقظة الإسلامية الراهنة في مختلف أرجاء العالم الإسلامي والمصطلحان هما Radicalisme وIntegrisme، في حين أن هذين المصطلحين بما يحملان من دلالات سياسية وفكرية لا يعبّران تعبيرًا دقيقًا عمّا يوحي به لفظ (الأصولية) الرائج حاليًا وبالأخص ما يتضمنه المصطلح الثاني من معاني الرجعية المعادية لكل تقدّم، وهكذا يصبح النعت بالأصولية بمثابة شتيمة سياسية.

(١) الليبرالية (liberalism): اشتقّت كلمة ليبرالية من ليبر liber وهي كلمة لاتينية تعني الحر. الليبرالية حالياً هي مذهب، أو حركة وعي اجتماعي سياسي داخل المجتمع، تهدف لتحرير الإنسان كفرد وكجماعة من القيود السلطوية الثلاثة (السياسية والاقتصادية والثقافية)، وقد تتحرّك وفق أخلاق وقيم المجتمع الذي يتبنّاها، تتكيّف الليبرالية حسب ظروف كلّ مجتمع، وتختلف من مجتمع غربي متحرّر إلى مجتمع شرقي محافظ.=

(أما الحرية فتعني التحرر من القيود الجمركية والقوانين المحددة) وحتى الديمقراطية تعني (تبديل طبقة الأشراف بالطبقة البرجوازية المتوسطة) وبالأخير الدين يعني (الفرد والمنفعة) وكل هذه الألفاظ كانت أموراً جديدة حيث كان البرجوازيون يستعملونها.

إن المتحدثين المرتبطين بطبقة المعتقدين بالتقاليد القديمة، والأشراف القدماء وهم الروحانيون، كانوا في طريقهم إلى الزوال. أما الذين يتحدثون عن الطبقة البرجوازية، فهم المثقفون الماديون.

= الليبرالية أيضاً مذهب سياسي واقتصادي معاً، ففي السياسة تعني تلك الفلسفة التي تقوم على استقلال الفرد والتزام الحريات الشخصية وحماية الحريات السياسية والمدنية وتأييد النُّظم الديمقراطية البرلمانية والإصلاحات الاجتماعية.

المنطلق الرئيس في الفلسفة الليبرالية هو أن الفرد هو الأساس، بصفته الكائن الملموس للإنسان، بعيداً عن التجريدات والتنظيرات، ومن هذا الفرد وحوله تدور فلسفة الحياة برمتها، وتنبع القيم التي تحدّد الفكر والسلوك معاً. فالإنسان يخرج إلى هذه الحياة فرداً حراً له الحق في الحياة أولاً.

ومن حق الحياة والحرية تنبع بقية الحقوق المرتبطة به: حق الاختيار، بمعنى حق الحياة كما يشاء الفرد، لا كما يُشاء له، وحق التعبير عن الذات بمختلف الوسائل، وحق البحث عن معنى الحياة وفق قناعاته لا وفق ما يُملى أو يُفرض عليه. بإيجاز العبارة، الليبرالية لا تعني أكثر من حق الفرد - الإنسان أن يحيا حراً كامل الاختيار في عالم الشهادة، أما عالم الغيب فأمره متروك في النهاية إلى عالِم الغيب والشهادة.

لذلك لم يكن من باب المصادفة أن يتصارع العلم مع الدين، فالشيء الذي قالوه لنا وللمثقفين جميعاً، إنه وفي القرن السادس عشر والسابع عشر هناك مجموعة من المثقفين النوابغ ظهروا فجأةً من داخل الأرض أو جاؤوا من السماء، وبصورة مفاجئة أعلنوا أن القرون الوسطى قرون منحطّة، وأن الدين هو يد ورِجل مشلولة يجب أن يُخالف حتى يصبح المجتمع حراً، والعلماء في هذا العصر أصبحوا متنوّرين، فتخلّص العلم من قيود الدين وصار واضحاً أن الدين خرافة. وهذا الشيء لم يكن موجوداً ولا يمكن وجوده من ناحية علم الاجتماع، بل يجب أن تكون الأسس والجذور أسساً اقتصادية وطبقاتية.

أنتم تلاحظون، أنا لا يمكن أن أنتقد أو أعترض على المسألة من موقعي الاعتقادي، ولكن عن طريق علم الاجتماع الطبقاتي، أو على أساس البنية التحتية الاقتصادية وقانون التحوّل المادي للمجتمع، يمكن أن أنتقد هذه المسألة.

والسؤال هنا، ما هي البنية التحتية لاقتصاد هؤلاء المثقفين والحركة الفكرية هذه، الموجودة الآن في أوروبا، والتي بدأت في القرون الجديدة وفي الحضارة والعلم؟

إن البنية التحتية الاقتصادية لهذا التحوّل الفكري والتقدّم العلمي، هي نمو البرجوازية وإنتاجها والقضاء على الإنتاج الزراعي ونظام الإنتاج الإقطاعي، صحيح أن المثقف كان في

صراع مع الدين خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، أما سلاحه فكان الفلسفة والعلم، وأما جذوره فهي الطبقة الإقطاعية، وأخلاقه وروحيته وهدفه كانت روحية وأخلاق الإقطاعية.

أما الإقطاعي فماذا يريد؟ لماذا هو في صراع مع الدين؟ وكما قلتُ فإن الدين والمذهب الكاثوليكي كان الحامي والمدافع عن الطبقة الإقطاعية، وهذه الطبقة يجب أن تزول ويجب أن يتحوّل المجتمع إلى مجتمع مادي وسوقي يعني برجوازي باستهلاك حديث. أما ماذا كان سلاحهم؟

أولاً: الترقي، ثانياً: العلم، ثالثاً: الحرية، رابعاً: الواقعية المادية. ومن ثم وفي القرنين الثامن عشر والتاسع عشر أضافوا لهذا «لذة الحياة» (Douceur De vie) وأصالة الفرد، والمدار الذاتي أو المحور الذاتي (بمعنى أن فلسفة الجنة الموعودة في الأديان موجودة على الأرض) يعني أصالة الاستهلاك تحل محل جميع الأصالات الفلسفية والأخلاقية والدينية وما هو وراء الطبيعة، بمعنى عدم الالتزام بجميع الأقوال والاتجاهات والقيود والعقائد والفضائل والقيم، وهذا يعني أن كل شيء موجود هو هذا الذي نعيشه الآن. كانت هذه هي الأصول البرجوازية.

إن البرجوازية استفادت من العلم كسلاح بيدها لمحاربة الدين في القرون الجديدة. ولم يكن العلم نفسه بضرورياته وعلله

وحركة الطبقات فيه مخالفاً للدين، وإنما كان عنوان الدين بهذه الصورة سلاحًا بيد الإقطاعية، وعنوان العلم أصبح سلاحاً بيد البرجوازية.

وكما قلنا، فإن هدف العلم هو القضاء على الدين لأنه يُعتبر البنية التحتية للطبقة الإقطاعية، وكذلك كان هدف البرجوازية إيجاد جنة برجوازية على الأرض.

أما ماذا تعني البرجوازية؟ تعني إيجاد فلسفة خاصة للحياة المادية. أما أي فلسفة؟ هي فلسفة الرفاه في الحياة والاستهلاك المادي، حيث إن الشعار القديم يقول: «نعيش حتى نعرف الحقيقة» أما شعار الدين الجديد فقد جاء بهذه الصورة «نعرف الحقائق حتى نعيش حياة سعيدة» «الاستهلاك صار من أجل الحياة» (الحياة من أجل الاستهلاك)، فصناعة وسائل الحياة أصبحت من أجل كسب الراحة ـ التضحية بالسعادة من أجل توفير وسائل الحياة ـ وبالأخير شعار «العلم يبحث عن الحقيقة» صار طريقه منحرفاً فأصبح الشعار «العلم من أجل كسب القوّة»، إن المكان المناسب لهذا الشعار «جنة البرجوازية» هو هنا على هذه الأرض. لأن الجنة التي تحدّث عنها الدين وقال إن الحصول عليها إنما يكون بالحب، والعبادة والتضحية وكسب الفضائل الأخلاقية، والتعالي الروحي والمعنوي، والماضي، والشهادة، والطهارة والابتهال، والكمال الإنساني، إن جزاء

كل هذه الأعمال يكون الجنة. أما البرجوازية وفلسفتها الجديدة فتقول، نحن نبني تلك الجنة على الأرض، ولكن بمساعدة أي شيء؟ فلا حاجة لجميع تلك الأمور بل نحتاج فقط لشيئين وهما، المال والعلم، وإن المال والعلم ينتقلان من يدٍ لأخرى حتى يتحولا إلى فنٍ وتكتيك وهذا التكتيك ـ أو الصنعة ـ يحل محل الدين.

إن البرجوازيين، هم الذين ألّفوا وجمعوا بين العلم وأصحاب رؤوس الأموال، من ترابط العلم والمال وهذا ترابط غير مشروع، فولّدا صنعةً أو تكتيكاً جديداً، لهذا فإن هذه الآلة متولدة من ترابط غير مشروع فهي ليست شرعية، فحينما يرتبط العلم وصاحب المال بعقدٍ ورباط، فأيهما الرجل وأيهما يمثّل دور المرأة!

لذلك، فإن رسالة العلم الجديدة هذه، وهي مخالفته للمذهب والدين، وادعاء العلم بأنه هو الذي سيهدي البشرية ويقودها لم يكن منه، وإنما هذا هو ادعاء البرجوازية، حتى يتمكّنوا من إيجاد أرضية خصبة لهم، وحتى يُحكموا سيطرتهم وقبضتهم على الأموال في العالم، أما الشعار الجديد الذي أعلنوه للبشرية فهو شعار القدرة والثروة، وهذا الشعار شعار برجوازي أيضاً. أما العالم فكان يردد هذا الشعار أيضاً ونحن إلى الآن لا زلنا نصدّق به، وكما يقول الشاعر:

العلم والطلب مثل الورد والنرجس
لا يزرعان في مكان واحد
وكل عالم لا يطلب الطلب
وكل طالب طلب، علمه قليل

فالعلم والمادة، مثل ورد النرجس والورد الأحمر، لا يمكن أن يُزرعا في مكانٍ واحد[١]، لذلك فكل من يمتلك العلم لا يمتلك المادة، وكل من يطلب المادة فليس عنده علم. أما في هذا المجال فلم يكونا بهذا الشكل ـ وإن هذين المتضادين ـ العلم المخالف للمادة والذي لا يرتضي الحياة المادية، وكذلك الحياة المادية التي ليس لها حاجة للعلم والعلماء ـ نراهما اتفقا وأسّسا شركة مشتركة بينهما ـ حيث وضعا قيوداً جديدة وأوجدا إنساناً جديداً اليوم، وذلك بإيجادهم حياة استهلاكية بمساعدة العلم للمادة. هذه الفلسفة الجديدة هي الحياة، أما شعارها فكان شعاراً علمياً.

لم يكن العلم مخالفاً للدّين فقط، وإنما كان غير متفق مع

(١) صنّف «ابن طيفور» كتاباً بعنوان «فضائل الورد على النرجس»، بيّن فيه خصائص الورد، وخصوصاً الورد الأحمر الذي ذكره الله سبحانه في كتابه العظيم في سورة الرحمن بقوله عزَّ مِن قائل: «فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ» أي: وردة حمراء كما يقول المفسّرون.. وقيل: «الورد الأحمر مَلِكُ الرياحين».. أما سبب عدم إمكانية زرع النرجس مع الورد في مكان واحد فهو يعود إلى أن النرجس يحتوي على عُصارة تؤذي بقية الأزهار.

الفلسفة والأخلاق وهذا لم يكن من باب الصدفة، لأنه كان يغيّر في روحيته ونموه، والعلم لا يعني معرفة الحقائق وباطن الأشياء، ومعرفة حقيقة الإنسان والحياة والهدف. وأخيراً، العلم لا يهدف إلى البحث في بواطن وذوات الأشياء وإنما يقول أنا أبحث وأهتم فقط بالظواهر وخواص الأشياء الظاهرية والروابط فيما بينها، وكشف قوانين الطبيعة المادية، وهذا ليس لمعرفة الحقيقة ولكن من أجل استخدامها في كسب القدرة والمنفعة.

نرى أن هذا التصور، هو تصور البرجوازية التي تقلّد العلم، العلم الذي لا يحتاج في أي وقت من الأوقات إلى كشف الأسرار ومعرفة المجاهيل ولا يحتاج إلى مسألة ما وراء الطبيعة ولا يهتم بمسألة ما بعد الموت. لأنه بعد الموت لا توجد قيود، كل ما في الأمر هو هذه الدنيا ولا يوجد سواها، حيث نحن فيها والعمر مشخص أيضاً، وأن الإنسان وحياته فقط في هذه الدنيا حيث يجب أن يكون سعيداً فيها، وطريقه الذي يجب أن يسلكه هو تأجيج هذه الحياة واستهلاكاتها، وأما الوسيلة التي تتحقق بها هذه الأمور فهو العلم فقط، وهذا كله يصبّ في منفعة الطبقة البرجوازية الثرية.

لماذا يسعى البرجوازي إلى تقوية فلسفة أصالة الاقتصاد وأصالة الاستهلاك؟

إن العلم يقول خلاف ما قاله الدين، فهو يقول إنه بواسطة المال، وبمساعدة التفنّن والآلة ومعرفة هذه الطبيعة

واستخدامها، يمكننا أن نبني جنة، أين الجنة؟ في هذا المكان، وببساطة من خلال القليل من العمل والتكنولوجيا، فإنه من الممكن عن طريق استهلاك أكبر، وحياة سعيدة ومرفّهة، أن نصل إلى الرفاه الاقتصادي[١].

إن العلم الذي كان يعترف بالفضائل الروحية والقيم المتعالية والنظريات فوق الطبيعية للإنسان، وكان يعتبر الإنسان مظهراً للإله ويمتلك روحاً إلهية، نرى وبصورة مفاجئة أنه يتراجع عن هذه النظرة ويقول إنّ الإنسان حيوان اقتصادي (!) وإذا تمّ تأمين احتياجاته المادية فهو لا يحتاج إلى شيء آخر. ما هو السر في تغيير العلم لنظرته السابقة فجأةً؟ فنظرته تغيرت وأصبح الإنسان في نظره حقيراً وفقد صفاته المتعالية، السر هو أن العلم خرج من خدمة الدين إلى خدمة المال، هذا من جانب، ومن جانب آخر فإن العلم قضى على تلك الأفكار مثل التقوى، الأخلاق، التكامل الإنساني، غداً[٢]، ومصير الإنسانية، ومعرفة العالم وسرّ الوجود وحقيقة الوجود والطريق الصحيح، وما يجب أن يكون، فكل هذه الأمور خرجت من

---

(١) والرفاه الإقتصادي هو الجنة على الأرض. لأن الإنسان هو حيوان اقتصادي.

(٢) غداً: تحتمل معنيين؛ المعنى الأول هو عدم الاهتمام بما بعد الموت، والثاني: عدم الاهتمام بالغد الفعلي لأن البرجوازي يعيش يومه بكل ملذاته ولا يفكر إلا في إطار اليوم وحدوده. وسيُلقي الدكتور شريعتي مزيداً من الضوء على هذه الأفكار والمفاهيم في الصفحات المقبلة.

قاموس العلم، والوسوسة[١] التي كانت في نفس الإنسان وذاته وكانت الفلسفة والدين يجيبان عليها، استطاع العلم أن يقضي عليهما[٢]، لماذا؟ لأنه جعل الإنسان طعمة لرغبات البرجوازية، وقيّده أيضاً بالاستهلاك الاقتصادي والإنتاج، ومن جانب آخر فإن البرجوازي استطاع أن يحقق رغباته وأفكاره بمساعدة وقدرة العلم والمنطق الذي يتبناه هو.

لقد كان شعار ثوار القرن السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر وأوائل القرن العشرين هو: أيها الناس، لا يوجد شيء، يجب أن تتحرروا من الوسواس والأوهام، ويجب أن لا تأخذوا بنظر الاعتبار هذه الأقوال، فإنها جميعاً من أساطير الدين وخرافات الفلسفة. الحياة الواقعية هي هذه الحياة التي نأكل ونشرب فيها، ونُشبع غرائزنا الأخرى، وهذه هي غايتنا ولا يوجد سواها.

هذه الادعاءات هي ادعاءات العلم، ولكن حقيقتها ترجع إلى البرجوازية. البرجوازية التي رفعت شعارات الحياة وإيجاد الجنة على هذه الأرض، وكذلك فلسفة أصالة الاستهلاك، ماذا كانت نظريتهم في الحياة؟ كانت، الاستهلاك الكثير.

ولكن أي استهلاك وأي توسعة؟ الاستهلاك والتوسعة التي

---

(١) الوسوسة بمعنى: التفكير المستمر

(٢) عليهما: أي على الدين والفلسفة.

تأتي عن طريق، مساعدة العلم للبرجوازية ومساعدة البرجوازية للعلم أيضاً، يريدون البناء. ما هو نوع التوسعة؟ توسعة مادية حيث لا يمكن للإيمان أن يبنيها، فالأموال تبني أو توجد اللوازم الضرورية، وهذه الحاجيات واللوازم هي احتياجاتنا وإذا صار هناك إشباع من هذه الحاجيات فسوف توجد احتياجات أخرى جديدة، وأيضاً سوف يتم إشباعها بالإنتاج. أما وسائل الإعلام فما هو عملها؟ فإذا كنت جالساً في منزلك وجميع متطلبات الحياة كانت متوفرة وكافية عندك، ولا يوجد عندك ضرورة لحاجة أخرى، ولكنك حينما تفتح المذياع أو التلفاز فإنك سوف تجد نفسك أمام بضائع جديدة وأنك ستكون بالإجبار محتاجاً إليها. وفي اليوم التالي سوف تذهب أنت أو أحد أفراد عائلتك لتأمينها، وهكذا يجعل منك الإعلام باحثاً على الدوام عن الجديد من الإنتاج، وهذا هو عمل البرجوازي حيث يجعل الإنسان دائماً محتاجاً، ويبحث عن تأمين هذه الاحتياجات بشكل دائم.

كان هناك معرض في أوروبا عام ١٩٦٢ وكان يختصّ باللوازم المنزلية، وقد تأملتُ مع نفسي كم هي احتياجات المنزل حتى يكون لها معرض خاص بهذا الحجم؟ وفي السنة القادمة ذهبت لمشاهدة هذا المعرض، رأيت بعض وسائل وأدوات تناول الطعام والتي كنّا نعتبرها محدودة، رأيت أن هناك أشياء جديدة.

مثلاً، رأيت هناك ملقطًا وهذا يستفاد منه في التقاط أو أخذ قطعة الزبدة أو الجبن ووضعها على الخبز أو الطعام، وكانت أنواع أو وسائل الاستفادة من استعمال الزبدة في السنة الماضية لا تتعدى ٣ أو ٤ أنواع، ولكن هذه السنة كانت ما بين ٧٠٠ـ ٨٠٠ وسيلة، وهذا مما يجعل الإنسان في حيرة بحيث كانت هناك شعبة خاصة باسم وسائل أو أدوات الاستفادة من الزبدة. فبينما كان الرجل أو المرأة يتناولون قطعة الزبدة بواسطة ملعقة الطعام هذه، أما الآن فإن الزبدة التي تريد تناولها، إن كنت تريد تناولها على شكل وردة فعليك استعمال هذه الوسيلة وأما إذا كنت تريدها على شكل نجمة فعليك بهذه الأداة، وهكذا فإن لكل شكل أداة خاصة به، وإذا لم يتمكّن الإنسان من شرائها كلها فعلى الأقل يشتري منها عشرة أو اثنتي عشرة وسيلة، لأنه لم يعد لائقاً الآن أن نستعمل الملعقة لأخذ قطعة من الزبدة أو الجبن.

نرى أن هذا لم يكن الشيء الوحيد الذي يقدمه لنا البرجوازي، فهناك احتياجات جديدة سوف تظهر لأن العلم أصبح تحت تصرفه، وكل شيء أصبح تحت نظره، علم الاجتماع وعلم النفس وعلم التعقيدات، والأدبيات والتبليغات والفن، كل شيء أصبح تحت اختياره، لذلك فهو يوجد لنا هذه الاحتياجات حتى يرفع احتياجاته هو.

تمرد آدم اليوم أو (العصر الجديد) في جنة البرجوازية:

من حسن الحظ أن نكون نحن جيلاً موفقاً، وأحياناً نتحمل آلاماً أكثر من أي جيل في التاريخ، جيل موفق من جهةٍ أننا رأينا انتهاء عصور معاناة الإنسان، ولكن لم تكن هذه المعاناة والآلام الحقيقية أفضل من الآمال والوعود الكاذبة! ألم تكن الولادة أو الوجود الواعي أفضل من ولادةٍ أو وجودٍ لا يصاحبه ألم ومعاناة، ولكن غير واعٍ؟ أنا سعيد جداً لأنني ولدت أو لأنني موجود في منتصف القَرن العشرين ولم أكن موجوداً في القرن التاسع عشر، لكنتُ حينها أعمل مبلّغاً لتلك الجنة التي أراد بناءها البرجوازيون على الأرض في القرن العشرين والواحد والعشرين. والآن حيث إن تلك الجنة التي تحدّوا بها الآخرين موجودة، ونراها وقد مرّ عليها ثلاثة قرون من العلم ومثَلها مثَل عجل السامري، حيث إن المال صار عجلاً ذهبياً، ولكنه كان خدعة ولا يمتلك روحاً ولا روحانية ولا معنوية، فاليوم تعطي المصارف أموالاً كاذبة، والمغلوب على أمرهم يأخذونها ويسجدون أمامها.

فماذا تعني الجنة التي أنشأها البرجوازيون اليوم؟ إنها لا تعني أنها لجميع الناس، كلا، إنها جنة للبرجوازية، فهذه الحياة المرفّهة والنعمة الموفورة التي تسقط على أوروبا لم تأتِ من الهواء، بل جاءت من معاناة ومجاعة مليار ونصف إنسان. أما برجوازيو أوروبا قبل ثلاثة قرون مضت فقد أخذوا كل ما عند

هؤلاء، ألماس تانزانيا[١]، وقهوة الكاميرون[٢]، وقصب سكر كوبا[٣]، وشراب الجزائر[٤]، وشاي الهند[٥]، وكاكاو

---

(١) تنزانيا: قطر كبير في شرقي إفريقيا، يطل على المحيط الهندي. يقع معظم القطر داخل أراضي القارة الإفريقية، كما يضم الجزر المجاورة. العاصمة هي (دار السلام). تشتهر بثروتها الماسيّة. واسم الدولة الرسمي هو (جمهورية تنزانيا المتحدة).

(٢) الكاميرون: بلد يقع على الساحل الغربي لإفريقيا، وعاصمتها (ياوندي) وقد حكمت بريطانيا وفرنسا الكاميرون في الفترة الواقعة بين عامي ١٩١٩م و١٩٦٠م، حيث نالت استقلالها. وتعتمد الكاميرون في زراعتها على: الموز، الكاكاو، الفاصوليا، الشاي، القطن، الفول السوداني.

(٣) دولة في جزر الهند الغربية على بُعد حوالي ١٤٠كم جنوبي ولاية فلوريدا الأميركية. (هافانا) هي العاصمة وهي أكبر مدينة في كوبا. تُعد كوبا من أجمل جزر الأنتيل. يتميز مناخ كوبا بالاعتدال والصفاء والأمطار الغزيرة في موسم الصيف. وهذا المناخ بالإضافة إلى التربة الخصبة ساعد كوبا على أن تصبح أكبر مصدِّري سكر القصب في العالم.

(٤) الجزائر: دولة عربية ظلت تُعرف باسم المغرب الأوسط حتى دخولها تحت الحكم العثماني من القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي).
الجزائر هي ثانية كبرى دول إفريقيا من حيث المساحة بعد السودان. سكان الجزائر من العرب والبربر، وحّدهم الدين الإسلامي وجمعتهم اللغة العربية. خضعت الجزائر للإحتلال الفرنسي طوال ١٣٠ سنة، وانتزعت استقلالها عام ١٩٦٢ بعد كفاح مرير وتضحيات جسام استشهد فيها مليون ونصف المليون شهيد.
لا أدري ـ ولعمري ـ ما الذي قصده المترجم من عبارة (شراب الجزائر)، ويبدو ـ والله العالم ـ بأنه يقصد الغاز والنفط. أو الزئبق أو الفوسفات أو التمور!.

(٥) الهند: دولة تقع جنوبي آسيا وهي ثانية أكبر دولة سكاناً في العالم بعد الصين. تتباين الهند من حيث الأرض والسكان، وينتمي السكان إلى عدة مجموعات عِرقية ودينية، ويتحدثون لغات ولهجات مختلفة، =

فيتنام[1]، ونفط الشرق الأوسط، فالدنيا كلها مزرعة هؤلاء ومحل أكلهم وشربهم ونومهم، وإن جميع الشعوب هي محل استثمار هؤلاء البرجوازيين، فصار الناس عمالاً لهم بدون مقابل، وخدماً لجنّتهم الوهمية، وعلينا أن ننظر كيف يعيش الإنسان الأوروبي، شيء عجيب! هذه هي خلاصة الكلام.

لقد وصل هذا الإنسان إلى نهاية الشعارات التي ردّدها طيلة

= ويتفاوت السكان تفاوتاً كبيراً من حيث مستوى المعيشة والثراء والفقر والتعليم. ولا تُعد الهند من الدول الغنيّة على الرغم من وفرة مواردها الطبيعية التي لم تُستغل في معظمها، مما جعل مستوى معيشتها متدنياً.
بقيتْ الهند مستعمرة بريطانية منذ القرن الثامن عشر الميلادي إلى أن نالت استقلالها عام ١٩٤٧م. وبعد الاستقلال سعت الحكومة لتنمية البلاد وتحسين مستوى المعيشة للمواطنين، كما عملت على تطوير الهند إلى مصاف الدول الصناعية الكبرى، حيث أنشأت المختبرات الذرية، وأطلقت الأقمار الصناعية لأغراض الاتصالات والأرصاد الجوية.
نجد أن صادرات الهند الرئيسة تشمل: البن، والمنسوجات القطنية، والماس، والصناعات اليدوية، وخام الحديد، والشاي، والتبغ، والمنتجات الجلدية وغيرها.

(١) فيتنام: دولة من دول منطقة جنوب شرق آسيا. وهي ذات مناخ مداري، وتمتد إلى الجنوب من الصين في شكل منحنى ضيّق وطويل مماثل للحرف اللاتيني (S) ـ (إس) وهي محاطة من الجهة الغربية من دولتيْ لاوس وكمبوديا. وعاصمتها (هانوي)، بينما تعتبر مدينة (هوشي منه) كبرى مدن البلاد.
يعيش معظم السكان في القرى المنتشرة على السهول الساحلية ودلتاوات الأنهار، حيث يُزرع الأرزّ وبعض المحاصيل الأخرى (ويبدو أن منها الكاكاو!) في الأراضي الخصبة. وبالنسبة لقطاعات واسعة من سكان السواحل، يُشكل صيد الأسماك أهم وسيلة لكسب العيش.

ثلاثة قرون، بمعنى أنه وصل إلى قمة الاستهلاك بحيث أصبحت اليوم نسبة عشرة في المائة من الإنتاج الاقتصادي له، فقط للاستهلاك العيني والأساسي، وتسعين بالمائة هي كلها أمور تقنية، فهو قد أكثرَ من هذا الاستهلاك فماذا يريد ثانية! والعلم وصل إلى نهاية نظرياته وادعاءاته من أجل إيجاد تقنية على وجه الأرض لخدمة الحياة المادية والقوى الطبيعية، وصار موفقاً أيضاً، واستطاع أن يبني حياة تعتمد على أصالة الاستهلاك.

أما ذلك الأمر الذي لم يُتوقع ولا يمكن توقعه، وهذا الأمر هو من أكبر حقائق الحياة في القرن العشرين وإنسان اليوم، هو تمرّد هذا الإنسان في مثل هذه الجنة البرجوازية، بالضبط مثلما تمرّد آدم في جنّته على حدّ تعبير القرآن، كان له كل شيء وكان يستطيع أن يتناول كل ما يريده، ومع كل هذا تمرّد وعصى وأكل من الشجرة الممنوعة. وإنسان اليوم بشكل عجيب مرتبط بالحياة الاستهلاكية وبالبرجوازية المتحضِّرة، فهو يعيش في المرحلة الإمبريالية العالمية(١) ولديه تسلّط على الأرض والسماء،

---

(١) الإمبريالية: هي سياسة توسيع السيطرة أو السلطة على الوجود الخارجي بما يعني اكتساب أو/ وصيانة الإمبراطوريات. وتكون هذه السيطرة بوجود مناطق داخل تلك الدول أو بالسيطرة عن طريق السياسية أو الاقتصاد. ويُطلق هذا التعبير على الدول التي تسيطر على دول تائهة أو دول كانت موجودة ضمن امبراطورية الدولة المسيطرة، وقد بدأت الإمبريالية الجديدة بعد عام ١٨٦٠ عندما قامت الدول الأوربية الكبيرة باستعمار الدول الأخرى. أُطلق هذا التعبير في الأصل على إنكلترا =

= وفرنسا أثناء سيطرتهما على أفريقيا ويعتبر البعض أن وجود الإمبريالية مترابط مع الرأسمالية لأنها تستخدم الدول المستعمرَة على أنها أسواق جديدة أو مصادر لمواد أولية.
ويمكن تعريف الإمبريالية: على أنها مرحلة متقدّمة من الرأسمالية ظهرت مع تَدَرّج تطور الاقتصاد الرأسمالي، بدءاً من مراحلها الدنيا وهي مرحلة التنافس التجاري والاقتصادي ومبدأ السعر والربح، أي السلعة - المال - السلعة، إلى المرحلة المتوسطة وهي مرحلة الاحتكار كأعلى درجات المنافسة، انتقالاً إلى المرحلة العليا وهي الإمبريالية التي اتسمت بتجمع الشركات الوطنية العملاقة في «كارتلات»، وتَجَمُّعْ الشركات والمؤسسات الوطنية المتوسطة في اتحادات، ليتحول الاقتصاد إلى مبدأ المال - السلعة - المال، وبدايات اقتصاد تصدير المال «رأس المال المالي».. ووصولاً إلى أعلى مراحل الإمبريالية والمتمثلة في ظهور الاحتكارات العالمية، وخروج الشركات العملاقة وكارتلاتها من النطاق الوطني إلى العالمي لتتكوّن الشركات المتعددة الجنسيات والعابرة للقارات.. وعندها بدأت الآليات الاقتصادية لهذه المرحلة الإمبريالية بالوضوح والانتشار، فظهرت السياسات المالية «صندوق النقد الدولي، البنك الدولي»، والاتفاقيات التجارية (الجات، اتفاقيات التجارة الحرة..)، والمعاهدات الدولية (معاهدة الحد من انتشار الأسلحة النووية، معاهدات الدفاع المشترك، معاهدات الأمم المتحدة..). ولكن هذه المرحلة الإمبريالية انتهت عند الحرب على العراق لتضع حدّاً فاصلاً لكل ما سبق من تلك النُظم الاقتصادية وتبدأ مرحلة جديدة، وهي مرحلة الإمبريالية المتوحشة التي اتخذت من أحداث ١١ سبتمبر/أيلول ٢٠٠١ ذريعة لتعلن الولايات المتحدة عنها تحت شعارها الجديد «مَن ليس معنا فهو ضدنا»، وتبني عليه آليات جديدة لم يعهدها العالم من قبل.
وأهم تلك الآليات التي نعيشها اليوم هي الحرب الاستباقية، والحرب الوقائية، وتغيير العقيدة النووية من دفاعية إلى هجومية، ومباديء الحرب الاستثنائية التي لا يحق لغير الولايات المتحدة اعتمادها.

واستطاع أن يصل إلى جميع النِّعم البشرية الموجودة في الدنيا، ويأكل منها، ومع ذلك يتمرّد، تمرد في الحياة المرفّهة وفي النِّعم والرخاء. أما ما هي الفاكهة التي من الممنوع على إنسان اليوم أن يتناولها؟ إنها المعرفة الإنسانية. الصحوة المفاجئة والإحساس بأن كل ما قاله العلم له خلال تلك القرون الثلاثة كان كذباً، لقد أصبح عبداً لأصحاب رؤوس الأموال ولم يكن مهتدياً وإنساناً عابداً، ولم يقولوا له إنك إنسان وماذا يعني هذا؟ هذا يعني أن شعار القوة والاستهلاك لإنسان اليوم لم يعُد كافياً، لأنه وصل إلى هذين الأمرين ويريد شيئاً آخر.

إن هذا الشعار وهذا العصيان من حين شروعه سوف يزيل كل معاناة الإنسان المادية المؤقتة وكذلك المجاعة في هذا العالم، ومن ثم تكون هناك حاجة، لإيجاد نظرة عن العالم حيث بواسطتها تتم معرفة العالم وفهمه، تلك النظرة التي أخفاها وكتمها العلم لمدة ثلاثة قرون، وصار الناس يهرعون خلف الإشاعات وخلف النظرة الثقافية التجارية البرجوازية المخرّفة.

ما هو معنى العيش أو الحياة؟ لماذا يجب أن تكون؟ وهذه الحياة بهذه القدرة وهذا الرفاه الذي يمرّ ما هي جهته؟ في هذه الحياة إلى أي جهة نتّجه؟ إلى جهة الإيمان، النظريات، القيم، الأخلاق، الروح، المحبة، العبادة والاعتقاد! الفضيلة والاحتياجات المهمة! إن كل هذه الأمور ينفيها العلم الذي ينظِّر

له البرجوازيون الماديون، ما هو الشيء الذي يجب أن يكون الخليفة؟ الاستهلاك مرة أخرى؟ يعصي! فلا يستطيع العلم أن يعطيه جواباً ولا التكنولوجيا ولا حتى العلوم الإنسانية، إن كل هذه الأمور هي أدوات بيد الحياة الاستهلاكية والحياة الاستهلاكية هي حياة واحدة. أما اليوم، فالبرجوازي وصل إلى نهاية رسالته، وهذا على عكس القرن السادس عشر والسابع عشر حيث كانت الأمور في قيد الأماني والأحلام وكان إيمانه بالمستقبل ضعيفاً، أما اليوم فهو في مواجهة العجز والخسران، ويواجه الزوال، لذلك فهو يلجأ إلى الحيلة والجرائم الكبرى.

البرجوازي الذي كان بالأمس يواجه الرجعية[١] والدكتاتورية[٢] والأشراف القدامى واستطاع أن يفجّر الثورة

---

(١) الرجعية: هي اصطلاح سياسي يُقصد منه معارضة الإصلاحات الحديثة، والتمسك بالأسس والأساليب والمبادئ القديمة في المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

(٢) الديكتاتورية: نظام حكم يتمتع فيه شخص بمفرده بجميع الصلاحيات في حكم دولة ما، سواء مارس هذه الصلاحيات شخصيًا، أو من خلال عدد من أعوانه. من أبرز صفات الديكتاتورية تقييدها للحريات العامة، وسيطرتها المطلقة على كافة الأجهزة، والقوات المسلحة، وعلى وسائل الإعلام. وتنشأ الديكتاتورية عادة، عندما تنهار الأنظمة الديموقراطية لأسباب اقتصادية أو اجتماعية، أو عندما يتعرض هذا البلد لهزيمة عسكرية كبيرة. والديكتاتور أو الحاكم المستبد يكون هو صاحب السلطة المطلقة. ويُطلق لفظ «ديكتاتور» على كل طاغية أو حاكم بأمره يحكم بلده بعيداً عن شعبه.

الفرنسية الكبرى[١]، نراه اليوم أصبح فاشستياً[٢] وبدأ بأكل الأمم ولم يستطع أن يقف على رجليه إلا بمساعدة الحرب والاستعمار والقتل العام للعالم، أما العلم فنراه اليوم على خلاف القرنين الخامس عشر والسادس عشر، فقد كان يرتاح للمواجهة مع القرون الوسطى ومع العلوم القديمة وإسقاط القدرة العظيمة للكنيسة، وكان يقدِّم اختراعه وتطوره في الخفاء، أما الآن فقد

---

(١) الثورة الفرنسية: تُعتبر فترة تحولات سياسية واجتماعية كبرى في التاريخ السياسي والثقافي لفرنسا وأوروبا بوجه عام. ابتدأت الثورة عام ١٧٨٩ وانتهت تقريباً عام ١٧٩٩. عملت حكومات الثورة الفرنسية على إلغاء الملكية المطلقة، والامتيازات الإقطاعية للطبقة الارستقراطية، والنفوذ الديني الكاثوليكي. وأدّت الثورة إلى خلق تغييرات جذرية لصالح «التنوير» عبر إرساء الديمقراطية وحقوق الشعب والمواطنة، وبرزت فيها نظرية العقد الإجتماعي لـ جان جاك روسو، الذي يُعتبر منظِّر الثورة الفرنسية وفيلسوفها. في السنوات الـ ٧٥ التالية للثورة، حدثت في الحكومة الفرنسية عدّة تقلبات بين الجمهورية والدكتاتورية والدستورية والإمبراطورية، إلا أن الثورة بحد ذاتها شكلت حدثًا مهمًا في تاريخ أوروبا، وتركت نتائج واسعة النطاق من حيث التغيّر والتأثير في الدول والشعوب الأوروبية.

(٢) الفاشية: اصطلاح الفاشية «fascism» مشتق من الكلمة الإيطالية fasces، وهي تعني حزمة من الصولجانات كانت تُحمَل أمام الحكام في روما القديمة دليلاً على سلطاتهم. وفي تسعينيات القرن التاسع عشر بدأت كلمة فاشيا «fascia» تُستخدم في إيطاليا لتشير إلى جماعة أو رابطة سياسية عادة ما تتكوّن من اشتراكيين ثوريين. يفتقر توظيف اصطلاحي «الفاشية» «fascism» و«الفاشي» «fascist» إلى الدقة، فكثيرًا ما تستخدم كاصطلاحات تهدف إلى الإساءة السياسية للخصوم السياسيين والاتهام لهم بالدكتاتورية ومعاداة الديمقراطية.

وصل إلى طريق مسدود بحيث إن (برشت)[1] يقول: إن إنسان اليوم أصبح متضايقاً من العلم، لأن العلم كان قد أوجد الفاشية وكذلك فرض حربين على البشرية، وكان السبب وراء هذه المجاعة. فالأرض وبهذه الوسعة نجد أن بين كل ثلاثة أشخاص شخصان في حالة مجاعة ونقصٍ في الغذاء، العلم الذي أوصل الاستثمار الطبقي ومحلات الربح الإضافي إلى هذا الحد. العلم الذي أوصل الاستعمار من صورته البدوية البسيطة إلى استعمار ذي جذور عميقة وقوي ومُحكم، العلم الذي أوجد الاستعمار الثقافي للعالم، العلم الذي جعل من أوروبا حيوانًا متوحشًا وحوّل العالم الثالث إلى أغنام مهزومة وقد شدّ الذئب في وسطها. نعم العلم الذي يقول ويدّعي كاذباً أنه تحرّر من قيود الدين.

ولكن ما نراه اليوم هو فقط تغيير الأسياد، وعبادة المادة أصبحت مكان عبادة الإله بحيث يفعل بها ما يشاء، يمسخ الإنسان ويبنيه مثلما يرغب البرجوازي ويريده.

لذلك فإن احتياج الإنسان اليوم للدين من أجل الإجابة على سؤالين. أولهما: إعطاء صورة واضحة عن الرؤية الكونية، وكما

---

(١) برتولت بريخت Bertolt Brecht: (ولد في أوغسبورغ في ١٠ فبراير ١٨٩٨ - مات في برلين في ١٤ أوغسطس ١٩٥٦) هو شاعر وكاتب ومخرج مسرحي ألماني. يُعد من أهم كتّاب المسرح في القرن العشرين. كما أنه من الشعراء البارزين. من زعماء التعبيرية في المسرح الألماني. صاحب مدرسة «الابتعادية».

يقول العلّامة إقبال[١] إعطاء تفسير روحاني عن عالم الوجود بشكل يكون الإنسان حراً، وهو بقوله هذا يقول الواقع حتى لا يحسّ الإنسان أنه في هذا الوسط حائر ومجهول. الأمر الثاني: تبيين هدف الوجهة الإنسانية لوجوده، لأن إحدى خصوصيات الإنسان والتي تميّزه عن بقية الحيوانات الموجودة هو أنه يريد أن يعرف وأن يتحقق، لأن الإنسان حينما يقولون له عشْ، أو استمرّ في الحياة، فهو قبل أن يسأل كيف؟ يسأل لماذا؟

لهذا فلا نكتفي أن نعلّم الإنسان كيفية إدامة الحياة.

وحينما يكون الإنسان جائعاً فهو يبحث عن المواهب العادية للحياة ويسعى دائماً لرفع معاناته، ولكنه يكون فارغاً عن الأسئلة القليلة. ولكنه حينما يؤمن، فهنا تظهر مسألة أنه إنسان وأين كان. لأن الدين الحقيقي والإحساس الديني المطلقْ، هو الأكثر احتياجاً وجديةً اليوم من غيره.

---

(١) محمد إقبال اللاهوري: هو إقبال ابن الشيخ نور محمد، كان أبوه يُكنّى بالشيخ «تتهو» أي الشيخ ذي الحلقة بالأنف ولد في سيالكوت ـ إحدى مدن البنجاب الغربية في الثالث من ذي القعدة ١٢٩٤هـ الموافق ٩ من تشرين أول نوفمبر ١٨٧٧م وهو المولود الثاني من الذكور. رحل إقبال إلى أوروبا وحصل على درجة الدكتوراه من جامعة ميونخ في ألمانيا، وعاد إلى وطنه ولم يشعر إلا أنه خُلق للأدب الرفيع والشعر البديع وكان وثيق الصلة بأحداث المجتمع الهندي حتى أصبح رئيسًا لحزب العصبة الإسلامية في الهند، نادى بضرورة انفصال المسلمين عن الهندوس ورأى تأسيس دولة إسلامية اقترح لها اسم باكستان، توفي إقبال ١٩٣٨ بعد أن ملأ الآفاق بشعره البليغ وفلسفته العالية.

المسألة الأخرى والتي يجب معرفتها بدقّةٍ ووعي، هي الدين والأديان، وحينما نبحث تاريخ الأديان فإن هذه الحقيقة الكبيرة تعطينا صورة واضحة، وهي أن التاريخ في مسيره يمتلك حركتين؛ إحداهما: جريانه الإنساني، والأخرى: جريانه التاريخي. إن الجريان الإنساني دائماً يمتلك حيوية، وقد يكون إنسان اليوم أكثر حاجة من إنسان الماضي للجريان الإنساني والديني. لماذا هذه الحاجة؟ لأن إنسان الماضي أصبح مشبعاً من التقاليد واحترام الماضي، فالقومية والافتخار بالأرض والدم ملأت رأسه، لذلك هو يسعى أن يحيا حياة غير مادية. أما إنسان اليوم فقد شغلته الاكتشافات العلمية والتكنولوجيا، وهي لم تعد تتلاءم معه، وحتى مع امتلاكه لكل هذه الأمور فهو يظهر تمرّده وعصيانه، العصيان الذي قد يوصله إلى الموت والجنون، والمجتمع والحضارة في حالة تفكيك.

وهذا خلاف الماضي، حيث إن جهل الإنسان في الماضي، وضعفه وخوفه واحتياجاته المادية، كانت مرتبطة بالدين، وكل شيء نريده نأخذه من الدين. أما العلم فإنه هيَّأ الكثير من الاحتياجات، أما الشيء الذي لا يستطيع توفيره وإيجاده فهو الدين المتعالي، الدين الذي يوجّه ويسيّر العالم لإنسان اليوم، ويعطي معنًى للإنسان والحياة، وإنسان اليوم أكثر من أي وقت مضى، بحاجة إلى الدين.

الجريان الثاني: هو الجريان السلبي، الحاكم على التاريخ، والذي يسير على عكس هذه الوجهة الإنسانية، وهو الدين الذي يكون بيد القوى الحاكمة على الناس، والتي تحاول تسيير الوضع الموجود، ولكن بضرر الناس والمجتمع[١].

إن هذين البُعدين الواقعي والحقيقي، لهما حركة مشتركة على طول التاريخ، وفي أكثر الأوقات هما في حالة صراع مع بعضهما البعض، ونحن الآن وفي نهاية تاريخ الدين هذا، نحاول أن نسلّط الضوء على هذين الأمرين.

أولهما: من ناحية ارتباطنا بالزمان، وهذا الترابط هو للبحث وللعثور على شعور وإحساس معنوي وتفسير ما وراء العلم، وللحصول على معنى ومفهوم إيماني روحي، ومحبة متعالية لهذا الوجود.

---

(١) الدين، المؤسسة الدينية، رجل الدين؛ لا يمكن أن تكون هذه التسميات الثلاث أو العناوين الثلاثة بما تمثّله على أرض الواقع، تسعى في ضرر الناس والمجتمع، من هنا، فإن شريعتي من خلال جهازه المفاهيمي ومفاتيحه المعرفيّة، كان يقف وبقوة ضد هذه العناوين، وذلك فقط عندما تتحوّل هذه العناوين إلى أدوات تسبّب الأذى والضرر للناس وللمجتمع.
فالدين في نظر شريعتي، هو الرسالة الإلهية التي أنزلها الله تبارك وتعالى، للناس، من أجل تحريرهم من العبودية لبعضهم البعض، وتحريرهم من الجهل، ومن أجل تخليصهم من قيود الظالمين الذين يتمترسون خلف أثلوث غاشم هو (فرعون، قارون، بلعم بن باعوراء) فيمنعون الناس من العيش بحرية وكرامة، ويستغلونهم، ويذلونهم في سبيل مصالحهم.

وثانيهما: وهو ارتباطنا بتأريخ مشترك، وهذا التأريخ مرتبط بمجتمع وثقافة دينية، حيث إن حركة الدين السلبية على طول تأريخنا كانت لها حاكمية وحركة ضد الدين نفسه، وضد المجتمع والتأريخ وضد حركتنا واجتماعنا، ويجب أن تُوضَّح هذه الحركة وتُعرف. وبسبب هذين العاملين، علينا أن نعرف وندرس تاريخ الأديان، ولكن عن طريق نظرة علمية جديدة. ومن أجل أن يكتمل هذا الأمر فليس لدينا وقت طويل، لذا أنا سوف أقرأ عليكم مواضيع المحاضرة القادمة، وأرجو تثبيت عناوينها.

أولاً: ما هو تعريف الدين؟ التعريفات، التي قالها علماء الاجتماع والفلاسفة والمؤرخون.

ثانياً: العوامل المختلفة، التي طرحت من أجل بحث الدين من قبل الفلاسفة وعلماء الطبيعة وعلماء الاجتماع وعلماء علوم الإنسان، والتي هي عبارة عن عامل الخوف، عامل الجهل، علل الأشياء، المُلكية، نظرية «دوركهايم»[١] (الروح الجماعية المشتركة لمجتمع واحد)، أو بعبارة أخرى وجدان المجموعة أو الجماعة (Conscience collective) ونظرية

(١) إميل دوركهايم (١٨٥٨ - ١٩١٧): فيلسوف وعالم اجتماع فرنسي. يُعتبر أحد مؤسِّسي علم الاجتماع الحديث، وقد وضع لهذا العلم منهجية مستقلة تقوم على النظرية والتجريب في آن معًا.

«ديفيد هيوم»[١] (العامل الطبيعي وأثره في تحول الدين) ونظرية «فرويد»[٢] (العامل النفسي) ونظرية «يونغ»[٣] يعني (الوجدان المذهبي الخاص) أو أحد المجالات الاجتماعية، حيث إن ذلك الوجدان هو أحد مجالات الوجدان الخاصة. وكذلك عامل الفطرة، وأخيراً عقيدة الغفلة واليقظة، وعقيدة ما دون العلم، وعقيدة ما وراء العلم.

«الموضوعات[٤] المقترحة للتحقيق والترجمة والبحث»:

هناك ملاحظة صغيرة وهي أن لا يكون هذا الدرس بهذه

---

(١) ديفيد هيوم (١٧١١-١٧٧٦): فيلسوف إنكليزي من إيكوسيا. بدأ حياته تاجرًا وشغل منصبًا سياسيًا ثم محافظًا للخزانة. يُعتبر أكبر فلاسفة المذهب التجريبي. تأثر به عدة فلاسفة في أوروبا وأمريكا.

(٢) سيغموند فرويد (٦ مايو، ١٨٥٦ - ٢٣ سبتمبر، ١٩٣٩): ولد سيغموند فرويد (Sigmund Freud) في فرايبرغ (Freibberg) وهاجرت عائلته إلى فينا (Vienna). عاش هناك حتى سنة ١٩٣٨، وعندما ضم هتلر النمسا إلى ألمانيا اضطر فرويد إلى تركها بسبب كونه يهودياً وعاش في لندن حتى وفاته بعد ذلك بقليل. درس سيغموند فرويد الطب في فينيا أولاً، ومارس هذه المهنة لسنوات عديدة. ولاحظ صلة وثيقة بين بعض الأمراض وأنماط سلوك مرضاه. ألّف فرويد كتبًا عديدة دار معظمها حول ظواهر «الهستيريا» و«الأحلام»، و«التحليل النفسي». وعرض فرويد نظريته في التحليل النفسي في جامعة كلارك في الولايات المتحدة في عام ١٩٠٩. وأسس جمعية التحليل النفسي في ١٩١٠ في فينا وعمل منذ ١٩١٩ أستاذًا في جامعة فينّا. وعانى من مرض عضال منذ ١٩٢٣ وحتى موته في ١٩٣٩.

(٣) كارل غوستاف يونغ (٢٦ تموز ١٨٧٥ - ٦ حزيران ١٩٦١): كان طبيبًا نفسيًا سويسريًا، يُعتبر مؤسِّس علم النفس التحليلي.

(٤) نفضّل التعبير بـ (المواضيع) بدلاً من (الموضوعات).

الكيفية، حيث أحضر كل خمسة عشر يوماً وأعطي درساً، فأنتم يجب أن تعرفوا أن لهذه المؤسسة برامج مختلفة تجريها بصورة مستقلة. أما الشيء الذي له ارتباط بنا، هو أننا مسؤولون عن هذا البرنامج، وأريد أن نوسعه وأن لا يعتمد عليّ وحدي فقط، بحيث لا يتمّ إلغاء البرنامج عند عدم حضوري.

وأريد أن أذكر أيضاً بأنه يوجد هنا مكتبة يستطيع الأخوة والأخوات مراجعتها. وهناك مواضيع مختلفة أستطيع طرحها، وأنتم تقترحونها، وهناك مواضيع أخذتها بنظر الاعتبار يمكنكم تدوينها.

لا يمكن أن نبني الإنسان داخل درس جاف، فداخل الدرس يمكن طرح الفكرة فقط، ومن ثم تؤخذ الفكرة ويتمّ مطالعتها والتحقيق فيها، والدرس بدون البحث والتحقيق لا يمكن أن يكون درساً بنّاءً.

المواضيع:

١ ـ **نمو النبوغ وسط التراجع**[١]: أقصد أن هناك ظاهرة خاصة

---

(١) يمتلك شريعتي القدرة على «تليين المفاهيم»، وهذا إن دل، فإنما يدل على «بصيرة استراتيجية واسعة».
من خلال هذا المفهوم وما يليه، يعالج شريعتي بموضوعية شفافة وعميقة، واحدة من أهم الإشكالات التي تطرحها الشركة «السلفية» المحدودة حول قوميّة إيران وفارسيتها المجوسيّة، وأنها أُخضعت بواسطة الفتح الإسلامي للدين الإسلامي، ولكنها عادت إلى مجوسيتها من خلال المذهب الذي يتبنّاه الإيرانيون اليوم أي التشيّع يحلّق شريعتي في تحليل الظروف =

ومحيّرة شاهدناها في تاريخ إيران. إن إيران قبل الإسلام وفي فترة الحكم القومي الخاص بها، لم يكن هناك أي علامات تشير إلى وجود النبوغ فيها، ولكنني أرى أن إيران بعد فتحها من قبل المسلمين وتسلّط العرب الأجانب عليها، وبعد سلبهم من إيران جميع القدرات أو المقدّرات الوطنية والقومية، بحيث إن البدو من العرب كانوا يأخذون الإيراني المتحضِّر على شكل رقيق وعبد، وهذه الفترة تعتبر أصعب فترة هزيمة وسقوط في القرن الأول والثاني والثالث. هنا، يظهر النبوغ الإيراني بجميع أشكاله، فمن الناحية العسكرية مثل أبو مسلم[(١)]، من الناحية الأدبية مثل

= والملابسات التي صاحبت تلك الفترة التاريخية الهامة ويدفع كل الإشكالات المطروحة سابقاً، والتي تُطرح اليوم حول هذا الموضوع. ومن خلال سياق البحث، سنكتشف أن إيران هي إيران الإسلام التي تطمح للعدل والعدالة من خلال مذهب التشيّع، كما كانت تطمح لنفس الهدف عندما رفض مقاتلوها خوض المعركة ضد الإسلام في مرحلة الفتح الإسلامي الأول. أي في معركة القادسية.

(١) أبو مسلم الخراساني: هو أبو مسلم عبد الرحمن بن مسلم الخراساني، صاحب الدعوة العباسية في خراسان، ومن ثم واليها، سياسي وقائد عسكري. كانت هيبته كبيرة، وكان كريماً، زاحم موكبه في الحج موكب أبي جعفر المنصور فاتّجه الناس إليه لكرمه، فأسرّها له أبو جعفر المنصور في نفسه وانتقم منه فيما بعد. كما أنه كان بليغاً قليل الكلام. ولد أبو مسلم الخراساني سنة (١٠٠هـ) في البصرة، وعاش (٣٧ سنة) بلغ بها منزلة عظماء العالم حتى قال فيه المأمون: أجَلّ ملوك الأرض ثلاثة وهم الذين قاموا بنقل الدولة وتحويلها: الإسكندر وأردشير وأبو مسلم الخراساني. وكانت وفاته سنة (١٣٧هـ).

فردوسي[١]، من الناحية العلمية الخوارزمي[٢]، ومن الناحية الفلسفية أبو علي[٣] والرازي[٤]. وخلاصة القول، نرى أن

---

(١) أبو قاسم الفردوسي: شاعر فارسي (٩٣٥-١٠٢٠ ميلادية). ولد في خراسان في قرية قرب مدينة طوس (في إيران اليوم). عاش في حكم السامانيين في حكم الغزنويين. اشتهر بتأليف كتاب «الشاهنامة».

(٢) الخوارزمي: أبو عبد الله محمد بن موسى، كان من أوائل علماء الرياضيات المسلمين حيث ساهمت أعماله بدور كبير في تقدّم الرياضيات في عصره.

(٣) ابن سينا: هو أبو علي الحسين بن عبد الله بن الحسن بن علي بن سينا، اشتهر بالطب والفلسفة واشتغل بهما. ولد في قرية (أفشنة) الفارسية سنة ٣٧٠هـ (٩٨٠م) وتوفي في همذان سنة ٤٢٧هـ (١٠٣٧م). عُرف باسم الشيخ الرئيس وسمّاه الغربيون بأمير الأطباء وأبو الطب الحديث. وقد ألّف ٤٥٠ كتاباً في مواضيع مختلفة، والعديد منها يركّز على الفلسفة والطب، وأشهر أعماله كتاب الشفاء وكتاب القانون في الطب.
* فائدة نحوية: العَلَم المصدَّر بلفظ (أبو) فيه وجهان؛ الأول: أن نعامله معاملة الأسماء الخمسة رفعاً بالواو، ونصباً بالألف، وجراً بالياء، فتقول: سافر أبو الفضل، وودّعت أبا الفضل، وسلّمت على أبي الفضل.
الوجه الثاني: أن نحكي هذا العَلَم فيبقى على وضعه الثابت بالواو في كل حالات الإعراب، فتقول: سافر أبو الفضل، وودّعت أبو الفضل، وسلّمت على أبو الفضل.
ونحن استخدمنا الوجهين في هذا الكتاب. فاقتضى التنويه.

(٤) فخر الدين الرازي (٥٤٤ ـ ٦٠٦ هـ): أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقّب بفخر الدين.
ولد في الري بطبرستان، أخذ العلم عن كبار علماء عصره ومنهم والده حتى برع في علوم شتى، كان الرازي عالماً في التفسير وعلم الكلام والفلك والفلسفة وعلم الأصول وفي غيرها.
غلب على تفسيره للقرآن المذهب العقلي الذي كان يتبعه المعتزلة. اختُلف في سبب وفاته وقيل مات مسموماً.

النبوغ من جميع أبعاده العالمية العظيمة ظهر في هذه الأمة وكَبُر. وهذه تعتبر معجزة كبيرة. لماذا يمتلك النبوغ الإيراني هذه الشهرة والمنزلة في عالم الثقافة والحضارة في عصر الهزيمة، هذا سؤال كبير وأريد أن يكون جوابه بواسطة تحقيق علمي كبير وجذّاب.

قد يكون هناك عدد كبير من الإيرانيين لا يعرفون أن جميع العلوم الإسلامية تمّ تدوينها بواسطة الإيرانيين، إن أكبر المفسرين والمحدّثين والمؤرخين والفقهاء وعلماء الاختصاصات المختلفة العلمية والإسلامية منها، كلهم كانوا إيرانيين، والعجيب أن مؤلفي الصحاح الستة لأهل السنة[1] والأصول الأربعة للشيعة[2] يمعني عشرة كتب، تشتمل على جميع المباحث والمسائل الدينية من الأصول والفروع في جميع المذاهب، كلّهم ومن دون استثناء هم من الإيرانيين، والعجيب أن اللغة العربية والأدب العربي تمّ تنظيمه وتدوينه وتكميله من قبل الإيرانيين[3].

---

(١) الكتب الستة وهي كالتالي: ١) صحيح البخاري. ٢) صحيح مسلم. ٣) سنن الترمذي. ٤) سنن النسائي. ٥) سنن أبي داوود. ٦) سنن ابن ماجة.

(٢) الكتب الأربعة وهي كالتالي: الكافي للشيخ الكليني، ومَن لا يحضره الفقيه للشيخ الصدوق، والتهذيب للشيخ الطوسي، والاستبصار أيضاً للشيخ الطوسي.

(٣) ويكفينا في هذا المجال رائد النحوالعربي وعالم اللغة (سيبويه). ومعنى كلمة سيبويه وهي كلمة فارسية هو: رائحة التفاح.

٢ـ في أوروبا وفي العصر الجديد ما هو العامل الذي اختلف مع الدين، ومع أي دين؟

٣ـ السؤال الذي يتكرر كل عام وأسمع أيضاً له أجوبة مختلفة هو أن الرسول الأكرم ﷺ وعلي عليه السلام شخصان على دين واحدٍ، وفي مجتمع واحد، وتعاملوا مع نفس الأشخاص، فأحدهم ينتصر في عمله ويصبح صاحب قدرة والآخر لا يستطيع، لماذا ينتصر الرسول ولم ينتصر علي[١]؟.

أحد طلابي يقول سألت أحد العلماء فقال: هذه كانت إرادة الله!.. وهذا الجواب لا يصحّ، يقول غيلان الدمشقي[٢] وهذه تُعتبر معصية أيضاً حينما تنسب الأمر إلى الله.

٤ـ إن أصحاب الرسول ﷺ أعطونا درساً وهو أنهم لم يكونوا أشخاصاً عاديين ولم يصل أحد منّا إليهم. ومن هذا يتّضح أن الرسول ﷺ والإمام يختلفان عنّا ذاتاً وباطناً، ولا يمكن القول أنهم كانوا مثلنا أناساً عاديين بحيث استطاعوا أن

---

(١) سيشير شريعتي إلى أن منشأ هذا السؤال هو جهلنا بتاريخ هذه الشخصيات العظيمة، لأننا لو كنّا مطلعين على الظروف التاريخية التي صاحبت هذه الشخصيات الينبوعية، لَمَا كان للسؤال محل.

(٢) غيلان بن مسلم الدمشقي القبطي: درس على الحسن بن محمد بن الحنفية في المدينة، قال الذهبي: (ضال مسكين) ناظره الأوزاعي، وأفتى بقتله، فقتل بعد (١٠٥)هـ. أحد رواد الحركة التنويرية في تاريخ الفكر العربي الإسلامي.

يقوموا بهذا الدور العظيم في العالم، ومن وجهة النظر الإنسانية فإنهم قطعوا شوطاً طويلاً في مجال هذه العظمة. لماذا؟ ومن ثم ما هي الصعوبات التي تخطّوها، وما هي الموعظة والدرس الذي تلقّوه والذي استطاعوا أن يعطوه للعالم من خلال مراحل حياتهم العملية؟..

أنا لا أعرف ولا أدري لماذا لم تكن هذه الشخصيات حتى الآن معروفة معرفة كاملة عندنا؟ ونحن إلى الآن ماذا عملنا؟ وبماذا كنا مشغولين وبماذا نحن مشغولون الآن؟ ولماذا لم نتعرف على هؤلاء؟ في السنة ولو لمرة واحدة يكرر البعض منّا أسماءً مجهولة، وقد تأتي أسماء هؤلاء العظماء فتُذكر مع أولئك بشكل عادي. هذه الشخصيات التي لها سهم عظيم في بناء ونهضة الإسلام وفي تاريخنا، ومن الناحية الإنسانية فإنهم رجال عظماء أعطوا للإنسانية دروساً عظيمة ولكنهم للأسف وإلى الآن لا زالوا مجهولين.

نحن يجب أن نعرف هؤلاء العظماء، وإن انتظار الآخرين ليعرّفونا بهم لم يكن فيه فائدة، فنحن يجب أن نُقدم على هذا العمل ونعرّفهم ليطّلع على مسيرتهم المجتمع والناس الذين يقدّسونهم ولكن لا يعرفونهم حقّ المعرفة، إن تعريف مثل هؤلاء إلى المجتمع سوف يُغني المجتمع من الناحية الفكرية والثقافية والإيمانية والحركية، يجب أن نعرف هؤلاء الصحابة واحداً واحداً. هناك بعض الكتب التي دوّنت

وهي قابلة للمطالعة مثلاً حول سلمان[١] وسميّة[٢] وأبي ذر[٣]

---

(١) سلمان الفارسي (المحمدي): واسمه عندما كان ببلاد فارس «روزبه»، وهو صحابي جليل دخل الإسلام بعد بحثٍ وتقصٍّ عن الحقيقة، وكان أحد المميّزين في بلاد فارس بلده الأصلي، دان بالمجوسية ولم يقتنع بها، وترك بلده فارس بحثاً عن الحقيقة فرحل إلى الشام والتقى بالرهبان والقساوسة ولكن أفكارهم ودياناتهم لم تقنعه أو تشفي تعطشه للإيمان، واستمر متنقلاً حتى وصل إلى الجزيرة العربية فالمدينة والتقى بالنبي (ص)، فأعلن إسلامه. وهو الذي أشار على النبي (ص) في غزوة الخندق أن يحفروا حول المدينة خندقاً يحميهم من قريش، وذلك لما له من خبرة ومعرفة بفنون الحرب والقتال لدى الفرس. دُفن في بلدة المدائن قرب بغداد. قال فيه رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: سلمان منّا أهل البيت.

(٢) سميّة بنت خُبّاط: وقيل : ضباط، وقيل: خياط، والدة الصحابي الجليل عمار بن ياسر، مولاة أبي حذيفة بن المغيرة، أسلمت في مكة، وكانت ممّن يُعذّب في سبيل الله عز وجل لترجع عن دينها فلم تفعل، فمر بها يوماً أبو جهل فطعنها في قلبها فماتت، وكانت عجوزًا كبيرة، فهي أول شهيدة في الإسلام.

(٣) أبو ذر الغفاري: جندب بن جنادة الغفاري، كان من السابقين إلى الإسلام. وهو أول من حيّا النبي صلى الله عليه وآله وسلّم بتحية الإسلام. وكان قد امتنع عن بيعة الخليفة أبي بكر، ثم بايعه كارهاً. رفض كل الأموال التي بُذلت له في سبيل تغيير رأيه أو كتم أفكاره المعارضة للسلطة الأموية، وقد اعترض على سيرة الحكام في بيت المال، فقام الخليفة عثمان بن عفان بنفيه إلى الشام. فشل معاوية بتطويق أمره وثنيه عن سلوكه فكتب إلى الخليفة عثمان بأمره، فأمره أن يحمله إليه على قتب يابس، وأن يعنِّفوا به السير.. ففعل. ولم يصل أبو ذر إلى المدينة إلا بعد أن تسلّخ لحم فخذيه. ثم نفاه الخليفة عثمان إلى الربذة. فبقي هناك حتى مات قهراً وفقراً. وكان ما أصاب أبو ذر من=

وعمار[١] وياسر[٢] ولكن حول البعض من هؤلاء فلا يوجد سطر واحد، وبما أن مجتمعنا يُعتبر مجتمعاً شيعياً وهؤلاء يعتبرون ومنذ صدر الإسلام قد بدؤوا التشيع الحقيقي والصحيح، فإن عدم معرفة هذه الشخصيات يعتبر مصيبة كبيرة وخطيرة.

وأنا أرجو أن ينتخب كل واحد منكم شخصية من هذه الشخصيات، وأن يكتب بحقه رسالة أو بحثاً مع إمكانية طباعة هذا البحث، وأن يكون في أيدي الناس، حتى يتمكّن الناس

= معاملة الخليفة عثمان له أحد أسباب نقمة المسلمين عليه وخروجهم عن طاعته.

(١) عمار بن ياسر: صحابي جليل، كان من السابقين للإسلام حيث أسلم في دار الأرقم فكان من أول سبعة أظهروا إسلامهم. أمه سمية أول شهيدة في الإسلام. هاجر إلى المدينة وشهد بدراً والمشاهد كلها. شهد مع الإمام علي بن أبي طالب موقعة الجمل ومعركة صفين وقُتل يوم صفين وله إحدى وتسعون سنة وقيل أربع وتسعون عام ٣٧ هـ. وفيه قال النبي (ص): «ابن سمية لم يخيّر بين أمرين قط إلا اختار أرشدهما، فالزموا سمته». «طوبى لعمّار تقتله الفئة الباغية». «إن عمّاراً قد ملئ إيماناً إلى أخمص قدميه». «يا عمّار تقتلك الفئة الباغية وآخر زادك من الدنيا ضياح (إناء) من لبن.

(٢) ياسر: ياسر بن عامر العنسي، والد الصحابي الجليل عمار بن ياسر. هو حليف بني مخزوم ويُكنّى أبا عمار. وكان قدِم من اليمن، فحالف أبا حذيفة بن المغيرة المخزومي وزوّجه أبو حذيفة أمَة له اسمها سميّة، فولدت له عماراً، فأعتقها أبو حذيفة. ولم يزل ياسر وابنه عمار مع أبي حذيفة إلى أن مات، وجاء الإسلام، فأسلم ياسر وسمية وعمار، وأخوه عبد الله بن ياسر. وكان ياسر وعمار وأم عمار يُعذّبون في الله. وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يمر بعمار وأمه وبأبيه، وهم يُعذبون بالأبطح في رمضاء مكة، فيقول: «صبراً آل ياسر، إن موعدكم الجنة».

الذين كانوا ينتمون إلى التشيّع منذ فترة طويلة ويعشقون هذه الشخصيات، أن يعرفوا عن شخصيات التشيّع الأوائل ولو بمقدار عشرين صفحة.

٥ـ هناك مسألة كبيرة جداً في تاريخ التشيّع تتعلّق بمعرفة حضرة الإمام علي عليه السلام ألا وهي سكوت علي عليه السلام مدة ربع قرن من الزمن، وهذه المسألة تصلُح أن تكون موضوع بحث أيضاً.

٦ـ من الأمور التي تُطرح في الجامعات وغالباً ما يطرح كتّابنا ومحقّقونا هذه المسألة ويحكمون عليها بصورة جَماعية حكماً واحداً غير قابل للتغيير، ألا وهي وجود مقاومة وطنية بعد الإسلام ضد العرب في إيران، وحينما ننظر إلى قادة تلك المقاومة نجد فيهم أشخاصاً مثل أفشين[١]، أفشين الذي جعل بلاده تحت تصرف وتسلّط العرب وأصبح هو عبداً وخادماً للخليفة على أمل أن يعطيه الخليفة حكومة (أشروسنه)[٢]،

---

(١) أفشين: اسمه (حيدر بن كاوس) أو (خيذر) وهو من أولاد الأكاسرة والأفشين لقب لمَن مَلَك مدينة أشروسنة. يقولون: الملك للعرب، خاقان للترك، خان للتتار، الإخشيد للصُغْد. الأفشين لمدينة أشروسنة، جغبونة للزنج، كابيل للنوبة، بغيور للصين، جيل جيلان للديلم، النجاشي للحبشة، ويلهوا للهند، فرعون لمصر، نمرود للشام أيام العمالقة، قيصر للروم، كسرى للفرس، وخوارزم شاه ملك خوارزم، الهياطلة لأذربيجان.

(٢) أشروسنة: بالضم ثم السكون وضم الراء وواو ساكنة وسين مهملة ونون، من بلاد ما وراء النهر بين فرغانة وسمرقند، والاصطلاح في عرف العلماء على أن البلاد الواقعة شرق نهر جيحون إلى سيحون يُطلق عليها بلاد ما وراء النهر.

والموضوع كان يُطرح بهذا الشكل، وهو أن الإيرانيين وهؤلاء الأبطال أظهروا مقاومة في القرن الأول والثاني ضد العرب والحكومة الإسلامية، ولكن ظهور مقاومة وطنية هل كان فعلاً ضد الإسلام أم كان ضد العرب؟ هل كان الإسلام ضد الدين الزرادشتي[١] أو كانت قومية ضد قومية؟ في الحقيقة لم يكن الموضوع بهذا الشكل، ولكن المسألة كانت مسألة الأشراف والأسياد الإيرانيين الذين فقدوا حكوماتهم العائلية بعد مجيء الإسلام، ومن أجل الرجوع إلى الحُكم بدأوا الصراع مع الخلافة الإسلامية أي مع خلفاء بني أمية وبني العباس، الذين كانوا يمثلون حُكْماً عشائرياً وليس خلافة إسلامية[٢].

ما هي نتيجة هذه الحرب التي كانت دائرة بين أسياد العرب وأسياد إيران؟ هي بناء بعض الحكومات مثل الصفاريين[٣]

---

(١) الدين الزرادشتي: نسبة إلى زرادشت (عاش ما بين ٦٦٠ - ٥٨٣ ق.م) وهو مؤسس الديانة الزرادشتية.

(٢) أصبح من الواضح الآن أن الصراع كان بين بعض القوميين الفرس والقوميين العرب، ولم يكن في جوهره صراعاً بين الفرس والإسلام كخلافة إسلامية، لأن الخلافة كانت عربية قومية يومذاك، إلا أنها تتستّر بالإسلام.. وحتى لو كان الأمر حرباً بين قوميّتين فإن شريعتي سيستنكر ذلك ويرفضه في الصفحات اللاحقة.

(٣) الدولة الصفارية (٢٥٤-٢٩٠هـ/ ٨٦٨-٩٠٣م): قضى يعقوب بن الليث الصفّار على الدولة الطاهرية، وأقام دولته على أنقاضها، وقد لقب بهذا اللقب؛ لأنه كان في بداية أمره يحترف صناعة النحاس الأصفر بسجستان، ثم اشتهر بالفروسية، فتطوع لقتال الخوارج مع رجل صالح=

والسامانيين[١] والطاهريين[٢] وأمثالهم، وحكومات هؤلاء كانت

= في سجستان بجنوب خراسان، فقاتل معه يعقوب، ثم مع من خلفه حين مات، فصار الأمر إليه، فراح يحارب الخوارج فى «سجستان» معلنًا ولاءه للخليفة المعتز، ومظهرًا شجاعة خارقة في قتال الخوارج حتى سيطر على سجستان، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر، وصار يمد نفوذه على الأقاليم المجاورة حتى ملك «هراة»، وكانت تابعة للدولة الطاهرية. وقد توجه «الصَّفَّار» إلى «كِرْمَان»، وبسط نفوذه عليها، ثم توجه إلى فارس فأخذها بعد قتال عنيف مع غريمه «على بن الحسين» الذي وقع أسيرًا جريحًا في يده.

(١) الدولة السامانية (٢٦٦-٣٨٩هـ/ ٨٨٠-٩٩٩م): تنتمي الدولة السامانية إلى «نصر بن أحمد الساماني» الذي ولاه الخليفة «المعتمد» على ما وراء النهر سنة ٢٦١هـ، وكان لنصر هذا أخ يدعى «إسماعيل الساماني» فولاه الخليفة بُخارى. وقد عرف أن السامانيين كانوا في بلاد ما وراء النهر، وأنهم قضوا على الصفاريين واستولوا على أملاكهم. حتى إذا جاء عام ٢٧٩هـ/ ٨٩٣م، مات نصر فقام أخوه إسماعيل مقامه في بلاد ما وراء النهر، فوطَّد أمرها، وثبت قواعدها، وقام بحملة عسكرية ضد المجاورين له من المسيحيين؛ لأنهم كانوا يهاجمون المناطق الإسلامية من حين إلى آخر، وقد نتج عن هذه الحملة انتصاره في هذه الحروب، ودخول كبار قادة هذه البلاد في الإسلام، وتبعتهم في ذلك الجماهير التابعة لهم، لقد كان إسماعيل يحب الخير والعلم، فقرب إليه العلماء، ونشر الخير فيمن حوله. وفى عهده، تم القضاء على الدولة الصفارية، وامتد نفوذه إلى خراسان، واستولى على طبرستان بعد أن انتصر على واليها العلوي «محمد بن زيد» عام ٢٨٧هـ/ ٩٠٠م، وصرعه في أثناء القتال. وتمكن إسماعيل بعد ذلك من ضم الري وقزوين إلى حوزته وتحت سيطرته.

(٢) الدولة الطاهرية (٢٠٥-٢٥٩هـ/ ٨٢١-٨٧٣م): قامت هذه الدولة في خراسان، وقد أسسها طاهر بن الحسين أحد كبار قواد الجيش في عهد=

نتيجة تلك الحرب، لأن الخلافة حينما جاءت قالت «اقبلوا منا الإسلام» بعنوان رابطة بيننا وبينكم، وفي المقابل سوف «نعطيكم حكومة محلية»، وبواسطة هذه المعادلة جعلوا الإسلام هو المنافس.

إذاً فهذه المعاملة هي معاملة أسياد إيران والعرب، ولهذ لم تكن المقاومة مقاومة وطنية إيرانية ضد الإسلام أو قومية ضد أخرى، باستثناء مورد أو موردين، وعلى أية حال لم يكن هذا افتخاراً لأمتنا، وهذا الأمر لم يكن ليُحسب خدمةً للأمة حيث إننا نعطي لأمتنا افتخارات كاذبة، وفيما بعد سيعرف أبناء الأمة أن تلك الادعاءات والافتخارات كانت باطلة ومزيفة، ومن ثم لن يصدق أبناؤنا بالافتخارات الواقعية، وبعدها لن يصدقوا بأي فخر أو افتخار، كما هو الحال الآن بين مثقفينا.

إن الخدمة الكبرى التي يمكن أن تُقدَّم هي تعريف الأجيال

= الخليفة المأمون. وقف طاهر بن الحسين إلى جوار المأمون في كثير من المواقف الحرجة حتى تمكن من الخلافة. ولم يمرَّ إلا عامان حتى أقدم «طاهر بن الحسين» على خطوة جريئة في سنة ٢٠٧هـ/ ٨٢٣م، لقد قطع الدعاء في الخطبة للمأمون، وكان قطع الدعاء يعني الاستقلال عن الخلافة. ولكن يشاء الله أن يموت طاهر في العام نفسه، فتولى ابنه طلحة بعد أبيه بأمر من الخليفة المأمون، وظل الطاهريون يحكمون خراسان، ولكنهم يتبعون «الدولة العباسية» تبعية اسمية مما جعل الخلافة العباسية تلجأ إلى الطاهريين، تلتمس منهم المؤازرة والمساندة ضد الخارجين على سلطانهم. ولكن عندما جاءت سنة ٢٥٩هـ/ ٨٧٣م، استطاع يعقوب الصفار أن يقيم دولته على أنقاض دولة الطاهريين.

بتأريخنا وأمتنا تعريفاً علمياً دقيقاً، أو أن نعرِّفهم بالافتخارات الحقيقية، إن أمتنا لها من الافتخارات والمواقف بحيث لا تحتاج إلى أمثال «أفشين» و«أبي مسلم». على أية حال هذا الموضوع دقيق جداً ويعتمد الكثيرون عليه اليوم، خاصة المستشرقين، والكتّاب والمحققين الإيرانيين.

أرى أن نقوم بترجمة بعض الآثار المختلفة من اللغة الإنكليزية والفرنسية والألمانية والعربية، والأشخاص الذين لديهم اطّلاع على هذه اللغات يستطيعون أن يمارسوا الترجمة، بعض هذه الأمور مهم ودقيق، وحينما يُترجم كتاب فيمكن اعتباره بمثابة خطوة ثقافية كبيرة فيها فائدة مهمة للأجيال. إذا تعاونّا جميعاً، نستطيع بواسطة الكتابة والعمل وقوّة الإرادة أن نقدِّم عملاً في هذا العصر ولهذا الجيل، والسلام.

الدرس الثاني

وكما قيل، لقد جاءت طبقة جديدة في الغرب وخلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، وهذه الطبقة تُسمى الطبقة المتوسطة أو الطبقة البرجوازية، بمعنى الطبقة التي تعمل بالمادة والتجارة والكسب وبيع المواد الصناعية واليدوية. وحينما جاءت البرجوازية ظهرت هناك نهضة فكرية جديدة أيضاً. يقولون عن هذه الطبقة أيضاً طبقة وسطى، لأنها جاءت في القرون الوسطى في مجتمع إقطاعي وملكية كبيرة، والمجتمع ينقسم إلى طبقتين: إحداهما: طبقة الأشراف أو الأسياد، حيث إنها تملك كل شيء، تملك جميع القوى المادية والاقتصادية للمجتمع، ولهذا فهي تسيطر على القوى المعنوية والأخلاقية والفكرية والفنية والأدبية للمجتمع. أما الطبقة الثانية فهي طبقة الرعيّة أو عامة الناس، وكانت هذه الطبقة مرتبطة بالأرض، أي طبقة المزارعين ولكنهم لم يكونوا عبيدًا، فحينما تُباع الأرض فإن الفلاح يُباع معها أيضاً (ولو بصورة مملوك ضمن ملكية)، فالفلاح لم يكن مرتبطاً بالأرض بيعاً وشراءً كما هو الحال في نظام العبودية،

ولكنه هنا يُعتبر ضمن ممتلكات المالك، ويُباع مثلما تُباع الحيوانات والأشياء الأخرى، فالمالك هو صاحب روحه ووجوده. ولو أن شكله ونظامه يُشبه الفلاح وليس المملوك وأنه رسمياً لم يرتبط بالأرض ورسمياً لا يصحّ بيعه وشراؤه، ولكنه، فاقد لكل شيء، فيُباع.

ويمكن القول، أن بين هاتين الطبقتين، طبقة الحاكم وطبقة المحكوم، وفي الوضع القديم يعني في عصر الإقطاعية وعصر البرجوازية، هناك فراغ مطلق. وإن هاتين الطبقتين يمكن رؤيتهما في المجتمعات القديمة، وحتى في القرى والأرياف وفي أشكال مختلفة، وحتى في البناء والمعمار يمكن مشاهدة انعكاسهما عليه. وفي القرى القديمة وحتى الآن، يمكننا أن نلاحظ في بيوت الأشراف أن هناك غرفاً لاستقبال الضيوف لها شكل وتصميم خاص ومميز، فعرفنا لها أشكال هندسية محددة، إما أن تكون مربعة أو مستطيلة أو لها عدّة زوايا، أما أرض الغرفة فتكون في مستوى واحد، وأعلاها وأرضها لهما شكل معتبر. أما في الغرف القديمة وهي الآن موجودة في بعض القرى فتقسَّم إلى قسمين؛ مربع، ومتصل بمستطيل، وكل منطقة لها اسم خاص بها. لذا فإن الذي يدخل هذه الغرفة يرى غرفتين متصلتين إحداهما كبيرة والأخرى صغيرة ولا يوجد بينهما باب أو جدار، وتكون هذه الغرف مفروشة بسجاد، ويكون الثمين منه قد فُرش

في الغرفة الصغيرة، والذي قلّ ثمنه في الغرفة الكبيرة.

وفي الشتاء، يضعون كرسيّاً في جانب جلوس المالك والكرسي له جانب خاص في ذلك الوقت[١] أما المدفأة العامة أو الخشبية، فإنها توضع في القسم العام من الغرفة، حيث لا يوجد وسادات ولا فرشٌ جيد. هذا الشكل المعماري وهذا البناء الذي نشاهده، يعطينا صورة واضحة عن وجود الطبقات، حيث لا يمكن أن يكون هناك تماس ولو بالجلوس بين طبقة الأشراف والرعية (وهذا عكس ما نشاهده اليوم في النظام الرأسمالي وأصحاب الشركات الكبرى، فهناك العديد من العمال الذي يعملون في شركة كبيرة قد لا يرون صاحبها وقد لا يعرفون اسمه، وخصوصاً في المؤسسات الكبيرة التي تضمّ آلاف العمّال).

أما في النظام السابق، فالجميع يجلسون في غرفة واحدة وتحت سقف واحد، والدين يلعب دوراً مهماً في تغطية هذين القطبين المتضادين، فبالرغم من وجود الاختلاف الطبقي بينهما إلا أن الدين يحتوي الاثنين ويؤلف بينهما، أما قصدي من عبارة الدين فأعني به، البُعد الديني، الذي يشخّص أو يميّز الطبقة الحاكمة من ثلاثة جوانب، حيث إنهم إما أن يبلّغوا الدين، أو

---

(١) الكرسي هنا ليس المقصود منه هذا الكرسي الذي نجلس عليه وإنما هو عبارة عن منضدة مغطاة وتحته توجد نار خافتة من الفحم، يجلس الناس حولها ويتحدثون.

يحرّفونه، حتى يستطيعوا أن يلعبوا دوراً اجتماعياً، والدين هذا، يجمع بين الطبقتين في المراسم الدينية الخاصة. وأما في البناء المعماري، حيث يكونون مجبورين من حيث التصميم أن لا يجلس الأشراف سوية مع الرعية، فالأشراف يجلسون في المكان العالي، والرعية في الأسفل وفي أطراف الغرف، وصاحب المفازة الذي كان محله في أسفل المكان أصبح اليوم يجلس مكان الأشراف، لماذا؟ لأنه أصبح صاحب أموال، وأسياده أصبحوا مطلوبين له، وعائلة الأسياد محتاجة إليه، فالأموال أعطته منزلةً ومقاماً ولا اعتبار للعِرق وغيره من الأمور. ولم يعد هنا «السيد فلان» و«الحاج فلان»، فصاحب الأموال هذا، لا يستطيع الآن أن يجلس مع الأشراف لأنه كان من الرعية، ولا يمكنه الجلوس مع الرعية لأنه أصبح أرفع منهم، لذلك يجب أن يكون له مكان خاص ووسط خاص، لذا يجب أن يبنوا له مكاناً خاصاً، وبالفعل بدأوا يأخذون ذلك بعين الاعتبار ووضعوا له مكاناً أقل مرتبةً من الأشراف وأعلى مرتبة من الرعية أي في وسط المجلس. وهنا تأتي الطبقة الوسطى، فهي لم تكن تُعد من بسطاء الرعية، ولم تكن من الأشراف أصحاب الحسب والنسب، كان عمله عمل الأشراف، ولكن ليست له جذور عميقة ولا أصل قوي، فهو يجلس بين يدي أربابه.

بدأت الطبقة المتوسطة بالظهور، وبالتدريج بدأوا يأخذون مكان الأرباب والأشراف ويَشغلون أماكنهم، ومن ثم أخرجوهم، وهذا يعني ثورة الطبقة الوسطى، ثورة البرجوازية، الثورة الفرنسية الكبرى هي من هؤلاء، ثورة الطبقة الوسطى وصلت مجدداً إلى الحكم، يملكون الأموال، وهم أصحاب فكر وأصحاب نظر وتحوّل مقابل طبقة الأشراف المتآكلة صاحبة الفكر القديم، أي التفاخر والتفاضل بالأحساب والأنساب وأفضلية القبيلة.

أما ثورة الطبقة الوسطى، فإنها غيّرت هذه الموازين والمعايير، غالباً ما كانت اعتبارات الدم والعشيرة والتراب والعائلة هي المعتمدة، واليوم أصبحت اعتبارات الاقتصاد والمال هي المأخوذة بعين الاعتبار، إن الطبقة الوسطى ـ البرجوازية ـ تريد للثورة الحرة أن تسير وتمضي في طريقها ويرغب البرجوازي أن يتحرر هو والمجتمع من جميع القيود التي كان يرفضها.

جاءت الطبقة الوسطى وسيطرت على الحكومة والوضع، وهذه الطبقة ترفض الدين بشكله القديم الذي يُدافع عن القيم والتقاليد، وعلى هذا فإن هناك مذهبين ظهرا للوجود؛ أحدهما: الفكر الديني الذي حصل له تغيير، والذي يهتم بالدنيا أكثر من سواها، وهو (البروتستانت). والآخر: هو الفكر اللاديني،

حيث إنه يرفض الدين بعنوان لاهوت ديني وفلسفة. وهذان الاتجاهان وخاصة الأخير منهما[١]، استفادا من العلم كوسيلة لمحاربة الدين، أو أنهم استفادوا من الأدبيات القديمة مثل الأدبيات غير الدينية، اليونانية والرومانية، وهي أدبيات شِركية، هذه هي الفترة أو العصر الجديد. ومن أهم خصوصيات هذه الفترة وخاصة في القرنين السادس عشر والسابع عشر هي الصراع مع الدين سواءً على شكل صراع مذهبي وفكر متطور، أو بشكل صراع علمي، العلوم الطبيعية والإنسانية، الاستدلال الفلسفي، استدلال منطقي، وبواسطة المدارس الفكرية الجديدة والصراع الفكري. بمعنى أن هذا الصراع يمثل صراع الطبقة الجديدة مع الطبقة القديمة، فمن الناحية الاقتصادية يمثل صراع الفكر الاقتصادي الجديد في مواجهة القديم، ومن ناحية الفلسفة يتمثل في صراع الفلسفة العقلية مع الفلسفة الإشراقية والشعورية، وفي النهاية هو صراع بين العالم المتفتح والعالم المقيَّد.

إن من المؤسف له أن أغلب مفكرينا في الدول الإسلامية بصورة خاصة وفي الدول الشرقية بصورة عامة، أخذوا أدبياتهم العقلية والفكرية والاعتقادية من الأدبيات الغربية، والحال أن الغربيين يُرجعون أساس صراعهم إلى البنية التحتية الاجتماعية لدينهم، وإلى دينهم الخاص الذي كان له دور في حكم القرون

(١) أي الفكر اللاديني.

الوسطى والنظام الإقطاعي، لذلك فهم أيضاً من أجل إلغاء الكثير من القوانين والمقررات والاعتقادات الجامدة والتي كانت تسير ضد تقدّم الإنسانية جمعاء ومن أجل تقدّم مجتمعهم، أسسوا مدارس تخالف الدين وتخالف العقيدة الكاثوليكية، ونحن كذلك، فمن غير أن نمتلك وضعاً مثل وضعهم وديناً غير دينهم، أخذنا أفكارهم ووضعنا لنا عقيدة اجتماعية طبق عقيدتهم الاجتماعية أيضاً.

لقد كان الصراع الفكري خلال القرن السادس عشر والسابع عشر مع الدين في القرون الوسطى موفقاً في ذلك الوقت ولو بصورة مؤقتة.

أما إذا أراد مفكرونا إعادة تلك التجربة فهذا غير ممكن، لأن العقائد الموجودة هناك لم تكن مرتبطة بالواقع الاجتماعي، ولأن ديننا يختلف عن ذلك الدين وكذلك الوضع الاجتماعي، لذلك فإن أي تحرّك سوف لن يكون موفقاً.

لقد استطاع المثقفون الغربيون بواسطة عقيدتهم الجديدة خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر أن يكونوا موفّقين في صراعهم، وشكّلوا طبقة جديدة، وطوروا العلم والاختراعات والاكتشافات في شتى المجالات العلمية.

أما هذه الأفكار، وهذه الأقوال والمفاهيم والشعارات والتوقعات، فإن مفكري الشرق الإسلامي الذين عاشوا خلال

القرنين السادس عشر والسابع عشر يمتلكون منه نتيجتين، الأولى: هي أن المجتمع لم يكن موجّهاً، ولم يعرف المجتمع ماذا يفعل المفكرون وماذا يقولون ـ كما هو الحال الآن حيث مضى عدد من الأجيال، وهناك عدد أو مجموعة من المفكرين في المجتمع إلى الآن لم يحس أو يشعر الناس بوجودهم ـ لماذا؟ لأن مجتمعنا لا يفهم لغة المثقفين، وكذلك فإن النقاط والأمور التي يعتمدها هؤلاء المثقفون لم تكن متناسبة مع واقع حياة عامة الناس. وبالمقايسة مع مثقفي أوروبا، فإنهم عاشوا في وسط المجتمع والكنيسة الكاثوليكية وفي وسط العقائد والمناسبات الدينية، مَثَلهم مَثَل السمكة التي تسبح وسط الماء، فكانوا يصححون الأفكار والخرافات، وكانوا يعيشون ذلك الدين الذي عاشه المجتمع. أما مثقفونا، فلم يأتوا من عمق المجتمع وإنما بنوا ثقافتهم خارج المجتمع، فكانوا يُحسبون قشراً للمجتمع، فكانت الفاصلة كبيرة ـ مثل الماء والجليد ـ لم يستطيعوا النفوذ بين عامة الناس، هذا هو المجتمع الشرقي، مثقفوه لم يعايشوا واقعه، وإنما كانوا يحملون قشور الثقافة، أما نهضة فكرية فلا يمتلكون.

أما النتيجة الثانية: فهي أن هذا القشر الاصطناعي قد أُعدّ في الخارج، وكان في وطنه سبباً للفرقة وكسر الوحدة الاجتماعية، فكان هؤلاء مجموعة صغيرة يمتلكون بعض

المعلومات والعلم، وفي الوقت الذي يجب أن يكونوا فيه وسط المجتمع ويُفيدوا الناس بعلمهم، أصبحوا بعيدين عن المجتمع، وصاروا يشبهون الزبدة التي تطفو على السطح.

هذا هو الوضع في الدول الإسلامية ـ والشرق ـ وبين عامة المسلمين ـ والشرقيين، يمكننا رؤية الاستعمار الثقافي والسياسي مكان المثقفين.

المثقف الحقيقي، يجب أن يكون هدفه مثل الجسر الذي يربط بين رؤيتين، رؤيته ورؤية عامة الناس، وكذلك عليه أن يوجد التفاهم اللازم لهذا الأمر. عليه أن يبدِّل ذلك الانفصال الخطر والمؤلم الموجود، إلى اتصال وتفاهم ومعرفة وتبادل آراء. وإذا لم يحصل هذا الاتصال فإن الناس سيبقون في ركودهم ويستعمق فيهم الفكر الأجنبي. إن المثقف الذي يجلس في أماكن معزولة ويبحث فقط حول المجتمعات المتقدمة والمتأخرة، ويلهث وراء المدرسة الفلانية والفلانية، فإن هذا المثقف لا يفكر إلّا في نفسه ووجوده، فهو لا يشعر بعامة المجتمع، وإذا أراد أن يشعر بما يعاني منه المجتمع، فعليه أن يترك تلك المقامات والمنازل الرفيعة العالية، وأن ينزل إلى مستوى المجتمع حتى يحس بمعاناتهم ويحسّون به أيضاً.

إن أحد المثقفين الكبار ـ حيث إنه أكثر مني ترقياً ـ وبّخني وقال: إن هذا الأمر لا يُليق بمقامك وصفتك الجامعية، إنك

تلقي دروساً دينية ـ قلتُ ـ أنت حينما تتحدث وتواجه بعض الأفكار وبعض الناس فأنت مفكّر جيد، ولكن حينما ترجع إلى فطرتك وإحساسك فسوف تجد أنك من جماعة الأشراف، ومن الذين يحبّون أنفسهم، ومن عبدة الأصنام، وأنك ضد المجتمع، وأن هدفك الوحيد هو حفظ حيثية عملك وأمورك الشخصية.

لماذا هذا التضاد؟ لأن هذه العقليات النيّرة يجب أن تَخْرُج من مكانها ووجودها المزدوج.. وهذه الازدواجية لن تُترك إذا لم نوجد اتصالاً بينها وبين عامة الناس، حتى يتمكن المجتمع من مخاطبة هؤلاء إنْ رجع هؤلاء إلى المجتمع.. يجب أن يرجع المثقفون إلى أعيان الناس، وهذا الأمر غير موجود الآن ويجب أن يوجد.

وإذا أردنا أن نقلّد أوروبا فيجب أن يكون هناك تقليد لتجربتهم وهذه واحدة منها وهي: إلغاء القرون الوسطى وإيجاد قرون جديدة، فالدين كان جديداً، كان هناك تحوّل فكري وديني وليس حرباً مع الدين.

القرون الجديدة والحضارة الجديدة.. وإذا كان هناك وقت فسوف نستعرض أطروحتها في المستقبل، لأنها تعتبر بالنسبة لنا شيئاً مفيداً، وسوف نعتمد عليها.

كان الصراع مع الدين يحمل خلال القرنين السادس عشر

والسابع عشر جانباً فلسفياً ومنطقياً وعقلياً. وأما من القرن التاسع عشر، فإن الصراع أخذ شكلاً آخر، أو أن البحث في الدين أخذ شكلاً آخر. فالاستدلالات الذهنية والعقلية والفلسفية التي كانت تشبه استدلالات القدماء التي كانت تقوم على معرفة المجتمع ومعرفة التاريخ الواقعي للبشرية، صارت تقوم على تاريخ تحوّلات الإنسان وذهنه وإدراكه من البداية وحتى الآن.

وفي القرنين التاسع عشر والعشرين، ومن أجل معرفة الدين جعلوا هذا العنوان هو العنوان المُعتبر.. أما في القرنين السادس عشر والسابع عشر، فإن المثقفين وبدون أن تكون لديهم معلومات جيّدة عن الدين وبدون أن يعرفوه أكثر من القسيسين، قاموا بالصراع معهم.. وهذا ما نشاهده الآن، حيث إننا نعتبر أن تقديس الإنسان المتّقي للدين خطأ. إن مثقفينا ضد الدين ويريدون أن يلغوا الدين، ولكن ما يملكونه من تصوّر عن الدين هو هذا التصوّر الخاطىء عن ذلك المقدَّس.

لهذا نرى أن هذين القطبين فهموا الدين بشكل آخر، وعندهم تصور خاص عن الجنة والنار والمَعاد والرسول والحوادث الحياتية الاجتماعية وعن فكر أئمتهم، وهذا التصور لم يكن لينطبق مع الواقع. لذلك، فإن أحدهم بهذا الفكر الديني الذي لا علاقة له بالدين كان معتقداً، والآخر كان مخالفاً وضدّ الدين. فالأول لم يكن معتقداً بمذهب ودينٍ واقعي، والثاني لم

يكن مخالفاً لدينٍ حقيقي وصادق. لماذا؟ لأنه في هذه المسألة أصلاً، لم يكن الطرح طرحاً دينياً حقيقياً.

أما في القرنين التاسع عشر والعشرين، ومن أجل معرفة تاريخ تحوّل الدين وكذلك كيفية إيجاد الدين في تاريخ الإنسان، وضعوا نظرية جديدة (خلاف أوغسطين)[١] الذي قسّم العالَم إلى عالَم رباني وما وراء الطبيعة[٢]، أو فلاسفة القرنين السابع عشر والثامن عشر الذين حَملوا على دين الخيال، فهم رفضوا الدين من النظرة المنطقية مثل «فولتير»[٣] في بداية حياته، وعلى هذه النظرية فإنهم قارنوا وربطوا معرفة وجوه الإنسان المختلفة

---

(١) القديس أوغسطين (١٣ نوفمبر/ تشرين ثاني ٣٥٤ - ٢٨ آب/أغسطس ٤٣٠): أحد أهم الشخصيات المؤثرة في المسيحية الغربية. تعتبره الكنيستين الكاثوليكية والأنجليكانية قديسًا وأحد آباء الكنيسة البارزين وشفيع المسلك الرهباني الأوغسطيني. يعتبره العديد من البروتستانت، وخاصة الكالفنيون أحد المنابع اللاهوتية لتعاليم الإصلاح البروتستانتي حول النعمة والخلاص. تعتبره بعض الكنائس الأرثوذكسية مثل الكنيسة القبطية الأرثوذكسية قديسًا بينما يعتبره البعض هرطقيًا بسبب آرائه حول مسألة الانبثاق. ولد في شمال أفريقيا (الجزائر) قبل مجيء الإسلام، وهو ابن القديسة مونيكا تلقّى تعليمه في روما وتعمّد في ميلانو. مؤلفاته - بما فيها الاعترافات، التي تعتبر أول سيرة ذاتية في الغرب - لا تزال مقروءة في شتى أنحاء العالم.

(٢) إن أوغسطين لم يأخذ بطريقة الإحالة إلى الحقائق الخارجية كسند للحجة النظرية. فقد جمع العنصر «الإلهي» بالآخر «الغيبي». وهذا هو ما قصده شريعتي، فالعالَم الرباني هو العنصر الإلهي، وما وراء الطبيعة هو الغيبي.

(٣) ستأتي ترجمته لاحقاً.

بمعرفة الدين في المجتمع وتاريخ الإنسان. أما كيف؟

نرى أن هناك ثلاث دورات مشخّصة في التاريخ، حيث يمكننا أن نقسم وحسب الزمان جميع المسائل الإنسانية خلال هذه الدورات الثلاث.

١ـ المرحلة القديمة الابتدائية للمجتمع البشري: حيث لا يوجد في هذه المرحلة خط ولا كتابة ولا تعليم وتربية ولا يوجد مؤسسات تعليمية، ولم يستطعْ المجتمع في هذه المرحلة من تثبيت وكتابة تجربته ومفاهيمه ولا أدبياته وأشعاره وعقائده الدينية وأن ينقلها إلى الأجيال القادمة، حيث يمكننا بمطالعتها أن نعرف طريقة تفكيرهم وعقائدهم وطريقة حياتهم ودينهم.

لذا فإن المرحلة الأولى كانت مرحلة ابتدائية، ومرحلة المجتمع المتوحش، وعلماء الاجتماع من الناحية الأدبية لم يطلقوا عليها اسم مرحلة المجتمع المتوحش بل يقولون: المجتمع الأثري القديم.

٢ـ مرحلة المجتمع التأريخي: في هذه المرحلة كانت هناك حضارة وكتابة وكان هناك تعليم وتربية، والتعليم والتربية هذه كانت خاصة، وعلى هذا فقد صارت هناك مدرسة فكرية وكان من الممكن أن تنتقل تجارب هذه المرحلة إلى الأجيال التي جاءت بعدها من خلال الآثار النفسية والكتب والأحجار المكتوبة والآثار القديمة والنسخ المخطوطة وخلاصة الآثار

المختلفة، ويمكننا عن طريق هذه الأمور مطالعة أحوال تلك المرحلة ومعرفتها.

٣ـ المرحلة المعاصرة: وهي تبدأ من القرنين الخامس عشر والسادس عشر وهي مستمرة إلى الآن. إن معرفة هذه المرحلة لا يتطلب جهداً كبيراً، أما معرفة المرحلة القديمة أو الابتدائية حيث كانت قبل التاريخ الرسمي وقبل وجود الخط فهذا أمر صعب، ولكن معرفتها تشكل أمراً ضرورياً وفورياً وحياتياً، وكما يقول (باشلارد)[١]: «إذا لم نتمكن من معرفة المجتمعات البدوية الأولى قبل التاريخ معرفة دقيقة، فإننا لا نستطيع أن نعطي وجهة نظر دقيقة وعميقة وعلمية وعينية حول فلسفة المجتمع وعلم الاجتماع. لأن المجتمع الحقيقي لم يكن في المرحلة الحالية، ولم يكن في مرحلة القرون الوسطى، ولا في مرحلة الدولة التأريخية والحضارة، بل إنه تشكل في المرحلة الابتدائية البدوية الأولى».

---

(١) غاستون باشلار (١٨٨٤ - ١٩٦٢): يُعد واحداً من أهم الفلاسفة الفرنسيين، وهناك من يقول إنه أعظم فيلسوف ظاهري، وربما أكثرهم عصرية أيضاً. فقد كرّس جزءاً كبيراً من حياته وعمله لفلسفة العلوم، وقدّمَ أفكاراً متميزة في مجال الابستومولوجيا حيث تمثل مفاهيمه في العقبة المعرفية والقطيعة المعرفية والجدلية المعرفية والتاريخ التراجعي، مساهمات لا يمكن تجاوزها بل تركت آثارها واضحة في فلسفة معاصريه ومَن جاء بعده. ولعل أهم مؤلفاته في مجال فلسفة العلوم هي: «العقل العلمي الجديد / ١٩٣٤»، «تكوين العقل العلمي / ١٩٣٨»، «العقلانية والتطبيقية / ١٩٤٨»، «المادية العقلانية / ٩٥٣».

ولأجل أن نعرف الأدلة والعوامل الاقتصادية والاجتماعية والفكرية والذهنية والطبيعية أو الجغرافية أو الدينية التي أدّت إلى تحوّل هذا المجتمع، وهذا التحوّل تمّ طبق أية قوانين بحيث تمّ من دورة إلى أخرى، علينا أن نعرف المجتمع البدوي أو الابتدائي الأول، لأنه في ذلك الوقت تشكّل المجتمع أولاً، ومن ثم تحوّل تحت تأثير عوامل بسيطة وواضحة.

في القرنين السابع عشر والثامن عشر، إن كل عالم اجتماع حينما يقرأ كتاب (جمهورية أفلاطون)[١] يتوقع أنه عرف المجتمع البشري كما يعرف ما هو موجود في جيبه، وهذا يشبه أمر مثقفينا، فإنهم حينما يقرأون عدداً من التراجم فإنهم يتصورون أن لا وجود لمشكلة عندهم في علم الاجتماع. أما علم الاجتماع اليوم فإنه وعلى خلاف ما كان عليه في القرن الثامن عشر، فإن الإنسان يستطيع أن يضع (١٩٨) قانوناً علمياً

---

(١) جمهورية أفلاطون: هذا الكتاب كتبه أفلاطون على لسان أستاذه سقراط، حوالي سنة ٤٠٠ قبل الميلاد، وهو عبقري بلا شك، حيث تولّى مناقشة قضايا تخص الدول والمجتمعات الشرقية والغربية منذ فجر التاريخ الإنساني، وحتى يومنا هذا. يناقش أفلاطون في بداية الكتاب فكرة العدالة، وكيف نبني دولة عادلة أو أفراداً يحبون العدالة.. ويقدّم أفلاطون في المحاورات داخل الكتاب تعريفًا للعادل وهو الحكيم والصالح، وأن المعتدي هو الشرير والجاهل، وهو يظن أن الإنسان يميل بطبعه إلى التعدي أكثر من العدالة، والدولة ينبغي أن تعلّم الأفراد حب العدالة.. الخ..

دقيقاً ترتبط بالمجتمع وكيفيته وتحوّله وتبديله، ولم يكن ليعرف بوجود قانون قطعي ومسلم به في علم الاجتماع.

وحسب قول المرحوم «غورْفيتْش»(١) إن العلم كلما تقدم كلما كان أكثر تواضعاً وإن أولئك الذين اطّلعوا على جميع العلوم وكان كل شيء عندهم واضحاً كانوا أشخاصاً متواضعين.

كيف يمكن معرفة المجتمع البدوي (الابتدائي):

قلنا من أجل معرفة مجتمعنا، يجب معرفة المجتمع البدوي، وإذا أردنا أن نعرف الدين، وكيفية إيجاد الشعور الديني، ومعرفة الطقوس، وأعمال العبادات الدينية، والعقائد الموجودة عندنا والتي نطلق عليها اسم الدين، فنحن مجبورون

---

(١) جورج غورْفيتْش (١٨٦٣م-١٩٦٥م): كان لمواظبة شريعتي على دروس عالِم اجتماع المعرفة الروسي الأصل جورج غورفيتش تأثيراً ملموساً فيما كتبه شريعتي، ونظراً لاستفاداته العميقة منه وصفه هنا (بالمرحوم).
لقد فتحت دروس غورفيتش عينيْ شريعتي على مكتبة غنية من أفكار المثقفين الأوروبيين والنظريات الأساسية في علم اجتماع المعرفة وعلى الجدل فيها بين الماركسيين والليبراليين. ولعل مواظبة شريعتي على حضور محاضرات غورفيتش، الماركسي الملتزم والمعارض للستالينية، قد فتحت أمام شريعتي أبواب الفكر الماركسي وسهّلت عليه التعاطي معها نهلاً ونقداً. ولعل نهج غورفيتش في التدريس قد أسهم في تمكين شريعتي من رؤية الفرق بين مرونة النظريات الماركسية وتعددها وبين تطبيقها السوفياتي. ولعل هذا ما يفسر بقاء شريعتي على موقفه المتحفظ من «حزب تودة» الإيراني الذي رآه مجرد مرآة للحزب الشيوعي السوفياتي..

أن نتعرّف على المجتمع الابتدائي، وعلينا أن نعرف تلك المرحلة من المجتمع البشري، ويجب أن نعرف عقلية وثقافة إنسان تلك المرحلة.

لقد وُجد علم جديد باسم علم الآثار[١] وعلم الآثار الجديد هذا هو علم معرفة الأمور القديمة عن طريق معرفة المعابد القديمة والآثار الفنية القديمة، وبقايا الأجساد والأشياء التي يعثرون عليها في القبور، وبواسطة الكيمياء الحديثة فإنهم يستطيعون معرفة التاريخ وكيفية العثور على المعلومات الأخرى. وبواسطة علم اللغات القديمة، فإنهم يبحثون ويدرسون

---

(١) علم الآثار القديمة: حيث يوجد عندنا في إيران العديد من التشابه اللفظي وهذا الأمر موجود في لغات عديدة، وبواسطة أمر ذوقي أو حسّي يستطيعون إثبات العقائد ومعرفتها. قبل ٤٠ سنة أقيمت ندوة في تركيا تحدث فيها السيد (زياد ئو غالپ) وقال إن جميع الحضارات وجدت قريبة من البحر المتوسط وكذلك وُلدت هنا، وأن جميع اللغات متشعّبة في اللغة التركية وجميع الكلمات متشعّبة من كلمة (شمس). وأن بعض علماء اللغات عندنا يقولون إن كلمة قريش هي نفسها كلمة (كورش) ـ ومثلاً كلمة عباس جاءت من كلمة (آسب ـ يعني الحصان) وبعضهم قال إن العرب أصلاً لم تكن عندهم لغة وإذا نظرنا إلى كلماتهم نرى أنها كلمات فارسية مبدّلة، وهذه اللغة أخذوها من المزدكيين (أتباع مزدك صاحب دين وهو فارسي) الذين فروا إلى الأراضي العربية، وأنهم لا يمتلكون لغة ولم تكن عندهم خطابة، وتعلموا النطق فيما بعد من أجل الحرب مع زرادشت، ومؤقتاً أوجدوا الدين الإسلامي و. . . . انظروا إلى المسائل التأريخية والدينية والعلمية لمثل هؤلاء العلماء كيف تكون بسيطة عندهم، أما عند العلماء الكبار فإن أصغر مسألة تكون عندهم صعبة ومهمة. (المؤلف)

الحضارات ويعرفون منابعها، فمثلاً السيد (بن فنيست)[١] والذي يُعتبر من أكبر علماء اللغة في العالم ويستطيع التحدّث بأكثر من سبعين لغة، وبمقايسة اللغات والقواعد الكلامية وقواعد اللغة.. فقد استطاع العثور على اللغات الآريائية الإيرانية والهندية والأوروبية، واستطاع العثور على الكلمات الأولية للغة الآريائية، حيث إن الأقوام المتوحشة الآريائية لم يكونوا قد هاجروا بعد من مواطنهم الأصلية،[٢] ونفس هذا التحقيق أجراه العلماء مع لغات أخرى حيث حصلوا على

---

(١) إميل بنفنيست (Emile Benveniste 1902-1976): من أهم علماء اللسانيات العامة واللسانيات المقارنة واللغات الهندية الأوروبية. ويمكن اعتباره كذلك من مؤسسي النظريات التلفظية والتداولية والتفاعلية في اللسانيات الحديثة. لكن تأثيره قد تعدى حدود البحث اللساني إلى كثير من العلوم الإنسانية وإلى الدراسات الأدبية ذات المنحى البنيوي. وقد كان صدور كتابه Problèmes de linguistique générale سنة ١٩٦٦ حدثاً مزدوج الأهمية: فقد جعل أبحاثه ونظرياته تخرج من دائرة المتخصصين المحصورة إلى المجال الواسع لجمهور القراء، خصوصاً في تلك الفترة المنبهرة بإنجازات البنيوية الظاهرة وقاطرتها المتمثلة في لسانيات «دي سوسير»؛ وكان محتوى الكتاب، من جهته، شديد التنوع والثراء، والجرأة أيضاً.. وكثيرة هي القضايا التي أنارها بنفنست بضوء جديد، وعديدة هي الأوهام، والأغلاط، والمشكلات الزائفة التي صححها أو بيّن بطلانها، وغزيرة هي الأفكار وسبل البحث الجديدة التي ابتدعها، لاسيما نظرية التلفظ والتفاعل الكلامي.

(٢) الأقوام الآريائية هاجروا من القطب كما يُقال واتّجهوا في هجرتهم إلى ثلاثة أماكن هي إيران والهند وقسم ذهب إلى أوروبا، يقال سكنوا ألمانيا وكانت لغتهم مشتركة (المترجم).

مصادر اللغات، ومن ثم قارنوا بين اللغات الأولية للعرقيات، وقد ظهرت الحقيقة القائلة بأن اللغة كانت لغة واحدة ومشتركة، فالاشتراك في كلمة (پدر ـ أب) و(مادر ـ أم) و(زمين ـ أرض) بين أكثر اللغات مثل اللغة الإنكليزية والفارسية وحتى العربية التي تعتبر جذورها شيئاً آخر، فهذا الاشتراك يعتبر نموذجاً ودليلاً على وحدة اللغة. ونرى عن طريق علماء اللغات القديمة أنهم يرون أن البشرية كانت تتكلم لغة واحدة.

أما فيما يخصّ المجتمع فقد قاموا بمثل هذا البحث والتحقيق، حيث بحثوا كيفية تشكيل المجتمع البدوي وكيف تحول إلى طبقات، وكيف جاءت الحكومة، وكيف ظهر الدين، وكيف تشكّلت المؤسسات الاجتماعية، وكذلك حول الدين قدّموا بحثاً أيضاً.

وما أريد عرضه الآن، هو أن أقدّم درساً كبيراً بعنوان أنني معلم أستطيع أن أقدم هذا الدرس لطلّابي. يعني، هذا كلامي أولاً وأخيراً، وكل ما أذكره وأتحدث به هو من أجل أن أقدّم توضيحاً ونموذجاً لهذا الأصل، فهذه مسألة في غاية الأهمية.. وهي، أنه ومن أجل معرفة الدين عليّ أن أتحدث وأبدأ من نفس الطريق الذي سلكه العلماء الذين كانوا ضد الدين، أو كانوا غير متدينين، أو حتى أولئك الذين كان هدفهم الصراع مع الدين، ومن هذا الطريق وبتلك اللغة التي تُعرف باسم العلم، علم الاجتماع، والاقتصاد، وفلسفة التاريخ، وعلم معرفة الإنسان..

العلم الذي نظروا من خلاله، فأنكروا الدين أو مسألة ما وراء الطبيعة، لذا سوف يكون حديثي حول هذا. ومن هذا المنطلق، ومن أجل معرفة وبحث المسائل العلمية أو الإنسانية، فنحن نرى أن هذه اللغة أفضل لغة للبحث والحوار. وهذه اللغة هي اللغة التي استعملتها أوروبا خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وبعدها نبحث في المسائل الإنسانية في جميع أبعادها، وحتى في المسائل الطبيعية والمادية في جميع أبعادها أيضاً، والتي أوصلتهم إلى إنكار الخالق ونفي الدين في الطبيعة والمجتمع الإنساني. سوف نعمل ونبحث، وسوف ترون أننا سوف نبحث في نظرية الطبقات، وأصالة الاقتصاد، والمسائل الدينية، وهذا البحث سوف يكون بحثاً طبيعياً خالياً من التعصّب، وسوف نصل إلى نتيجة لم يصل إليها أولئك، ونموذج ذلك هو درسنا لهذا اليوم والذي سأتكلم عنه بخلاصة.

من أجل معرفة الدين يجب معرفة الأديان الابتدائية، الأديان الابتدائية التي تعتبر أقدم مذاهب التاريخ، وعن طريق الكتاب لا يمكننا معرفة ذلك، فالكتب الدينية لأكثر الأديان كانت مكتوبة وتتحدث عمّا قبل ثلاثة أو أربعة آلاف سنة، وهي تتحدث عن الأديان المتقدمة والتي هي موجودة الآن.

أما من أجل معرفة الدين الابتدائي، فيجب أن نذهب ونبحث عن الأشياء القديمة. وهذه المذاهب والأديان التي يتمّ

معرفتها يجب أن تكون غير تابعة، وهذا يتطلب أيضاً أن ندرس محيط الدين البدوي أو الابتدائي أيضاً. إن علماء الآثار وعلماء الأجناس يمكنهم أن يشكّلوا عاملاً مساعداً ودليلاً في هذا البحث، ولكن هذا لم يكن الوسيلة الوحيدة، بل إن هناك طريقاً آخر أيضاً وهو التحقيق والبحث في القبائل، وفي المجاميع والعرقيات الخاصة التي بقيت بعيدة عن المجتمعات المتحضرة، واستطاعت أن تحفظ عملها الابتدائي[١] وفي القرن التاسع عشر يوجد عندنا مجتمعات بدوية ولو أن هذه المجتمعات مع فارق قليل فقدت بعض أصالتها وذلك بسبب احتكاكها بالمجتمعات المتحضّرة، ومع هذا فإن هناك بعض المجتمعات تعيش بصورة فردية من هذا النوع. وحتى الآن لا يوجد عند هؤلاء نظام لتشكيل العائلة، ولا توجد عندهم ارتباطات اجتماعية ولا مؤسسات اجتماعية، وأن شكل حكومتهم ونظام دينهم الخاص بشكل (Institution)[٢] وأن نظام

---

(١) نحن الآن لا نستطيع ومن أجل معرفة هذا الأمر أن الدين كيف ومتى وجد بين الإيرانيين والروم والعرب ـ في إيران واليونان في الدورة الابتدائية أو عند العرب في الفترة أو العصور المتوحشة، أما من أجل معرفة الأديان البدوية فإننا ولحسن الحظ هناك وفي القرن التاسع عشر وجدت بعض المجتمعات البدوية التي يمكن مطالعة الأديان فيها. (المؤلف).

(٢) تعني هذه الكلمة، مجموعة مترادفات: جمعية، مؤسسة، معهد، نظام قانوني، المؤسسة الاجتماعية، وهكذا.. ويريد شريعتي أن يقول إن بعض المجتمعات ليس لديها نظام مؤسساتي قانوني اجتماعي، وعَنى بالتحديد نظام الحكومة في تلك المجتمعات.

المؤسسات الاقتصادية نظام مجزّأ ومشخّص، وكذلك لا يوجد هناك نظام لتقسيم العمل. وفي أستراليا وبين هنود أمريكا الحمر الشماليين وكذلك في بعض نقاط أفريقيا وحتى الآن، توجد مجتمعات تعيش على شكل قطعان الغنم، ويعيشون في ظل ظروف يمكن أن يكون الفارق بينها وبين الذين يعيشون في المدن الآن، ما يقارب عشرين أو ثلاثين ألف سنة.

وإن علماء الاجتماع وعلماء الأديان أو الذين يحققون في تاريخ الفن والأدبيات، يمكنهم أن يعرفوا من خلال مطالعة هذه المجتمعات البدوية، كيف كان الدين والروابط الاجتماعية والأبعاد الإنسانية والعقائد والأخلاق ولغاتهم. وبواسطة مطالعة هؤلاء، يمكنهم أن يحصلوا على قوانين تساعدهم على معرفة الدورة الأولية لتكوين تاريخ المجتمع البشري. وقد قام العالم «دوركهايم» وكذلك «ليفي برول»[١] بمثل هذا العمل.

---

(١) ليفي برول: لوسيان ليفي برول، فيلسوف فرنسي، ولد في ١٠ نيسان ١٨٥٧ في باريس، وفيها توفي في ١٣ آذار ١٩٣٩. اهتم ليفي- برول، في المقام الأول، بالمسائل المتعلقة بالأخلاق والتاريخ والفلسفة. وعلى الرغم من تأثره الشديد بإميل دوركهايم، سلك في دراساته السوسيولوجية طريقاً خاصاً به. من أعماله: «الوظائف العقلية في المجتمعات» و«العقلية البدائية» و«الميثولوجيا البدائية». والكتابان الأخيران، يشكلان المرجع الرئيس في النقل عند شريعتي في هذا الكتاب.

لقد ذهب «برول»، و«تايلور»[١]، و«ماكس مولر»[٢]،

---

(١) إدوارد برنت تايلور (١٨٣٢-١٩١٧): عالم إنسان بريطاني أصبح أستاذاً لعلم الإنسان في جامعة أكسفورد منذ عام ١٨٩٦ وظل بها حتى تقاعده في عام ١٩١٣. أسهم إسهاماً كبيراً في دراسة الثقافة وكان أحد رواد الاتجاه التطوري، وقال بالنظرية البيولوجية، وأسهم في تطوير الدراسات المقارنة للأديان.

يرى تايلور أن الثقافة تطورت من الشكل غير المعقد إلى الأشكال المعقدة مبدياً اتفاقه مع «مورغان» بشأن مراحل التتابع الثقافي من الوحشية إلى البربرية فالمدنية. وكان كتابه «أبحاث في التاريخ المبكر للبشرية وتطور المدنية» في عام ١٨٦٩ والذي أعقبه كتابه «المجتمع البدائي» في عام ١٨٧١ قد انطلقا من وجهة نظر تطورية.. ويرجع الفضل إلى تايلور في ابتكار مصطلح الثقافة مفهوماً أنثروبولوجياً بحسبانه «كل ما يفهم من العلم والعقيدة، والفن والأخلاق، والتقاليد والأعراف، وأية قدرات أخرى يكتسبها الإنسان بصفته عضواً في مجتمع». وقد عُدَّ تعريف تايلور للثقافة في حينه أحد أهم التعريفات لكنه ومع تقدم المناهج العلمية وتوسع الأبحاث والدراسات الميدانية لم يعد هذا التعريف مناسباً. تبدو محدودية هذا التعريف في كونه اعتمد على الدراسات الاثنوغرافية الوصفية التي سجلها الرحالة ولم يتجاوز مجرد كونه سرداً وصفياً لعناصر الثقافة ومحتواها.

(٢) فريدريك ماكس مولر (٦ ديسمبر ١٨٢٣ - ٢٨ أكتوبر ١٩٠٠): كان عالماً ألمانياً اهتم بصفة خاصة باللغة السنسكريتية الهندية القديمة. أسهم في الدراسة المقارنة في مجالات اللغة والدين وعلم الأساطير على الرغم من أن علماء العصر الحديث قد نبذوا الكثير من نظرياته.

ولد فريدريك ماكس مولر في مدينة ديساو بألمانيا. سافر إلى المملكة المتحدة في عام ١٨٤٦ وعاش فيها بقية عمره. عمل أستاذًا للغات الأوروبية الحديثة بجامعة أكسفورد من عام ١٨٥٤ حتى عام ١٨٦٨ وعلى الرغم من عمله المتعلق بالفلسفة واللغات والديانات الهندية إلا أنه لم يزر الهند أبداً في حياته.

و«اسبنسر»،[1] خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وأوائل القرن العشرين إلى أقدم وأعرق المجتمعات البدوية حيث يعيشون في زاوية من الغابات في إحدى الجزر، ذهب هؤلاء العلماء وعاشوا فترة من الزمن مع تلك المجتمعات، ودوّنوا مشاهداتهم ونتائجهم في كتب معتبرة، وقد كتب «دوركهايم»

---

(١) هربرت سبنسر: فيلسوف بريطاني (٢٧ ابريل ١٨٢٠ - ٨ ديسمبر ١٩٠٣).. في كتابه السياسي «الرجل ضد الدولة» قدّم رؤية فلسفية متطرّفة في ليبراليتها. كان سبنسر، وليس دارون، هو الذي أوجد مصطلح «البقاء للأصلح»، رغم أن هذا القول يُنسب عادةً لدارون. وقد ساهم سبنسر في ترسيخ مفهوم الارتقاء، وأعطاه أبعاداً اجتماعية، فيما عرف لاحقاً بـ«الداروينية الاجتماعية». وهكذا يُعد سبنسر واحداً من مؤسسي علم الاجتماع الحديث.
ولد سبنسر في ديربي، وتلقى معظم تعليمه في المنزل، عمل كمهندس مدني، لكن كتاباته المبكرة شهدت اهتماماً بالأمور الاقتصادية.. عام ١٨٥١ انضم إلى مجموعة «جون تشابمان» التي كانت ترعى الفكر الحر والإصلاح، وبالذات تروّج لفكرة التطور والارتقاء. طلب تشابمان من سبنسر أن يبحث نظرية «توماس مالتوس» ويعرضها في العدد الأول من مجلة أشرف على إصداراها، ورأى سبنسر في نظرية «مالتوس» قانوناً عاماً يصلح للبشر كما للحيوانات، حيث تعمل الحروب والكوارث والأوبئة على تصحيح الزيادة السكانية.
كان سبنسر يمتلك علاقات وثيقة مع كبار الرأسماليين في عصره، الذين تلقفوا أفكاره ورحبوا بها، وكان سبنسر قد أخبر كارينجي، وهو واحد من أهم رأسماليي عصره: أن صعود شخص مثله، لم يكن نتيجة حتمية فحسب، بل كان حقيقة علمية. كان سبنسر معجباً جداً بدارون، ومن أجله فقط، حنث بيمينه بعدم دخول أي كنيسة، حيث حضر القداس عن روحه في كنيسة وستمنستر!.

يقول: إنهم لا يعرفون حتى الآن الملابس، ولا يوجد بينهم حتى الآن تقسيم للعمل، ولا توجد عندهم آلات للزراعة أو العمل أو الصيد أو الحرب، ولا يوجد عندهم خط ولا ربط، ونظرتهم للكون محدودة جداً بحيث لا يعرفون شيئاً عن قبائل أخرى تجاورهم ولو لعدة كيلومترات قليلة.

في مثل هذه المجتمعات، لا يمكن أن تطالع من خلالها القوانين البدوية الأولية لتشغيل المجتمع أو العقائد الدينية أو الفلسفية والفنية، وبعدها يمكن القول كيف وجد الدين على طول تاريخ البشر، أو كيف كان الدين الابتدائي.

هذا العمل وهذا البحث، يختصّ به علماء الاجتماع الذين يرفضون الأديان، أو أصلاً كانوا مختلفين مع الدين. وإذا لم يكونوا في صراع مع الدين فعلى أقلّ تقدير هم لا يدينون بدين، وهم من أجل نفي الدين بعنوان حقيقة واحدة متعالية على ما وراء الطبيعة، انساقوا وراء هذا العمل، ويريدون أن ينفوا وجود الدين كما فعل علماء الطبيعيات في القرنين السابع عشر والثامن عشر عن طريق الفيزياء والكيمياء حينما أنكروا الدين.

وهؤلاء كانوا واقعين تحت تأثير النهضة الفكرية لمثقفي القرن السادس عشر والسابع عشر حيث أصبح هذا الأمر اليوم قديماً جداً. أما أحدث نهضة ضد الدين فهي تلك التي سأتحدّث عنها الآن.. لذا، أولئك الذين يحبون الصراع مع الدين فإن درسي يفيدهم.

أنا أقول للصديق الذي يمتلك شخصية أخلاقية[١]، ولا أقول لعالم الاجتماع الكبير والعالم المحترم: لن أقوم بالتبليغ إليك ولا أريد أن تأتي وتصبح مبلّغاً للدين. ونحن لا نتحدث عمّا إذا كان الدين حقاً أو باطلاً.. ألا تريد قطع جذور الدين؟ إن الناس هنا مسلمون، وأنت حيثما تريد الصراع مع الدين فما لك إلّا أن تعرف الإسلام، وحسب قولٍ إذا صار الإنسان صاحب فكر ومسؤولية وتعهّد، يمكنه أن يُحارب الدين، لذا حارب حتى تحفظ فكرك، ولكن نحن لا يمكن أن نحارب الإسلام الدين الجديد في تاريخ البشرية (حيث إنه دين متعالٍ ذهنياً وثقافياً وحضارياً) كما حارب علماء الاجتماع (تابو[٢] ـ مانا[٣] ـ عبادة الروح، وأمثال هذه التي كانت موجودة في العصر البدوي) فلا يمكن أن نحارب ديناً مرتقياً بنفس المعايير التي

---

(١) صاحب الشخصية الأخلاقية الذي يصارع الدين. ويريد شريعتي أن يقول له، بأنك إذا أردت أن تحارب الدين، عليك أن تتعرّف عليه أولاً، فأنت لا تستطيع أن تحارب ديناً كالدين الإسلامي، تماماً كما تحارب الأديان البدائية. تعرّف إلى الدين أولاً، وبعد ذلك (إفعل ما شئت).

(٢) تابو أو Taboo هي كلمة غير عربية تطلق على المحرمات وفق أعراف المجتمع أو السياسة أو ما شابه. وسيشرح الدكتور شريعتي في واحدة من تعليقاته، معنى هذه الكلمة، وفلسفة أبعادها.

(٣) زعمت الأديان القديمة أن في بعض الأشياء كالحجر والشجر والحيوان قوة خارقة للعادة، ولذا ينبغي طلب الحاجة منها والتبرّك بها. هذه الأشياء يطلق عليها مانا (Mana). وسيتوقف شريعتي كثيراً عند هذا المصطلح في الصفحات اللاحقة.

نحارب بها ديناً بدوياً، لذلك فعليك وعلى أقلّ تقدير أن تعرف الدين الإسلامي.. افتح القرآن وانظر ماذا جاء فيه.

ولأجل الصراع مع هذا الدين يجب مطالعة كتابه، القرآن، وليس كتاب «ليفي برول» (La vie primitive)[١] فأنت اطّلعت على شيء وتريد أن تضرب شيئاً آخر. أنت تردّ على شيء، أما هؤلاء فيعتقدون بشيء آخر، فكيف تريد أن يترك هؤلاء دينهم ويسيرون خلفك؟

صحيح أنت حينما تضرب هؤلاء فأنت سوف تشفي غليلك وتصبح مثل (فولتير) لأنه كان يردّد مثل هذا الكلام، أما أنت فلا يمكنك أن تكون مؤثراً في مجتمعك كما كان هو مؤثراً في مجتمعه، فهو عرف دينهم ولغتهم وكان يعرف الدين المسيحي جيداً، أما أنت فبدون أن تفهم الإسلام ولا تعرف مخاطبة الناس بلغتهم تريد أن تحارب عقيدتهم، وهذا تقليد أعمى وليس عملاً ذا محتوى.

عليك أن تعرف المجتمع وأن تدرك وتعرف دينه واعتقاداته، ويجب أن تعرف ماذا جاء في كتبهم، ومن ثم يمكنك أن تبدأ بحربهم. أما أنت فتعتمد اليوم على أمر يرى هو

---

(١) كتاب (ليفي برول): الحياة البدائية. وقلنا أن شريعتي يقتبس من هذا الكتاب، ومن كتاب «الميثولوجيا البدائية»، ومن كتاب «الاشتراك» الذي سيتوقف شريعتي معه ليناقش بعض آراء الفيلسوف الفرنسي، الواردة فيه.

أنه ضدّ تعاليم دينه، لذا يرى أنك غير لائق لهذا الصراع.

أنت تقول: إن الدين عامل من عوامل انعزال الفرد في المجتمع، والمسلمون يرون أن جميع تعاليم الدين تعتمد على أصل التجمّع مثل الحج الذي يكون في أيام معلومة، حيث يأتي المسلمون من أنحاء متفرقة من العالم ليجتمعوا هناك، والمسجد في الإسلام معبد وليس زاوية خاصة، ومن اسمه نعلم بأنه للتجمع (جامع)[١].

فأنت وضمن ادعاءٍ لا أساس له وفي الوقت الذي تريد فيه أن تُخرج الناس من دينهم، فأنت بعملك هذا وعدم اطلاعك سوف تعمّق الدين فيهم، بسبب تعمّقهم هم في أمور دينهم. فهذا الذي تريد تغييره، اعرفه أولاً، فليس من المعقول أن تعرف شيئاً وتتحدّث عن شيء آخر.

---

(١) لا أستطيع أن أتجاوز هذه الكلمة من دون أن أسجّل موقفاً للكاتب (الصادق النيهوم) في كتابه (الإسلام في الأسر) حيث يقول: فنظام (الجامع) الذي يقوم على تسليم الحكم لله، والإدارة للناس، نظام يستحيل تطبيقه، بين ناس لا يستحقونه، لأنه قائم على مبدأ سلطة الجماعة، التي لا تستطيع أن تملك السلطة أصلاً حتى تصبح جماعة بالفعل، وتلتزم دستورياً بمبدأ المساواة بين الأديان والألوان والأنساب. وهو شرط يتجاوز مدى الوعي المتاح لثقافتنا العربية، بسبب الخلط التاريخي عميق الجذور بين وظيفة المسجد، وبين وظيفة الجامع. إنه خلط مميت، ورثناه من عالم أسلافنا الموتى، لكنه أصبح جزءاً من حياتنا.

الدين البدوي:

بواسطة البحوث التي أجروها في ـ مكرونزى ـ ملانزي ـ أستراليا ـ أفريقياالجنوبية ـ وبين الهنود الحمر في أمريكا الشمالية وبعض القبائل الآسيوية، توصلوا إلى التشابه في الأمور الدينية والعبادات والاعتقادات والمناسبات بين كل هذه القبائل والتي كانت كلها مجتمعات بدوية وفي مرحلة ابتدائية متقدمة جداً، وقد توصل الباحثون إلى هذه النتيجة وهي أن المجتمعات البشرية في بداية تأريخها كانت تمتلك هذا الشكل من الدين وهو بنفسه وُجد في تلك المجتمعات الابتدائية، وكان يمتلك هذا الدور، ومن ثم وحسب قوانين، تحوَّل إلى أديان متقدمة.

ما هي الأديان الابتدائية؟

إن الأديان الابتدائية كثيرة جداً، وإن الهدف من بحث مرحلة واحدة من تاريخ الأديان ـ بصورة إجمالية ـ ومعرفة جميع الأديان ليس معرفة تخصصية، فلا يمكن أن نتحدث عن جميع الأديان، لأن مثل هذا البحث يستغرق سنين طويلة، ولكن يمكن الإشارة إلى الأديان الأساسية والأصول الكلية للأديان في هذه الفرصة القصيرة من البحث.

إن «دوركهايم» في كتاب (Les Regles élementaires de la vie religieuse) المباني أو الأسس الأولية للحياة الدينية[1]، وكذلك

---

(١) بحسب ما نفهمه من اللغة الفرنسية، فعنوان الكتاب هو: القواعد العضوية للحياة الدينية.

«ليفي برول»[1] في كتاب (الاشتراك Participation) أو كتاب الروح البدوية La vie primitive أو الحياة البدوية أو الثقافة البدوية La Mentalite Primitive قد دوّنا جميع التحقيقات والأمور الخاصة حول الأديان البدوية في هذه المصادر. أما «دوركهايم» فيُعتبر أكبر عالم استطاع أن يقدِّم بحثاً يُعتبر من أحدث بحوث علم الاجتماع حول الدين.

لقد تجنّب «دوركهايم» جميع الأحاديث القديمة التي تدور ضد الدين، وقد أصدر بحثاً جديداً حول مسألة الدين.

يجب أن يعرف مثقفونا وكما يُقال إن الأصول والعادات والعقائد الموجودة، سواء أكانت الدينية أو الوطنية منها، أنها أصبحت قديمة. إن هناك الكثير من العقائد المنافية للدين أو الثقافة، أو هي ضد العادات والتقاليد والتي تعتبر حديثة علمياً أو حديثة فلسفياً، أيضاً أصبحت هي قديمة مثل اللباس القديم، فما الفرق فيما إذا كانت تعود لثلاثمائة سنة أو لثماني سنوات؟

---

(١) تأكيداً لمنهج شريعتي، لا بد أن أسجّل رفضنا للتفسير «الخلدوني»، والتفسير «الدوركهايمي»، وتفسير «ليفي برول»، ثم آراء «غوذليه»، و«كلاسْتر» لواقعنا ولاسيما لتاريخنا. فنحن نرفض التفسيرات التي يطبقها الغربيون على مجتمعاتهم وأنماطهم. فليست مجتمعاتنا حبيسة تفسير خلدوني، ولا نحن انتمينا لمجتمعات بدائية أو يجوز أن يطبّق الآخرون علينا مقالهم في الأمم البدائية. فيجب أن نتنبّه إلى مخاطر الرضى بتبسيط المجتمع التقليدي والظواهر السياسية.

على أية حال أصبحت قديمة وغير قابلة للاستفادة، ولا تحتاج إلى تجديد.

وللأسف، فإن هذا الافتخار هو فقط في الأفلام والنظريات، والتي تُعرض عندنا في نفس الوقت الذي تعرض فيه لدى دور العرض الأوروبية وفي شوارع أوروبا وأماكنها، أما المسائل الفكرية والفلسفية والعقلية فهي تبقى قروناً عديدة في الطريق حتى تصل إلينا، فمثلاً أولئك الذين يشبهون المثقفين فإنهم وبالضجيج، يعطوننا فكراً ويقولون إنه فكر جديد، وإذا أردنا التحقق من هذا الفكر! نجد أنه طُبع في الكتب التي انتشرت في أوروبا عام ألف وسبعمائة ونيّف مثلاً[١].

فتيشيسم (عبادة الأشياء)[٢]

هذا النوع من الدين يُعتبر من أقدم الأديان الابتدائية حيث

---

(١) لا بد من الإلماح هنا، إلى نقطة ركيزية في فكر الدكتور شريعتي، أشار إليها في بداية هذا الكتاب، تتلخص بأنه يعرض وبأمانة وشفافية لتاريخ الأديان، من زاوية علمية بحثية دقيقة، وهذا لا يعني موافقته لنتيجة البحوث التي قام بها علماء الاجتماع خصوصاً «دوركهايم» و«ليفي-برول» في هذا الشأن. أما دوركهايم فقد انتقد شريعتي آراءه في أكثر من موقع وخصوصاً في هذا الكتاب.

(٢) الفتيش (Fetish): اصطلاح برتغالي بمعنى السحر، والإيمان بالفتيش ـ الذي هو احترام شيء مادّي تكمن فيه قوة خارقة للعادة ـ ساد في أوساط الأقوام البدائية، وهذا الشيء قد يكون حجراً أو مواد معدنية، وحسب معتقدات تلك الأقوام، فإن حيازة الفتيش تعني الوصول إلى السعادة المنشودة.

يعتبره البعض ومن ضمنهم العالم ـ اسبنسر ـ من الأديان العامة، ويعتقدون أن جميع الأديان أخذت أو مأخوذة من هذا الدين، إن دين عبادة الأشياء كما كانوا يعتقدون في السابق، نوعان أو شكلان. ولكن اليوم، هناك بعض العلماء، يعتقدون بأنه دين واحد فقط.

إن كلمة (فتيش) هي كلمة بدوية في الأصل، وعلماء الاجتماع في مطالعتهم لأديان القبائل، استفادوا من الاسم الخاص لهذه الأديان، واستعملوه في علم الاجتماع كاصطلاحٍ خاص، لذا فالأسماء التي تقرأونها أو تسمعونها هنا لم تكن أسماءً إنكليزية، بل إنها أسماء مأخوذة من المحيط نفسه الذي ولدت فيه. و«فتيش» واحد منها.

فتيش، هو شيء أو أشياء مثل الأحجار والصخور أو بعض الأشياء المُباركة، وهذه كانت مورداً لعبادة الإنسان.

كانت أماكن عبادة الإنسان ومعابده هي الكهوف الموجودة في الجبال، وكانوا يعلّقون أشياءهم بواسطة حبلٍ مثلاً، ويشرعون بعبادته وتقديسه وتقبيله أو التبرّك به.

والفتيش يصبح معناه هو تقديس بعض الأشياء الطبيعية.

انيميسم (عبادة الروح):[1]

إن كلمة (أنيم) و(أنيمة) تعني التحريك والهيجان، وهي نفس كلمة روح، فالروح أو عبادة الروح نوع من الأديان الابتدائية، وتُعتبر أول دين في العالم.

(يجب أن تنتهبوا جيداً، هذه الأمور تُعتبر أموراً أساسية في مسائل تاريخ الأديان، بمعنى أنه ومن أجل طرح مسألة معرفة الدين وفي نظري من أجل إثبات الدين، يجب أن نعتمد على هذه الأمور، وأنا أعتمد على هذه المصادر في علم الأديان، وكذلك أنقل من تلك المصادر التي تقوم على إنكار الدين، فهذان المصدران يُعتبران مصدراً واحداً، وفي الأصل مأخوذة منها).

إن عبادة الروح تعني أن هناك قبائلَ ابتدائية كانت تعتقد بوجود الروح التي لا يمكن رؤيتها. فماذا تمتلك هذه الأرواح من خصوصيات؟ إن من أولى خاصّياتها، امتلاكها لشخصية إنسانية. فهي عارفة وصاحبة إرادة، وتَحْقد وتتنفّر، وتُحب

(١) الأرواحية (Animism): دين قديم للعديد من الأقوام الغابرة، ومفاده أن لجميع مظاهر الطبيعة روحاً يجب عبادتها والسجود لها، وقد سادت بين الأقوام القديمة عبادة الأرض، السماء والأجرام السماوية، النار، الرعد، البرق، السحاب، البحار، الأنهار، العواصف، الغابات، النباتات، الحيوانات لا سيما البقر، وثعبان الكوبرا، وكذلك عبادة طوطم القبيلة وروح الأجداد والسلف، مع تفقد الأرواح الخبيثة كالشيطان والجن، وقد ذمّ القرآن الكريم النزوع إلى عبادة الجن واللجوء إليه.

وتَعشق، وإما أن تقدِّم خدمة أو تكون خائنة، وإما أن تكون مقدسة أو شريرة. وهذه هي صفات الإنسان وقد وصفت بها الأرواح أيضاً. هذه الأرواح هي أرواح إنسانية وهي تمنح الإنسان حياة وعيشاً وحركة.

أما الخاصية الثانية لها، أي للروح، هو بقاؤها. يقول الإنسان الابتدائي: حينما يموت الإنسان فإن روحه سوف تبقى (نرى أن مسألة بقاء الروح أول كلمة في الفلسفة، في الوجود).

الروح لا تموت وتبقى أو أنها ترجع إلى السماء! أو أنها تبقى تعيش في ظلماتها! أو تبقى في أعماق الغابات أو في زوايا المدن! أو كما يقول الإنسان الابتدائي: تبقى ملاصقة لبدن الإنسان وتبقى محافظة عليه!.

هذه هي الروح، فهي تحفظ جسد الميت وتتعلق به وتكون محترمة، وأولئك الذين لا يحترمون جسد الميت أو ينتهكون حرمته فسوف يكونون في خطر من الروح، وإذا احترموا الجسد وقدّموا له الغذاء واللباس وغيرها من الأمور فإنهم يقدمون احتراماً كبيراً وبالتالي فإن الروح سوف تحفظهم وتحترمهم وتكون حارساً وحامياً لهم، وتصبح الروح عنوان عائلة المتوفَّى وصاحبة البركة، وحامية لأفراد العائلة.

بعض هذه الأرواح، تذهب بعد مفارقة الجسد إلى الغابات أو البحار وتعيش هناك. وأينما ذهبتْ، سواءً في أعماق البحار

أو الغابات أو أي مكان آخر، فإنها تتحول إلى أحد المظاهر الطبيعية. لذلك فإن لطوفان الماء والأمواج والمياه والأمطار بل ولجميع الظواهر الطبيعية، أرواحاً، كانت موجودة في الإنسان ومن ثم تحوّلت إلى ظاهرة طبيعية بعد الموت. ولذلك أيضاً، فإن لكل شجرة ولكل غابة ولكل مرض وحيوان ولكل شيء في هذه الدنيا، روحاً.. (يرجى ملاحظة هذه المسألة بدقة فهي مسألة في منتهى الأهمية).

إن أساس الاعتقاد في هذا الدين، هو عبادة الروح، يعني: الاعتقاد بأصالة الروح. والمقصود من الروح هو، القوى الرمزية الموجودة في الإنسان والبشر، وكذلك في الأشياء. يقول «ليفي برول»: هذه الروح، تختلف عن الروح الموجودة في تصورنا[١].

أما (الأنيميستيّون) فهم يعتقدون بعبادة الروح، ويقولون إن الروح عبارة عن قوة رمزية موجودة في الأشياء والإنسان. أما نحن، فلا نعتقد بوجود الروح في الأشياء، بل نعتقد بأن الروح هي سبب الحياة والحرارة والحركة في أبداننا. أما أولئك

(١) بعض العلماء يقولون: إن اعتقادنا بالروح هو إرث وصلنا من مرحلة عبادة الأرواح حيث وصلت للإنسان اليوم، ويعتبر «ليفي برول» آخر علماء مدرسة علم الاجتماع الابتدائي والذي قدم بحثاً جديداً باسم (participation) حيث تم نشره بعد وفاته، ويقول في هذا البحث، إن تلك الروح التي نعتقد بها غير تلك الروح التي يعتقد بها أصحاب عقيدة عبادة الأرواح. (المؤلف)

فيعتقدون بشيء ثالث وهو غير الجسم والروح. ومن المعتقدين بهذه الروح كجزء ثالث، سكان الإسكيمو[1]، فهم يعتقدون بوجود هذا الجزء الثالث ويقولون إن الإنسان مخلوق من روح وجسم واسم.

هناك اعتقاد شديد عند عامة الناس ببعض الأسماء فيقولون: إذا عملتُ هذا العمل فإني سوف أُرجع اسمي، وعلى هذا المنوال ولهذا السبب يقولون إن أحد الأجزاء الثلاثة هو وجود الفرد، وهذا أهم وأرقى جزء حيث يعتبر الوجود أعلى من الروح والجسم، وهذا هو ما يُسمّى (الروح) في فلسفة عبادة الروح، وليست هذه (الروح) هي نفس الروح التي تعني القوة الحياتية في البدن.. والروح هذه يقولون إنها تبقى بعد الموت ومن ثم تصير إلى صورة أشياء، وطبيعة، وتصبح صاحبة قوة طبيعية، وحتى في الحروب فإن بعض الشخصيات مثلاً يستخرجون روحهم هذه ويضعونها بالقرب من إحدى الأشجار حتى لا تُصاب بأذى في الحرب (إن أحد رؤساء القبائل قام بهذا العمل، وفي البداية كان كلما رموه بالسهام لا يموت حتى

---

(١) الإسكيمو: شعب يعيش في المناطق القطبية الشمالية والمناطق القريبة منها. ويمتد موطن الإسكيمو من الطرف الشمالي الشرقي عبر «ألاسكا»، وشمال كندا إلى جرينلاند. ويعيش بعض الأسكيمو في الجزء الشمالي من المناطق القطبية التي لا يستطيع أن يقطنها أي شعب آخر. أُخذ اسم الإسكيمو من كلمة هندية أمريكية تعني (آكلي اللحم النيء) أو (الناطقين بلغة غريبة).

استهدفوا روحه التي وضعها إلى جانب شجرة، فاستطاعوا قتلها ورجع هو إلى القبيلة بدون روح)[١].

وهنا يصبح واضحاً أن هذه الروح، لا تعني الروح الإنسانية التي نقصدها، وأن عقيدة عبادة الأرواح هي العقيدة الابتدائية للإنسان، من خلال عبادة الروح الواحدة له أو للروحيْن الموجودتين في العالم، بمعنى أن العالم المادي والأشياء الطبيعية تمتلك روحاً أيضاً، والإنسان يملك شيئاً غير مادي وغير مرئي يسمّى الروح أيضاً، وهي تمثّل قيمة الإنسان. والمهم في الأمر في مسألة الاعتقاد بالروح في الإنسان، أنها تجعل الإنسان يشعر بأن هذه الروح تشكّل، علاقة ورابطة بينه وبين الطبيعة. لأن الإنسان الابتدائي يعتقد بوجود الروح في الأشياء الطبيعية ـ هي روح الإنسان ـ ومثلما نعتقد نحن بأن الأشياء الطبيعية أشياءَ ميتة وفاقدة للإحساس والحركة ولا تفهم، فهو في المقابل يعتقد ويحس بوجود اتحاد بينه وبين الطبيعة.

المسألة الثانية: هي مسألة التناسخ في الأديان الابتدائية وخاصةً في عقيدة عبادة الأرواح.

---

(١) البعض يذهبون مع الساحر ويسرقون روح رئيس القبيلة لتكون لهم وحينما يجلس في الصباح يجد نفسه بدون روح. وأحياناً يعتقدون أنه بواسطة هذه الروح، فإن السحرة أو رجال الدين في القبيلة يستطيعون أن يجعلوا أفراد القبائل أعداء أو أصدقاء بواسطة تسخير هذه الروح. يوجد الكثير من مثل هذه الأعمال عند السحرة يمررونها بين عامة الناس.(المؤلف)

والتناسخ يعني أن الروح بعد موت الجسد تبقى وتنتقل إلى جسد آخر، بحيث تعمل من جديد في ذلك البدن الذي انتقلت إليه، وبعد موت البدن الثاني فإنها إمّا أن تنتقل إلى بدن آخر أو تنتقل إلى عالم الأرواح. وهذا البدن الثالث والرابع والخامس وإلى آخره.. إما أن يكون إنساناً أو حيواناً، وأحياناً يكون نباتاً أو حتى حجراً. لذا فإن فكرة التناسخ سواء في الأديان الهندية أو في بعض الفِرق الإسلامية غير الرسمية، هي فكرة ابتدائية، ومن أقدم الأفكار البدوية الدينية في العالم.

(الطوطميّة):

في المرحلة الثانية يعتبر مذهب (الطوطميّة)(١)، من أهم المذاهب والأديان التي اعتمدها «دوركهايم» وجميع علماء

---

(١) الطوطميّة: طوطم القبيلة في الأديان البدائية عبارة عن: علامة تحفظ القبيلة؛ وهذه العلامة تتجلّى في حيوان أو نبات أو جماد، وقد حازت أنواع مختلفة من الحيوانات على احترام أقوام عديدة، حتى أنّ صورها تنعكس في بعض الأحيان على أعلام الدول، وتاريخ الشعوب حافل بذلك، ويمكن أن نستنتج من وحي عبادة الأسد في أفريقيا، والنمر في الهند، والعُقاب والدبّ وكلب البحر في أمريكا الشمالية، والثور في اليونان ومصر، والبقرة في الهند وأفريقيا والدول الاسكندنافية، والجاموس في جنوب الهند، والكنغر في استراليا؛ أن الحيوانات المذكورة كانت طوطماً لهذه الأقوام، وما زالت بعض الحيوانات كالطير والثعبان تُقدس ـ في الوقت الحاضر ـ عند بعض الشعوب، وطوطم هو اصطلاح اقتُبس من لغة الهنود الحمر في أمريكا.

الاجتماع سواءً بصورة مباشرة أو غير مباشرة. (لم يكن «دوركهايم» قد وضع هذا ولكن علماء مثل «اسبنسر» و«لانكتون» وغيرهم، أما «دوركهايم» فقد اعتبره بحثاً جديداً بالنسبة لعلم الاجتماع ضد الدين، وينفع علم الاجتماع ضد جميع أديان العالم أيضاً).

إن عقيدة الطوطم، هي إحدى معتقدات القبائل البدوية الابتدائية، وكذلك بعض القبائل الموجودة اليوم في أفريقيا وأمريكا الشمالية وأستراليا الذين يعيشون عيشة البداوة، فكل قبيلة أو فرد يعبد شيئاً مثل الطيور أو الحيوانات والتي هي أكثر عبادة من غيرها، وإذا سألنا أحدهم لماذا تعبد هذا الطير؟ يقول: نحن نرجع إليه مثل «الوطوط»، وإذا سألناه كيف يمكن أن تكون «وطواطاً»، يقول إن جدّنا الأعلى الذي تشعّب منه الجميع كان «وطواطاً» وبعد أن مات وتلاشى جسمه جاء بصورة وطواط أبيض، والآن فالوطواط هو روح القبيلة ويحوم حولها ويحميها، ويريد لنا السلامة والبركة.

إذاً فهذا الطائر، هو الجد الأكبر للقبيلة، وقد جاء بهذا الشكل حيث حصل له التغيير، وهذا الطائر موجود دائماً وإذا مات، فالنوع باقٍ وغير قابل للفناء، إذاً فجد القبيلة دائماً موجود وعلى شكل وهيأة هذا الطائر.

ولهذا فإنهم يعبدون هذا الطائر، يعبدون جدَّهم، وحينما

يعبدون جدَّهم! فإنهم يعبدون روح المجتمع المشتركة لهم وهي موجودة في الجميع.

وحتى في قصِّ شعرهم وحركاتهم، يسعون لتقليد ذلك الطائر أو الحيوان الذي يعبدونه، فهم يحاولون إطاعة جدّهم باتِّباعهم شكل هذا الطائر أو الحيوان في شكل قص الشعر ولون اللباس، وبهذه الطريقة، فإنهم يثبتون وفاءهم وانتسابهم لمجتمعهم وأنفسهم.

إن أكلَ ذلك الطائر أو الحيوان يُعتبر حراماً بالنسبة لتلك القبيلة، أما بالنسبة للقبائل الأخرى فممكن.

وإذا كان في الهند بعض عبَدة البقر لا يأكلون لحومها، فهذا راجع إلى أديانهم الابتدائية، حيث إن معبودهم وجدّهم الأعلى في ذلك الوقت كانت البقرة. إذاً فحرمة أكل لحم الحيوان الفلاني يرجع سببه إلى أن هذا كان في زمنٍ ما، طوطم تلك القبيلة، يعني جدّهم الأعلى، وقد تجسّد بهذا الشكل، فاكتسب الحرمة والقدسية.

(هناك عالم! كتب حول مسألة حرمة الطوطم ثم قال: إن حرمة لحم الخنزير في الإسلام بسبب هذا التقدس ـ وقد استعمل القياس ـ والمسلمون أثبتوا حرمته ودليلهم موجود، ولم تكن حرمته بسبب قدسيته كما يدّعي).

وبمساعدة بعض الطلاب الجامعيين ممّن لديهم روابط

عشائرية، بحثنا حول عقيدة الطوطم في غرب إيران، فوجدنا أن هناك بعض القبائل مثل «سكوند»، «شغالوند»، «جرقوند» وغيرها... وكما تعرفون أن إلحاق «وند» بآخر الكلمة تعني انتساب، مثل «حسنوند» مأخوذة ومنسوبة إلى كلمة «حسن» ويعني هذا أن جدّهم الأعلى كان اسمه حسن، وهذا الانتساب مرتبط بعصر ما بعد الإسلام. أما الأسماء مثل «سغوند» فإن أصل الكلمة (سغـ) يعني كلب، والانتساب يكون «الكلبي»، فهذا يرجع إلى ما قبل الإسلام، حيث ينسبون أنفسهم إلى الحيوانات. وعند العرب توجد أيضاً مثل هذه الأسماء، مثل بني كلاب، (أبناء كلاغ) أو بني ثعلب، و...

وهذا أمر عجيب وهو أن الإنسان بنفسه ينتسب إلى الحيوان.

ولكن حينما نعرف (الطوطم) ويصبح مشخّصاً أنه حيوان، ولكنه ليس حيواناً حيث إنه روح إنساني، يزول التعجّب. مثل هذه الأسماء عند العرب تُسمى كنية(١). أما وجه التسمية، فمثلاً حينما يأتي إلى الدنيا مولود جديد، فإنهم يعطونه اسم ذلك الحيوان الذي كان جالساً في باب الخيمة التي ولد فيها الطفل، ويصبح اسم ذلك الحيوان كنية لذلك الطفل، وحينما يكبر الطفل

---

(١) يصح أن يُقال (كُنية) بضم الكاف، و(كِنية) بكسر الكاف. والكنية: اسم يُعلَّق على الشخص تعظيماً له أو علامة عليه.

وتصبح عنده عائلة، فإن أفراد العائلة سوف ينتسبون إلى اسم ذلك الحيوان.

لذا نرى أن هناك نوعاً من (الطوطم) موجود لدى القبائل العربية ـ والقبائل الإيرانية أيضاً ـ وأصبح هذا المظهر أو تلك الحالة، صورة عامة للتعريف بالناس.

«دوركهايم» يريد أن يبحث جذور الدين انطلاقاً من هذه المنابع. ألم يكن هذا موجوداً! حيث إن أفراد القبيلة عندما يكون معبودهم ومعشوقهم الأعلى والأفضل، هو الحقيقة المتعالية ـ وهو حامي القبيلة ـ وهذا نفسه يكون جدّهم الأعلى الذي يعبدونه؟ ولكن ما هي الحاجة إلى هذا السؤال؟ إن الجد المشترك هو وحده الوجه المشترك بين جميع أفراد العائلة أو القبيلة من زمان بعيد، والآن أصبحوا متقاربين وُملتحمين مرة أخرى. إذاً، فأفراد قبيلة واحدة هم عبَدة الطوطم، وفي الحال الذي يعبدون فيه هذا الطوطم المشترك، فإنهم يعبدون جدّهم المشترك، وفي الحال الذي يعبدون فيه جدّهم المشترك فإنهم يعبدون شيئاً واحداً مشتركاً فقط، وحينما يعبد أفراد مختلفون من المجتمع وجهاً مشتركاً واحداً فهذا يعني أنهم يعبدون الروح الجماعية لهم، وهنا تكون عبادة الطوطم قد تحوّلت إلى عبادة المجتمع، أو إلى عبادة جماعية (وهذا هو كل ما يريده دوركهايم).

إن الأفراد الذين ينضوون تحت رايةٍ واحدة ويقدّسون تلك

الراية أو ذلك العَلَم، فهذا في الواقع هو عبادة لذلك العَلَم، وهنا تكون العبادة هي الوجه المشترك للجميع. وأفراد المجتمع البدوي والابتدائي لا يعرف أحدهم الآخر ولا يوجد بينهم ارتباط مباشر، فبواسطة عبادة الطوطم، يقدّسون وجدان مجتمعهم المشترك بين الجميع.

إن تقديس الطوطم من وجهة النظر هذه، والتي يقدِّس فيها الأفراد مجتمعهم ويقولون إن روح جدّنا الأعلى باقية وهي حامية لنا، تعني: أن روح المجتمع حيّة وهي تحمي أفراد هذا المجتمع، والأفراد يذهبون أما المجتمع فإنه باقٍ، إذاً فالمجتمع غير الأجيال والأفراد، ولكن هناك حقيقة موجودة عند الأفراد وهي باقية وحيّة، هذه الحقيقة هي حقيقة الروح الجماعية، هذه الروح نفسها «كلكتيو»[١].

إن التقدّس الذي يؤمن به الفرد اتجاه (طوطمه)، وكذلك الأمر نفسه الذي يشعر به الأقرباء فيما بينهم وبين (الطوطم)، فهو يجمعهم وهو موجود عند الفرد والمجتمع، لأن الفرد هو من المجتمع، ولهذا فإن الموجودين جميعاً يشعرون أنهم متولِّدون في هذا الطوطم، إذاً فالطوطم هو العَلَم الباقي في المجتمع حيث إن الأفراد يأتون ويذهبون، أما المجتمع والروح الجماعية فإنها باقية، وتقديس هذه الروح هو بسبب بقائها.

(١) جمعية أو جماعية.

المسألة الأخرى: إن الطوطم يُعتبر مصدر جمالٍ لأفراد القبيلة، فأفراد القبيلة يقلّدون دائماً طوطمهم في الحركات والتجميل وقص الشعر وغيرها من الأمور، وعلى قول «دوركهايم» إن هذا الطوطم وبهذه الصورة تحوّل إلى معبود وإله وفكرة (الله خالقنا) وهذا هو تكامل الفكر الابتدائي، حيث إن أفراد القبيلة التي تعبد الطوطم يقولون: إذا كان الطوطم هو جدّنا المتعالي، إذاً فهو خالقنا، والاحترام الذي يكنّونه للطوطم هو بسبب تعاليه وتفوّقه، وهذا الاحترام هو نفسه الذي يكنّه للخالق أولئك الذين يؤمنون به. لذا فإن الاعتقاد بالأزلية والبقاء لله هو استمرار للاعتقادات الابتدائية المتقدمة، والاعتقادات جميعاً تؤمن بالبقاء للخالق، وهؤلاء يذهبون، ويبقى المعبود هو الروح الجماعية للقبيلة.

ومن هنا يصل «دوركهايم» إلى هذه النتيجة وهي أن الفلسفة، والتفنّن، ومعرفة الجمال والفن، ومفاهيم المكان والزمان، واليمين والشمال، والمفاهيم الذهنية الأخرى والاعتقادية، كلها مأخوذة من المجتمع، وأن الدين والإحساس الديني حيث إنه الشعور بالتقديس وتعظيم المعبود، هذه لم تكن شيئاً إذا لم يكن هذا التقديس والشعور بالتعظيم عند الفرد نابعاً من الروح الجماعية.

هذا البحث يعتبر أحدث بحث قدّمه «دوركهايم» لعلم

الاجتماع، وكذلك للأفكار المعادية للدين[١].

ومنذ البداية كان هذا هو كلام «دوركهايم» في كتاب (المباني الأولية للحياة الدينية)، حيث بحثت عنه في كُتب أخرى، فهذا القول الذي يقوله لا يتطابق مع أطروحته[٢].

وحسب ما جاء عن «دوركهايم»: إن أصل العبادة الدينية هو عبادة قومية وعبادة اجتماعية. وإن سبب تعدّد الآلهة هو أن كل قبيلة تحتاج لتجلّي روحها الخاصة بها وكذلك تحتاج أن تكون مستقلة ومشخّصة عن القبائل الأخرى، والطوطم هو الذي يفي بتحقيق هذين الأمرين. إلى هذا الحدّ يمكن اعتبار المسألة صحيحة، لذلك وبصورة إجمالية يمكن اعتبار الدين هو تجلي المجتمع في أفراده، والإله هو تجلّي الروح الجماعية في الروح الفردية أو في روح الفرد. وأن رابطة العبد والمعبود هي رابطة الفرد مع الروح الجماعية له نسبةً لقبيلته، وهكذا الدين مع صورة

---

(١) الأقوال الأخرى التي تقول مثلاً إن منشأ الدين هو الخوف، أو المالكية أو غيرها فهذه الأقوال قديمة وترجع إلى القرن الخامس عشر والسادس عشر وإذا وصلنا في البحث إليها فسوف نردّ عليها. أما اليوم فالأمر المطروح هو بحث علم الاجتماع عند «دوركهايم»، لأن الدين ظاهرة ترتبط بعلم الاجتماع، وتُعتبر بحوث دوركهايم من أعلى بحوث علم الاجتماع وأحدثها، لأن دوركهايم من المعاصرين لنا، أما تلك الأشياء العالقة بأفكارنا عن الدين فإنها ترجع إلى القرن التاسع عشر. (المؤلف)

(٢) من هنا سيبدأ شريعتي مناقشة آراء دوركهايم والرد عليها. وكعادته، يناقش شريعتي بموضوعية مدعّمة بالأمثلة الحسيّة والواقعية، ذرائع خصومه واستدلالاتهم..

الطوطم التي تعني تجلّي الاستقلال المشخّص لمجتمعٍ ما في مقابل المجتمعات الأخرى. لذا وبصورة ذاتية يكون ارتباط الطوطم أو الإله أو رابطة الأفراد مع الإله هي رابطة الفرد بمجتمعه، وهي تمثل تجلّي روح المجتمع.. إن أهم مشخّصات وأبعاد الدين الطوطمي هو انبعاث الوجدان ووجود الاستقلال عند مجتمعٍ ما مقابل المجتمعات الأخرى، حيث يكون ما يميّز هذه القبيلةَ عن سواها هو ذلك الرمز الذي يمثل أحياناً كلاباً أو كلباً،أو وطواطاً أو ثعلباً أو أي حيوان آخر.

وهنا يقول «دوركهايم»: إن بعض علماء الاجتماع يتصوّرون أن انتقال الدين من مجتمع أو قوم إلى مجتمع أو قوم آخرين، أمر يختصّ بالحضارة المتكاملة للإنسان وهو من خصوصيات الأديان الكبرى. ـ وهذا حال علماء أمثال اسبنسر، ومولر، وتايلور[1] ـ ففي أستراليا وأمريكا الشمالية أعطوا أدلة

(١) كان تايلور أول من درس طرق إشعال النار عند البدائيين، وطريقة الطهي بالحجارة الساخنة عند الجماعات التي لم تتعرف على صناعة الفخار. كما أنه درس بعناية نظام الزواج الاغترابي المحلي، ونظام الزواج مع أنساب الأم (ابن الخال أو الخالة). وقد اتفق تايلور مع فرضية «أدولف باستيان» التي ترى التفسيرات النفسانية للنمو الثقافي. ويقول تايلور أن الثقافة، مثلها مثل النباتات، تتصف بالانتشار أكثر من كونها تتطور، ويرى بأن الناس أخذوا من جيرانهم أكثر مما اخترعوا أو اكتشفوا بأنفسهم. ويرى بأن هناك عدداً من الاكتشافات التي نشأت في مكان واحد وانتشرت منه إلى أماكن أخرى: مثال ذلك الفخار الذي يرى بأنه انتشر في أمريكا من المكسيك، والقوس والسهم والشطرنج الذي نشأ في الهند وانتشر في العالم الجديد عبر المحيط الهادي إلى المكسيك.

عن كيفية تقبّل قبيلة لدين وعقائد دينية لقبيلة أخرى، وكيف أن أفراد هذه القبيلة تأثروا نتيجة الاختلاط بعقائد ودين تلك القبيلة.

حسناً. ذلك يصبح أمراً متناقضاً: أنا أؤمن بأن «الطوطم» هو تجلّي قومي واجتماعي. ولكن إذا كان الإحساس الديني والاعتقاد بالطوطم أمرٌ خاص ولا يوجد سواه! وإذا كانت الأديان الأخرى التي أصبحت متكاملة هم عبدة طوطم منذ البداية وأن صورته المتكاملة هو وجود الروح الجماعية الخاصة والتي تميّز هذا المجتمع عن المجتمعات الأخرى! فكيف يمكن للمجتمعات الأخرى أن تقبل الروح الدينية وعقائد هذا المجتمع؟.. لأن الدين في اعتقاداته الدينية هو الذي يميّز مجتمعه عن المجتمعات الأخرى «حسب نظرية دوركهايم» وفي نفس الوقت فهو يقبل عقائد الآخرين أيضًا!.

ونحن وبواسطة عَلَمنا (حيث هو نوع من الطوطم) في المجتمع الإيراني نحس أو نشعر بانتمائنا لإيران، وبهذا نفترق ونتميّز عن الآخرين، وكذلك الدول الأخرى تمتلك نفس الشعور. لهذا يصبح العَلَم هو الذي يميّزنا عن الآخرين وهو رمز استقلالنا، والآخرون يعرفوننا بواسطة هذا العلَم ونحن نعرف الآخرين عن طريق علَمهم. أما بين الفرنسيين ـ مثلاً ـ فهناك مَن ينظر إلى علمنا وينجذب إليه من خلال ألوانه ويرغبون به ونحن ننجذب إلى علَمهم ونحبّذ ألوانه، ولكن الذي يكون في علَمنا

ويميّزنا عنهم هو الشعار الموجود في العلَم، وكذلك علَمهم. وإذا لم يحل المجتمع فينا ونحن إذا لم ننحل ونذوب في المجتمع فلا يمكننا قبول علَم ذلك المجتمع.

أما «دوركهايم» وكذلك تلميذه الفيلسوف «فيليسين شاله»(١) الذي يقلّد كلامه وأفكاره تقليداً أعمى وكذلك يقلده في فلسفته أيضاً، والذي دوّن مطالب دوركهايم تحت عنوان «بحوث دوركهايم»، وأضاف ملاحظاته أيضاً عليها، فهذان الاثنان يؤيدان أنه في ولاية (ملانزي)(٢) ما يقارب خمسة أقوام أو قبائل متفرّقة، بمعنى وجود خمسة مجتمعات متفرّقة، لذا يجب أن يكون هناك خمسة أعداد من الطوطم، وخمسة أرواح جماعية مستقلة، حتى يكون التفريق بينهم واضحاً للأفراد، وكذلك يكون واضحاً ومشخّصاً للقبائل. أما إذا كانت قبيلة (A) تمتلك طوطماً لوحدها وكذلك قبيلة (B) تمتلك طوطماً مستقلاً وكان مجتمعهم مستقلاً أيضاً، فقبيلة (B) أخذت عقائد كثيرة وقوانين وتقاليد دينية من قبيلة (A) وأصبحت تعتقد بها، وتقيم المراسم نفسها التي تقيمها قبيلة (A)، فإذا كان الشعور الديني، يعني العبادة وهو تجلّي رابطة الفرد مع مجتمعه، فإن هذا الفرد سوف

---

(١) فيلسوف وصحافي فرنسي، ولد في مدينة ليون عام ١٨٧٥، وتوفي في باريس عام ١٩٦٧. وضبط اسمه باللغة اللاتينية كالتالي: Felicien Challaye

(٢) يقول ويل ديورانت: سكان ملانزي يدفنون المرضى العجائز أحياءً ويعتبرون ذلك وسيلة جيّدة للخلاص من بقاياهم.

لن يستطيع إقامة روابط مع فرد آخر من مجتمعه، وهذا غير ممكن، إلّا إذا قلنا إن عقيدة عبادة الطوطم هي تجلّي رابطة الفرد مع مجموعته أو جماعته. أما الشعور الديني فهو شعور من نوع آخر، وغالباً ما يكون الاثنان ممتزجين ومختلطين مع بعضهما البعض في المجتمع الابتدائي. وكذلك نرى أنه في الوقت الذي أحترم فيه علم بلادي وبواسطة هذا العلم أفرّق بين قومي وبين الآخرين وأحسّ بأنني غيرهم! في نفس الوقت أنا أميل وأعشق مذهباً آخر أو أؤمن بشيء آخر جاء من مكان آخر، أو أغيِّر ديني وعقيدتي.. ومع وجود المظاهر الدينية وأرباب الأنواع عند الأقوام اليونانية وهم يعتبرونها من المظاهر القومية التي تحمي البلاد سواءً «أثينا»[1] أو «إسبارطة»[2] ولكن بقدر وجود الفوارق، فإن الاثنين يختلفان عن بعضها البعض، بمعنى أن المظاهر القومية تبقى ثابتة والذي يتغير هو المظاهر الدينية،

---

(١) أثينا: عاصمة اليونان ومن أشهر المدن التاريخية في العالم. صارت عاصمةً لليونان عام ١٨٣٣م بعد أن حرّر الإغريق أنفسهم من الحكم التركي. ولكن شهرتها ترجع إلى القرن الخامس قبل الميلاد عندما كانت أقوى وأكثر المدن تحضّرًا في العالم، واسمها بالإغريقية أثيناي.

(٢) إسبارطة (Sparta): مدينة يونانية تأسست حوالي عام ٩٠٠ قبل الميلاد، عبر تجمع أربع قرى هي: لمناي، ميسوا، كينوسورا، بيتاني. اشتهرت إسبارطة بشعبها العسكري الذي ينشئ فتيانه على القتال ولا شيء غير القتال. ووفقاً للأساطير اليونانية، فمؤسس إسبارطة هو لاكديمون، ابن الإله زوس والآلهة تاجيت، وقد سمّاها على اسم زوجته ابنة يوروتاس.

ويظهر هذا التغيير من تفاوت الشعور والإحساس، لذلك، كيف يمكن لإنسان مرتبط بمجتمع، ودينه هو تجلّي روح المجتمع الذي يعيش فيه، وبدون أن يغير مجتمعه، كيف يمكنه أن يُغيِّر دينه!!. لذا يصبح واضحاً أن الشخص الذي يعيش في المجتمع A يأخذ عقيدة المجتمع (B) ولكن في نفس الوقت، هو لم يتقبل تجلّي روح المجتمع B، فهو قد أخذ إحساساً آخر. فأنا كمواطن إيراني، لا يمكن أن أقبل العَلَم الفرنسي في أي وقت من الأوقات، ولكنني أتقبّل التكنولوجيا الفرنسية وكتاب وفلسفة فرنسا، لأن هذه الأمور لا تمثل روح المجتمع الفرنسي. ولأن تلك الأمور هي أعمال فكرية إنسانية، وأنا، كوني فرداً إيرانياً، من الممكن أن أقلّدهم، وفرنسا من الممكن أن تقلّد الشِّعر والعرفان عندنا لأن الشعر الإيراني لا يمثل تجلّي الروح الإيرانية، هذا أمر عجيبٌ جداً. والأمر الأعجب منه هو الإيراد الثاني، وكما يقول: إن أفراد المجتمع الواحد حينما يعبدون (طوطمهم) أو معبودهم فإنهم يعبدون الروح الجماعية لهم. إذاً، فأفراد القبيلة الواحدة يمتلكون روحاً واحدة مشتركة يجب أن يعبدوها، ولكن مما تمّ ملاحظته في القبائل والمجتمعات الابتدائية وهو أنه في نفس المجتمع ذو الدين الواحد، هناك أقلية وهي جزء من هذا المجتمع الكبير قد غيّرت دينها، بمعنى أنها من الناحية الاجتماعية ومن ناحية الوراثة هي متولدة من

نفس الطوطم وتقدِّس طوطم الأكثرية، ولكنها من ناحية الدين فإنها قد أخذت ديناً آخر، وهذا يدل على أن نوع الشعور الديني يختلف عن نوع الشعور الاجتماعي. وهذا موجود بكثرة، فأحياناً تتجلّى الروح الجماعية في الدين مثل دين اليهود، أو تتجلّى الروح الدينية في العِرق والمجتمع مثل المذهب أو العقيدة الاجتماعية في اليونان، والدين هو تجلّي الروح اليونانية والروح الجماعية، ولكن في هاتين الحالتين، فإن التاريخ يُظهر لنا أنه حينما تشكّلت الإمبراطورية الرومانية فإنها أخذت الأديان اليونانية والمظاهر الدينية اليونانية، في الوقت الذي انحلّ فيه المجتمع اليوناني، والرومانيين كانت عندهم روح جماعية أخرى. وكذلك الدين اليهودي بين العرب خاصةً، فإن هناك قبائل يمنية تمتلك نفوذاً واسعاً كانوا على اليهودية، ولكنهم لم يكونوا من بني إسرائيل.

الفرق بين هذه الأمور واضح بصورة كاملة في التأريخ، وأنا هنا، لا أريد أن أقدم استدلالاً على أن الدين هو ما وراء الطبيعة، بل أريد أن أقول خلاف ما قاله دوركهايم، إن عبادة المعبود الدينية لم تكن من صنف العبادة الاجتماعية، وإن عبادة الإنسان ورابطته مع معبوده الديني لم تكن هي رابطة الفرد مع مجتمعه. ومن الممكن أن تكون رابطة الفرد مع جدّه الأعلى تمثِّل عبادة عالية وتقديساً كبيرًا، ولكن لا يمكن اعتبار هذه

الرابطة نوعاً من الشعور الديني اتجاه الإله أو الآلهة أو المقدّسات الغيبية والدينية. لهذا لا يمكن أن يغيّر الفرد من الدين في المجتمع، إلا إذا كان الدين يختلف عن روح مجتمعه.. وعلى هذا، فلدينا دليلان على بطلان نظرية دوركهايم:

الأول: إن عبادة الروح الجماعية التي تتجلى في الطوطم لا تُعتبر عبادة دينية، لأن أفراد مجتمع واحد وفي قبيلة واحدة في الوقت الذي لم يحصل تغيير في الروح الجماعية لهم، نرى أنهم اتّبعوا ديناً آخر.

ثانياً: في مجتمع واحد، يعتقد الجميع (بطوطمهم) أو معبودهم الخاص، ونرى هناك عدداً كبيراً منهم يعتقدون بدين آخر، وعدداً آخر يدين بدين آخر، بمعنى أنه في مجتمع واحد يوجد نوع واحد لمعبود (طوطم) وعبادةُ أجدادٍ واحدة، ولكن نرى هناك عدداً من الأديان في ذلك المجتمع. لهذا لا يمكن أن تكون الروح الجماعية هي الروح الدينية. وإذا تعدّينا هذا، نجد أن عبادة الطوطم لم تكن منحصرة في الدين الابتدائي، حيث إن هناك أدياناً أخرى متشعّبة منه، فعقيدة (فتيشيسم) عبادة الأشياء أو (أنيميسم) عبادة الأرواح، وهي عقائد للكثيرين من البدو، وعبادة الأرواح عبادة لقوى كثيرة لا تُحصى ولا تعدّ، وهي قوى غير مشخّصة للطبيعة والأشياء، وهذه لا تمثل تجلّي روح الجماعة لطائفةٍ أو قبيلةٍ ما، وإن أرواح القوى المخفية ليس لها أي ارتباط

بأي تجسّم عيني للمجتمع في هذه العقيدة. وإن أكثر ارتباطها بالتفسير الابتدائي الأولي عن الطبيعة، وعن تحليل الظواهر في العالم ومع الإنسان، وليس لها علاقة برابطة الفرد بمجتمعه.

إن بعض العلماء مثل «اسبنسر»، يرون أن عقيدة عبادة الأشياء نوع أو فرع من عقيدة عبادة الأرواح، ويرون أن هذه العقيدة هي التجلّي الواضح للإحساس الديني في المجتمعات البشرية الابتدائية. في هذا المذهب يعتقد الناس أن الأرواح الإنسانية أو الأرواح التي تشبهها، تعيش على سطح الكرة الأرضية في أعماق الغابات والبحار والظواهر الطبيعية الكثيرة، ولها في حياة الإنسان دخل كبير. ومن ثم فإن هذه الأرواح تتحوّل بشكل أرواحٍ للطبيعة، وكل روح تحلّ في ظاهرة طبيعية مثل المطر والطوفان والغابات والأشجار والمياه والجبال وغيرها. في هذه العقيدة يظهر التناسخ واضحاً. فالإنسان الذي يموت، ترجع روحه إلى منشأ الأرواح، ومن ثم تصبح جاهزة ومستعدة للرجوع حتى تحلّ في بدنٍ آخر، روح الجدّ والأجداد قد حلّت في هذا (الطوطم) وهي تردُ في أرواح أفراد القبيلة واحداً واحداً، وحينما يموت هؤلاء، فإنها ترجع وتحل في الأجيال القادمة.

القوى الغيبية: قداسة وثنوية الأشياء والأمور.

إن من خصائص عقيدة عبادة (الطوطم) والمذاهب البدوية الابتدائية؛ مثل عبادة الأشياء وعبادة الأرواح الكثيرة المتراكمة

في كل مكان والموجودة في كل ظاهرة من ظواهر الطبيعة، إحدى هذه الخصائص هي حسب رابطة الإنسان بالطوطم في عقيدة عبادة الطوطم، ورابطة الإنسان بالشيء في عقيدة عبادة الأشياء، وعقيدة الإنسان بالروح في عقيدة عبادة الأرواح، يقسّمون العالم وجميع الأشياء إلى: "le sacre"، أو ما يسمونه بـ«ساكريه» بمعنى الشيء المقدس والمبارك، أو "le profane" «بروفان» بمعنى الشيء غير المقدّس وغير المبارك، وهناك مَن ترجم كلمة (بروفان) إلى بليد، ولكن ليس هذا هو المعنى الصحيح. لأن بروفان تعني كل شيء غير ديني وغير مقدّس، مثلما نرى نحن، في مجتمعنا هناك عقائد قديمة، فقبل الإسلام مثلاً كانوا يزرعون نبتة في مكان مبارك، ويتبرّكون بها يعني (ساكريه)، وقبل هذا لم يكن مباركاً وإنما كان غير مبارك. إذاً، فكلمة بروفان، تعني: غير مبارك مادياً، وأنه شيء عادي، وليس شيئاً بليداً أو نجساً. وعلى هذا، فإن الأشياء، ترتبط بأرواح أو أشياء مقدسة ومن ثمّ فإنها تصبح مقدسة. مثل شخص لامست جبهته ضريحاً مقدساً أو لامست يده شيئاً مباركاً، فإن هذه اليد وتلك الجبهة هناك من يقدّسونها وبعضهم يحلفون بهذه الجبهة المقدسة. هذا الارتباط مع هذه الروح المقدسة، تحل في جسم غير مقدّس، فيصبح مقدساً. لهذا فإن الدنيا تقسّم إلى قسمين: مقدّس، وغير مقدس. جميع الأشياء في العالم، وجميع الناس

وجميع الأمور الاجتماعية، تخضع لهذا التقسيم. ففي هذه العقائد، مَن يُذنب فهو ملعون، ومَن لا يعمل في الوقت المحرَّم فهو مبارك ومقدّس، والحياة المادية تُعتبر (بروفان). وكذلك نرى أن الأيام مقسّمة أيضاً إلى مقدسة وغير مقدسة، أو أيام مشؤومة مثل اليوم الثالث عشر الذي يُعتبر يومَ نحس[١] وهذا كله من بقايا مرحلة عبادة الأرواح[٢].

ومثلاً، عند العرب كان العمل بعد الظهر يُعتبر محرّماً. فكانوا يذهبون إلى المقاهي ويشربون الشاي ويتكلمون بكلام ليس فيه فائدة، وهذا جائز، حتى نزلت سورة (والعصر) فرأوا أن الله أقسم بالعصر، فراحوا يعملون أكثر في وقت العصر.

لهذا، فإن أساس الاعتقاد بالقوى الخيّرة والقوى الشريرة والقوى الجيدة أو الصالحة والقوى غير الصالحة، أمور موجودة في ذات وحياة الإنسان. الإنسان يضع الأمل في مجموعة من الأصول والأعمال والأحكام الخاصة، بمعنى أن الخوف واليأس، أو الحرمة والأمل، وضعها الإنسان في هذه الأمور، وراح يسعى ويقدِّم، حتى يكون مستعداً لتسخير وجلب تلك القوى وتلك الآثار الغيبية.

---

(١) اليوم الثالث عشر في بداية كل سنة إيرانية يُعتبر يوماً نحساً عند الإيرانيين. (المؤلف)

(٢) لا بد لنا أن نشر إلى أن شريعتي لا زال في مرحلة العرض السردي والتحليل، ومرحلة تقريب الفكرة إلى الأذهان.

ومن هنا، فإن مسألة العبادة والأوراد والأعمال الدينية والرياضة الروحية، يلزمها تحريم بعض الأعمال، أو استعمال بعض الأشياء والابتعاد عن بعض المحرّمات التي تُسمى (تابو)[1].

إن جميع الأشياء في العالم، لها روح خاصة اسمها «مانا». يقول اسبنسر: سألت أحد رجال البادية (بدوي) قلت له لماذا تحترم هذا الشيء «الفتيش» وتحفظه وتمسح عليه باحترام وتتبرّك به، فما هو هذا؟ لماذا الناس في قريتكم يقدّسون هذا الرجل ويمسحون بأيديهم عليه للتبرّك أو يقبّلون يده وملابسه، أو إذا كان هناك مريض فإنهم يعطونه من بقايا الماء الذي يشربه. وهل هذه تُعتبر من العادات؟.. ونحن نرى هذه الأمور حتى في المجتمعات المتقدمة، حيث يتبرّك بعضهم بيد فلان من الناس، أو أن قدَم

---

(١) تابو تشمل المحرمات التي لها جانب رمزي، وسبب ذلك هو أن علة هذه الأمور غير واضحة عقلياً بالنسبة للدين الابتدائي. ولكنهم كانوا يعملون بهذا العمل، وآثار هذه العقيدة لا تزال باقية عند بعض الأمم ـ مثل المرأة الحائض أو الرجل المُجنب ـ وبعيداً عن الأحكام الصحية والمنطقية، فإن لهذه الأمور أحكاماً قائمة في الإسلام وفي نظر عامة الناس، هذه الأمور لها آثار مخفية وآثار شؤم خاصة المرأة في دورة النفاس فهي تترك آثار شؤم على الآخرين. في نظر العوام يوجد مفهومان: الطاهر، والنظيف، فمن الممكن أن يكون الشيء نظيفاً جداً ولكنهم ينظرون إليه بأنه نجس. فكرة التابو هذه كانت سبباً وراء عدم تطبيق قانون الإسلام بدقّة بين العامة. ففي نظر العامة إذا كانت هناك امرأة لن تحيض فإنها لا تذهب إلى الحمام لفترة طويلة حتى يصبح لباسها يابساً من العرق، وهذا في نظرها طاهر وغير نجس. (المؤلف)

الشخص الفلاني مباركة أو أن روحه شفافة، أو أن لبس العقيق فيه أجر وثواب، أو أن بعض المواد الغذائية تحلّ المشكلة، أو أن الشجرة إذا نذرتَ لها فإن حاجتك سوف تُقضى. . . لماذا؟ يقول في هذه الأمور يوجد حُرمة وتقدّس «مانا»[1].

يوجد في أحد شوارع مشهد، حجر كبير مقدّس إذا استطاعت المرأة رفعه فإن مولودها سيكون ولداً، وإذا لم تستطع فإنه سيكون أنثى. هذا يُعتبر (مانا) أيضاً[2]!. نرى أن الأمم حينما تصبح صغيرة، فإن شخصياتها ورجالها الكبار العظام سوف يفقدون أهميتهم وقيمتهم في أذهان الأمة، وستبقى مكانتهم مجهولة فيها، ولن تستطيع تلك الأمة معرفة القيمة الحقيقية لتلك الشخصيات، إنهم يسيئون لتلك الشخصيات حينما يصفونهم ببعض الصفات البعيدة عنهم.

---

(١) يحلِّل شريعتي موضوع (المانا) هنا، من وجهة نظر عالِم الاجتماع، أي من الزاوية الاجتماعية العلمية، ولا يحللها من وجهة نظر الذي يؤمن بالمانا أو لا يؤمن بها. لذلك فإن الأمثلة التي سيضربها الآن وفيما بعد، تخضع لوجهة نظر علم الاجتماع، الذي لا يفرِّق بين المانا التي تقدِّس الأشياء لمجرد التقديس ومن دون مبرِّر عقلي، أو المانا التي تقدِّس بعض الأمور ولها مبرِّر عقلي أو نقلي، ونقصد بالنقلي ما نصّ عليه الدين أو الشرع. لذا لن نقوم بالتعليق على الأمثلة التي سيوردها، وقديماً قيل: الأمثلة تُضرب ولا تُقاس.

(٢) ما قامت به هذه المرأة في المثال الذي ضربه شريعتي هنا ليس له مبرِّر عقلي ولا مبرِّر نقلي، وقديماً قيل: النقاش في المثال، ليس من دأب المحصِّلين.

فالناس مثلاً، يعتقدون أن نبي الإسلام ﷺ إنسان فوق العادة، ولكن لا يعرفون القيم المعنوية والإنسانية له وكذلك لا يدركون عظمة العمل الذي قدّمه[١]. ولكنهم يأتون ويقولون إن الرسول ليس له ظِل، وإذا فرضنا بأنه ليس له ظِل! فما هي الفائدة من هذا الأمر للبشرية؟ علي عليه السلام يعتبر قِمة في القِيَم الإنسانية المتعالية، وأمام هذه العظمة فإن بعض أدمغة الشيعة ضيّقو الفهم ينسبون إليه أموراً لا تُناسب شخصيته، ولكنها تتناسب مع ذوقهم وشعورهم. أو أنهم ينسبون إليه أموراً هو بعيد عنها، فمثلاً يقولون إن سيفه ذا الفقار له رأسان، ولم يفكروا أن السيف ذا الرأسين لا يمكن إرجاعه إلى الغمد، وإذا كان في غمد فلا يمكن إخراجه، وإذا كان في غلاف واستُعمل فليس له أهمية، وهنا يعطون وينسبون قيمة إلى ذي الفقار وليس ذو الفقار إلى علي.

وأيضاً في مشهد فالناس يتحدثون عن الإمام الرضا عليه السلام وبعضهم يرى أن الطواف حول قبره أفضل من الطواف حول

---

(١) بهذه الكلمات القصيرة رسم شريعتي لنا منهج جهازه المفاهيمي، فهو يريد من الناس والمجتمع أن يعرفوا تاريخ هذه الشخصيات العظيمة والمقدّسة فعلاً، وأن يعرفوا مواقفها، وما قدّمته هذه الشخصيات للإنسانية، كل الإنسانية، وأن يترسّموا خطاها تحت عنوان «ولكم في رسول الله أسوة حسنة»، أسوة في الفعل والسلوك والموقف، هذا أولاً وبالذات، وبعد ذلك أي ثانياً وبالعرض، ناقشوا بقية الأمور على ضوء العقل والنقل.

كعبة إبراهيم (كل طواف يعادل عند بعضهم سبعة آلاف وسبعمائة وسبعين حجة واجبة!)[1]. أما تلك الآثار التي تركها الإمام في المجتمع الإسلامي، وتلك الأقوال التي قالها، ودوره العظيم في فضح الخلافة الباطلة، وسعيه العظيم في إحياء الروح الإيمانية في المجتمع، فإنهم لا يدرون ما هي، وقيمته الواقعية لا يعرفونها، ولكنهم يصوغون قيماً أخرى له. يقولون مثلاً حينما جاء إلى مشهد جلس للاستراحة قرب أحد الجبال واتكأ على إحدى تلك الصخور. ومنذ ذلك الوقت وحتى الآن يقطعون من ذلك المكان أجزاءً لصنع الأواني من أجل طبخ الغداء، وحينما يطبخون بذلك الإناء، فإن الطعام سيكون ذا طعم لذيذ ورائحة طيبة، فيه نوع من القدسيّة (مانا).

هناك بعض الناس يقدسون التربة التي يسجدون عليها، والحال أن هذه لم تكن شيئاً مهماً سوى قطعة من التراب (إذا لم نقل مثل هذه الأمور نكون قد وضعنا حيثية المذهب الشيعي في خطر، ونكون قد كتمنا القيم العالية لمذهب أهل البيت) التربة

(١) لم يرِد في أي رواية من روايات الشيعة الإمامية أن الطواف حول أي حرم مقدّس فضلاً عن حرم الإمام الرضا عليه السلام يعادل ولو حجة واحدة واجبة. والمقصود من المعادلة هنا وفي أي مكان آخر هو الحجة المستحبة لا الواجبة إن وُجدت النصوص التي تدل على ذلك. ويظهر أن شريعتي نسب ذلك القول أو الرأي إلى البعض من المُغالين، وهم موجودون في كل زمان.

هي قطعة من التراب، أما انتخاب التربة فهو فكر مترقّي، ولكن المثقفين يرون أن استعمالها بهذا الشكل من قبل عامة الناس، لا يمكن قبوله، وليس صحيحاً، وهو خرافي. لأن هذا التلقي يكون بعنوان عبادةٍ لصنم. وأن أصل استعمال التربة له معنىً كبير، لأن السجود يجب أن يكون على التراب (إن طائفة ثقيف التي كانت تسكن الطائف كانوا أناساً متكبّرين وأشدّاء جاؤوا إلى الرسولﷺ وقالوا له ما هي أصول الإسلام التي تريدنا أن نؤمن بها؟ أوضحها لهم الرسول. قالوا نقبلها جميعاً غير الصلاة لأنها تذل الإنسان حيث يسجد على التراب، فلم يرضَ ذلك منهم الرسول، فقالوا له نقبل كل شيء حتى الجهاد ولكن نرفض الركوع والسجود، قال لهم الرسول إذا أردتم أن لا تتكبروا فقعوا على التراب) السجدة للآخرين وخاصة في عصر التفاخر وفي عهد تحكّم الطبقات والعشائر الجاهلية كانت مشكلة كبيرة، حيث إن السجود علامة الذل أمام تلك القوى المتكبرة، وفي هذه الحال فإن امتيازات وظواهر الطبقة الحاكمة أو طبقة الأشراف سوف تنتهي. لأن الإنسان يكون حرَّ الاختيار للطريق، في سيره، وفي ملبسه، وفي مطعمه ومشربه. ويستطيع الإنسان أن يُظهر شخصيته في مناسبات عديدة ولكنه لا يستطيع أن يمتاز بها عن الآخرين في السجود على التراب، فهو لا يستطيع أن يسجد على شيء ثمين كالفضة والذهب والفرش النفيس ليميّزه

الناس عن غيره، لذلك صار السجود على التراب، للتواضع، ولوجود الاشتراك في السجود على هذه المادة التي لا تمييز فيها. ومن ناحية أخرى، يجب أن تكون هناك علاقة ورابطة بين عملية السجود وبين الشيء الذي يتمّ السجود عليه، وهو أن هذا الساجد، مهما كانت صفته وعظمته فإنه من هذا التراب وسوف يرجع إليه، لذا فالسجود على التراب يجب أن يكون على هذا التراب المعروف والمتعارف عليه، وقد لا يكون هذا متوفراً في كل مكان، وإذا كان السجود جائزاً على كل شيء ولا يوجد هنا تحديد، فمن الممكن أن يكون الأمر وسيلة لأولئك الذين يرون في أنفسهم العزّة والتكبّر والشرف فيسجدون على الذهب أو العقيق أو الحرير فيكون الأمر والمجال مفتوحاً لهؤلاء، لذلك فالمنظور من حمل التراب هو لتساوي الساجدين عليه ولدفع عذر المترفين والمتعالين، وحتى في السجود يجب أن لا تظهر الامتيازات الطبقية، لذا فعلى الجميع حمل التراب للسجود عليه، ولكن من شديد أسف، نرى أن هذه التربة تُرجمت إلى مفاهيم غير معقولة، فأصبحت مقدّسة مباركة بذاتها، وأصبحت من الأمور المرموزة والتي تحمل أسراراً.

ونرى أن هذه التربة التي أصبحت يابسة ومملوءة ببعض ما تعلق بها من مواد فتغيّر شكلها ولونها، فإن البعض ومن شديد أسف يقطعون جزءاً منها ويخلطونه مع الماء ويضعونه في أذن أو

عين الطفل، والبعض يستعملونه كدواء للشفاء من الأمراض[١].

هناك عادات كثيرة يجب التخلص منها لأنها ليست من الدين، فالبعض يأتي برواية مثلاً ويقول إن ماء الاغتسال يجب أن يكون من ماء الشرب حتى يمكن الاستفادة منه، ونحن نرى أن الأصل الذي يجب أن يكون مظهراً للطهارة والصحة العامة يتحوّل إلى مصدر لنقل الأمراض وسرايتها[٢].

التربة، النباتات المباركة، الحلوى، بعض المواد الغذائية، والطلاسم، فإن هذه جميعاً (مانا)، فما هي المانا: هي قوة ليس لها اسم، وهي رمزية. وتوجد في الأشياء بضعف أو بقوة، وحتى أنها موجودة في بعض الأشخاص بكثرة وقوية، ونحن بواسطة أعمال السحر وبعض الأدعية والأوراد الخاصة التي يقوم بها السحرة، أو بعض الأشخاص الذين يمتلكون قوة واطّلاعاً خاصاً يستطيعون تسخير تلك القوى الموجودة، ونحن بواسطة تقبيل أيدي هؤلاء والتوسّل إليهم، تنتقل تلك القوى الرمزية إلينا ونحصل على الخير والفائدة.

---

(١) اللهم إلا ما ورد فيه نص شرعي صحيح، كالتربة الحسينية، لا الكربلائية. وتعميم استعمالات التربة مطلقاً ليس في محله، لأن المنصوص عليه هو تربة ضريح الحسين عليه السلام، فيبقى كلامه سارياً وصحيحاً، خصوصاً لجهة تنظيره البارع حول فلسفة السجود على التراب.

(٢) ما أورده شريعتي صحيح، فالاغتسال والوضوء أيضاً، يصحّان من مطلق الماء عدا المضاف، ولا ينحصران بماء الشرب. أما وجه الاستفادة منه، فغير مفهوم من سياق الجملة الواردة في المتن.

وفي الدين المسيحي، الروح (Esprit) أخذت شكلها الكامل (والمانا) أخذت جانبها وموقعها اللطيف، فالمسيح عنده (مانا) روحية، وهو من جنس مقدس وأخلاق مقدسة، وهو لم يكن مخلوقاً من ماء وطين الآخرين، وأتباعه يعتقدون أن المقدار الذي تناوله من الشراب في العشاء الأخير باقٍ حتى الآن، وقد مرّ ألفا عام وهم يخلطون ذلك الشراب مع الماء ويضعونه في قدح كبير ويشرب الجميع منه، ومن ثم يأخذون من هذا القدح مقداراً ويخلطونه مع الماء في قدح آخر وهكذا تستمر العملية، وحالياً فإن عظمة الكنيسة والبابا تكمن في أنهم يمتلكون هذا الشراب المقدس وذلك الخبز المبارك، فالبابا والقسيس والبطريق هم الذين يحملون تلك «الروح» وكلمة «روحاني» جاءت من هذا الباب، مقابل عامة الناس الذين لا يحملون تلك الروح، وهم جسم فقط.

حينما أكون إنساناً من جسد (بروفان) لا أمتلك تلك الروح، فإنه وبتناول مقدار من هذا الشراب المبارك الذي يدور على الجميع ويتناولونه أيضاً، يقولون إنك شربت من دم المسيح باسم «شراب»، وبتناولك الخبز المبارك فإنك أكلت من جسمه باسم «الخبز». وبهذا الشكل فإن (مانا) سوف تحل بي، وبهذا الشكل أيضاً صارت بيني وبين المسيح وحدة مقدسة وأكون من محبّيه ومقربيه، وأما ذاتي التي تلوّثت بالذنب بسبب المعصية

الأولى التي ارتكبها أبونا آدم وعمّت الجميع، فسوف تصبح طاهرة وتصبح ذاتاً إلهية عيسوية.

أنا أعتقد إن هذه الفكرة تُكامل نظرية العالم الفرنسي المعروف «ليفي برول» وقد جاءت ضمن نظرياته الواردة في أحد كتبه والذي تمّ نشره بعد وفاته وهي نظرية: الاشتراك (بارتيسيباسيون).

فأفراد القبيلة الواحدة الذين يشعرون أنهم فرد مشخص إنساني، ومن خلال الرقص والمراسم الدينية التي تجري بواسطة السحر أو الوسطاء الدينيين! في هذه المراسم، تجري أعمال مختلفة، وحتى شكل طوطم القبيلة يجري تقليده في هذه المراسم فيشعرون بأن (طوطمهم) قد حلّ بهم وصاروا كنغراً أو نسراً.

هذه الروح بيد من؟ في يد حاملي الروح.. وحاملو الروح هم الروحانيون المسيحيون، ولهذا فإن الجميع من الناحية الجسمانية يكونون أعضاء رسميين لكنيسة، ويكونون تابعين للقساوسة حتى يمكنهم الحصول على تلك الروح وتحلّ فيهم وحتى يتم لهم الاتصال ويحصلون على الحماية فيكونون مبرَّئين من الذنب الذي اقترفه آدم. وفي أوائل القرون الجديدة هناك مئات الآلاف من المسيحيين الذين أرادوا أن يصبحوا روحانيين، وذلك بدون كسب العضوية من مركز الكنيسة، هؤلاء

قد تمّ قتلهم جميعاً، وهناك الكثير من علماء الدين مثل (جوردانو)[١] تمّ إحراقهم بالنار.

في المجتمعات التي تعتقد بعبادة الأشياء أو بالأرواح أو الأشياء الرمزية! يوجد في هذه المجتمعات قوّة تُسمّى (شورينكا)، وهذه القوة يمتلكها عدد خاص من الروحانيين، وبواسطة هذه القوة يمكنهم النفوذ في الأرواح والقوى المرموزة ويقدمون أوراداً وأعمالاً ومراسمَ دينية ويربطون الناس بالدين بواسطة هذه الأعمال، وفي نهاية المراسم العبادية والرياضات المختلفة والمراسم الجماعية يقدّمون النذور والموقوفات.

---

(١) جوردانو برونو (١٥٤٨ م. ١٦٠٠ م.): كان فيلسوفاً وعالماً فلكياً، قام بتطوير وتصحيح نظرية كوبرنيكوس، بدأ حياته راهباً وبسبب أفكاره المادية انفصل عن الكنيسة وتفرّغ لنظرياته العلمية، آمن بـ «لا نهائية» المكان أو لا نهائية الطبيعة، ورفض مركزية الشمس في الكون مؤكداً على أن لا وجود لهذا المركز إلا كمركز نسبي فقط «فشمسنا ليست النجم الوحيد الذي له أقمار تدور حوله» فالنجوم البعيدة هي شموس أيضاً لها توابعها، كما افترض أن جميع العوالم في هذا الكون مأهولة، يدفعه إلى ذلك إيمانه بأن كل ما في الطبيعة ذو نفس استناداً إلى إيمانه بمذهب حيوية المادة «HYLOTOISM» الذي اعتنقه كغيره من الفلاسفة الطبيعيين؛ وهو أول مَن قال بوجود التجانس الفيزيائي بين الأرض والكواكب وهذه التنبؤات لم تُؤكّد علمياً إلا في أواسط القرن العشرين. لقد حطّم «برونو» التصورات القديمة عن العالم المخلوق ليجعل الكون ممتداً إلى ما لا نهاية وهو القائل بأن: «الكلمة الأخيرة في كل مجال من مجالات المعرفة تكمن في العقل وحده»؛ أُلقي القبض عليه من قِبَل محاكم التفتيش التي سجنته ثماني سنوات أحرقوه بعدها على أحد أعمدة التعذيب بعدما رفض إنكار فلسفته وتوجهاته العلمية.

إذاً، فهؤلاء، هم واسطة مقدسة بين عامة الناس والقوى الغيبية والمظاهر الدينية، أما سبب هذا الامتياز الطبقي والدور الخاص المنحصر بهم، لأن خواصهم الذاتية تحمل هذه القوة الخاصة (شورينكا) وتحمل روحاً مقدسة[١] فالأمر المشترك بين الاعتقادات السالفة الذِّكر هو بهذه القوة ـ حيث الاعتقاد هناك غير الأمور والأشياء المادية والمحسوسة ـ هي موجودات وأشياء لا يمكن عدّها، وهي موجودة في الأرض والسماء بكثرة ونحن لا يمكننا الاتصال بها عن طريق العبادة والصلاة والأعمال الخاصة.

والعقيدة المشتركة الأخرى بين الأديان، هي أنه في الغابات والبحار والأرض والسماء أرواح كثيرة ولها تأثير في حياتنا. فمن غير الممكن أن يموت إنسان بمجرد ضربه أو سقوطه من على الحصان، أو أن الإنسان يحرث ويزرع ويجني هذا المحصول الكثير أو يعمل في تربية الحيوانات وزيادتها! من

---

(١) إن اصطلاح «روحاني» لم يرِد في المتون الإسلامية ولكن وردت كلمة «عالم»، وهاتان الكلمتان لم تكونا واحدة في المعنى، فالروحاني شخص خاص ويمتلك ذاتاً وقوة مرموزة مقدّسة، ونفساً مؤثرة، ويمتلك نورانية مرموزة، ويحب أن تُقبّل يده ورجله ولباسه، وماء فمه فيه شفاء و... أما «العالم» فهو إنسان مادي وهو يعرف الدين جيداً وهذه المعرفة جاءت عن طريق التحقيق والتحصيل والاجتهاد، والتقليد يكون له والجاهل يحتاج إليه احتياجاً عقلياً ومنطقياً، وليس احتياجاً مرموزاً ومخصوصاً. (المؤلف)

غير الممكن أن يتحقق هذا الأمر وحده! ولكن الأمر يتعلّق أيضاً بهذه الأرواح، وهي علل وعوامل مؤثرة في حركات وظواهر الطبيعة، وكذلك في حياة المجتمع والفرد.. فإذاً ليست كل حادثة منحصرة بهذه العوامل المحسوسة التي نراها، بل إن هناك عوامل غيبية أخرى لها وجود أيضاً حيث إنها مسؤولة عن هذه الأمور. وعليه فإن إحدى المسائل المشتركة بين الأديان، هي وجود علل غير العلل القريبة التي نراها[١].

يعتقد «دوركهايم» أن هناك وجوهاً مشتركة كثيرة بين الأديان، ومن هذه الأمور، الاعتقاد بوجود الأشياء والحقائق غير المرئية الموجودة في عالم الوجود، وكذلك مسألة تقسيم العالم إلى خير وشر، ومقدس وغير مقدس، ويقول إن كلمة مقدس sacre تعني اتصال الإنسان بالأمور الغيبية، وهي أمور ما وراء إحساس الإنسان الابتدائي، وهذا الاتصال يتمّ بواسطة بعض الناس الذين لهم تأثير في حياتنا، وكل هذه الأمور هي

(١) بعض الظواهر تمتلك عللاً متعاقبة وإن آخر علة تسمّى العلقة القريبة وهذه ترتبط بسلسلة من العلل، والعلل الأولى في السلسلة تسمى العلل البعيدة، مثلاً في نمو حشائش الصحراء يُعتبر المطر علة قريبة ويُعتبر تبخير المياه علة بعيدة، وهذا القرب والبعد يكون نسبياً وأحياناً العلة البعيدة ترتبط بعلل أخرى أبعد حتى نصل إلى العلة الأولى والتي نكون مجبورين بالتوقف عندها، وهذا مثَله اليوم مثل الإنسان الأول فالعقلية الفلسفية والعلمية تصل إلى حد ما وراء المنطق وما وراء المحسوس العقلي. (المؤلف)

أمور مشتركة بين الأديان وهي تظهر إما على شكل «طوطم» أو «فتيش» أو أرواح وقوى غيبية كثيرة.

الخصوصيات المشتركة في فكر الإنسان الابتدائي:

إن ما استطعت بحثه وتقديمه بصورة ملخصة عن مجموعة الأديان الابتدائية، عبادة الفتيش ـ أو عبادة الأرواح ـ أو عبادة الطوطم ـ أو الاعتقاد بالمانا، يمكن أن نضعه كعناوين مشتركة للأديان الابتدائية، وأنا أعتقد أن هذا الحد كان كافياً للتحدث عن هذه العناوين، ومن خلال مطالعة الأصول المشتركة للأديان الابتدائية يمكننا استخلاص هذه النتيجة.

في بداية تشكيل المجتمع وظهور الإنسان، لم يكن هناك إنسان موجود بدون مجتمع، وإذا كان موجوداً فبصورة حيوان ـ ليس في نوعه الحاضر ـ وإن أول إنسان وجد بهذا الشكل الإنساني، كان بصورة ابتدائية بدوية في جميع القبائل والعرقيات المختلفة ـ في القطب والإسكيمو والهنود الحمر في أمريكا أو في البداوة الأسترالية أو السود في أفريقيا أو في أماكن أخرى مختلفة وفي فترات مختلفة. فالدين كان دائماً معه وحتى في الأنظمة المختلفة ـ سواء في نظام الصيد أو البحر أو في الغابة، ففي جميع هذه المراحل، كان يمتلك ديناً ولكن بأشكال مختلفة (هذه الأشكال المختلفة كل واحد منها يظهر على شكل إحساس ديني) وفي أنماط مختلفة أيضاً ـ مراسم دينية وعبادية أو

رياضات روحية وتحريم وتحليل ـ فهذه كانت علامات وشواهد وأصولاً أساسية لجميع الأديان في المرحلة الأولى لظهور الدين في المجتمع. (هذا ما يعرفه علماء الاجتماع الماديين وهذا ما أكّدته مصادر التحقيقات العلمية لعلماء الاجتماع خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، وكان أغلب الباحثين إما ضد الدين أو لا يؤمنون به).

النتيجة التي أريد أن أصل إليها، أن تعريف الدين يجب أن لا نأخذه عن الفيلسوف الخاص أو عن الدين الفلاني أو عن الروحاني، حيث إننا هنا نأخذ تعريفاً مصنوعاً[1] ـ أو أننا نعرّف الدين كما هو الحال عند الكتّاب والفلاسفة بأن نطرح بعض التعريفات التي عُرّف بها الدين ومن ثم نقايس ونبحث هذه التعريفات، فنلغي ما هو غير مقبول حتى نصل إلى تعريف منطقي يُرضي المنطق والعقل ـ فعلينا أن نبحث حتى نتمكّن بواسطة البحث العلمي أن نصل إلى هذا الأمر.

إن تعريف الدين بأنه عبارة عن الاعتقاد بالموجودات الغيبية، أو عقيدة في القلب، أو انجذاب عاطفي رمزي وغيرها من الأمور.. هي تعريفات جاءت في الكتب التي اعتمد عليها علماء اجتماع الدين وعلماء الاجتماع الأوروبيين وأمثالهم.

---

(١) أي: تعريفاً وضعياً، ويُصر المترجم على إيراد كلمة (مصنوعي) كما وردت في المتن الفارسي.

وهي تعريفات غير واقعية وضعوها بدون دقة وتفكّر. وهذه التعريفات لا يمكن قبولها بدون الاعتماد على الأمور العلمية. ولكن كيف يجب أن نعرّف الدين؟

الطريق العلمي لمعرفة أي شيء، هو أننا إذا أردنا مثلاً تعريف الدين، فيجب علينا أن نطالع ونبحث في جميع الأديان الابتدائية في شكلها الابتدائي، وفي المجتمعات المختلفة، وخلال جميع الفترات والعصور التاريخية ونستخرّج الوجه المشترك لجميع الأديان، فهذه الأمور المشتركة موجودة في جميع الأديان وفي جميع العصور، وأصول الإحساسات الدينية موجودة في تأريخ البشرية وفي المجتمع البشري. فيكون تعريف الدين طبق هذه الأصول التي تُعتبر الوجه المشترك لجميع الأديان. لذا يجب أن نعلم أن تعريف الدين هو عبارة عن الإحساس الحقيقي بتلك الأمور، وبالصفات الذاتية المشتركة بينها.

ومن أجل التحقيق في الأمور الدينية، أو في علم الاجتماع، أو في علم الإنسان أو أي شيء آخر، هناك طريقان: الأول هو (أكرونيك) والثاني (دياكرونيك).

فإذا أردنا أن نعرف مثلاً هل أن الشِّعر غريزة في الإنسان أم أنه ظاهرة وقتية تزول وليست جزءاً من الإنسان! فمرّة نحقق ونبحث (achroniquement) ومرة أخرى نحقق ونبحث (diachroniquement) فإذا كانت الحالتان تؤديان إلى وجود الشعر!

فهناك يمكننا أن نحكم على أن الشعر مائة في المائة جزء من فطرة الإنسان، وعلى هذا يمكننا أن نعمل ونحقق ونأخذ بعين الاعتبار أن الشعر موجود عند الإنسان بصورة أفقية. وهذا يعني أننا يجب أن نبحث لدى جميع الشعوب والمجتمعات في الوقت الحاضر (لأن الزمان هو واحد ولكن الأرضية مختلفة) فنجد أن الشعر موجود في إيران وتركيا والغرب واليابان وجميع الدول، فهو موجود في كل مكان، فنستنتج أنه موجود بصورة أفقية في كل مكان. ونجد أنه موجود في الدورة الصفوية والساسانية وغيرها. وقبل هذا أيضاً هو موجود ولكن بصورة عمودية، فيجب أن نأخذ بنظر الاعتبار هذا الوجود أيضاً، وأيضاً هو موجود في كل زمان، ومن هنا نستنتج أن الشعر موجود في ذات الإنسان، فنكون قد بحثنا وحققنا في الطريقتين ورأينا أن الشعر موجود في كل عصر. هاتان الطريقتان في التحقيق تشكّلان الطريق العلمي للتحقيق في جميع المسائل الإنسانية. وبهذه الطريقة عينها، يمكننا أن نبحث في وجود فطرة الدين عن طريق علم الاجتماع.

إن جميع بحوث علم الاجتماع البدوي، وكذلك بحوث مقارنة الأديان مثل عبادة الأرواح والأشياء والأمور الغيبية وحتى أشكال العبادات التي تلتها مثل ربّ النوع وعبادة القوى الطبيعية ومن ثم تعدّد الآلهة والتثليث والثنوية، تعتبر تكاملاً للأديان البشرية السابقة، فهذه العبادات كلها عامة ومشتركة.

١ـ الدين: يثبّت معنى كلمة الوجود . فجميع الأديان والمذاهب وبجميع أشكالها حتى تلك التي نعتبرها خرافية، الشعور الديني فيها يثبت معنى الوجود، ويظهر هذا المعنى فيها واضحاً. بمعنى أن النظرة الكونية نظرة إيجابية بالنسبة للوجود، ومعنى الوجود هو نفي العبث والصدفة من الكون.. ما يقوله «ألبير كامو»[١] وكذلك ما يقوله «سارتر»[٢] وكذلك ما ترويه لنا

---

(١) ألبير كامو: ولد يوم ٧ نوفمبر ١٩١٣ بمدينة الذرعان بالجزائر أبان الاحتلال الفرنسي لعائلة من المستوطنين الفرنسيين وتوفي يوم ٤ يناير ١٩٦٠. مؤلف وفيلسوف فرنسي. وواحد من النجوم الاجتماعيين لتيّار الوجودية (مع جان بول سارتر). كامو كان ثاني أصغر حائز على جائزة نوبل، كما أنه أصغر مَن مات من كل الحائزين على جائزة نوبل.

(٢) جان بول سارتر (١٩٠٥ - ١٩٨٠م): فيلسوف وجودي فرنسي، عبَّر عن آرائه في العديد من الروايات والمسرحيات والقصص القصيرة والأعمال النظرية.
كانت مسألة الوجود المجرّد للأشياء، خاصة وجوده هو شخصيًا، مصدر قلقه وإعجابه مما دفعه للبحث. فقد بدا له أنه لا مبرر لوجود أي شيء.. وفي روايته الأولى «الغثيان» (١٩٣٨م) وصف الرعب والغموض اللّذَين يواجههما الإنسان عندما يفكر في حقيقة وجود الأشياء؛ تلك الحقيقة التي لا يمكن تغييرها.
في عمله الفلسفي الرئيسي «الوجود والعدم» (١٩٤٣م) قام سارتر بالتحرّي في طبيعة وأشكال الوجود والعدم. قال سارتر إن الوجود البشري الذي سماه «الوجود لذاته» يختلف اختلافًا جذريًا عن وجود الجمادات مثل الطاولات والذي سماه «الوجود في ذاته».
ولد سارتر بباريس حيث درس بالمدرسة النظامية العليا. وخلال الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥م) قاتل ضمن القوات الفرنسية، وأسّس=

تلك المسرحيات التافهة والفلسفة التافهة من أن العالم، عالم عبث، وأن الإنسان خُلق عبثاً، وأن كل شيء في الوجود من قبيل العبث[1]، وكذلك ما جاءت به الفلسفة المحرّفة في الوقت الحاضر في إيران والتي تسير على نفس الطريق.. ما تقوله هذه الفلسفات هو قول خاطئ.

لا يوجد أي دين وخلال أي فترة زمنية، بل لا يمكن لأي مذهب أو دينٍ منحطّ، أن يرى وجوده وجوداً عبثياً وليس له معنى، ولو تصورنا ذلك! فهذا خطأ.

٢ـ الاعتقاد بالغاية النهائية للعالم، والإنسان، والتأريخ، موجود في الدين وفي جميع أشكاله. أنا ـ قبيلتي ـ نوع البشر ووجوده، كلها مخلوقة من أجل شيء، وهذا يختلف عن معنى

= المجلة النقدية الشهرية «الأزمنة الحديثة» سنة (١٩٤٥م). وعمل رئيسًا للتحرير. وقد مُنح سارتر في ١٩٦٤م جائزة نوبل للآداب إلا أنه رفض تسلّمها. زار بعض دول الشرق الأوسط. وكان له موقف مؤيد لإسرائيل.

(١) يقول سارتر إن الدافع الأساسي للسلوك البشري هو الرغبة في تحقيق إرضاء الذات بصورة كاملة، وذلك بمحاولة أن يصبح الإنسان السبب في وجود نفسه. وقال سارتر إن هذا الهدف مناقض لنفسه، ومن المحال تحقيقه. ولذلك فهو يعد النشاط البشري كله لا طائل من ورائه. كما قال سارتر أيضًا إن الإنسان عاطفة لا فائدة منها. ويُعرِّف فكرة الكائنات ذات القناعة الذاتية التامة والتي هي السبب في وجود أنفسها بأنها الفكرة التقليدية عن الإله. وحسبما يقول سارتر ـ حاشا لله وتعالى عن الزّعم ـ فإن كل فرد منا يريد أن يصبح الله وأن الله لا يمكن أن يكون موجودًا.

«عندي» أو «أملك»، وبهذا المعنى، فالطبيعة والتاريخ (يعني نوع البشر) وكذلك «أنا» بعنوان (فرد) لها هدف خاص نبحث عنه[١].

٣ ـ ثنوية الوجود والإنسانية: فالثنوية موجودة في جميع أديان العالم. فالإنسان وجميع الأمور تقسَّم إلى خير وشر، جميل وقبيح، مقدّس وغير مقدس، وفي الحال فإن هذا التقسيم يعتبرونه تقسيماً خاطئاً وخرافياً أو تقسيماً غير صحيح، وهذا بحث آخر[٢] وعلى هذا الأساس، فإن جميع الأديان سواء كانت

---

(١) يشير شريعتي هنا إلى أن قيمة الإنسان هي (كينونة) وليست (مُلكية).

(٢) يجب أن أذكّر مرة أخرى بهذه النقطة. وكما قال هذا «غورْفيتش» أو كما قال «آرون»[*]:

ـ والاثنان يعتقدان بحقيقة واحدة ـ أما ماذا يعبدون فأحدهما يعبد شيئاً غير صحيح، عندنا الآن من الأصول الأساسية الشعور الديني بعنوان أمر مطلق مشترك في الإسلام، وفي بقية الأديان المتقدمة وكذلك في الأديان الباطلة والخرافية (هو تجلّي روح الإنسان) وهذا يختلف فقط في المصاديق الواقعية، وهذه الأصول نستنبطها حتى في الأديان الخرافية. العلم يقدِّم هكذا عمل فهو يعمل بمثل هذه الطريقة في المسائل الاجتماعية والإنسانية والفنية والأدبية، إن «دوركهايم» بهذه الطريقة أثبت أن لا وجود لأديان ما وراء الطبيعة وبنفس الطريقة بعض العلماء الآخرين أنكروا الدين. وكذلك جاء في كتاب آرون ولكن قبل هذا سمعنا من «غورْفيتْش» ـ أن من إشكالات العمل هو أننا عندما نقول تأريخ فإننا نستنبط معنيين، أو لا نجزىء هذين المفهومين عن بعضهما البعض، ولذلك يحصل إشكال في فكرنا، فحينما نقول تأريخ فإننا نتصور الحوادث والوقائع التي حدثت في الماضي مثلما نقول تاريخ الإسلام، تاريخ المسيحية، تاريخ الحرب العالمية الثانية، تاريخ أقوام ماد، تاريخ الساسانيين، فهذه تواريخ تعني: معلوماتنا عن تلك =

= الوقائع الماضية، ومن ناحية أخرى فإن المنظور من التاريخ هو علم التاريخ وهو علم قائم بنفسه مثلما نقول: علم الأرض، فهذا علم مستقلّ ولكن الأرض شيء آخر (موضوعه). والطب هو علم، أما الجسم والمرض فهو شيء آخر. والفيزياء علم، ولكن الطبيعة شيء آخر. والكيمياء علم، أما العناصر المادية فهي شيء آخر. أما في التأريخ، فإن هذين الشيئين أو الأمرين أصبحا واحداً مثلما يكون لعلم الأرض وللأرض كلمة واحدة وكذلك للطب والمرض، وهكذا.. فحينما نقول دين، أحياناً يكون علم الدين أو فلسفة الدين أو إحساس ديني في روح وفكر الإنسان، وأحياناً يكون تلك المدارس الدينية الموجودة في الخارج وفي العالم وهي تختلف عن بعضها. وحينما نقول: الشعر جزء من الفطرة الإنسانية، ومرة أخرى نقول إن لشعر فلان دوراً سلبياً في المجتمعات، وهذا نعني به ما قيل من أشعار في السابق، والآن فإننّا نسميه شعراً، فأحياناً نمدح الشعر ويكون هدفنا الشعور والاستعداد الموجود في روح الفرد. فإذاً هناك حقيقتان ونحن أحياناً نحكم على إحداهما بالسلب والأخرى بالإيجاب. فالفلسفة أحياناً نعتبرها إحدى التجلّيات الكبرى للعقل وأحياناً نعتبرها سلاحاً بيد العلماء المرتبطين بالطبقة الحاكمة، نعم هاتان هما الحالتان ويجب أن لا نقع في التناقض. وهذا التناقض هو ظاهري وذلك بسبب أن هناك كلمة لها معنيان مختلفان حيث إنهما لم يجزّءآ في الذهن. لذلك حينما نقول: إن الدين الفلاني دين خرافي، فالدين هنا بمعنى تلك المدرسة الخاصة في ذلك المجتمع في تلك المنطقة، وأحياناً نقول إن الدين هو استعداد وتجلّي وجاذبة وانجذاب ذاتي للروح والفطرة الإنسانية وموجود في جميع البشر، لهذا فهذان الدِّينان أحدهما يُعتبر كفراً والآخر ديناً من ناحية الدين، وهما خصمان في معنى واحد، أما من ناحية الدين بعنوان شعور ديني فإن الاثنين مشتركان، وحينما يقول النبيﷺ اعبدوا الله ولا تعبدوا هذه الأصنام، فهذا يعني أن هناك جاذبية عبادية.(المؤلف).

(*) (ريمون آرون: يُعد ريمون آرون Raymond Arond واحداً من أبرز علماء الاجتماع الفرنسيين المعاصرين لما تشغله دراساته من حيّز في الأوساط =

عبادة الطوطم أو الأرواح أو غيرها، فالناس يُقسمون إلى قسمين، إنسان طاهر، وإنسان غير طاهر. والأشياء تُقسم إلى جيّد وغير جيد، والعالم إلى قسمين؛ إلى عوامل الخير وعوامل الشر، وعلى هذا يكون التقسيم.

إن الأخلاق هي عبارة عن مجموعة اعتقاداتنا وأعمالنا وهي مبنيّة على أساس التضادّ وإلّا فالأخلاق ليس لها معنى، والعلم

= العلمية والسياسية داخل فرنسا وخارجها. وقد خصّص معظم مؤلفاته وأعماله العلمية لتأكيد تصوراته الاجتماعية المرتبطة بمواقفه السياسية إزاء انقسام العالم إلى إيديولوجيتين متباينتين كما يراهما: الماركسية، والديمقراطية. عُيّن ريمون آرون أستاذاً لعلم الاجتماع في جامعة السوربون عام ١٩٥٦، وأصبح عضواً في المجمع الفرنسي عام ١٩٦٣، ثم أستاذاً في الكوليج دو فرانس عام ١٩٧٠. يرى آرون أنه من الصعوبة تعريف ميدان علم الاجتماع بسبب اختلاف وجهات النظر حول ما هو اجتماعي، ولتوضيح ذلك يلجأ إلى مقارنة موضوعات علم الاجتماع بموضوعات العلوم الاجتماعية الأخرى، كالاقتصاد السياسي وعلم النفس والتاريخ. ويتناول علم الاجتماع - بنظر آرون - ثلاثة موضوعات أساسية، يجدها واضحة عند «ماكس فيبر» و«دوركهايم». وهي: أولاً تحديد ما هو اجتماعي وتحليله، وقد برز ذلك عند «دوركهايم» من خلال تحديده لنوعية الظاهرة الاجتماعية، وثانياً تعيين الخصائص المرتبطة بكل بنية أو بكل البُنى الاجتماعية، وثالثاً وضع تصنيف للبُنى الاجتماعية في سياق مجرى التاريخ. ويجد آرون هذه المسائل في أعمال ماكس فيبر الذي حاول أن يُعيد بناء دراسة المجتمع إلى تداخل العلاقات الفردية، وحاول إقامة خصائص اقتصادية سياسية وقانونية تسمح بتحديد نماذج أساسية للبنى الاقتصادية والسياسية والقانونية ووضع تصنيفاً لهذا التنوع في استمرارية التطور التاريخي).

والتكنولوجيا وحتى الإنسان اليوم، نظرته تكون نسبةً إلى الطبيعة، صورة الأمور صورة نسبية، نظرة ثانوية من خلال النظر للطبيعة. وكذلك، فالمجتمع الإنساني وأعمال الإنسان والأفكار والشعور والعواطف كلها تُقسّم حسب هذا التضادّ. لهذا ففي البداية كان الأمر هكذا، والآن فهذه النظرة موجودة أيضاً، وعلى أية حال، فهذا التقسيم يختلف عن التقسيم القائم على التكامل البشري.

٤ـ التقدس في العالم ـ (مفهوم التقدس): إن «دوركهايم» يعتقد بالتقدّس خلافَ ما يراه العلماء الماضون، فهو يرى أن عبادة الإله أو الآلهة هي الملاك في تشخيص الدين، وأن التقدس (Le sacre) عنده والعبادة، هي أساس كل الأديان، بمعنى أنه في كل دين وفي كل فكر وفي كل مكان يوجد هذا الأمر، ففيه خاصية غير الخصائص الأخرى الموجودة.. فحرمة الإنسان والإحساس العبادي الخاص للإنسان، أصبح أمراً يوازي الإنسان. لهذا، فإن هذا الأمر موجود حتى في دين بوذا، ففي بعض الأديان لم يكن مفهوم الإله عندهم متبلوراً حتى الآن، أما الشعور الديني فهو موجود.

ثم يصل إلى هذه النتيجة، بأن المسألة لم تكن بهذه الصورة، حيث إن مفهوم الإله بصورة شخص واحد غير موجودة، ولكن بصورة شعور وانجذاب، فهذا موجود في جميع الأديان، وهذا هو معنى التقدّس. وهذا أصلاً موجود في مفهوم

الإله أو عبادة الآلهة أو العبادة، وإلا لم يكن للتقدّس معنى بدون هذه الصورة.

والتقدّس، يعني تقسيم جميع الأشياء وجميع الأمور إلى أشياء خاصة تمتلك خصوصية غير عادية ومهمة، وأشياء عادية وغير مهمة.

٥ـ تقسيم جميع الأشياء والأمور الواقعية إلى أمور محسوسة وغير محسوسة: هذه المسألة مهمة جداً، حيث إنها جاءت في البداية إلى ذهن الإنسان. فالإنسان البدوي أو الابتدائي سواءً كان نصف متوحش أو متوحشاً كاملاً، كان يعتقد بأن العالم مقسّم إلى أشياء محسوسة وأشياء غير محسوسة، بمعنى أن وراء تلك الأمور والأشياء المحسوسة هناك أمور غير محسوسة أيضاً، أما ما هي هذه الأشياء غير المحسوسة! هذا بحث يرتبط بالدِّين.. يقول «غورفيتش»: المجتمع ليس له وجود ولكن المجتمعات موجودة، وأنا أقول مثله حول الدين، لا يوجد دين وإنما هناك وجود لأديان (التي كانت موجودة). فالدين حينما يُطرح لا يعني هذا الدين وذلك الدين، وإنما يجب أن يُطرح بعنوان «الأديان»، «فالدين» الواحد بعنوان حقيقة إنسانية، ما وراء الطبيعة، يمتلك هذه الخصوصيات، أما الأديان فإن كلاً منها يمتلك خصائص تختلف عن البقية، والوجوه المشتركة «للأديان» تعطينا «الدين»، وإن تقسيم العالم

وجميع الحقائق إلى محسوس وغير محسوس -وهذا ما نعتقده اليوم أيضاً- هو أحد هذه الوجوه.

٦ـ وجود الروح الاجتماعية للدين: هذا كل ما قاله دوركهايم، ويقول أيضاً إن الروح الجماعية هي نفسها الروح الدينية، وبالأساس فإن ارتباط الفرد بالمجتمع هو رابطة دينية، لهذا فإن الدين يمتلك دوراً كبيراً في التأريخ، فهو كان العنصر في تشكيل وتقوية وتكامل المجتمع البشري، لهذا ما قلناه نحن أو ما قاله دوركهايم لا يوجد فيه اختلاف، مع وجود بعض التفاوت في وجهات النظر بالنسبة لحقيقة الدين. أما الدور الاجتماعي والتأريخي للدين من وجهة نظر المخالفين والمؤيدين للدين، الاثنان، يؤيدان أن للدين دوراً عظيماً في تكامل وتقوية وحفظ وتقدّس المجتمع والروح الاجتماعية.

في علم الاجتماع هناك بحث مفصّل باسم السحر والدين، في الأول، علماء الاجتماع يعتقدون أن الدين والسحر هما أمر واحد. وأنهما يشكّلان إحساساً واحداً، أما علماء الاجتماع الجدد، وخصوصاً «دوركهايم»، يقول إن الاثنين متضادان في الأصل. وأن ضد الدين، هو السحر. أما ما هو وجه الاشتراك بينهما الذي حعل علماء اجتماع القرون القديمة والعصر الجديد يعتقدون أنهما أمر واحد؟ الجواب، هو أن السحر يعتقد بالأمور الغيبية، والدين أيضاً يعتقد بالموجودات والقوى الغيبية، أما

دورهما وأساس اعتقادهما فمختلف أساساً؛ فالسحر هدفه هو تسخير القوى الطبيعية والسيطرة عليها للاستفادة منها في طريق الشر، وبواسطة التقرّب والتوسّل وجذب القوى الغيبية يريد أن يسخّر أحداً من الجن أو قدرة مرموزة حتى تكون في خدمته. أما الدين، فيريد بواسطة السعي والإحسان والعمل والخدمة وغيرها من الأمور أن يُرضي روحاً كبيرة أو قدرة عظيمة. والفرق الثاني: هو أن للسحر حالة فردية أو عملاً فردياً. أما الدين فهو يمتلك وجْهة وصِفَة جَماعية، فجميع العبادات والأعمال الدينية تقوم بصورة جماعية مشروعة، وأفراد المجتمع ينظرون إلى هذه الأمور نظرة مقدّسة، وهناك شعور واحد مشترك اتجاهها ولديهم استعداد للتضحية في سبيل البعض وفي سبيل تلك الأمور. أما السحر، فهو الذي يوجد العداء والتفرقة. وفي السحر: فإن الفرد يعمل عكس ما يعمل به مجتمعه، فهو يريد تحقيق أهدافه الخاصة أو أن يؤذي عدوّه أو أن يتغلّب على مَن يعمل معه في الوظيفة. لذا فإن الدين والسحر يشتركان فقط من الناحية الفطرية والذاتية وغريزة الإنسان وبصورة غير مقصودة. أما من ناحية وجودهما الظاهري فهما متضادان، ولهذا فأنا أعتقد أن هناك نظرية وهي أن سبب انحراف الإنسان البدوي البسيط عن الدين في المجتمعات الوحشية هو بسبب السحر. ثم إن هذا الإحساس وُجّه نحو المجتمع وأخذ شكلاً اجتماعياً. وكانت مهمة النبي هي

أن يوجّه هذا الشعور الفطري الموجود عند الإنسان ـ والذي كان مُستَغلاً لخدمة الأفراد وضد المجتمع ـ إلى مساره الصحيح والبنّاء. بمعنى أن رسالات الأنبياء، هي هداية الشعور الديني من شكله الانفرادي وكذلك من سيره المضاد للمجتمع، إلى أمرٍ بنّاء وجامعٍ وموحّد للمجتمع، وتكوين الروح الإيجابية البنّاءة. لهذا فإن الدين ضد السحر، وقد استطاع الدين في جميع أشكاله المختلفة أن يخلق في الأفراد روحاً جماعية موحّدة، واستطاع أن يسخّر جميع القوى الفردية لخدمة الضمير الاجتماعي وأعطى تقدساً خاصاً للمجتمع، لهذا كان الدين عاملاً مهماً وكبيراً في تكوين المجتمع في تاريخ الإنسان.

٧ـ عالمية الخصائص الدينية: كان أمراً جميلاً جداً حينما أخذت هذا المصطلح من كتاب «دوركهايم» (Les élementaires de la religion).

إن «دوركهايم» يعتقد أن الدين هو تجلّي الروح الجماعية لقبيلة ومجتمعٍ معين. و«دوركهايم» لا يقبل بوجهة النظر التي تقول إن انتقال الدين من منطقة إلى أخرى أمر متعلّق بالمجتمعات المتطورة، ويقول إنه وحتى في القبائل البدوية والأديان الابتدائية فإن إحدى خصوصيات الدين هي عالميته، بمعنى أنه ينتقل من مجتمع إلى آخر. إن عالمية الدين تُعتبر إحدى خصائصه، وإن عالميته تعني ترفّع الدين عن القومية، وهذا يعني

أن الدين ليس وطنياً، بل عالميته تؤكّد إنسانية الدين، وأن الدين هو تجلّي لنوع الإنسان وليس تجلياً للمجتمع القومي أو الاقتصادي أو الاجتماعي الخاص. أحياناً يكون له ارتباط بتلك الأمور، وارتباطه يكون قريباً جداً حيث إن البعض أحياناً يشتبهون بينهما، ولكن الاثنين منفصلان، أي أن الدين منفصل عن المسائل الاجتماعية، فالروح الجماعية (طوطم) لها خاصية قَبَلية وعشائرية، أما الدين فله خاصية عالمية وتجلٍّ عام.

٨ـ وحدة الإنسان والطبيعة: على خلاف ما يقوله أكثر المفكرين الجدد (الأشخاص الذين يحبّون الإنسان هم أناس عظماء) فالدين يبعث وحدة الروح الأصلية بين الإنسان والطبيعة، لقد كان على خطأ أولئك الذين قالوا إن الدين هو وسيلة للتفرقة بين الإنسان والآخرين، وأن الدين يفرّق الناس عن بعضهم البعض، ولكن حتى الذين يعتقدون أن هذا صحيح وهو أن الأديان كانت محرّفة بهذه الصورة، إلا أنّ الأديان غير ذلك الدين، يقولون كانت الأديان هكذا ولكن أولئك المستفيدين من الدين في الفترات المختلفة والذين كانوا يسخّرونه لمنافعهم، هم الذين حرّفوا الدين، وهذا الحكم لا يمكن أن يصدر على حقيقة وواقع الدين. فإذا كانت بعض الأشعار مثلاً أشعاراً تتملّق للآخرين، فلا يمكن أن نقول إن الشعر هو استعداد تملّقي موجود عند الفرد، أين هذا من

الحكم؟ هذا تعميم. حينما يقول الدين إن جميع الأشياء تمتلك روحاً مثل الإنسان، فإنه بهذا يعطي روح الإنسان الموجودة عنده وحدةً مع الأشياء الموجودة في الطبيعة، وكذلك بين الإنسان وبين الأشياء الموجودة، ولكنها غير محسوسة وغير مرئية، وبين الروح التي تعتبر ظاهرة أو ظواهر غيبية وما وراء الطبيعة، فهو يعطيها ـ أي الدين ـ وحدة الوجود، فهو يرى أن العالم واحد متّصل ومنظومة واحدة لها شكل وغاية وهدف، فهو يملك نظرة كونية متجانسة، ولا يمتلك أي نظرة كونية سالبة وغير متجانسة. هذا التناسق جاء في الإسلام على شكل منطقي آخر، على خلاف الأديان اليونانية، حيث نجد فيها أن خالق الطبيعة إله، وخالق الإنسان إله آخر، ففي الفلسفة والنصوص اليونانية: الإنسان غير الطبيعة، أما في الإحساس الديني فإن هناك نوعاً من الترابط بين الإنسان والطبيعة وبأشكال مختلفة، وإذا كان الاعتقاد بشكل خرافي أو بشكل غير خرافي فهذا يرتبط بما يؤمن به الفرد من قوى رمزية أو آلهة أو غيرها، وأخيراً فإنه وفي جميع الأديان، هناك نظرة كونية متجانسة بين أشياء ثلاثة وهي: الخالق والإنسان والطبيعة.

٩ـ وحدة الإنسان وطبيعة روح الوجود: قلتُ إن من خصوصيات الدين هو الاعتقاد بوحدة الإنسان والطبيعة في روح الوجود، وأن الوجود يعني أمراً متكاملاً، واحداً ومتجانساً،

والبحث الدائم هو وجود الوحدة في الكثرة. فالخاصّية الأخيرة تعني أن الشعور الديني يبحث دائماً تحت هذه الظواهر المتفرّقة والمختلفة الأطياف وغير المتجانسة وحدوياً، وكل هذه الظواهر يرجعها إلى واحد خاص أو إلى عدد من الآحاد الخاصة، بمعنى أن جميع الظواهر هي معلولة لعللٍ مختلفة، وهذه العلل معلولة لعلّة واحدة أو علّتين، وهو انتقال من الكثرة إلى الوحدة، وهذه هي إحدى خصوصيات الدين البارزة كيفما كان شكله، فهو يبحث عن الوحدة تحت التعدّد والتفرّق.

١٠ـ السعي والمحاولة والرغبة في الاتصال: بمعنى أن الإنسان في كل حياته عنده رغبة ودافع ديني، وهذه الرغبة موجودة حتى قبل وجود التقديس الديني. والدين دائماً يحثّ الإنسان على العمل والحركة، ولا يرضى له الخمول والكسل، فهو يدفعه دائماً للبحث عن الحقيقة أو الحقائق والأسرار. لهذا فالإنسان دائماً يعيش حالة الحركة والاضطراب، ولدى روحه رغبة دائمة ودافع للاتصال بالموجودات اللامحسوسة، وكما يقول «ألكسيس كارل»[1] إن الإنسان لديه انجذاب وجاذبة

---

(١) ألكسيس كاريل (١٨٧٣-١٩٤٤م): جرّاح وعالم أحياء فرنسي أثبت أن الأنسجة يمكن أن تعيش بعيدة عن أعضائها إذا غُذيت بطريقة صحيحة. فاز كاريل بجائزة نوبل في الطب لعام ١٩١٢م تقديرًا لجهوده في جراحة الأوعية الدموية وفي زراعة الأعضاء والأنسجة. وإبان الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨م)، طوّر مع الكيميائي الإنجليزي «هنري داكين» =

روحية نحو العالم المعنوي أو الروحي. فهو يشعر أنه جاء بمفرده إلى هذا العالم، لذا فهو يسعى إلى الاتصال بشيء ما، وهو يشعر ويتصور أنه خالٍ وبعيد عن هذا الشيء، بمعنى أن لديه نوعاً من الشعور بالغربة، وهو شعور يرتاح إليه لأنه جزء من الاعتقاد الديني. إن مصطلحَيْ الغربة والإلفة ينبعان من مصدر واحد، وفي جميع الأديان، الإنسان وبالشعور الديني الموجود عنده يسعى دائماً للاتصال بهذا الأمان.

١١ـ الاعتقاد بالتسلّط والترقّي والتعالي والحركة: إن جميع الأديان ومن ضمنها أيضاً الأديان الابتدائية، تسعى لتسخير الأرواح لمنفعتها الخاصة. وهي تحاول دائماً أن تكون في حال أفضل، لأن الـ (مانا) قد حلّت فيها، فهي تريد الاتصال بالأمر المقدَّس، بالقوى الغيبية الجيدة التي تحميها، لهذا فإن هذا السعي الديني صار عاملاً مهماً يدفع الأديان إلى الحركة باتجاه الأفضل، باتجاه الغاية المتعالية والفضائل الحسنة. لهذا وعلى خلاف ما هو موجود في فكرنا وتصوّرنا،

= المحلول المطهر «كاريل ـ داكين» لعلاج الإصابات والجروح.
وكاريل من مواليد ليون بفرنسا، وسافر للولايات المتحدة في عام ١٩٠٥م وعُيِّن في معهد روكفلر للأبحاث الطبية (جامعة روكفلر الآن) في عام ١٩٠٦م. عاد كاريل إلى فرنسا عند اندلاع الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥م). ومن بين مؤلفاته «الإنسان ذلك المجهول» (١٩٣٥م). كما كتب بالتعاون مع الطيار «تشارلز لينبيرج» زراعة الأعضاء (١٩٣٨م).

فإن الدين كان عامل حركة وتقدّم وتكامل (بأي صورة فُرض فيها التكامل)، وعلى أيّ حال، فإن وجود الدين في الفكر لا يتوقف على ما هو موجود وأنه يسعى للاتصال والتحوّل إلى الأفضل حينما يحصل الضرر في الروح وفي الحياة والحال الموجودة، وكذلك خلافاً لما يقوله المؤمنون بالفناء من أن الدين جعل الإنسان إنساناً غير متحرك وعاجز، نرى أن الإنسان الأول يعتقد ويسعى ويقول: أنت وبتسخيرك (المانا) القوى المرموزة، وبتسخيرك الأرواح التي تمثّل الطبيعة، تستطيع أن تصل إلى الكمال وتستطيع أن توجد فيك قدرة جديدة وروحاً جديدة، وبهذا فإن الاستعدادات التي لم تكن موجودة عندك سوف تَحُل فيك بواسطة هذا السعي، وهذا هو الإيمان الكبير عند الإنسان لاستخدامه القوى الطبيعية وهذا كان جزءاً من الاعتقاد الديني.

١٢ـ مفهوم المسؤولية: الاعتقاد بالبناء الذاتي والإرادة عند الإنسان والسعي لبناء مستقبل أفضل وبنفسه، وأحياناً بمساعدة القوى الغيبية والخيِّرة، وبالوصول إلى التقدّس و(مانا) نستطيع أن نغيّر مصيرنا ونتقدّم. إن الإنسان لم يكن مجبوراً، فالإنسان في معظم الأديان يمتلك إرادة ويستطيع بواسطة التسخير وجلب القوى الخيّرة أن يغيّر نفسه ويستطيع القضاء على الشر، وهذا يُظهِر أن الدين يعترف ـ وكما قال سارتر ـ بعامل الانتخاب

والاختيار والاستعداد الموجود عند الإنسان. وكذلك فالمسؤولية موجودة في كل دين، وفي كل دين هناك مسؤولية اتجاه الخير والشر بمقدار ذلك الاعتقاد وذلك المعبود الذي أعتقد فيه، ويقول «رادها كريشنان»[(١)] : الحب مسؤولية والإيمان الديني هو أفضل حب.

الارتباط يُعتبر مسؤولية، وأن الالتزام والتعهّد والاعتقاد الديني، والاعتقاد بالارتباط والاتصال بالمطلق، يُعتبر هدفاً مهماً في الدين[(٢)].

١٣ ـ نفي نظرية الصدفة وخلق الكون صدفةً وعبثاً: مفهوم آخر يؤمن بوحدة التاريخ، وقيم الفلسفة التأريخية وعلم التأريخ. فالإنسان الذي يعتقد بدين، يؤمن بأن للتاريخ سيراً

---

(١) رادها كريشنان (١٨٨٨ ـ ١٩٧٥) فيلسوف هندي ورجل دولة. أحد أبرز علماء مقارنة الأديان.

(٢) مفهوم المطلق: يعني أن الإنسان يرى أن كل شيء نسبي وهو أيضاً يحاول الوصول إلى المطلق وقد جعل الدين هذا المفهوم في ذهن الإنسان، والخالق وما وراء الطبيعة والغيب بالنسبة له أمور مطلقة، والوجود والموجودات بالنسبة له مطلقة أيضاً، والشيء المهم هو هذا السؤال، وهو حينما يكون الإنسان نسبياً ويرى العالم وجميع الأشياء والأمور نسبية فمن أين جاء مفهوم المطلق إليه؟ هذا السؤال مهم جداً، حيث إن ما نراه وما نحسّ به وحتى تلك الأشياء التي نشعر بها لم تكن مطلقة أيضاً. إن المطلق موجود ذهني لذا فمن أين جاء مفهوم اللامتناهي؟ وما هو أصل هذه المفاهيم؟ وإن فكر الإنسان نسبي ومحدود، فمن أين جاء اللامحدود واللامتناهي؟ في كل الأديان هذان المفهومان موجودان. (المؤلف)

مشخّصاً منذ البداية حيث وجد الإنسان إلى نهاية الدنيا، لذا فإن كل إنسان يعتقد بالدين، يعرف أن التاريخ عبارة عن مجموعة من الحوادث المتفرقة ولم يكن شيئاً تصادفياً. بل إنه سير مرتبط ومعقول ومنطقي، فالنوع البشري بدأ من مكانٍ مشروع وطوى مراحل عديدة، وسوف يصل إلى موقعه التاريخي المقصود ونوع البشر المطلوب. فلسفة التأريخ هذه وفكرة الوحدة والترابط فيه، هي مقابل تلك الفكرة التي تقول إن التاريخ قديم، وحدوثه تصادفي.

١٤ـ الاعتقاد بأصل التناقض، أصل الصراع والحرب ووجود نوع من الفكر الديالكتيكي: وهذا خلاف الحملة الموجّهة ضد الدين والتي تقول إن المنطق الديالكتيكي يمتلك منطقاً ثبوتياً أرسطوياً، فالنظرة الكونية الدينية نظرة كونية ديالكتيكية وحتى في الإسلام نجد أن وجود الإنسان على أساس التضاد، والإنسان مخلوق من روح الله ومن طينٍ لَزِجٍ وتراب. وهكذا تاريخ الإنسان قائم على التضاد ويبدأ من قابيل وهابيل، وهكذا أيضاً بين الأنبياء والمشركين وبين الناس وأعدائهم هذا التضاد موجود. لذا فإن أساس الإنسان والضمير الإنساني وكذلك سير التاريخ، قائم على أساس التضاد، وكل العالم قائم على التكوين والفساد. هل أن هذه النظرة الديالكتيكية (الكون

والفساد) هي نظرة أرسطو[١] وهي نظرية ثبوتية؟ ما هو العمل إذا لم يوجد هناك مَن يدافع عن هذه الثقافة أو يوجد هناك مَن

(١) أرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢ق.م): فيلسوف ومعلِّمٌ وعالم يونانيّ يُعتبر، هو وأستاذه أفلاطون، أهم فيلسوفين بين جميع فلاسفة اليونان القدماء.. وُلد أرسطو في بلدة «ستاجيرا» شماليّ اليونان. وعندما بلغ الثامنة عشرة من عمره، التحق بأكاديمية أفلاطون في أثينا، وظل فيها لمدة ٢٠ عامًا ولم يغادرها إلا بعد موت أستاذه أفلاطون عام ٣٤٧ق.م.. وفي عام ٣٤٣ أو ٣٤٢ق.م، استدعاه فيليب ملك مقدونيا؛ لتعليم وتربية ابنه الذي عُرف في التاريخ باسم الإسكندر الأكبر.
عاد أرسطو إلى أثينا عام ٣٣٤ق.م، وأنشأ مدرسته المعروفة باسم «الليسيوم». وقد أطلق على أرسطو وتلاميذه اسم «المشائين» لأن أرسطو كان يُلقي دروسه أثناء المشي والتجوال بصحبة تلاميذه.. بعد موت الإسكندر الأكبر في عام ٣٢٣ق.م. رمى الأثينيون أرسطو بتهمة عدم احترام الآلهة. وخوفًا من مصير سقراط، هرب أرسطو إلى مدينة كلسيس (اسمها حاليًا كلكيس)، حيث مات هناك بعد عام واحد.
تنقسم مؤلفاته إلى ثلاث مجموعات: ١- المؤلفات الشعبية ٢- المذكرات ٣- المقالات. وقد كانت المجموعة الأولى كتابات لعامة الجمهور خارج مدرسته وكانت المجموعة الثانية (المذكرات) تصنيفات من مواد البحوث والسجلات التاريخية أعدَّها بمساعدة تلاميذه؛ لتكون مصدرًا للمعلومات التي يحتاجها العلماء الدارسون، وقد فُقدت كلّ الكتابات الشعبية ولم يبقَ إلا القليل جدًا من المذكرات. أما مجموعة المقالات، فتمثل تقريبًا كلَّ مؤلفات أرسطو التي سَلمت من الضياع وبقيت حتى الآن. وقد كانت المقالات مؤلفةً للطلاب داخل المدرسة فقط.
اضمحلت مكانة أرسطو عمَّا كانت عليه في العصور الوسطى، لكن عددًا كبيرًا من الفلاسفة المحدثين مدينون له بالشيء الكثير. والواقع أنه يصعب الحكم على تأثير أرسطو الآن، إذ إن كثيرًا من أفكاره قد استوعبتها لغة العلم والفلسفة.

يحارب هذه الثقافة؟ إن الدين بنفسه، مهما كان، سيصبح محكوماً.

١٥ـ قانون العليّة ـ التحليل المنطقي للعالم: فبهذا القدر الذي يعتقد به الإنسان البدوي، وهو أن هذا الشيء جاء على أثر ذلك الشيء والسبب الذي أحدث تغيراً بهذه الروح، وأن الشخص الذي مات هو بسبب تلك الروح التي جاءت أو الجن الذي جاء وسبّب له الضرر، أو أن فلاناً قبَضتْ روحه قدرة (تابو)، فهنا يصبح واضحاً أن الإحساس الديني هو الذي جذب فكره إلى رابطة العلّة والمعلول في العالم، وهذا الأمر يقبله «دوركهايم» أيضاً فهو يقول حتى في الأديان التي تجري فيها المراسم التقليدية فمثلاً حينما يحل الجفاف فإنهم يتبعون أموراً لنزول المطر. ونحن عندنا مثل هذه الأمور ونجريها بصورة عمياء، فحينما ينقطع المطر يذهبون وخلال مراسم خاصة يسكبون الماء على الأرض ويعتقدون أن عملهم هذا سيكون سبباً لنزول المطر، وهذا يدلّ على أن هؤلاء الناس في فكرهم شيء عن العلّة والمعلول، فعلّة نزول المطر هو سكب الماء على الأرض، فهم فهموا هذه الرابطة فهماً غير صحيح، أما هذا الأمر، من أجل كشف ومعرفة العلّة والمعلول، فله أهمية. لأن الاعتقاد بالقوى والأرواح الغيبية (حتى الأرواح الخيّرة والشريرة الموجودة والتي تؤثر في حياتنا) هو اعتقاد ديني وفيه قانون

العلية أيضاً، ومعرفة هذه القوى يعني معرفة رابطة علّة الأشياء، والفلسفة والعلم جاءا من هنا.

١٦ ـ أصل البقاء: وهو الاعتقاد بأن الروح ترجع دائماً، وهذا يشير إلى أصل البقاء. وأنا لا أعتقد بأن الروح ترجع دائماً ولكن في هذه الخرافة وجود لعقيدة بقاء الروح وهو أمر مهم. وهنا توجد مسألتان أو اعتقادان: أحدهما، أن الروح التي تخرج من بدن فإنها ترجع إلى بدن إنسان آخر أو حيوان، هذا أمر مبالغ فيه، وفي هذه الفكرة وجود لحقيقة مهمة وهي الاعتقاد ببقاء الإنسان، وأن الموت لا ينهي حياة الإنسان، وليس هو النهاية، وأصل البقاء لا يعني فقط بقاء الإنسان بل بقاء الموجودات أيضاً وبقاء العالم وكل ما يُعتقد أنه فانٍ، والجميع له وجود على طول الزمن.

١٧ـ وُسْعَة النظرة الكونية: حينما يعتقد الإنسان بالدين ويرى أن هناك عالماً وراء هذا العالم المادي وأن هناك أرواحاً وأسراراً ومسائل أخرى، فإن نظرته للكون تكون أوسع ممّا يرى من العالم المحسوس.

إن هذه النظرة الكونية الوسيعة منحها له الدين، وهذا خلاف المذهب المادي الذي لا يؤمن بما وراء الطبيعة والذي تكون نظرته الكونية محدودة وضيّقة وتنحصر فقط بما يرى وما يحسّ، وهذه النظرة الوسيعة تأتي من القول بتعدّد العلل على

خلاف العلل المحسوسة التي نشاهدها، فالإنسان الذي يؤمن بالدين يرى مثلاً، أن هناك عللاً متعدّدة وراء وجود هذه النباتات حتى لو أخطأ في شكل العلل، وشيء آخر مهم هو الخروج من العلل القريبة إلى علل أبعد. فالعلل القريبة هي تلك العلل التي نراها بأعيننا وشاهدها الإنسان الابتدائي. ولكن الدين لم يتركه منحصراً ومحدوداً بهذه العلل فقط، بل قال له إن هناك عللاً أخرى أبعد من هذه العلل، ومن ثم بواسطة عللٍ عديدة تحوّلت إلى هذه العلة القريبة، ومن ثم هذا المعلول. إذاً فالدين هو الذي يجعل فكر الإنسان يرتقي دائماً إلى العلل البعيدة والتي تخرج عن محيط الحواس، وهذا التفكّر هو الذي أعطى وسْعَةً للفلسفة وللعلم، وللفكر والعقل الإنساني.

١٨ ـ النجاة من القيود الموجودة: فالإنسان في كل دين يعتقد أن الواجب يدعوه لأن يتحرر ويخرج من الوضع الموجود إلى الوضع الأفضل الذي يجب أن يوجد، وهذا الإحساس يمتلكه الإنسان وحده وهو إحساس ديني، لذلك فإن الإنسان وبواسطة الدين، مدعوٌّ للهجرة الذاتية دائماً وحينما يحسّ ويتوق إلى النجاة، فإنه يتوسّل بهذه الوسيلة لتحرّره من القيود وترتفع به إلى سلّم النجاة، إن مفاهيم النجاة، والتحرّر، والقيد، والموفقية، وعدمها، كلها أمور موجودة في فكر الإنسان، وهذه كلها تركت أثراً على فكره وتعقّله وحياته وثقافته، وكلما أعتقد

أن هناك في العالم وضعاً أفضل من هذا، فهذا يترك عندي نوعاً من الحركة نحو التكامل.

١٩ ـ مفهوم حفظ الإنسان والحياة والمجتمع: في كثير من الأعمال والمراسم الدينية وفي هذه الأديان الابتدائية بالذات أعمال كثيرة، هدفها الصراع مع الأرواح الشريرة والأفكار المرفوضة، وجلب عناصر الخير والأرواح الطيبة. فالتغيير الذاتي عند الإنسان يكون باحثاً لحفظ الفرد والمجتمع من نقص الأموال والمواد والأمراض وعوامل الشر، ومن الممكن أن تكون القوى الغيبية باعثاً لهلاك الإنسان، لهذا نرى أن مفهوم الحماية وحفظ الذات لسلامة المجتمع، مفاهيم موجودة في الدين نفسه.

٢٠ـ المعرفة وحب الاطلاع: حينما يعلن الدين أن هناك حقائقَ وأسراراً كثيرة غير تلك التي تراها ولكنها لم تكن موجودة لا في حياتك ولا في تاريخ النوع البشري، فإنه يتولّد عند الإنسان حسّ ذاتي وحب اطّلاع، وحب الاطلاع هذا بذاته يولّد العلم. وكذلك من أجل تسخير هذه الأمور فإنه يصبح مجبوراً لاتباع الأساليب الفنية. وإذْ لم يقل الدين أن هناك ظواهر عديدة خلف ما نشاهده في هذا الكون فإن حبّ الاطلاع والمعرفة لم يأتيا للإنسان، لذا فالاطلاع وليد اعتقاد مسبق للإنسان، وهذا الاعتقاد هو وجود الأشياء الغيبية الكبيرة وهذا هو قول الدين.

٢١ ـ عنصر الاستخدام والانتخاب: ففي الوقت الذي

يحدِّد فيه الدين جميع الأصول، فإنه يقسِّم العالم إلى خير وشرّ وصالح وغير صالح ومقدّس وغير مقدس، وغيرها من الأمور. والدين بواسطة التعليم في الأديان الأولية، أو بواسطة الرياضة الروحية الخاصة والتي هي موجودة في جميع الأديان وبأشكال مختلفة، وكذلك بواسطة السعي والتضحية وجهاد النفس، فإن الإنسان يستطيع أن يسخّر تلك القوى الطبيعية، ويقول له إن الأرض والسماء مسخّرة لك وأنت تستطيع أن تختار الطريق الذي تريده.

٢٢ـ الفن والجمال: هذان المفهومان جزء من العبادة وموجودان في ذات العبادة، وهذا خلاف ما يُقال إن الدين متولّد نتيجة الخوف، وهناك قائمة كبيرة عندي بأسماء آلهة الحب والجمال والفن. ونحن نعتقد أن صفة الجمال بالنسبة (لله) وكذلك البهاء، صفات دائمية وجزء من صفات الخالق. ودائماً نرى أن التعاليم الدينية تقول إن قوى الشر والمادة تعكس الصفات القبيحة، وعكسها قوى الخير فإنها تُظهر آلهتها بأجمل شكل وصورة، ومع إنكار البعض لهذا المفهوم في الدين الإسلامي فإننا نرى أن الشعور الديني في المساجد والمعابد يعطي أحلى صورة لهذه الصفة من خلال الالتزام بها، لهذا فإن الجمال والفن موجودان في ذات العبادة، والعبادة هي ذات الدين. وعلى رأي «دوركهايم» وجميع الأشخاص الذين يؤمنون

بتاريخ الفن، فإن الفن هو وليد الدين، وعلى خلاف الرأي السائد اليوم فإن الفن أصبح عاقاً للدين.

٢٢ـ الحب والعبادة: إن كل شعور ديني في أي شكل من أشكاله يمتلك في ذاته حباً وعشقاً وعبادةً. فرابطة الإنسان مع المعبود هي رابطة حب وعشق وعبادة، ويمكن معرفة هذه الرابطة من خلال الأسماء التي أعطاها الإنسان لآلهته، فكما نختار اسماً محبّباً لنا ولأولادنا، نلاحظ هذا الأمر عند الإنسان البدوي الذي اختار أسماء وصفات خاصة لآلهته، وهذا يُعطي صورة عن كيفية تلقّي هذا الإنسان لآلهته وكيف كان شعوره تجاه تلك الآلهة، والجميع يشتركون في هذه الأسماء والخصوصيات، وهي:

أ ـ حماية أو حفظ: أسماء أغلب الآلهة ويُعطى منها الأب.

ب ـ عشق.

ج ـ الجمال.

د ـ المقدَّس: صفة موجودة لجميع الآلهة.

هـ ـ العلو: التعالي.

و ـ المطلق: هذا المفهوم موجود في أكثر أسماء الآلهة.

ز ـ المتفكّر: جميع الآلهة متفكّرة.

هذه الخصوصيات تُعتبر جزءاً من الإحساس الذاتي الديني،

وأقرأ لكم آخر شعر من أشعار (رادها كريشنان) وهو يترجم قول الخيّام[١] فيقول:

أيها العشق، أيها العشق، من الممكن أن نتّفق أنا وأنت والخالق (هذا خطاب الإنسان نتفق لنبني عالماً آخر) ثم يقول: نحن دُعينا لبناء هكذا عالم والعمل لمثل هذا الاتفاق بين الإنسان والحب والمعبود، وهذا العشق عشق ديني وهو نابع ومصحوب بالفطرة وهو دائماً يجعل الإنسان في أمل ورجاء، وهذا هو قول الدين، وأهم من ذلك يقول: إذا كان الدين في مسير حركةٍ ترقّي العالم والناس فلماذا نحاربه؟ يجب أن نتوسّل به ونلجأ إليه حتى يعطينا القوة التي تمنح الحركة للتاريخ، أن يرعى مسيرة حياتنا حتى تسرِّع حركة الكمال الإنساني.

---

(١) عُمَر الخيام (٤٤٠ - ٥٢٦هـ، ١٠٤٨ - ١١٣١م): شاعرٌ فارسي، وعالم في الفلك والرياضيات. اشتهر أثناء حياته بإصلاحه للتقويم الإسلامي. وبعد وفاته بحوالي ١٠٠ عام، ظهرت مجموعاتٌ من القصائد تحمل اسمه. وتعبِّر هذه القصائد عن مذهب الشك في الدِّين. وكان قد سئم من مذهب اللذة (حب الملذات). وتظهر رباعياته عقلاً مدركًا إدراكًا واقعياً للجهل البشري وقصر الحياة.
جذبت مجموعةٌ من القصائد تُسمَّى «الرُّباعيات» ـ أولاً ـ الانتباه في الغرب عام ١٢٧٦هـ، ١٨٥٩م، عندما نشر كاتب إنجليزي هو «إدوارد فيتسجيرالد» ترجمته الحرَّة لعدد من المقاطع الشِّعريَّة التي نظمت كقصيدة متواصلة.
ترجمت الرباعيات أيضًا إلى العربية على يد عدد من الشعراء والمختصين، منهم أحمد الصافي النجفي، وأحمد رامي، وإبراهيم العريض.
وُلِد عمر الخيام في مدينة نيسابور شمال غربي إيران. ويعني اسمه الذي ربَّما يعكس حرفة الأسلاف «صانع الخيام».

الدرس الثالث

في مقدمة هذه البحوث، وأيضاً في الجلسة الأولى قلت: لماذا نطرح مثل هذا البحث في مثل هذا الوقت، وما هي الحاجة لجعل طبقة من المجتمع تصبح طبقة واعية، وأن نثقف مجتمعاً شرقياً وبالخصوص المجتمعات الإسلامية، ونجعلها طبقة مثقفة ثقافة دينية ذاتية، وبمعنى دقيق معرفة نفس الدين. أنتم ترون أني لم أختر هذه المعرفة والاطّلاع الذاتي اختياراً غير مقصود، ولا أقول إنني يجب أن أسعى لإيجاد إيمان واعتقاد ديني لأن الإيمان والاعتقاد يعتمدان على المعرفة والاطّلاع ومن ضمنها الاطّلاع الديني. وإذا لم يكن هذا مرتبطاً بالمعرفة والاطّلاع الديني، فهذا الاعتقاد والإيمان والدين لا تستطيع النفس من خلاله علاج الألم، بل إن الألم سيزيد الآلام الأخرى لوعةً. فاعتقادنا بدينٍ لا نعرف عنه يكون مساوياً لاعتقادنا بأي دينٍ آخر[١]. إن الإسلام دين متحرك، ومترقٍّ،

---

(١) (اعتقادنا بدينٍ لا نعرف عنه يكون مساوياً لاعتقادنا بأي دينٍ آخر). كلمة مُلفتة جداً، وهي محل تأمل.

وصانع المجتمع، ودين آخر يكون بعنوان المخدِّر والمنوّم. إن المعرفة والشعور، والمعرفة الدقيقة للدين التي تشخّص حدود الدين، والاختلاف بين هاتين الصفتين، هي التي توجد التحقّق الخارجي والعيني، وحينما نجهل الإسلام ونساويه مع أي دين آخر أو مدرسة فكرية لا نعرف عنها شيئاً، فإننا نكون قد وصلنا إلى العمى وعدم الرؤية والضلال. وقد قلت إن المعرفة الدينية الذاتية ومعرفة الدين في المجتمعات الإسلامية، ممتزج بالمعرفة الذاتية الاجتماعية وبمعرفة المجتمع الموجود وبالشعور والروح الثقافية مع الدين.

والدين له سهم كبير في هذا الأمر. والمثقف في المجتمع الإسلامي مع هذه المعرفة، سوف يصل إلى معرفة التسلسل التأريخي لمجتمعه، وفي عمق الثقافة والآداب الاجتماعية لا يستطيع المثقف تقديم أي عمل إذا لم يكن متسلحاً بالثقافة ومعرفة الآداب الاجتماعية.

لهذا فأنا لم أكن أتبع الطريقة القديمة العامة والبسيطة، بمعنى أنني أختار عشرة أو عشرين كتاباً في التأريخ وأتحدث عن الأديان وأنتهي. لأن هذا العمل سوف يستغرق وقتاً طويلاً ولم تُرجَ منه الفائدة، أما طريقتي فهي طرح المسائل الجديدة مع الأخذ بنظر الاعتبار، تحوّل الأديان وتكامل النظرة الدينية المستقبلية على طول التأريخ والتي طُرحت في الأديان، لذا فمن

الممكن أن نقول، تحليل وبحث الأديان بدل أن نقول تاريخ الأديان، وهذه كلها مقدمة إلى:

أولاً: معرفة تاريخ التحول البشري والثقافة الإنسانية والتي لها انعكاس اليوم في عالمنا، والتي تلعب دوراً مهماً في مستقبل التحوّلات الاجتماعية البشرية، والأهم من هذا هو معرفة الإسلام باعتباره العامل الأساس في إعداد الصورة لتاريخنا وثقافتنا، وكذلك في إعطاء صورة للرؤية المستقبلية الاجتماعية والثقافية والسياسية وللروابط الاجتماعية والفلسفية والرؤية الكونية لمجتمعنا، وبالأخير لنزول المثقف داخل حياة مجتمعه، وفي أعماق الزوايا المظلمة لوجدان أمته، الأرض التي بقيت دائماً مجهولة وغير معروفة للمجتمع الشرقي المثقف.

في الجلسة السابقة كان عرضنا سريعاً لموضوع الأصول المشتركة للأديان وتأريخها وخصوصاً الأديان الابتدائية[1] وقلت

---

(١) الذين يريدون مطالعةً ومعرفة أكثر. أنصحهم بالرجوع إلى الكتب الموجودة باللغة الفارسية وخصوصاً الكتاب الجيد والمعروف والعميق وهو صغير أيضاً واسمه (الدين في الشرق والغرب) تأليف الشخصية السياسية الهندية الكبيرة حيث إن كتاباته مورد توجّه الآخرين. ومن المؤسف، نحن نعرف الشخصيات الغربية أكثر من الشخصيات الشرقية، فمفكرونا الكبار في آسيا وأفريقيا وحتى في المجتمع الإسلامي، لسنا فقط لا نعرف عنهم بل لم نكن نسمع بأسمائهم، وإذا كان بعض تلامذتنا يردد بعض الأسماء الغربية، فإنهم أخذوها من آبائهم الذين صاروا غرباء عنّا، وقد أعددت قائمةً بأسماء بعض الكتب التي يجب مطالعتها، =

مع أخذ الأصول بالاعتبار حيث نستطيع وبواسطتها أن نقدِّم تعريفاً دقيقاً عن الدين.

تعريف الدين:

من خلال مطالعتكم لكتب تواريخ الأديان فإنكم ستصبحون

= ويجب معرفة شخصياتها، وهؤلاء أحياناً يكونون أشخاصاً لا نعرفهم ولم تُطرح أسماؤهم في إيران أيضاً، حيث إن الواسطة الثقافية هم المترجمون. فمثلاً، الاقتصاديون جلبوا لنا فقط المنتجات الغربية حتى نستهلكها وكذلك المنتجات المعنوية الغربية لاستهلاكها أيضاً، فجاؤوا بها من أجل أن يستهلكها مثقفونا، أما الأفكار العميقة واتّساع الفكر وعمق الروح في الغرب مثل «رادها كريشنان» فلا يوجد منها. أو أشخاص مثل «رينيه غينون»(*) أو «باسكال» الذين مضوا، فلم يأتوا بأفكارهم، أو في الوقت الحاضر مثل ـ ألكسيس كارل حيث إنا ارتبط به ـ كان في الغرب وهو الآن موجود. نحن نأمل أن يكون عندنا مقابل هؤلاء في الشرق، نجوم لامعة تستطيع أن توجد النبوغ وتنمّيه. هناك كتاب أيضاً للمؤلف «رادها كريشنان» وقد تمّت ترجمته باسم (أديان الشرق وفكر الغرب) وهو حريٌّ بالمطالعة. كتاب آخر لم يكن دقيقاً وجيّداً لعامة الناس ويصلح للمبتدئين للمؤلف «فيليسين شاله» باسم (الفكر البسيط لبرنويس) وكتاب آخر اسمه (تاريخ الأديان) للمؤلف «جان ناس» وحتى لو كان ضعيفاً من جانب الاستدلال والوصول إلى النتيجة. أما من جانب الدرس وبحث المواضيع ولفائدة المدارس المختلفة فهو كتاب جامع وشامل، وترجمته جيدة نسبياً، وهناك كتاب آخر اسمه (تاريخ الأديان الكبرى) للمؤلف هاشم رضا.(المؤلف).

(*) (رينيه غينون (١٨٨٦-١٩٥١): باحث فرنسي اشتغل على أسرار الحروف الروحية عبر الموروث الطاويّ والهندوسيّ والمسيحيّ والإسلامي، له كتاب «رموز العلم القدسي»).

على اطّلاع أكثر واستعدادٍ أفضل لهذه المسائل التي تطرح في الجلسة، لأنه في هذا الدرس يتمّ التركيز بصورة أكبر على التحليل دون المطالعة. وأنا أرى أن الأوائل وحتى الكتّاب الجدد يُعطون أولاً تعريفاً للدين ومن ثم يتعرّضون للتعريفات التي أُعطيت، فمثلاً يقول فلان: إن الدين عبارة عن ذلك الشيء الذي أوجده الحكّام لتخدير الشعوب. والآخر يقول: إن الدين هو انعكاس عمل الإنسان الابتدائي مقابل قوى الطبيعة، فهو ومن أجل حماية نفسه من القوى المؤذية يتبع سلسلة من الأعمال والعبادات نطلق عليها تسمية «الدين»، لهذا فإن الدين هو نتيجة خوف البشر من الطبيعة. وهناك مَن يقول إن الدين عبارة عن جهل الإنسان في تفسير علل الأشياء والظواهر الطبيعية، فهو لم يتوصّل من الناحية العلمية إلى التحليل والتعليل، ولم يعرف مثلاً علّة حدوث الزلزال أو علة نزول المطر وغيرها من الأمور، فهذه المعلولات عنده، ترجع إلى علل اسمها الآلهة أو الأرواح أو القوى ما فوق الطبيعية، ومن هنا وُجد الدين. والآخر يقول: إن الدين عبارة عن إيمان الروح بأسرار الأرواح والموجودات التي تؤمن بتأثيرها فيها، وغيرها...

هذه التعريفات لم تكن تفي بالغرض المطلوب. ولا يمكن بواسطة هذه التعريفات إثبات أو نفي الدين، وإن خطأ كتّابنا القدامى هو أنهم يعطوننا في البداية تعريفاً ومن ثم يشرعون بما

يريدون تدوينه. إن الطريقة العلمية في البحث هي التي يجب أن يكون التعريف فيها في نهاية البحث وليس في بدايته. لأنك إذا جئت بالتعريف أولاً فما سوف تقوله سيكون بعيداً عن التعريف، لذا يجب أن يكون كل ما نقوله هو مقدمة واستدلال من أجل الوصول إلى التعريف.

هذا الخطأ هو نتيجة أن الكاتب يُعرِّف في البداية ومن ثم يحاول توجيه حديثه وبحثه باتجاه ما عرَّفه، ولكن المحقق الذي يسعى إلى معرفة الحقيقة فإنه يبحث في الموضوع ومن ثم يصل إلى التعريف. ففي الحالة الأولى تكون جميع الدلائل منصبّة على إثبات الرأي الأول الذي قدّمه الكاتب، وفي الحالة الثانية فإن جميع البحث يكون أثراً للوصول إلى الحقيقة.

يشكّل هذا النمط مرضاً كبيراً، فحينما نضع في بداية التحقيق فكرتنا وعقيدتنا ثم نسعى لإثباتها فهذا لن يصبح تحقيقاً بل أضحى تبليغاً. إن أصل التحقيق هو في أن نتخلّى من العقيدة عند بداية البحث ومن ثم نبدأ بالتحقيق والتعليل والتحليل للمسائل المراد بحثها، ثم يأتي تحليلنا المنطقي والعلمي الذي يوصلنا إلى النتيجة المقبولة، حتى لو كانت تلك النتيجة تخالف ما نعتقد به، هذه هي الطريقة العلمية، فهي طريقة تحقيقية، وهي طريقة البحث في المسائل الاجتماعية وعلم الاجتماع، وهي أيضاً موجودة في بحوث العلوم الطبيعية.

في الماضي كان أرسطو أو أفلاطون[١] يقولون: إن الإنسان حيوان ناطق. أو إنه حيوان يتخيل الأشياء ويفكّر. ثم من أجل إثبات هذا الأمر بدؤوا يضعون كل الأمور في خدمة هذه النظرية من أجل إثباتها.

في البداية قالوا: الإنسان حيوان ضاحك، ومن ثم لأجل إثبات إنسانية أي موجود فإنه إذا كان ضاحكاً يكون إنساناً وإلّا

(١) أفلاطون (٤٢٧؟ - ٣٤٧؟ق.م): فيلسوف ومعلّم يوناني قديم يُعَدُّ واحدًا من أهم المفكرين في تاريخ الثقافة الغربية.
وُلد أفلاطون في واحدة من أعرق العائلات في أثينا، وتنحدر أمه من نسل المشرع الأثيني الكبير «سولون». وكلمة أفلاطون كُنية تعني ذا الكتفين العريضتين، أما اسمه الحقيقي فهو «أرستوكليس».
كان أفلاطون يرغب في شبابه أن يكون رجل سياسة. وفي عام ٤٠٤ ق.م، نصَّب مجموعة من الأثرياء أنفسهم حكامًا مستبدين على أثينا، ودعوه للانضمام إليهم إلا أنه رفض لاشمئزازه من ممارساتهم القاسية اللاأخلاقية. وعندما أطاح الأثينيون بالحكام المستبدين في عام ٤٠٣ق.م. وأقاموا حكومة ديمقراطية أعاد أفلاطون النظر في الدخول إلى ميدان السياسة، لكنه تراجع عن ذلك بعد الحكم بإعدام صديقه سقراط في عام ٣٩٩ ق.م. وبعدها غادر أثينا في أسفار امتدت عدة سنين.
عاد أفلاطون إلى أثينا عام ٣٨٧ق.م حيث أسس مدرسة للفلسفة والعلوم عُرِفَت باسم الأكاديمية، وكان الفيلسوف الشهير أرسطو أبرز تلاميذه.
كان أفلاطون شديد الاهتمام بكيفية استخدامنا لكلمة أو فكرة واحدة تغطي وتشمل عدة أشياء مختلفة. فمثلاً كيف يمكن استخدام كلمة مائدة لكل الأشياء المفردة التي هي موائد؟ وقد أجاب على هذا السؤال بأن الأشياء العديدة يمكن تسميتها بنفس الاسم لأنها تتضمن شيئًا مشتركًا أُطلق عليه اسم «المثال» أو «الفكرة».

فلا، كيف نفهم أنه إنسان؟ بالضحك.. هذه الطريقة هي الإثبات من الكلّي إلى الجزئي: بمعنى يجب معرفة الكلي أولاً، ثم على أساس الجزئيات تتم معرفته. أما الاستقراء والطريقة العلمية اليوم فهي على عكس ذلك، فنحن وإلى الآن لم نعرف الكلي، نأتي ونبحث الجزئيات. فليس نحن الذين نصل إلى الكليات، بل إن التحقيق العلمي هو الذي يوصلنا. الأوّلون عرّفوا الطائر وقالوا إنه موجود يطير، ولأجل معرفة أي موجود فإنهم يطبقونه على التعريف القبْلي ثم يصدرون الحكم. أما الطريقة الجديدة والتي يرتكز عليها التقدّم الحالي، فهي الاعتماد على التجربة العينية والتحليل والمنطق الاستقرائي لا الاعتماد على طريقة القياس، والكلي، والطريقة الذهنية. فمثلاً من أجل معرفة طائر ما، يجري التحقيق على مجموعة من الطيور وتُستخرج الصفات غير المشتركة بينها، وتُجمع هذه الصفات المشتركة لها، ثم يمكن تعريف الطائر بأنه موجود يطير بعد مطالعة خمسين أو أربعين أو ثلاثين ألف نوع من الطيور ومعرفة جزئياتها، غراب، عصفور وغيرها. هكذا نكون قد وصلنا إلى تعريف الطائر، ويمكننا من بين هذه جميعاً معرفة أن طائر الخفاش فقط هو الذي يأتي عن طريق التوالد، ثم يمكننا أن نأتي على تعريف وهو أن جميع الطيور تبيض، فهذه القوانين العلمية حصلنا عليها بعد المطالعة والتحقيق، وعلى هذا فإن العالِم اليوم يكتشف

أشياء جديدة ويأتي ويستحصل القانون العلمي وهو صحيح أيضاً لأن أساسه العلم والتقنية، فهو يتدخّل في عمل الطبيعة، ويحصل على نتائج جيدة. إذاً فسوف يصبح واضحاً أن هذه الطريقة في معرفة القانون وهذا الاستنباط للأحكام عن طريق المسائل الطبيعية أمر صحيح. أما في المسائل الإنسانية والاجتماعية، فلا يمكن أن يكون هذا القانون ثابتاً وغير قابل للاستثناء. إن الاستثناء في المسائل الإنسانية كثير، وبصورة عامة فهو مورد اطمئنان القدماء. وفي تعريف الدين علينا أن نستفيد من مثل هذه الطريقة، وبدل أن نقوم بتقديم خمسين تعريفاً عن الدين ثم نرفض تسعة وأربعين منها ونقبل واحداً، علينا أن نبحث الدين في العصور المختلفة لنحصل على الوجه المشترك للدين، وكذلك الوجوه المشتركة للأديان عند جميع العرقيات والمِلل والقارات، من الهنود الحمر في أمريكا الشمالية حتى السود في أفريقيا الغربية، ومن الأديان العربية، السامية، الآريائية والهندية والإيرانية وحتى القبائل الوحشية في أستراليا، فإذا طالعنا هذه جميعاً فإننا نحصل على تعريف علمي غير قابل للإنكار، وهذا الذي حصلنا عليه نتيجة التحقيق، لم يكن تعريفاً يَعتدّ ويَقبَل به فقط ذلك الذي يؤمن بالدين، بل الذي لا يؤمن بالدين إذا كان يمتلك طريقة وروحاً علمية، فسوف يكون مجبوراً لقبول هذه النتيجة أيضاً. والذي تشاهدونه في نهاية هذا الكراس

المربوط بالدرس السابق هو نتيجة للبحوث العلمية، وكذلك تعريف الدين والخصوصيات المشتركة للأديان وهي تحتاج إلى تعمّق وشرح وتفسير، فهي تحتوي على الأمور التي طرحت في الأديان الابتدائية، والفلسفة الحاضرة، من الفلسفة المادية الطبيعية إلى الفلسفة العقلية، مع جميع خصوصيات الأديان المشتركة، لكل كلمة هناك حقيقة، وهذا يعني أننا سوف نحصل على تعريفٍ للدين.

في التعريف، لم تكن مسألة الاعتقاد بالموجودات الغيبية واضحة، صحيح أن جميع الأديان تعتقد بالموجودات الغيبية ولكن هذا يُعتبر من خصائص الدين، وهذا التعريف للدين هو من الصفات الخارجية له وهو أحد تجلّيات الدين، وإذ لم يكن هذا! لا يجعل الدين صغيراً ولكنه يجعله محدوداً، وأحياناً يكون الاعتقاد بالموجودات الغيبية جزءاً من الدين، ولكنها لا تعطي الصورة الكاملة للدين.

«يونغ»[1]: يعتقد أن هناك وجداناً نسمّيه بالوجدان الوسيط

---

(١) يونغ يتبنى رأي فرويد، لقد كان رجلاً كبيراً وقد مات قبل سبع سنوات في السويس.
أحد كتبه المهمة كتاب ـ بحث الروح البشرية المخفية ـ وأريد أن أترجمه إلى اللغة الفارسية حتى أقدِّم لثقافتنا ولغتنا خدمة كبيرة، لا أعرف لماذا نحن المثقفين في إيران نخضع للنقد الخاص، والكتب الخاصة مثل جميع آثار (بيكيت) التي تمّ ترجمتها والتي هي الآن قيد الترجمة ولكن=

غير الوجدان الواعي، والوجدان أو الشعور الباطني غير الواعي.

لقد كان فرويد يعتقد بالعلم الذاتي أو المعرفة الذاتية والمعرفة غير الذاتية، وكان يعتقد بأنه نحن ننتخب الأمور التي نعرفها ونعمل بها مثل شراء بطاقة، الصعود إلى الحافلة، الذهاب إلى الجامعة و. . . وهذا بفعل الضمير الواعي، والشيء الذي لا نعرفه ولا نعلم عنه سوف يكون محيِّراً لنا، وهذا من الضمير غير الواعي، مثلاً لماذا نحب اللون الفلاني ولا نحب اللون الآخر، ومثلاً أكره فلان ولكن أحب فيه صفة أخرى، نخاف من الارتفاع وننزعج من الصوت الشديد. كل هذه الأمور، المسؤول عنها الوجدان غير الواعي أو المعرفة غير الذاتية. أما «يونغ» فإنه يعتقد بـ «وجدان» بين هذين الوجدانين وهو وجدان الواسطة أو الوسط، وهو ليس من هذين النوعين وهو نصف واعٍ، أو مطلع بين هذين الاثنين وهو الوجدان الثالث (كنسيانس سوسيال) يعني (الوجدان الاجتماعي).

الوجدان الاجتماعي، هو القوة التي تجذب الإنسان نحو الجماعة أو الجمع، فالشخص لا يتلذذ بتناول الطعام لوحده ولا

= للأسف لا يوجد ترجمة لكتب (اليات) الذي يعتبره (بيكيت) نفسه أنه أقوى منه، و«يونغ» أحد هؤلاء والذي يجب أن يكون معروفاً في إيران وللأسف فإنه غير معروف.(المؤلف).

(*) (قد يكون المقصود هو «ميرسيا إلياد» صاحب كتاب «تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية»).

تكون الحياة مقبولة عنده، وأحياناً ينزوي الإنسان لوحده ويريد أن يعبِّر عن حبّه بكتابة الشِّعر، وهذا الشعر الذي يكتبه ليُقرأ يحتاج إلى المطرب الذي يقرأه، والملحِّن، أو يريد أن يطبعه حتى يعرف الناس موقعه، في كل هذه الأحوال تظهر الانجذابات المختلفة للإنسان نحو المجتمع واضحة، فالفرار من الانفراد والعزلة هو بحد ذاته يشكّل ارتباط الفرد مع المجتمع.

يعرِّف «يونغ» هذا الوجدان الاجتماعي الخاص فيقول: هو وجدان اجتماعي يمتلك تشعبّات مختلفة منها سياسية واقتصادية، وعملية.. وهنالك ما هو أهم من كل ذلك وأعمق وأكثر تأثيراً ألا وهو ـ بحسب تعبير يونغ ـ الوجدان المذهبي العرفاني.

يمكن اعتبار هذا الكلام صحيحاً إلى حدٍ ما، حيث ورد في خصائص الأديان المشتركة والتي ذكرناها في النقطة (٦) أن الروح الاجتماعية هي امتلاك الدين. إن علماء الاجتماع ومن ضمنهم «فرويد» و«دوركهايم» يعتقدون أن الفَرق بين الدين والسحر هو أن السحر يدعو إلى الفردية أما الدين فإنه يدعو إلى الاجتماع. والدين يريد من الإنسان دائماً أن يضحّي في سبيل الجماعة، والمنافع الفردية هي تحت المنافع والمصالح الجماعية، إنه يريد من الفرد أن يضحّي من أجل المجتمع

والآخرين. أما السحر فإنه يدعو إلى التضحية بالمصالح الجماعية من أجل المصلحة الشخصية، في معابد إحدى الكنائس الخاصة في «فرساي»[1] عُثر على أجساد لأطفال أعمارهم لا تتجاوز ٦ أيام حيث تبيّن أن أحد السحرة استفاد من دماء هؤلاء من أجل تمرير سحره، هذا هو شأن السحر دائماً، ساحر القبيلة، يسعى لفناء القبيلة الأخرى المعادية لهم فيقوم الساحر بمنع نزول أمطارهم وإزالة البركة عنهم وحرق ممتلكاتهم وقتل أبقارهم أو منعهن من الحليب.

كل هذه الأمور، تكون فداءً لأجل الفرد. أما الدين فهو يريد غير ما يريده السحر، يريد من الفرد أن يخرج من أنانيته وأن تكون حركته ضمن حركة روح المجتمع، بل يريده أن يفكر أبعد من التفكير القبلي، هذه إحدى خصوصيات الدين. وهنا نرى أن «يونغ» في بحث آخر يقول: إن الشعور الديني هو أحد المجالات الأساسية للضمير الاجتماعي الإنساني، وهو مع علم الاجتماع ومع تاريخ علم الاجتماع يصلوا إلى نتيجة واحدة وهي اجتماع الروح الدينية، وحتى المذاهب العرفانية والتي تؤمن

---

(١) فرساي: مدينة في شمالي فرنسا، تبعد نحو ١٨ كم جنوب غربي باريس. اشتهرت فرساي بقصر فرساي والمسطحات الخضراء المحيطة به. بناه لويس الرابع عشر في القرن السابع عشر الميلادي، وكان المقر الرسمي للأسرة المالكة لأكثر من ١٠٠ عام. وفي الوقت الحاضر تم تحويل القصر إلى متحف وطني.

بالآخرة، هي مذاهب اجتماعية تبني المجتمع والأمة (غير الفترات المنحرفة).

وقد قلت، أن آراء «يونغ» هي صحيحة إلى حدّ ما. وهي وإن كانت منطقية لكنها لم توضح الدين. إن «يونغ» يوضح المكان الخاص في عمق فطرة الإنسان وكذلك الوجدان نصف الواعي الاجتماعي للإنسان، إنه لا يوضح ما هي هذه الإحساسات، لماذا يتحمّس، وما هو تحليله الفلسفي! هذا ليس من مهمة «يونغ». لأن مهمة علم النفس ليست معرفة حقائق العواطف والإحساسات، بل إن عمله هو معرفة علة وسبب الروابط بين العواطف.

هناك كتاب جيد اسمه (الدين) أو البُعد الرابع لروح الإنسان، نقرأ أن هناك بُعداً آخر للعالم غير الأبعاد الثلاثة، الطول والعرض والارتفاع، وهذا البعد هو الزمان ـ المكان ـ ويقول «آينشتين»[1]: أحدثت نظرية أينشتاين تطورًا في الفكر العلمي، إذ أتت بمفاهيم جديدة عن الزمن والفضاء والكتلة والحركة والجاذبية. وقد تناول فيها المادة والطاقة على أنهما متماثلتان وليس على أنهما منفصلتان تمامًا. وقاد مفهومه إلى

---

(١) ألبرت آنشتاينْ (١٨٧٩-١٩٥٥م): أحد أهم العلماء على مدى العصور. ذاع صيته بسبب نظريته التي تسمّى النسبية، التي قدّمها أول مرة عندما كان عمره ٢٦ عامًا.

فكرة انطلاق الطاقة من الذرة. يملك (Place temps)[١] في نظرية آينشتين النسبية يوجد بُعدٌ رابع أيضاً في الروح الإنسانية، حيث إن الدين يمثِّل التجلّي لهذا البعد الإنساني الخاص، وإذا نظرنا (تأملنا) وجدنا أن جذور الدين موجودة في أعماقنا بصورة عجيبة وغير قابلة للتصور العقلي، لهذا فإن المسألة ليست مرتبطة بالأبعاد المحسوسة وبمعرفة العقل، وذلك مثل الانجذاب إلى المسائل الاقتصادية (فهي تأخذ مصدرها من الروح)، الانجذابات الجنسية (لها جاذبية خاصة ولها روح خاصة وتنبع من مصدر خاص)، وحفظ الذات وهي من الانجذابات الأساسية لذات الإنسان حيث نعرف من أين تنبع وأين تذهب وعلّتها معلومة، وهي تمثل التجلّي للإنسان. أما الإحساس العرفاني فهو نوع مخلوط من الفلسفة وانجذابات الحب، فهو مخلوط خاص غير قابل للتصور العقلي. أما تجلّي الأبعاد والغرائز المشخّصة والمحدودة فهي ليست من ذات الإنسان، بل إنها نتيجة بُعدٍ رمزي نسّميه بالبُعد الرابع، هذه نظرية وهي صحيحة وأنا أقبلها. وهذا يُظهر جلياً أن فطرة وذات الإنسان هي موقع ومنبع خاص حيث إن الدين ينبع من هنا، ودائماً وعلى طول التاريخ يكون ظهوره واضحاً، وتظهر هذه التجلّيات بين الذين لا يؤيدون الدين أو الذين هم ضده،

(١) الزَمَكان، أو مكان وساحة للزمن.

تظهر واضحة أيضاً، وأحياناً لا يطلقون عليه اسم الدين ولكن يطلقون عليه اسماً آخر. وإن النوع والصفة الراسخة للعبادة هي أيضاً من خصائص هذا البُعد، ومع كل هذا فلا يمكننا أن نقول ما هو الدين؟ ولماذا؟ وفي أي اتجاه؟ ولكن هذه الحقيقة توضح لنا أن الدين هو وليد العوامل الطبيعية مثل الجهل والخوف، فهو لا يكون وليد العوامل الاقتصادية أو الاجتماعية، بل إنه مرتبط بفطرة الإنسان وينبع من ذاته، وهو في ذرات الإنسان وفي خلاياه وفي أبعاده الروحية يمتلك مكاناً خاصاً، ولكننا نحتاج إلى تحليل أكبر وأوسع وأدقّ للمسألة حتى يتّضح ما هو الدين.

علم الاجتماع العلمي، هو علم جديد وهو أحدث من علم الاجتماع. وعلم اجتماع المعرفة (سوسيولوجي دو كنسيانس) وهو عبارة عن التحقيق في معرفة علم الاجتماع والمعارف والثقافات والأمم والوجدان في المجتمعات المختلفة التي أوجدت الدين، والعلم، والفلسفة، والفن، والدين والأدب والعرفان وأمثال هذه المسائل والتي ظهرت في مجتمعات مختلفة وفي فترات مختلفة أيضاً ولهذا الظهور جذور اجتماعية عميقة، فإن الذي يبحث فيها ويحقق، هو علم اجتماع المعرفة .

علم الاجتماع القديم في القرن التاسع عشر، لم يكن يقدم

تحليلاً عميقاً عن المعرفة والفن، ولم يحقق فيها على أنها مسائل أساسية بل بحث فيها بصورة عادية وبسيطة، فإنه مثلاً لم ينكر أن الآلة تقع تحت تأثير الإنتاج، ولكنه يشخّصها في قالب اجتماعي ومن ثم يصل وبواسطة تسلسل منطقي إلى البنية التحتية، وفي الوقت نفسه نجد أن علماء اجتماع القرن التاسع عشر وبصورة غير علمية وبسيطة ينتقلون من البنية التحتية إلى البنية الفوقية، وحتى لو لم يكن هناك أي صلة بين الاثنتين فإنهم يربطون هذه الأمور مع بعضها ويعطونها تحليلاً غير منطقي، كما يفعلون الآن. إن عمل علم الاجتماع العلمي هو إعطاء صورة واضحة للأبعاد الاجتماعية لمعارف وعلوم الإنسان وأن أحد هذه المعارف الإنسانية، هو الدين.

يقول السيد «غورفيتش»[١]: إن الإنسان وفي ثقافات مختلفة وأدوار مختلفة، أظهر أنه يمتلك أبعاداً مختلفة لتجليات معنوية. وبهذه الصورة والمعنى فإن الإنسان يشبه الدرج العاكس الذي يعطي لوناً مختلفاً من كل بُعد من أبعاده، وأن الضمير الإنساني لم يكن منبعاً واحداً أو يمتلك بُعداً واحداً فقط. فالإنسان وبصورة إجمالية وخلال جميع الفترات الزمنية وفي جميع

(١) حتماً سمعتم آخر نظرياته في موضوع علم الاجتماع ـ وعلى الأقل حول موضوع مدرسة علم الاجتماع الفرنسية خلال (١٩٦٠ـ ١٩٥٩) وهنا أكون مجبراً أن ألخص بحثه الذي قدّمه خلال ستة أشهر في ست دقائق. (المؤلف)

المجتمعات يمتلك إحساسات عديدة، وكل إحساس أو وجدان يكون منفصلاً عن الآخر وبصورة كاملة، وهذا الإحساس أو الوجدان له تجليات وظهورات مختلفة على طول التاريخ، ويظهر حسب التكامل الفكري والبدني والثقافي للإنسان سواء في المجتمعات البدوية أو المتحضرة.

لذلك يمكن أن نقسّم الثقافة والحضارة البشرية من وجهة نظر علم الاجتماع، حسب التطلعات والوجدان والإحساسات الإنسانية المختلفة (يجب أن نعرف أن هذا هو الأساس في نظر علم الاجتماع العلمي):

١ـ الوجدان الفلسفي: هو عبارة عن تجلّي المعرفة العقلية للإنسان في معرفة وتحليل وتوجيه العالم ومصير الإنسان، وكذلك في الروابط الموجودة بين الظواهر الكلية. إن الفلسفة لا تعطي جواباً للأسئلة التي تقول ماذا نأكل اليوم، وماذا نعمل غداً حتى نحصل على الأموال، وماذا نعمل لضمان مستقبلنا، فهذه الأسئلة ليست من النوع الذي تجيب عنه الفلسفة.. لماذا نحن موجودون؟ ولماذا هذا العالم موجود؟ وما هي العلاقة والرابطة بيننا وبين هذا العالم؟ فهذا النوع من الأسئلة يمكن للفلسفة أن تجيب عنه. فالفلسفة تعطي جواباً للأسئلة الكلية المتعلقة بأساس وأصل الإنسان، فهذه الأسئلة وأجوبتها ومعرفتها هي الفلسفة.

٢ـ الوجدان العلمي.

٣ـ الوجدان التكنيكي (الفني أو الصناعي).

٤ـ الوجدان السياسي ـ العملي ـ.[١]

٥ـ الوجدان الفني والأدبي، فعلم الأشياء الجميلة ومعرفتها ينبع من هذا الوجدان والإحساس، وهذا العلم يختلف بصورة كاملة عن الفلسفة والعلم والمسائل التكنولوجية والعملية الأخرى، والوجدان الفني هو الذي يتعرّف على الجمال ويحسّ به وينجذب إلى الأمور الجميلة، وهذا الانجذاب لم يكن علمياً أو منطقياً أو اقتصادياً أو فلسفياً. وفي الحقيقة إنه إحساس ووجدان آخر يميّز ويشخّص الأمور الجميلة ويفهم الفن وأموره.

٦ـ وأخيراً الوجدان أو الشعور العرفاني والديني[٢].

إن أشخاصاً مثل سقراط[٣] وأفلاطون وأرسطو والرازي

---

(١) عبارة ناقصة لم يترجمها المترجم

(٢) كان أحد السادة قد سألني في الجلسة السابقة، لماذا جعلت المسألة الفلانية والتي كانت مهمة في آخر البحث؟ قلت: البعض يعتقد أن المهم يجب أن يقال في البداية مثلما يكون الأشخاص المهمون في المجالس، أما في الحال فيجب أن تطرح المسائل البسيطة في البداية وفي نهاية الحديث يجب أن تطرح المسائل المهمة وهذا هو الأسلوب والطريقة العلمية. (المؤلف)

(٣) سقراط (٤٦٩ ـ ٣٩٩ ق.م): فيلسوف ومعلّم يوناني جعلت منه حياته وآراؤه وطريقة موته الشُجاعة، أحد أشهر الشخصيات التي نالت الإعجاب في التاريخ. صرف سقراط حياته تمامًا للبحث عن الحقيقة والخير.

وأبو علي سينا يمتلكون رؤيةً فلسفية وكذلك آخرين مثل سارتر، فهو ليس عالماً أو فيزيائياً وكيميائياً أو طبيباً أو فنياً أو فناناً ولا يمتلك إحساساً عرفانياً أيضاً، بل إنه فيلسوف ويمتلك رؤية فلسفية قوية أما إحساساته الأخرى فإما أن تكون ضعيفة أو معطلة أصلاً.

وفي الوجدان العلمي، نرى أن هناك فرقاً بين العالم

= والواقع أن سقراط لم يترك أية مؤلفات، وقد عُرِفت معظم المعلومات عن حياته وتعاليمه من تلميذيه المؤرخ «زينفون» والفيلسوف «أفلاطون»، بالإضافة إلى ما كتبه عنه «أريسطوفانيس» و«أرسطو».
وُلد سقراط وعاش في أثينا. وكان ملبسه بسيطًا. وعُرف عنه تواضعه في المأكل والمشرب. وتزوج من «زانثِب» التي عُرف عنها حسب الروايات أنها كانت حادة الطبع ويصعب العيش معها. وقد أنجبت له طفلين على الأقل.. هذا، وكان سقراط يعلم الناس في الشوارع والأسواق والملاعب. وكان أسلوب تدريسه يعتمد على توجيه أسئلة إلى مستمعيه، ثم يُبين لهم مدى عدم كفاية أجوبتهم.
قُدِّمَ سقراط للمحاكمة وُوجهت إليه تهمة إفساد الشباب والإساءة إلى التقاليد الدينية. وكان سقراط يُلمحُ إلى أن الحكام يجب أن يكونوا من أولئك الرجال الذين يعرفون كيف يحكمون، وليس بالضرورة أولئك الذين يتم انتخابهم.. وقد قضت هيئة المحلَّفين بثبوت التهمة على سقراط وأصدرت حكمها عليه بالإعدام. ونفّذ الحكم بكلِّ هدوء متناولاً كوبًا من سم «الشوكران».
وكان سقراط يؤمن بأن الأسلوب السليم لاكتشاف الخصائص العامة هو الطريقة الاستقرائية المسماة بالجدلية؛ أي مناقشة الحقائق الخاصة للوصول إلى فكرة عامة. وقد أخذت هذه العملية شكل الحوار الجدلي الذي عرف فيما بعد باسم «الطريقة السقراطية».

والفيلسوف. ولو أن هناك بعض الفلاسفة كانوا علماء أيضاً، ولكن هذان المفهومان يختلفان تماماً. فمثلاً نجد شخصاً يمتلك رؤية ومعرفةً عظيمة في المسائل الفلسفية، أما في الفيزياء والكيمياء والرياضيات والجبر وأمثال هذه العلوم فإنه قد يصل إلى الصفر، وأحياناً يخرجونه من المدرسة بسبب ضعفه في هذه الدروس. ولكن نفس هذا الإنسان يقرأ لسارتر، ويفهم أكثر من مدرّسه، لهذا فإن الوجدان العلمي أمر، والوجدان الفلسفي أمر آخر.

إن القرويين خير مثال على الوجدان الفني، وهذا خلاف ما يتهمنا به الآخرون من أن فكرنا وعقلنا عقل عرفاني وشاعري[١] ولا يفهم في المسائل الفنية، فإننا نجد حينما تقف وعلى سبيل المثال سيارة في وسط الطريق وسائقها لا يستطيع عمل شيء لها، فنرى أن أحد هؤلاء القرويين الذين يجلسون في المقاهي ينهض من مكانه وبواسطة حركات بسيطة يستطيع أن يُصلح السيارة ويشغلها، وهذا هو الاستعداد الفني والوجدان الصناعي.

نرى أن هناك بعض الأطفال يكون في مستوى ضعيف من ناحية القوى الفكرية أو العقلية وقد يكون حتى أقل من المستوى

---

(١) يقصد بهذا بأن الغرب يتّهم الشرقيين أو المسلمين بأن عقليتهم عقلية عرفانية وشاعرية وليست علمية فرضية ولا تستطيع أن تبدع أو تطور (المترجم).

المتوسط ولكننا نجدهم يعملون أشياءَ غير عادية ومحيّرة، هذا هو تجلّي الاستعداد الفني عندهم.

وأحياناً يرى البعض أن الاستعداد الفني والعلمي هو واحد ولكن علماء الاجتماع بل حتى علماء النفس يرون أن الاثنين يختلفان عن بعضهما البعض.

إن بعض المجتمعات تكون قوية في الأمور الفلسفية، مثل «أثينا»، وهناك مجتمعات تكون قوية من الناحية العلمية مثل «فرنسا»، وبعض المجتمعات تكون قوية من الجانب الفني مثل «ألمانيا». فنرى أن هذه الأمور تكون واضحة تماماً في المجتمعات والحضارات المختلفة، وهذا الأمر موجود في مجتمعاتنا أيضاً، فنرى مثلاً أن قبيلةً تمتلك أو تتميّز في الأمور الفنية الصناعية وأخرى في الأمور والمسائل الزراعية.

هناك استعداد آخر هو الاستعداد السياسي والعلمي، فهناك أشخاص لا يمتلكون رؤية فلسفية أو علمية أو فنية، ولكنهم حينما يجتمعون مع بعضهم ويرغبون بتقديم عملٍ ما، فإنهم وبدون أن يتزاحموا وبسرعة ينتخبون أحدهم لقيادتهم، أو أن هذا الشخص وبطريقةٍ ما يجذب الآخرين إليه حتى ينتخبونه لقيادتهم فهو يملك استعداداً خاصاً لجذب الآخرين إليه، فهو يعرف كيف يوجّه الآخرين، وكيف يعطي لكل شخص دوره وعمله. وقد نرى أن معظم قياديي العالم كانوا دائماً من الفلاسفة ولم يكونوا من

العلماء أو الفنيين أو من الأدباء، بل إنهم أناس يمتلكون هذا الوجدان وخاصةً في بداية سعيهم ونشاطهم، وحينها يكون هذا الوجدان قوياً عندهم ولهذا فهم يتقدّمون على الآخرين.

إن الوجدان الثقافي والأدبي، هو إحساس خاص موجود عند الإنسان، ولكنه ليس جزءاً من العقل أو الفلسفة أو التفنّن أو العلم فهو لم يكن جزءاً من أحد هذه الأمور. وأحياناً نسمعهم اليوم يقولون إن الفن في خدمة المجتمع أو في خدمة الفلسفة أو في خدمة الفكر، أما الفن فهو شيء آخر، وموضوع آخر، وهو ليس من هذه المواضيع. وحينما نسمع أشعار «عباس الخبّاز» ومن ثم إذا رأيناه وهو يخبز الخبز، فإننا لا نرى أن هناك شبهاً وتوافقاً بين هاتين الظاهرتين (الشِّعر والخبازة) لماذا؟ لأنه إنسان أمّي لا يعرف الفلسفة وليس لديه اطّلاعات علمية وحتى أنه لم يكن قد قرأ ديواناً شعرياً واحداً، أما الشعر الذي يقوله فلا يمكن أن تجده بين مائة أستاذ أو فيلسوف أو أديب.

وقد نرى أن هناك أستاذاً قرأ ودرس جميع الأفكار الأدبية واطّلع على جميع المدارس الأدبية وقرأ المتون القديمة والحديثة للشعر وقام بتدريسها، ولكنه لا يستطيع أن ينظُم بيتاً واحداً من الشعر، ولا يستطيع كتابة سطر واحد من النثر، وأحياناً إذا نظم بيتاً واحداً من الشعر وبشق الأنفس، فإن أولئك الذين يعرفون موازين الشعر لا يمكنهم الاستماع إليه. ونجد في

شخص آخر أنه قد درس الطب، ولم يكن يقرأ عن الأدب شيئاً، نجده ينظم شعراً جيداً ويسطر نثراً جميلاً[١].

إن معرفة الجمال وإيجاده، هي ملكة خاصة واستعداد خاص يمتلكه الإنسان، حيث إن جميع الفنون هي وليدة هذه القدرة وهذه القوة، وإن جميع الفنون والفنانين هم تجلي لهذا الاستعداد. فمعرفة الجمال لم تكن واحدة من تلك العلوم، وتلك العلوم لم تعترف بجميع الفنانين بل هي تنتقد الفن، لماذا؟ لأن الفن يمتلك منطقاً واستدلالاً خاصاً به ولا يقبل العقل والمنطق، ولكنه يقبل، الإحساس بالجمال ومعرفته والوجدان الفني، أكثر من الاستدلال العقلي. فمثلاً الشمعة والقطن الموجود فيها، عبارة عن قطعة جامدة في نظر الفلسفة والعلم، والفراشة هي حشرة، وبدون اتّفاق تحترق الفراشة بنار تلك الشمعة، ولكن هذا الأمر يعتبر حادثة إنسانية عظيمة من وجهة نظر الوجدان الأدبي.

أما لماذا يقابل هذه الظاهرة، وجدان وشعور يصل إلى قمّة الإحساس باللذة والحُسن، وشعور آخر يقابل هذه الظاهرة بالاستهزاء وعدم الاكتراث؟ هنا يصبح واضحاً أن هذه الظاهرة تقف أمام حُكمين، وأن الناس بمقدار التفاهم الروحي الذي

---

(١) إذا دققنا في ماضي شعرائنا وكتّابنا نجد أنهم لم يكونوا قد درسوا في الفروع الأدبية، ومع كل هذا فإنهم أغنوا وأثروا الأدب الفارسي مثل «إخوان ثالث» الذي كان فناناً والآخرين من أمثاله..(المؤلف).

يحصل عندهم (أي بمقدار التفاعل مع الحادثة) تصبح تلك الإحساسات عندهم قوية، بمعنى أن الربح يكون إلى جانب القيمة المعنوية، وأن الغلبة والانتصار هو للقيم المعنوية. وأن (القيمة) هي غير (الربح)، وأن أكثر المفاهيم الدينية والفنية هي قائمة على أساس القيمة وليس على أساس الربح.

إن بحث المنفعة والقيمة هو من بحوث علم الاجتماع، ففي علم الاجتماع؛ الربح يعني المنفعة الخاصة حيث إنه يسد احتياجاتنا المادية، أما القيمة فتعني الإحساس بالحرمة والأصالة بالنسبة لظاهرةٍ ما أو حقيقةٍ ما. فمثلاً حينما نقدِّم لأحد المرضى باقةً من الزهور، ويقدّم له شخص آخر خمس علب من معلبات الفواكه، وثالث يقدّم له صينية أو إبريق شاي حيث إن هذه الأمور تستفيد منها العائلة في المستقبل، فهنا، الذي قدّم باقة الورد قدمها على أساس القيم المعنوية، والآخران قدّما ما قدّماه على أساس المنفعة المادية.

إن الإحساس بالحرمة والاحترام والإجلال، والاعتقاد بالأصالة الذاتية، ظاهرة لها اعتبار عندنا وهي من خصائص القيم المعنوية، أما من ناحية المنفعة المادية فلا اعتبار لها عندنا وإن ما يجذبنا إليها هو الاحتياج والضرورة، ونحن نطلبها لا لأجلها وإنما للمنفعة الموجودة فيها.

إن الإحساس والوجدان الأدبي والفني، لم يكن قائماً على

حساب المنفعة المادية بل على أساس القيمة المعنوية، وأولئك الذين يريدون أن يكون الفن في خدمة المجتمع وفي سدّ احتياجاته، يضعونه في جانب المنفعة والربح الاجتماعي، ولكن ليس هذا هو موضع ومكان الفن، لأن المنفعة الاجتماعية بالنسبة للفرد هي القيمة المعنوية، فالشخص الذي يقدّم الخبز للمجتمع وللآخرين فإن الأمر يتعدّى عنده تقديم الخبز، وإنما هذا التقديم يكون بصورة تقديم فيه قيمة وعمل معنوي، وليس من ناحية المنفعة المادية حتى لو كان اسمه خبزاً.

إن الشعراء القدامى والفنانين الذين يعشقون الفن القديم (الفن لأجل الفن) يقولون ـ إذا جعلنا الفن فناً فيه خدمة مادية للمجتمع فإننا قد جعلناه قشوراً أو أن المجتمع لا يفهمه أو يكون من نوع السفسطة ـ لأنّ وضع الفن في خدمة المجتمع لا يعني تغييراً لقيمة الفن المعنوية إلى قيمة مادية، لأن المنفعة هنا ليست لشخص وإنما للمجتمع، وهذه هي القيمة المعنوية المطلوبة، لهذا فإنْ وَضَعْنا الفن في خدمة المجتمع نكون قد أخرجنا الفن من وضعه الموهوم والموجود داخل الإحساسات الذهنية الفردية، ووضعناه في قمة القيم الإنسانية المتعالية، وهذا هو تعالي الفن وليس سقوطاً له.

إن الشعور والوجدان العرفاني والديني مثل الإحساسات المختلفة الأخرى داخل الإنسان، وله تجلٍّ وظهور مشخّص،

أما في هذا البحث فإني لا أريد أن أعطي للدين جانباً ذهنياً، أنا أقدّمه بعيداً عن الظواهر العينية والاجتماعية والاقتصادية أو أبحثه لوحده، وهذا البحث هو بحث علم الاجتماع[١].

أريد أن أقول إن الدين مثل الفلسفة والشعر والفن له ظاهرتان أو تجلّيان، وفيه بحثان: أولهما بعنوان وجدان وإحساس موجود في الإنسان، ومن ثم بواسطة هذا الوجدان وذلك الإحساس تأتي الفلسفة والشعر والتكنيك، حيث تتجلّى الأمور السياسية والاجتماعية. والثاني هو: أن الفلسفات نفسها وكذلك المسائل الاجتماعية والشعر والفن، هي أمور موجودة ولها واقع ووجود، وهي موجودة في العالم الخارجي أيضاً، وهي مثل الأديان لها ارتباط بالمسائل الواقعية والاجتماعية والزمانية والخارجية والاقتصادية، أما تلك الأمور التي ترتبط بالوجدان والمعرفة فهي الشعر نفسه والفن، ونوع الفلسفة أو العلم أو التكنيك وهذا هو الإحساس العرفاني عند الإنسان. لهذا فمن وجهة نظر علماء الاجتماع اليوم، فإن حقيقة الدين وليس الأديان (يتطلّب بحثاً

---

(١) هنا نعود لتأكيد ما أسلفناه سابقاً من أن شريعتي ينظر إلى الدين وإلى المسائل المتعلقة به، من وجهة نظر عالِم الاجتماع، وعلى ضوء علم الاجتماع. فمَن أراد أن يحلّل أو ينتقد منظومته الأفكارية، عليه أن ينتقدها من هذه الزاوية. وإلّا، فإن شريعتي هو مفكر ملتزم بالدين الإسلامي، التزاماً صارماً وعلمياً، وهو بالإضافة إلى ذلك، يلتزم برؤية ومنظومة أهل بيت النبي ﷺ. وله منهجيته الخاصة في فهمها وتحليلها كمفكّر ومسؤول تجاه قضايا مجتمعه وأمّته.

خاصاً ومنفصلاً حيث يبحث كل أمر بصورة تحليلية منفصلة) في ذات وفطرة الإنسان، هي وجدان خاص ومعرفة خاصة مقابل الوجدان الفلسفي والعلمي والتكنيكي والسياسي والفني (مع الوجدان الديني) فإن هذه جميعاً تبني الثقافة البشرية، وإن واحدة من هذه الأمور تظهر قوية في كل فترة تاريخية وثقافية؛ فمثلاً في اليونان وأثينا قبل السيد المسيح، فإن الوجدان الفلسفي ظهر أقوى من الوجدان التقني والديني، وفي روما القديمة فإن الوجدان السياسي والاجتماعي أو العلمي كان هو الأقوى، حيث إن الثقافة والحضارة الرومانية هي تجلٍّ لهذا الوجدان. أما في أوروبا والغرب اليوم، فإن الوجدان التقني هو الأقوى، وفي إيطاليا اليوم فإن الوجدان الفني أقوى نسبةً إلى أمريكا من الوجدان العلمي والتقني، وفي الهند وعند الساميين وشرق الصين فإن الوجدان العرفاني والديني هو الأقوى، هذه المسألة ترتبط بعلم اجتماع المعرفة حول الدين.

المسألة الأخرى المهمة وأنا اعتبرها من أكبر وأهم التعريفات العلمية وليس الفلسفية والكلامية[1] هي النظرية التكاملية لـ«داروِن». وأنا لا أريد هنا أن أثبت نظرية داروِن

---

(١) هذه ليست مورد اعتماد، فالفلسفة قابلة للمطالعة ولكن ليست قابلة للاعتماد. لا يعني أن كل مَن قرأ الفلسفة يصبح غير محتاج، ولا يعني أن يجعل الإنسان من الفلسفة أساساً لبناء معتقده، فالفلسفة جيدة لرياضة العقل ولا يجب أن نعتقد أنها تهدينا إلى العقيدة كما تعتقدون. (المؤلف)

التكاملية في تبديل الأنواع، فإن داروِن مقابل بحوث ثبوت الأنواع التي تقول إن كل نوع كان ثابتاً حيث إنه خُلق مرةً واحدة وبقي كما هو ولا يمكن أن يتحوّل إلى نوع آخر، فهو يقول إن أنواع الحيوانات مثل ذات الخلية الواحدة (أميبا) تحوّلت إلى زواحف، والزواحف إلى طيور، والحيوانات المائية إلى برية، وذات الملامس الناعمة إلى حيوانات ذات هيكل عظمي، وذات الهيكل العظمي إلى لبنيات، واللبنيات إلى حيوانات كاملة، وحيوانات متكاملة إلى قِرَدة، والقردة إلى إنسان. وكذلك الموجودات الحية ذات الخلية الواحدة الموجودة في الماء فإنها وبواسطة القوانين التكاملية والتنازع والبقاء للأفضل وأمثالها، تبدّلت من نوع كامل إلى أنواع أكثر كمالاً. أما هذا التكامل فهو تكامل فيزيولوجي حيث إن الحيوان المائي بتكامله يصبح حيواناً برياً وأن وضع جسمه مثلاً ستة أرجل أو شكل يديه كذا، وغير ذلك، تتغير حتى تصل إلى صورة إنسان. وهذه التحولات جميعها هي تحولات فيزيولوجية في البدن، ومن ثم ظهر أول نوع للإنسان حيث إن آخر نوع للتكامل كان مشابهاً للإنسان تماماً ولا يوجد أي تفاوت فيزيولوجي بينهما وهو القرد، الذي كان صورة للإنسان ويشبهه. ومن هنا فإن التحول الذي حدث لم يكن تحولاً في الأعضاء والبدن، بل كان تحولاً آخر جعل الإنسان يختلف عن بقية الحيوانات، وهذا التحول هو تحوّل ذاتي وروحي ومعنوي في فكره وليس في أعضائه، وكان هذا، هو الإحساس العرفاني،

وهذا الإحساس هو منبع وأساس جميع الأديان في العالم.

لذا فإن الذي يميّز الإنسان عن غيره هو إحساسه العرفاني الذي جعله النوع الأخير والجديد بين الحيوانات وعلى الأرض وهذا هو التسلسل الأخير الكامل في نظرية دارون[١].

---

(١) لا أعلم كيف توصّل الدكتور شريعتي إلى هذه النتيجة!! إلا إذا كان كلامه يندرج في سياق الرد على نظرية دارون!.
فدارون يعتقد أن كل النباتات والحيوانات نشأت (تطوّرت طبيعيًا) من عدد قليل من الأسلاف المشتركين، ويرى أن النشوء قد حدث عن طريق انتخاب طبيعي، وهو عملية تجعل الكائنات الحية التي تتكيّف بشكل أفضل مع المحيط الذي تعيش فيه، هي المُرجَّحَة بشكل قوي للبقاء وإنتاج حيوانات مِثْلها.
وتُطَبِّق الداروينية الاجتماعية فكرة الانتخاب الطبيعي على المجتمع، في محاولة لتفسير الفروق في المكتسبات والثروة بين الناس. ووفقًا للنظرية، فإن على الأفراد والمجموعات التنافس فيما بينهم من أجل البقاء. وتُرجِّح أسس الانتخاب الطبيعي بقاء أفراد المجتمع الأكثر استعدادًا وملاءمة. وهؤلاء الأفراد أو المجموعات، يتكيّفون مع البيئة الاجتماعية، بينما تفشل في ذلك الأنواع غير الملائمة منها.
ويؤكد الداروينيون الاجتماعيون أن الأفراد الذين باستطاعتهم البقاء بشكل أفضل، يثبتون مقدرتهم تلك، عن طريق تكديس الممتلكات والثروة والمركز الاجتماعي. ووفقًا للنظرية الداروينية الاجتماعية، فإن الفقر دليل على عدم كفاءة الفرد أو المجموعة.
وقد انتقد عدد من علماء الاجتماع، الداروينية الاجتماعية، لأنها فشلت في أن تأخذ في الاعتبار أن بعض الأفراد يَرِثون السلطة والقوة، بسبب مولدهم في عائلات ثرية. ويعزو النقّاد نجاح هؤلاء الأفراد والمجموعات إلى مراكزهم الاجتماعية العالية أكثر ممّا يعزونه إلى تفوقهم الطبيعي.

هذا هو بحث داروِن وأنا لا أجد فرصةً جيدة للبحث فيه والتحدث عن جميع خصوصياته، لذا فأنا مُجبر أن أصل إلى النتيجة.

إن المسألة الأساسية هي أن هناك تعريفات مختلفة حول الدين تناولته من جوانب مختلفة، وأن أهمها وأحدثها كما قلت لم تهدينا إلى طريقة علمية ودقيقة. ولكنها تثبت أن للدين مكاناً خاصاً في ذات الإنسان، وعلى قول «مونتسكيو»[١]: إن هناك

= وقد تطورت الداروينية الاجتماعية كنظرية اجتماعية مهمة خلال أواخر القرن التاسع عشر في المجتمعات الغربية. وقد قام الفيلسوف البريطاني «هربرت سبنسر»، في البداية بعرض هذه النظرية، إلا أنها فقدت معظم تأثيرها مع مطالع القرن العشرين، رغم أن بعض علماء الاجتماع لا يزالون يدرسونها إلى اليوم.

(١) مونتسكيو (١٦٨٩ - ١٧٥٥م): فيلسوف فرنسي. من أعماله الرئيسية «روح القوانين» (١٧٤٨م) الذي كان ذا تأثير كبير على كتابة الدساتير في جميع أنحاء العالم. يعتقد مونتسكيو بأن القوانين تُشكل الأساس الذي تُبنى عليه كل الأشياء المتعلقة بالإنسان والطبيعة والمقدسات. إن اكتشاف هذه القوانين هي إحدى واجبات الفلسفة الرئيسية. وقديمًا كان من الصعب دراسة الطبيعة البشرية لأن القوانين التي كانت تحكمها معقدة. وبالرغم من ذلك اعتقد مونتسكيو بأن هذه القوانين يمكن اكتشافها بالطرق التجريبية لتقصي الأسباب، كما اعتقد أن معرفة القوانين تخفف أمراض المجتمع وتحسن الحياة.
وبالنسبة لمونتسكيو، كانت هنالك ثلاثة أنواع رئيسية من الحكم: المَلكية، والجمهورية، والحكم الاستبدادي.
فالحكومة الملكية كان لها سلطة محدودة في يد الملك أو الملكة، أما الجمهورية فقد كانت إما ارستقراطية أو ديمقراطية. وبالنسبة للحكم=

في داخل وجدان الإنسان حفرةً خالية يجب أن تُملأ بحقائق ما وراء الحياة المادية المحدودة، تلك الحقائق (ما وراء الطبيعة) التي تُخرج الإنسان من هذه الحياة والطبيعة المغلقة، وهذه الحفرة الخالية والزاوية المخفية إنْ لم تُملأ بالحقائق العالية والبنّاءة والواضحة فإن روح وقلب الإنسان سوف يُملآن بالخرافات وتبقى تلك الحفرة خالية من النور.

وكم هو حقيقي هذا القول وكم هو واقعي، وهذا الاختلاف بين دينٍ ودين، وبين إسلامٍ وإسلام، يبدأ من هنا حيث نرى تلك الحفرة الذاتية لذلك الإنسان المتديّن التي تمثّل وجدان «أبو ذر». وإذا لم يستطعْ الإنسان ملأها بالحقائق وملأها بالخرافات فيا

= الاستبدادي كانت السلطة في أيدي قلة من الناس خلافًا للديمقراطية التي يملك الجميع في إطارها سلطات واسعة. كان المستبد مسيطرًا على الحكم الاستبدادي وله مطلق السلطة. اعتقد مونتسكيو أن الأنظمة القانونية يجب أن تختلف وفقًا لنوع الحكومة الأساسي.

ساند مونتسكيو حرية البشر وعارض الاستبداد، وكان يعتقد بأن الحرية السياسية تتضمن فصل السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية عن الحكومة. كما كان يؤمن بأن الحرية واحترام القانون المصوغ على الوجه الصحيح يمكن أن يبقيا معًا.

ولد مونتسكيو ـ واسمه الحقيقي تشارلز دي سكوندات ـ بالقرب من بوردو. ورث لقب «البارون دي لا بريت دي مونتسكيو». نال شهرته من كتابه «رسائل فارسية» (١٧٢١م)، الذي سخر فيه من الحياة الباريسية والمؤسسات الفرنسية. التحق مونتسكيو بالأكاديمية الفرنسية عام (١٧٢٧م)، وعاش في إنجلترا من ١٧٢٩م حتى ١٧٣٢م، وكان معجبًا بالنظام السياسي الإنجليزي.

ليتها تبقى خالية، لهذا فإن الدين بالقدر الذي يكون فيه بانياً لمستقبل المجتمع وعاملاً أساسياً في التطورات والنهضات التأريخية وكما يقول «ويل دورانت» العامل الأساسي في إيجاد القدرة والنهوض في الطبقات الاجتماعية والمؤسسات الثقافية والمعنوية، وعاملاً مهماً في الحضارات والثقافات البشرية، وكذلك في المؤسسات الإدارية، فإنه يكون وبهذا القدر عاملَ ركودٍ وتخدير وتوقفٍ في المجتمعات البشرية. في الطريقة التي اقترحتها والمثال الذي ضربته حول الطائر، وصلنا إلى نتيجة أن صاحب الدين وغير المؤمن به، مُجْبران على قبول هذه الطريقة حيث إنها طريقة علمية، وأن العلم يقبل به كل فكر علمي سليم، وبهذه الطريقة وصلنا إلى الخصائص المشتركة لجميع الأديان، حيث إننا في المستقبل وكلما وصلنا إلى دين من الأديان فإننا سوف نوضّح خصائص ذلك الدين، ونحن لم نقدِّم بحثاً حول الدين بل طرَحنا فقط الأمور الظاهرة له، وسوف أضيف عدداً من النقاط، وأبحث الأديان بعد ذلك واحداً واحداً.

في الجلسة الماضية تحدثت عن ٢٣ خاصيّة من الخصائص المشتركة، والآن نتحدث عن البقية:

٢٤ـ المثالية (أو الفكر المثالي) أو الخيالي (أوتوبيا)[١].

---

(١) أوتوبيا: أو أيوتوبيا، أو يوطوبيا، وباللغة الانجليزية uTopia هو مفهوم فلسفي يعني المكان الذي يبدو فيه كل شيء، مثالياً.

المدينة الخيالية أو ما نسميها في مصطلحنا بالمدينة الفاضلة. وهذه ليست فكرة وعقيدة تختصّ بالدين، فهي تختصّ بالإنسان، كما أن الاعتقاد وصاحب العقيدة أمور تختصّ بالإنسان. والمثاليون يختلفون اختلافاً واضحاً مع ما يسمّى بالعقليين وكذلك مع الخياليين. حيث عندنا هنا في إيران يوجد خلط بين هذه المفاهيم.

ففي إيران ترجم مثقفونا مصطلح المثالية بالذهنية، والحال أن ترجمة الذهنية والعينية هي (ابزكتيويته وسوبزكتيويته)[1] والمثالية لا تعني العقلية أو أن المثاليين هم غير العقليين، والمثاليون هم الذين يبحثون عن الشيء المطلوب وهم لا يقبلون بوجود الشيء كما هو في جميع المجالات الاجتماعية والاقتصادية والحياة الفردية والاجتماعية والروابط البشرية والثقافية والمعنوية وفي الدين والفن والأخلاق و... وحتى الأمور الطبيعية كالجبال والبحار والبراري فلا يقبلونها كما هي عليه ويطلقون على هذا المصطلح المعروف (statu quo) أي الوضع الموجود، فهم يسعون إلى هدف متعال وتغييرات راقية حيث يريدون بناء حضارة أو مجتمع أفضل مما هو عليه، هذه العقيدة وهذا الهدف المطلوب المتحرك والبنّاء والإنساني لا

(١) ابزكتيويته: هذا المصطلح يُطلق على الذين يؤمنون بالأمور الطبيعية العينية.
سوبزكتيويته: يُطلق على الذين يؤمنون بالأمور المثالية.

يقبل التسليم والركود. أما أولئك الذين لم يكن لديهم هدف ولا يؤمنون بهذا المبدأ فإنهم يسلّمون ويستسلمون للواقع الموجود. لهذا فيمكن القول أن المثالية تعني إيجاد الوضع المطلوب مقابل الوضع الموجود. كما يقول الخيام:

إذا أعطيت العالم بيدي
فسوف أفني هذا العالم
وسوف أبني عالماً جديداً
حتى يصل الإنسان الحر إلى هدفه بسهولة

التخييل: (يريد الإنسان من خلاله أن يبني عالماً طبيعياً آخر غير هذا العالم المادي). وهذا لا يمثل اعتراضاً على الخالق لأن العالم هو الأمانة التي حمّلها الله للإنسان لكي يعمّره بهذه الصورة. إن (جان ايزوله) في «مدينته الشمسية»، فهو مقابل جميع المدن الشيطانية الموجودة يرتفع عالياً ويعلن عن بنائه وعمرانه الخيالي. جميع هؤلاء يبنون في الخيال والآمال مدناً. فهؤلاء يبنون مدناً في الخيال والآمال وكذلك يضعون ويتصورون إنساناً في الآمال والخيال. من هم الأبطال الموجودون في الأساطير؟ هم غير موجودين ولكنهم يجب أن يكونوا موجودين، أما حالياً فلا يوجد أحد منهم. فالأساطير هكذا تُبنى. نحن نريد هكذا بشر وهكذا محبة وهكذا إيمان وهكذا قدرة وهذا غير موجود، يجب أن نوجد ويجب أن نبني وننشىء هكذا أمور.

إن الأساطير، والقصص، وأبطال الأفلام، والمسرحيات، والأشعار، كلها تبحث عن هذه الأمور المثالية. فأبطال اليونان والروم وإيران القديمة والهند كانت كلها قصص وأساطير بهذا الشكل، حيث إن المجتمع البشري يحتاج لمثل هذه الأمور. إن إنسان اليوم أيضاً يصنع ويبني الإنسان المثالي والشكل والهندام المثالي. ففي الفن وفي المجتمع يبني ويصنع الإنسان المثالي، وفي جميع الأديان هناك الإنسان المثالي أو (المتكامل) نسبةً لشعوره الديني والفكري، وفي الأديان المتعالية هناك وجود للأفضل والأعلى، إن جميع الأديان المثالية فيها الإنسان المثالي حيث إن هذا الإنسان يعطي صورة للآخرين الذين يجب أن يكونوا مثله، وكذلك المدنية الفاضلة التي يجب أن يوصِل الإنسان نفسه إليها ويعيش فيها الحياة المثالية. إن الجنة في جميع أشكالها موجودة حتى في الأديان غير السماوية، لأن النهاية في كل دين نسبة إلى الزمان والمكان والحق والباطل أو الكمال والنقص هي المَعاد، والدين يوجّه ويرشد أتباعه إلى الجنة. إن الجنة هي الفكرة المثالية للإنسان حيث الانتقال من الحياة الدنيا إلى الحياة العليا المطلوبة، ولا يصل إلى هذه الحياة وتلك الجنة إلّا الإنسان الكامل والعامل الذي أتعب نفسه وأذاقها طعم العذاب. إن الإسلام يعرِّف الجنة أحياناً

بأنها مجتمع فاضل وجميل ومتعالٍ والمكان المثالي للإنسان، أما أولئك الذين يصلون لهذا المقام فهم المثاليون اللائقون لها والذين ضحّوا بأنفسهم وذاقوا مرارة التعب والحرمان والعمل من أجل بناء مجتمع مثالي أفضل، حيث إن الاثنين في العمل يُعتبران أمراً واحداً.

إن إنسان اليوم وحتى الإنسان المادي، يسعى لبناء مستقبله ولا يمكن أن يكون بدون أمل وعقيدة وإذا توقف فإنه سوف ينتهي، وإذا لم تكن لديه تلك العقيدة وذلك الأمل فإنه سوف يفقد سيره وحركته نحو التكامل، فإنسان اليوم يسعى لإيجاد وبناء الإنسان الكامل (l'homme total) وحتى في الفلسفة المادية للقرن التاسع عشر كان هذا موجوداً.

في العرفان يوجد الإنسان الكامل، وفي الدين هناك الإمام الذي يجب أن يكون إنساناً كاملاً وعقائدياً. إن الإمام هو قدوة كما جاء في الإسلام وعلى المسلمين أن يقتدوا به وأن يكونوا قريبين منه، وكذلك فإن الإنسان المثالي موجود في جميع الأديان، وتوجد هناك أيضاً دعوة للإنسان والمجتمع والحياة بأن تكون متكاملة وهذا هو معنى المثالية.

٢٥ ـ الانتظار: إن هذا المعنى موجود في جميع الثقافات والأمم والشرائع، وحتى في القصص الدينية والأساطير فإن للانتظار موقعاً ووجوداً.

في «انتظار غودو»[١] لـ«بيكيت»[٢]، وهو انتظار عالي

---

(١) هي قصة انتظار مَن لا يأتي؛ صبغتها الرئيسية الصمت، والجمل القصيرة، والقلق. في الانتظار، نفعل كل شيء، ولا نفقد الأمل.

(٢) صَمُويل بارْكِلاي بِيكِيت (١٩٠٦ - ١٩٨٩م): كان روائيًا وكاتبًا مسرحيًا وشاعرًا أيرلنديًا. فاز بجائزة نوبل للآداب عام ١٩٦٩م.

وُلد بيكيت في فوكس روك إحدى ضواحي أيرلندا، وتخرج في كلية ترينيتي بدبلن عام ١٩٢٧م، وانضم إلى رابطة الأدباء المحيطة بالأديب الأيرلندي جيمس جويس في باريس. وامتازت «ميرفي» أول رواية لبيكيت (١٩٣٨م) بالثراء اللغوي، مما يعكس مدى تأثره بجويس، وقد استقر بيكيت في فرنسا عام ١٩٣٧م.

بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٥م، بدأ بيكيت في كتابة أعمال مهمة باللغة الفرنسية منها ثلاثيته «ملوي» (١٩٥١م)؛ «وفاة مالون» (١٩٥١م)؛ «غير القابل للتسمية» (١٩٥٣م). ثم استمر في الكتابة باللغتين الإنجليزية والفرنسية مترجمًا أعماله من إحدى اللغتين إلى الأخرى. وقد كان لمسرحيته «في انتظار غودو» التي كتبها عام ١٩٥٣م أكبر الأثر في اعتباره الشخصية الرئيسية في دائرة رواد الأدب والمسرح العالمي. وتلت ذلك العديد من المسرحيات الشهيرة، وتشمل: «نهاية اللعبة» (١٩٥٧م)؛ «الشريط الأخير لكراب» (١٩٥٨م)؛ «الأيام السعيدة» (١٩٦١م)؛ «اللعب» (١٩٦٣م)؛ «لست أنا» (١٩٧٣م)؛ «روكابي» (١٩٨١م). وقد كتب «بيكيت» أيضًا للمذياع والتلفاز وأصبح أكثر المؤلفين المسرحيين في عصره شهرة. ويمكن رؤية مدى تأثير كتاباته في مسرحيات «هارولد بنتر» و«توم ستوبارد» و«إدوارد ألبي» و«سام شبرد».. كانت مؤلفات «بيكيت» دائمًا تجريبية متطرفة. ثم أصبحت رواياته ومسرحياته أكثر بساطة بصورة متزايدة، وذلك بحذف الكثير من التفاصيل والإبقاء على القليل منها فقط. والصورة الرئيسية التي تتضح في كتاباته هي لشخص (امرأة أو رجل) كبير السن يعاني صراعًا داخليًا مع مفهومه للبيئة المحيطة به. وبينما تدور ذكريات الماضي في مخيلة تلك الشخصيات، تبدأ في التساؤل عن ذاتها وعن حقيقة وجودها.

المفاهيم، حيث إن «بيكيت» يحس بالانتظار، لكنه يقول هذا هو علامة السقوط والعجز بالنسبة للإنسان وفي (انتظار غودو) فإنه يحاول نفي الانتظار. لأن هذا الانتظار فاقد للحركة والحماس، ويؤدي إلى عجز ويأس المنتظر.

أما الانتظار الذي أتحدّث عنه فهو من صفات وخصائص جميع الأديان وهو حركة للخروج من اليأس ومن صدأ النفوس، لأنه يحمل الاعتراض في طياته وأبعاده، ولأن الذي لا يعترض فهو لا ينتظر. وإن المنتظر هو معترض، وهذا هو الذي يتحدّث عنه «كامو» فهو يسأل لماذا تعترض؟ والجواب: إن لم أعترض فأنا غير موجود، أنا أعترض فإذاً أنا موجود. ويقول «آندريه جيد»[1] أنا أحسّ فإذاً أنا موجود، وهذا في منتهى التعالي.

---

(١) أندريه جيد (١٨٦٩ - ١٩٥١م): كاتب فرنسي نال جائزة نوبل للآداب عام ١٩٤٧م، وله أثر قوي على الأدب في فرنسا ودول أخرى، لعلاقاته العديدة وصداقاته مع الكتَّاب، ولمشاركته في تأسيس مجلة «نيو فرنش ريفيو» عام ١٩٠٩م وهي مجلة أدبية مؤثرة.
وُلد «جيد» في باريس ونشأ في بيئة بروتستانتية محافظة للغاية. تراوحت موضوعات كتاباته بين متناقضات تربيته الصارمة ومشاعره الحسية. فمثلاً قصته «اللاأخلاقي» (١٩٠٢م) تركز على مُتَع الجسد، وقصته «المضيق هو البوابة» تتناول إخماد الرغبة الجسدية.
ونظرًا لتأثره بروايات الكاتب الروسي «فيودور دوستويفسكي» وأفكار الفيلسوف الألماني «فريدريك نيتشه»، فإن الشخصيات الخيالية التي رسمها «جيد» كانت مرتبطة بما أسماه «الأفعال العبثية». وهذه الأفعال تشمل القتل والقوانين المهملة والأفكار التقليدية عن الأخلاق. =

إن الإنسان الذي ينتظر يشبه الموج العارم حيث يعبّر عن هذا، الفيلسوف «إقبال»، حينما وقف أمام «ساحل بحر»: إذا ذهبت فأنا موجود، وإذا لم أذهب فأنا غير موجود، والموج هو حركة فقط، هذا هو الإنسان المنتظِر، حيث إن «إقبال» يبقى على هيئة موجه وحركته، الشاعر الذي صار إنساناً آخر وولد من جديد لأنه صار معترضاً ومعارضاً (تموت الطيور ويبقى الطيران)، إن النفس والروح المُحلّقة والمتحركة تعني الإنسان المعترض، وكما يُقال اليوم: أنا أمتلك سهماً، فإذاً أنا موجود، فماذا أنتظر؟ وفي النهاية أذكر بعض الخصائص المشتركة للأديان أرجو إضافتها إلى الخصائص السابقة.

٢٦ ـ المثالية والإنسان المثالي والمدينة الفاضلة.

٢٧ ـ الانتظار، هو الاعتراض على الوضع الموجود والحركة نحو الوضع المطلوب(١).

= يتميز أسلوب جيد بالبساطة والوضوح والسخرية أحيانًا. ويعتبر «جيد» أدبه القصصي قصصاً ماعدا «المزوُّرون» التي اعتبرها رواية، حيث إن الشخصية الرئيسية في الرواية هي كاتب روائي يكتب رواية عن كاتب روائي، ويضع نظريات عن فنّه. تشتمل حكايات «جيد» «السيمفونية الرعوية» (١٩١٩م) على يومياته عن الفترة من (١٨٨٩-١٩٤٩م) وتلقي مراسلاته الضوء على حياته وعمله. كتب جيد أيضًا العديد من المسرحيات منها «أوديب» (١٩٣١م).

(١) وهذه هي فلسفة انتظار إمام الزمان (عج) في أفكارية علي شريعتي، حيث يشير إلى ذلك في رسالته حول انتظار إمام الزمان. الاعتراض على الوضع الفاسد الموجود والحركة والعمل نحو الوضع المطلوب.

٢٨ ـ المعرفة الذاتية للطبيعة.

وأنهي حديثي هذا بالحديث الذي جاء في كتاب (الصحراء)[١] ومعلوماتي عن الدين وعن الإنسان.

الإنسان الإلهي المُبعد:

لقد خلق الله الإنسان من حَمَأ مسنون، ثم نفخ فيه من روحه وصوّره بأحسن تصوير، ومن ثم علّمه الأسماء، وبعدها عرض عليه الأمانة بعد أن رفضتها السماوات والأرض، ومن ثم سجدت له الملائكة.

إن وجه هذا الإنسان محاط بالغمّ، ومنذ اليوم الأول للتاريخ كلما أراد أن يُخرج نفسه ليضعها في زاوية منعزلة حتى ينفرد ويفكر في حال نفسه وفي العالم، إلا أن نظرة اليأس ترتسم على عينيه وتعلوه موجة من الاضطراب لأنه مرتبط بهذا العالم أكثر. ويتّضح لديه أن كل ما هو موجود فليس هو، ومن ثم يتعدّى إحساسه هذا الحد من الوجود ويقول كل ما هو موجود فهو ينتهي، ولكنه سوف يبقى إلى النهاية وأنه سوف ينتشر ويكبر، وفي صورة هذا الخراب هناك إعمار وبناء. وبإرادته الصادقة وذاته الصافية ينظر إلى الذات الغريبة التي أرادت أن تفصله عن فطرته وذاته الحقيقية.

(١) كتاب (الصحراء) أو (كوير). كتاب للدكتور شريعتي، مفعم بالأدب والعرفان والفلسفة. يقول شريعتي بأنه كتبه لنفسه فقط.

لقد أصبح يتضايق من وجوده ووجود الطبيعة من حوله فهو يحسّ بالغربة في هذا العالم. يصرخ باسم الوطن والأحبّة، ومن هنا تبدأ جذور الفلسفة الثنوية، وهي بداية لأول فكرٍ في عقل الإنسان الابتدائي. إن ثقافة العالم الدنيوي، والعالم الأخروي حيث لها في كل لغة معنى وعند كل قوم لها شكل، فهي موجودة دائماً وفي كل مكان، وإن العالم منذ بداية التاريخ وإلى الآن يسعى لكي يصل إلى هذا المفهوم، إن أعظم اندفاعاته وسعي روحه الذي يمثل مجموعة حياته المعنوية، هو أن يصل إلى تلك الحياة المعنوية.

نرى أن الإنسان وفي قمة تاريخه يسعى للوصول إلى ذلك المطلوب، فهو يرفع يديه نحو السماء أو يضع عينيه بعين الشمس أو أنه يجلس إلى شعلة نار ترمز عنده إلى شيء، يجلس غير مستقر وكلّه أمل أن يحصل على النجاة وأن يحصل على تأمين احتياجاته، فهو يرى في هذا المكان أن هناك تطلعات تنزل من السماء الأخرى.

إن الإنسان أصبح ضائعاً في هذا التراب غير المعروف، حيث إنه يرى نفسه غريباً وحائراً، وهو دائماً يبحث عن تلك الجنة المفقودة وهو يعرف أنها موجودة، وكلما يمرّ عليه أمر فإنه يترك عليه أثراً من تلك الجنة التي يبحث عنها، وكلما وصل إلى ذلك الأثر الذي يهديه لتلك الجنة المفقودة، فإنه يسجد لذلك الأمر الذي يحمل أثراً أو دليلاً لتلك الجنة، وحينما يعرف أن ذلك

الأمر الذي كان يعتقد أنه يوصله إلى الجنة كان أمراً تافهاً فإنه يقوم بالبحث عن أمر آخر يهديه إلى ذلك الشيء المفقود الذي بحث عنه ويعلم بأنه موجود. إن البحث الذي لا يعرف الملل والتعب فيه أمر وشيء لا ينطفىء وهو صوته الحزين النابع من غربته، فهو وبدون أن يتضجّر يضع يده على جدار العالم ليجد نافذة صغيرة أو يعمل نافذة صغيرة تؤدي به إلى خارج هذا الكون.

إن تناقض الكلام وتنوّع واختلاف التجلّيات لن تُخفي عن أبصارنا وحدة الألم والاحتياج. إن الصراخ المضطرب والخائف لـ«جلجامش»[١] تحت سماء سومر[٢] وعذاب «بوذا»

(١) ملحمة جِلجامِش: تُعد ملحمة جلجامش واحدة من أقدم الملاحم في الأدب العالمي. وهي بابليَّة قصيرة، تمَّ نظمها في جنوبي بلاد ما بين النهرين عام ٢٠٠٠ ق.م. وأكثر النُّصوص اكتمالاً جاءت من مكتبة الملك الآشوري آشور بانيبال (٦٦٨ - ٦٢٧ ق.م)، وعثر على أجزاء من النُّسخ في سوريا وتركيا، ممّا يعني أنَّها كانت مشهورة على نطاق الشَّرق القديم.
والملحمة مجموعة من الفولكلور والقصص والأساطير القديمة، التي طُوِّرت تدريجيًا لتُصبح عملاً واحدًا. وتركِّز الملحمة على جلجامش، وهو ملك قوي في سومر، كان يضطهد شعبه. وعندما صلّى النَّاس طلبًا للمساعدة حسب زعم الأساطير خلقت الآلهة بطلاً يُدعى «إنكيدو» لملاقاة جلجامش في المعركة. ولكن إنكيدو وجلجامش أصبحا صديقين واشتركا في العديد من المغامرات إلى أن تُوفي إنكيدو.

(٢) سومر: إقليم قديم يقع في بلاد ما بين النهرين (جنوب شرقي العراق حاليًا) موطن الحضارة الأولى في العالم التي بدأت عام٣٥٠٠ق.م وازدهرت واستمرت حتى عام ٢٠٠٠ق.م. حيث ذابت بعد ذلك، وامتزجت بحضارة=

للخلاص من «الكارما»[١] والوصول إلى «النرفانا»[٢]، وأن بكاء علي عليه السلام المؤلم في الليل المظلم في بساتين نخيل المدينة، وكذلك الغضب أو التمرّد اليائس لسارتر وكامو من «بلاهة وعدم معنى هذا العالم»، كلها تجلّيات مختلفة للروح الإنسانية المضطربة والتي يراها وحيدة وغريبة في هذا الكون، ويراها مسجونة تحت سقف هذه السماء. لذا فهو يعرف أن هذا المنزل

= إمبراطورية بابل العريقة وحضارة الآشوريين. اخترع السومريون أول نظام للكتابة في العالم وكان يتكوّن أساسًا من مجموعة رموز، تطوَّر بعدها إلى حروف كتابة مسمارية استُخدمت فيها رموز مكوّنة من علامات مثلثة الشكل، واستُخدمت لكتابة لغات عديدة في جنوب غربي آسيا.

(١) لكي يحقق الإنسان تحرّره ينبغي أن يكتسب المعرفة الصحيحة لروحه، وذلك عن طريق الاستقامة في الحياة والتشبع بالتعاليم الدينية والتأمل العميق. وعندما يمكّن روحه من تحقيق طبيعتها الحقيقية فلن يكون مدفوعًا في عمله بالأهواء والشهوات، ولن يعاني من عذاب «الكارما» أي البعث للحياة مرات لا تُحصى. وعندما يضع الإنسان حدًا لارتباطه بالبدن فإن جميع آلامه تزول، وتلك هي الحالة المثلى للروح.. وسيشرح الدكتور شريعتي مفهوم ومعنى «الكارما» و«التناسخ» بشكل موسّع في الجزء الثاني من هذا الكتاب.

(٢) «النرفانا» هي فناء الذات الفانية في الذات الباقية. وهذا تناقض واضح، إذ كيف يجتمع النقيضان (الفاني والباقي) والجوهر مختلف؟!.. وقد نزع بعض الصوفية منزعًا ليس بالحلول ولا بوحدة الوجود ولكنه اتصال بالله أو اتحاد المخلوق بخالقه بسبب محبته إياه وخلوصه له سبحانه. وقد نحا ذلك المنحى ابن الفارض. ومضمون هذه الوحدة هو فناء الذات الفانية في ذات الله الباقية. ويسمّي الصوفية هذه الحالة بوحدة الشهود، وهو عين «النرفانا» الهندية. فالنرفانا تعني حرفياً «الانطفاء» أو «الفناء» (في الإله).

ليس منزله. لماذا يتألم الإنسان حينما يفكر طويلاً في هذا العالم وفي نفسه وحينما يجلس بعيداً عن الآخرين لوحده، فهو يمسك رأسه بين يديه ويبكي ويتحدّث مع نفسه. وكلما أصبح قريباً من الحياة اليومية فإنه يتوجّه بصورة أكبر إلى الطرب واللهو والمادة. لماذا يصاحب الفكرَ والعقلَ والفنَ وتعالي الروح، الحزنُ دائماً؟ ولماذا تصاحب الطربَ والفرحَ، الحماقةُ والدناءةُ والابتذال دائماً؟ ولماذا هناك قاعدة ومنذ زمن أرسطو قد كتبت أنّ كلّ عميق وجدّي يكون مهموماً؟ فكل شيء سطحي ومبتذل يكون مُضحكاً ومُفرِحاً. لماذا كلما تكون الإنسانية عند الإنسان أعمق فإنه يذهب وراء الأمور المُحزنة عمداً؟ ألم يكن تجلّي الروح المتعالية هو الإحساس بالفقر والحرمان. لماذا يحبّون ويفضّلون السُّكْر وفقدان الوعي؟ لأن الإنسان في هذه الحال يفقد ويقطع كل علاقاته مع الحياة المادية ولأن حِمل الروح الثقيل يسقط عن الروح في هذه الحال، ويخف ذلك الضغط الروحي عنه، وفي هذه اللحظة أيضاً ينسى الإنسان أنه غريب في هذا العالم وكذلك تنجلي من ذاكرته صورة هذا الوجود القبيح. لماذا يحب أصحاب الأرواح المتعالية والقلوب العميقة حزنَ الخريف وكذلك الهدوء ووقت الغروب؟ ألم يكن الإنسان يحسّ في هذه الأوقات واللحظات أنه قريب من حدود هذا الكون.

إن الإنسان وفي أعماق فطرته يعيش الأمل المطلق

واللانهاية، والأبدية والأزلية، والنور، والبقاء، والخلود، وعدم الزمان والمكان، وعدم وجود الحدود والألوان والتجرّد المطلق، والتقدّس، والحرية المطلقة، والبداية، ونهاية المطاف، والغاية المطلقة والكمال المطلق، والسعادة الحقيقية، والحقيقة المطلقة، واليقين والحبّ والجمال والخير المطلق، والأحلام الجميلة، وأطهر الأطهار.

إن هذا العالم، هو عالم نسبي ومحدود وعرضي ومتوسط ومقيّد وقبيح ومؤلم، وملوّث، محكوم المكان والزمان وكذلك ناقص ومنتهٍ، فهو بهذه الصفات لا يمكنه أن يكون متلائماً مع تلك الشعارات الجذابة لروح الإنسان المحلّقة المتعالية. ولكن من أين جاءت هذه الشعارات إلى قلب الإنسان؟ إنها تلك العين أو المنبع الغيبي الذي يتحرّك ويغلي دائماً في عمق روح الإنسان. إن تلك الروح الصابرة على ذلك العيش الملتهب لن تجد في تلك الصحراء سوى السراب الكاذب.

لقد فقدت طريقها للحرية وفقدت طريق منزلها النهائي.

وهكذا فإن هذا الخوف والشكّ والعصيان وحب الهروب موجود منذ البداية في وجود هذا السجين الكبير الذي خُلق من التراب، وقد صارت هذه الأمور معجونة مع ترابه منذ البداية، وفي داخله منزل مخفي قد ظهرت فيه تجلّيات ثلاثة:

الدين، العرفان، والفن:

إن الدين يمثّل سعي الإنسان لتطهير ما علق به من ذنوب ومعاصي وهو الذي يسيّر الإنسان وينقله من صفته المادية إلى الصفة الروحية الإلهية، وهذه الحياة الدنيوية التي نراها يمنحها القداسة ويجعلها حياةً أخروية[١] والقداسة[٢] هي التي تميّز الدين وتُظهر جوهره الخاص كما يقول «دوركهايم».

والعرفان هو تجلّي لنور الفطرة الإنسانية حيث إن الإنسان يكون غريباً في هذه الدنيا وحيث يعيش مع جميع الموجودات والكائنات في بيت واحد فهو يشبه الطائر الأسير الموضوع في قفص مظلم، يضرب نفسه بنوافذ وجدران ذلك القفص، ومن أجل الطيران والخروج يبقى غير مستقرّ، هذا الإنسان الغريب يبقى يعيش على ذكريات الوطن الأصل ويسعى ويجدُّ من أجل أن يخرج من أسره وسجنه الذي وضع فيه.

أما الفن فهو أيضاً تجلّي الروح التي لا يروي ظمأها ما هو موجود، وكل ما هو موجود لا يقابلها لأنه قليل ومضمحل وغير

---

(١) الدنيا والآخرة صفتان، وليستا إقليمين جغرافيين مشخّصين أو متجاورين، وأن كل ما هو غير واقعي وقليل وفاقد لروح التعالي وملوّث يُطلق عليه (الدنيا) وكل ما هو جميل وجيد ومتعال وحقيقي وفيه جلال وعلوّ يسمى (أخرى). (المؤلف).

(٢) وكلمة القداسة (sacre') هي روح فكر الإنسان التي تظهر منذ اليوم الأول لحياة الإنسان وتجذبه إليها. (المؤلف).

جميل، وكما يقول سارتر: أحمق وخالي من المعنى وفاقد الروح والإحساس. والفن هو هواجس الإنسان صاحب القلب النابض وهو جناح المفكرين الكبار وهو يسري بين إنسان بدون ألم ولا يتوخى الظواهر والجمود وهو يعيش غريباً على هذه الأرض والسماء وما بينهما.

والفن وليد هذه الآهات والأحاسيس المُرّة للوجود، وهو يسعى أن يعطي مسيرته الزخمَ الكبير، حتى يُكمل بشوطه المطلوب من الموجود إلى الذي يجب أن يوجد، وبالأخير فهو يمنح الوجود كل ما يملك وما لا يملك.

ومن هذه النقطة يكون الافتراق بين الدين والعرفان مع الفن حيث إن الدين والعرفان يُرجعان الإنسان من الغربة إلى الوطن، فينتقلان به من الواقع إلى الحقيقة والدين والعرفان غير..[1]

أما الفن فهو فلسفة باقية، والفن يعرف أن هذا ليس هو مكان البقاء، والفن يسعى وبواسطة الخيال والقول والخاطرة أن يعود لوطنه وحياته تلك، والفن وبما استطاع وبما يمتلك من وسائل ولغة وأصوات وأشكال وألوان مختلفة يفتقد تلك الديار المعروفة الغائبة الجميلة في هذه الدار الموجودة الغريبة.

وهنا يكون الفن كما عبّر عنه أرسطو أنه محاكاة (Drame)

---

(١) فقرة ص ١٢٩ لم يترجمها المترجم عن النص الفارسي.!

تختلف عمّا يقول، فهو ليس محاكاة عن الطبيعة بل أنه يختلف تماماً عن الطبيعة، فهو محاكاة عمّا وراء الطبيعة حتى يجعل الطبيعة بصورة ما وراء الطبيعة، والفنّان كذلك يشبه رجل الدين والعرفان فهو يرى أن صورة هذا العالم غريبة وهو يختلف عن الاثنين لأنه لا يمتلك من المعرفة عن تلك الحقيقة ما يعرفه الاثنان، والفنان يسعى كي يصل إلى ذلك اللطف النهائي الذي ينبع منه العشق والجمال، وبواسطة قوته الخلّاقة يستطيع أن يرى على وجه هذه الغربة قدره ووجوده وبقاءه، وتعطيه لوناً من المعرفة الحيّة وتزيّن بقاءه في هذا الوجود. لهذا فإن الفن هو تجلّي الغريزة الخلّاقة للإنسان وهي استمرار لهذا الوجود الذي هو تجلّي لخلقة الله تعالى. وحينما يحسّ بوجود النقص في هذه الحياة فهو يسعى لإكماله ولهذا فهو يخفّف من أعبائه وأتعابه في هذا العالم الذي لم يكن ليتخلف من أجله وكذلك فهو يتحمل وجوده في هذه الغربة وبين هؤلاء الغرباء.

أما الصنعةُ فهي فن أيضاً وهي تجلّي لغريزة الإنسان الخلّاقة ولكنها على خلاف الفن، فهي لا تنبع من الإحساس بالغربة والاضطراب وعدم الراحة لما هو موجود، بل إنها تتقرّب إلى ما هو موجود، والصنعةُ لا تعني فكّ القيود بل هي تزيدها، والفن يريد أن يربط الإنسان بالأشياء التي لا توجد في الطبيعة أما الصنعة فهي تريد أن تربط الإنسان بالأمور الطبيعية.

أما الفن فإنه وفي أبسط مراحله، التقليد والتفنن. وفي أعلى مراتبه وأنواعه يمثّل محاولات الإنسان لتكميل النقص الموجود في العالم[١] أو عرض لما هو موجود فيه. ومن هنا فإن الدين والعرفان يمثلان (باباً) خارج السجن والفن نافذة له.

وبصورة عامة فإنهم يقولون إن الجمال هو جوهر الفن وملاكه وأيضاً يرون أن هدف الفن هو إظهار الجمال. هذا القول إن لم نقُل مرة واحدة أنه باطل فهو يحمل في طيّاته نوعاً من الإبهام وفي نفس الوقت هو كلام سطحي، لأن الجمال هو أيضاً أثرٌ فنّي حيث إن الفنان يخلقه، ويوجده في هذا العالم الذي يفقده، فهذه الورود ليست جميلة، وأنا الذي أجد وأصف جمالها، وكذلك الرسام فهو يوجد الصورة والشاعر هو الذي يصوّر الوفاء وعدم الوفاء لنا. مَن هو الذي لا يعرف واقعاً أن في العصمة الملكوتية بياضاً صافياً، وفي حركات السَّحَر الهادئة أنهاراً صافية، وفي النسيم بيانَ السحر وفي العين دماءَ الغروب وفي نغمة السماء نغمات الليل وفي الاختلاء منتصف الليل ضياءً لأزقّة الحدائق المظلمة، وفي العيون المتعبة من حرارة الحب وفي التشابك الطاهر للضباب والمياه العميقة، وفي الابتسامة والنظرة وفي القمر وفي الحركات الخفية للهواء الذي يتحرّك على غصون الأشجار البيضاء الطويلة عند الغروب وعند الأفق

(١) يعني أن للفن عملين هما البيان والخلق.

وفي الشفق وفي كل شيء يبعدنا عن أنفسنا تماماً، وفي أعماق هذه الأمور هناك معنى وسرٌ مخفي تحت تلك المعاني. هذه هي حيرة الإنسان الذي يريد أن تكون دنياه بهذا الشكل، فهو الذي يرى نفسه في فاقة وضيق وحيرة في هذا الكوخ، ومع خدعة الفن يبني لنفسه ويضعها في قصر لائق (ونصف إلهي).

ومن هذا المنطلق فإن الفن في جميع أنواعه ومراحله هو انعكاس لخواطر الإنسان المخلوق من التراب للفيض الإلهي (النصف الإلهي) هذا هو جمع لأمرين سرمديين، وهذا هو اجتماع نقيضين، وأن الاضطراب والغمّ والمحبّة وعدم الارتياح وعدم الرضا والآلام لازمهما هكذا ثنوية، حيث إن أحد طرفَيْ بداية هذا الأمر يجتمع من المادة المتعفّنة الغليظة وهذا المستنقع الراكد، وطرفه الآخر، ينبع ويعبر من حدود خلقه وأن الزمان والمكان يتحطمان (الاثنان يشكّلان أربعة جدران ضيّقة ومضطربة)[1] في بعضهما.

---

(١) هنا يوضح مشكلة التاريخ والفن، وهو لماذا يكون الفن دائماً إما تحت تصرّف الدين أو الأشراف؟ إن ارتباط الفن والدين هو ارتباط اللغة المعبّرة الموجودة بينهما وكذلك تحمل الآلام والأفراح المشتركة، وأما تربية ونموّ الفن فهو يكون في أحضان الأشراف، لأن الناس المرفّهين كلما ملكوا من هذه الدنيا فإنهم يشعرون بعدم الاكتفاء (حتى ولو بصورة غير شرعية) وأن الفن هو نتيجة لهذا الإحساس.. أما الناس الفقراء فهم محرومون من الكثير من موارد هذه الدنيا ويسعون لامتلاكها، يرون أن العالم غني وهم يشعرون الفقر وليس فقر العالم بل فقرهم. إن علم=

وهنا تحترق الكلمات بشدّة ويرجع الخيال من وسط الطريق، وأن الفن وهو القلم الموجود في يد الإنسان، الإنسان الذي أُخرِج من الجنة إلى الأرض يسعى لأنْ يصوِّر الأرض بتلك الصورة القبيحة حتى يُظهر أن الجنة كانت هي المكان اللائق له ولا تزال كذلك، وكما كان فيها سابقاً فهو الآن يقضي مدة محكوميته في هذه الأرض التي أُبعد إليها (وهذه الأمور كلها قد قيلت).

أيها الإنسان تفنّن في الشعر وقل ما تشاء، وابعث الروح في تلك الأشياء التي لا تملكها في الطبيعة وتشبّه بالقوة، وأعطِ القوة المستعارة لتلك الأشياء التي لا تملكها، وبلغة الرمز والكناية للكلمات ابعث الحياة في تلك الأشياء التي لا تملك الروح، وهي تبحث عنها، وأَشِرْ بإصبع المسيح المجاز إلى جميع الأشياء التي تجاور الموتى والحمقى والمجانين وامنحهم الحياة والنطق والشعور والمعرفة، وأعطِ الأرض والسماء لون أنسٍ ومعنى وإحساساً وارتياحاً[1] لأن شكل الطبيعة وكل ما

= النفس الطبقاتي وبالمقارنة للآلام الموجودة في أوروبا وأفريقيا وآسيا والاحتياجات المادية للعمال والفلاحين مع الأبعاد الموهومة والأفكار البرجوازية وأصحاب الثروة فإنه يوضح هذه المسألة بصورة جلية.

(١) وهنا يريد أن يُخرج الفن من قواعده وأشكاله الثابتة، لأن وضع الفن وتقيّده هو من الأمور المضحكة حيث إن الفن يوضع للأمور التافهة فقط وأن يعبّر فيه الإنسان عن آلامه وغضبه فقط وضمن آداب ومقررات دقيقة ومرتبة.

يوجد فيها، لا يتلاءم مع طبيعة الإنسان وهي تمثّل عطش واحتياج روح الإنسان.

إن السماء الصافية والنجوم الساطعة وهدوء ليل الشتاء، يمثلان جوّاً لا يوجد فيه ألم، أما الروح المضطربة والسماء الملبّدة المضطربة فهو ما يعشقه الإنسان، لا يريد سماءً زرقاء بل سماءً صفراء، وهذا العالم الذي تكون سماؤه صفراء لا يعلوه اضطراب الإلهام، هو سماء شاحبه مثل «كلكتا»(١) التي منحت للسماء لوناً أصفرَ(٢).

يقول سارتر: إن «بيكاسو» يسعى لصناعة أو رسم علبة من الكبريت، وفي نفس الوقت هناك بعوضة لا يمكنها الخروج من تلك العلبة، لماذا؟ لأن الطبيعة لا يمكنها أن تجمع نقيضين، أما الإنسان فهو لا يتحمّل هذا العجز (ويريد كسره وتحطيمه بنفسه).

إن الصبح الذي يأتي مفاجئةً وبدون أن تشعر به تلك الروح الشاعرية التي تعشقها جميع الكائنات ويحسّ به الوجود هو صبح غير مقبول، إن الإنسان يريد صبحاً يشبه البطل الذي يظهر

---

(١) مدينة هندية. وهي عاصمة ولاية البنغال. وتُعد ميناءً رئيسيًا للتجارة مع شرقي وجنوب شرقي آسيا. وتواجه المدينة مشكلة الانفجار السكاني وتلوّث البيئة والأوبئة حيث تبلغ الكثافة ٤٢،٠٠٠ نسمة/ كم.^{2} وتعاني المدينة من نقص خطير في السكن، حيث يسكن نحو ٣٠٪ من سكانها في الحارات الفقيرة، وينام عشرات الآلاف في الطرقات.

(٢) يشير هنا إلى الفقر الذي يطغى في تلك المناطق وبصورة مجازية عبَّر عنه باللون الأزرق وقد تغطّت السماء بهذا اللون.

بصورة مفاجئة من وراء الأفق ويسحب خنجره ويحطّم ظلام الليل الدامس ويفتح نافذةً حيةً وعيناً تنبع بالزلال ليعقب غداً ذهبياً على أطراف ذلك الليل الملوّث في هذه الصحراء. أما هذا الصبح فليس له طبيعة ووجود، ولكنه ـ أي الفنان ـ يخلقه بهذه الصورة، صبحاً ينزل من حمايل أو من قيود الفلك ليُظهر نقص واحتياج هذه الطبيعة. الطبيعة التي تظهر على ابتسامة امرأة تحمل معنىً كبيراً وشاحباً وممزوجاً بالفم الحنون. إن هذه الابتسامة منحها أو صوّرها «ليوناردو دافنشي»[١] على قطعة من

---

(١) ليوناردو دافينشي (١٤٥٢ - ١٥١٩م): أشهر وأهم فنان إيطالي في عصر النهضة الأوروبية. وتُعد أعماله الفنية «الموناليزا» و«العشاء الأخير» أشهر اللوحات الفنية على الإطلاق، ويُعتقد أنه لم يصل إلى مهارته ودقّته فنّان قط. وكان ليوناردو عبقريًا حقيقيًا تجلّت عبقريته في شتى الصور. فقد درس التشريح وعلم الفلك، والنبات والجيولوجيا وصمّم آلات عديدة لم تخطر على بال المعاصرين له. وقد كان أثر العلماء العرب والمسلمين واضحًا في أعمال دافينشي ومعاصريه خاصة في علمَيْ الفلك والجيولوجيا، وقد اعترف دافينشي بأنه استقى معلوماته عن الأحجار والأحافير من الكتب العظيمة لابن سينا.

وضع ليوناردو عددًا من تصميماته في دفتر كبير لا يزال موجودًا. وكان من بين المخترعات التي سبق بها عصره تصميم الطائرة المروحية وتصميم المنطاد والغواصة. وقد بدأ حياته بدراسة التصوير التشكيلي والنحت مع «أندريا دل فيروكيو» وبقي معه لفترة حتى بعد أن أصبح فنانًا متميزًا. وقد اشتركا معًا خلال هذه الفترة في إنتاج بعض الأعمال الفنية. وقد تميزت الأجزاء التي لوّنها ليوناردو على الأجزاء التي أكملها أستاذه، فقد كانت أطراف الأشكال عند ليوناردو تُخفى بالظلال ولا تكون واضحة وحادّة كما كانت تبدو في أعمال أستاذه.

قماش وعدة غرامات من التراب، وهذا ما كانت تفتقده الطبيعة، إن الرسام الذي صوّر وسوسة أطراف امرأة، وسكوتها المملوء بالنظرات، قد منح الجلال والقداسة الروحانية للمعبد على قطعة من الجصّ المنحوتة، ألم يكن قد قدّم عملاً بديعاً؟

لا يوجد شكّ أن مثل هؤلاء يحتلون منزلةً خاصة بين ما نَصفه بالمستنقع ونفخة روح الإله، والقانون كذلك فبالمقدار الذي يبتعدون فيه عن الأرض! فهم يمتلكون تجلي اضطرابٍ صادق، حيث كلما اقترب الإنسان أكثر من إنسانيته والإنسانية فإن همّه يصبح أكبر.

سيقولون هلّ إن الآثار أقل درجة من الوجود في عالم الفن، لأنها لا تتفّق مع المسيرة المتعالية للفن التي أوضحناها؟ لماذا؟ إنها تتّفق إذا كانت تلك الآثار تقبل الحقيقة، وليس الفضيلة لكل ما هو موجود، وهنا وعلى قول الأصوليين، إن الاختلاف هو على أصل المصداق وليس المفهوم، المرأة التي تزيّن نفسها ولكنها تصبح أكثر قباحةً من واقعها وحقيقتها ليست كالمرأة التي تستعمل الفن فتخلق جمالاً محيِّراً في عينيها وابتسامتها وأطرافها، فهناك إحساس وهدف مشترك، ولكننا أمام مسألة أخرى اسمها التوفيق وعدم التوفيق في استعمال الفن وتعيّن القيم والعلل والعوامل والكيفية حيث كل واحد منهما يمثّل عملاً انتقادياً ومحدودية لخواص تلك الأمور.

لقد كان التاريخ شاهداً على العلاقة والارتباط بين الدين والفن والعرفان، فالفنون هي أعلى مراتب التدّين والعرفان لموجودات هذا العالم، فقد ولد الفن في أحضان الدين والعرفان ومن هذين استمدّ قواه وسيرته، إن كل فنّ هو معراج أو شوقُ ارتقاءٍ وتعالٍ في ذلك الفنان، حيث كلما كان ارتباطه وحمله خفيفاً من هذا الوجود فإن سدرة المنتهى له تكون بعيدة عن الأرض، ويكون إحساسه بالنور والدفء والقداسة وجمال ما وراء الطبيعة أكثر وأكبر ـ إن صورة الواقع الباردة والمملّة تصبح أكثر جمالاً بواسطة تدبير الفن فتتحوّل إلى جمال الحقيقة[١] إن الفن هو خطاب ما وراء الطبيعة وبيان لتلك الأمور التي يجب أن تكون موجودة ولكنها غير موجودة، ولهذا فإن المسألة المعقّدة في أدبنا وثقافتنا الفارسية هي أنه لماذا عارفُنا حينما يظهر إلى الوجود فإنه يرتمي في أحضان الشعر، وبتعبير أفضل، حينما يفتح فمه فإنه يبدأ بالشعر، ويلتقي الاثنان بالآلام والتعبير، إن الاثنين يشكّلان مع بعضهما أجمل وأشْوَق واقعة تأريخ معنوية شرقية ذات معنى عميق. العرفان (عذاب الغربة كان

---

(١) ولهذا فإن الفن كلما ابتعد عن الواقع وعن قبول العقل الشائع يصبح أكثر جمالاً وأغلى قيمةً لأن الواقع هو في متناول اليد، ونهاية العقل والفكر كذلك موجودات هذه الأرض. الأرض التي يشعر الفن دائماً بغربته فيها ولا يخضع لمنطق العقل فيها، لهذا فإن الفن لم يقبل دائماً قيود العقل التي فرضها عليه وأظهر عصيانه لكل رغبات المنطق التي طوّقها به.

سبباً وراء الاضطراب في العرفان) والشعر لم يكونا اللغة التي يتفاهم بهما الناس، ولكن بمساعدة الكلمات الشعرية وبإشاراته الخاصة وعلى قول «إيمي سيزار»[١]: إن صوت اصطدام الموجات الفكرية بساحل الوجود، يسهّلان تحليق الروح المضطربة من الحصار الخانق في هذا المهجر البعيد.

توضيح[٢]

الأمور التي سوف ندرجها هي توضيحات للأستاذ مطهري حين مطالعته لكتاب (كوير) (الصحراء).

١ـ هذا الإنسان الذي عرّفه الدين في فلسفة الخَلق والفلسفات الأخرى التي تشبهها، والتي تمتلك عناصر

---

(١) إيمي سيزار: شاعر وكاتب مسرحي من جزر الهند الغربية يتحدث اللغة الفرنسية. أسس بالاشتراك مع «ليوبولد سنغور» الحركة الإفريقية المسماة «الزنجية». دعم حركات تحرير المستعمرات الفرنسية الإفريقية في الخمسينيات والستينيات، كما كان عضوًا نشطًا في الحزب الشيوعي. وأهم قصائده: «مفكرة عن عودتي إلى موطني الأصلي» (١٩٤٧م). أما أهم مسرحياته فهما: «والكلاب أيضًا كانت صامتة» (١٩٥٦م)؛ «مأساة الملك كريستوف» (١٩٦٤م).
ولد إيمي فيرناند سيزار في جزيرة المارتنيك عام ١٩١٣م، في جزر الهند الغربية، وتلقى تعليمه في باريس.

(٢) هذا التوضيح أُدرج في النسخة الفارسية بعد إدراج شريعتي لمقتطفات من كتابه (كوير) ضمن هذا البحث. ويُلاحظ أن هذه التوضيحات للشهيد مطهري، جاءت على شكل أفكار مُجملة قابلة للتوسيع، ولذا يُمكن الأخذ بها كرؤوس أقلام، لا كتوضيحات شافية وكافية في هذا المقام.

مشتركة وفيها طُرح الإنسان في أعلى مستوياته، على خلاف ما عرّفه المذهب الشيوعي حيث يقول إن الدين هو سبب ذلّة وخمول الإنسان. فالدين يقول إن الإنسان وحده حامل أمانة السماء وشبيه الخالق حيث إن الخالق نفخ فيه من روحه، فأي مذهب وأي مدرسة لأصالة الإنسان أعطت هذه العظمة للإنسان؟

٢ـ يقول أرسطو في «البوييتيكا»[١]: إن الغم هو أحد الأبعاد الأساسية العالية لروح الإنسان: التمثيل الحزين فن إنساني ومتعالي وإلهي وهو مبني على أساس هذا الغم، ولكن المسرحية الفكاهية تُعتبر فنّاً عادياً.

٣ـ يقول «باسكال»[٢]: (جملة لم تكن متعلقة به ولكن تشبه

---

(١) البوييتيكا: كتاب «فن الشعر» لأرسطو، ترجمه ابن رشد عن اليونانية، وشغل نفسه بمصطلحيْ «الكوميديا- والتراجيديا» يقول أرسطو في كتابه فن الشعر إن الشعر محاكاة تثقيفية لا للأشياء ولكن للأفعال، ويعد كتابه أكثر الأعمال النقدية تأثيرًا في العصور القديمة، وما زال حتى الآن ذا أهمية كبيرة.

(٢) بليس باسكال (١٦٢٣ ـ ١٦٦٢م): فيزيائي، ورياضي وفيلسوف فرنسي اشتهر بتجاربه على السوائل في مجال الفيزياء، وبأعماله الخاصة بنظرية الاحتمالات في الرياضيات. استطاع باسكال أن يسهم في إيجاد أسلوب جديد في النثر الفرنسي بمجموعته «الرسائل الريفيّة».
أدَّت أعمال باسكال المهمة في مجال ضغط السوائل إلى إيجاد المبدأ المسمّى قانون باسكال، الذي ظهر خلال الخمسينيات من القرن السابع عشر الميلادي. وينص هذا المبدأ على أن السوائل الموجودة في=

قوله) قصبة صغيرة كافية لقتل الإنسان، ولكن إذا اجتمع العالم كله على قتله فإن المقتول سوف يبقى أفضل من القاتل. لأن قاتله (العالم كله) لا يعي عمله ولا يدري أنه يقتل، لذا فإن عمله ليس له أي قيمة، أما الإنسان المقتول فإنه يدرك ويعرف أنه مقتول وأن جميع القيم تأتي بعد المعرفة، انظر جيداً لإحساسات الآخرين وكذلك إحساساتك أنت وسرّ مع الوجود بإحساساتك، وفي أي مكان توقفتْ الطبيعة وتوقف علمك فيمكنك أن تقف، ولكن الإحساس لا يفكر بحدود الوجود، فهو في مسير دائم

= الأوعية تنقل ضغوطًا متساوية في كافة الجهات، كما يوضح العمليات التي تقوم بها ضاغطات الهواء، والمضخات الفراغية، والرافعات الهيدروليكية، ورافعات السيارات، والمضاغط.

ساعدت تجارب باسكال على إثبات أن للهواء وزناً، وأن ضغط الهواء يمكن أن ينتج فراغًا، وبذلك أزال شكوك العلماء في ذلك الوقت في إمكان وجود الفراغ.. وُلد باسكال في مدينة كلير مونت ـ فيراند بفرنسا. وقد أظهر نبوغا في الرياضيات منذ أن كان طفلاً. واشتغل في حركة دينية تسمى الجانسينية، وفي أواخر عام ١٦٥٤م دخل ديرًا من أديرة هذه الجماعة في مدينة بورت ـ رويال. وقد اتهمت المنظمة اليسوعية الجانسينيين بالبدعة، وأدانت قائدهم أنطوني آرنولد. وردًا على هذا الاتهام قام باسكال فورًا بنشر ١٨ كتيبًا ساخرًا سميت الرسائل الريفية، وقد لاقت شعبية عظيمة في عامي ١٦٥٦ و١٦٥٧م.

ظل باسكال يدافع منذ عام ١٦٥٨م وحتى وفاته عن عقيدته. وقد وُجدت بعض أجزاء من عمله هذا الذي لم يكن قد اكتمل في ذلك الوقت بعد وفاته، وطبع باسم «بنسيز». ويعبر هذا العمل عن إيمان باسكال بأن هناك حدودًا للحقائق التي يمكن أن يدركها العقل، وأن الإيمان من القلب بالرسالة المسيحية هو المرشد الرئيسي إلى الحقائق.

وحدوده غير متناهية، فلا يمكن في أي وقت أن نوقف الإحساس والعقل عند حدٍ من الحدود فهما يفكّران ويتعدّيان إلى ما وراء الطبيعة، إنها الذات الإنسانية التي تكون أكبر من الوجود[١].

٤ـ إن الدنيا في نظر الإنسان لا تمثّل إلا قشوراً، فالأنبياء قالوا هكذا وسارتر يقول أيضاً: «هذه الأرض والسماء يمثلان أمراً أحمق»، وقصدي من الدنيا ليست هي الحياة بشكلها الطبيعي، إن حياة الإنسان اليومية تمثّل حياة الإنسان وهو يعبد هذه الحياة وجميع القيم، القيم التي تتعلّق به وإنَّ أعلى مستوى تطلعاته وتعلّقه لا يتعدّى طرف أنفه، والناس عَبَدة المادة، والدنيا عندهم هي هذه الدنيا الزائلة والقريبة.

٥ـ يقول: الإنسان صاحب (أنا) حيث يشعر أنه هو هو فقط وبقية الناس تابعين له، وكلّما تقدّم ونَمَى فكره فإنه يضع هذه الـ (أنا) الكاذبة جانباً وهذا بالضبط يُشبه الفضلات التي تُجمع في كيس وتُطرح جانباً، فهذه المجموعة من الـ (أنا) تذهب خارجاً، ومن ثم يصل الإنسان إلى تلك النفس المحضة التي لا تخاف من أي خطر ولا تنجذب وتخضع لأي وسوسةٍ أو تَزَلْزُل، حينها تصبح مرآة الفهم عنده كبيرة.

---

(١) يريد أن يقول إن: «الوعي» جوهرة أسمى من «الوجود».

٦ـ الغربة: وهي تعني أن الإنسان بمقدار معرفته فإنه يحس بالوحدة يقول «كيركغارد»[١]: إن الإنسان رُمي به على قارعة الطريق، وهذا هو إحساس الغربة. انظر إلى كتاب (الجوع والعطش)، الإنسان الذي نشاهده إنساناً مادياً ولكنه يقول أنا أحسّ بأنني غير موجود هنا، وإذا سألت من أين! فأنا لا أدري، ولكنني أشعر أن هذا ليس مكاني، وإذا سعيت وحاولت أن أخرج من هذا المكان، إلى أين يجب أن أذهب! لذا فأنا وعلى هذا الأساس الموجود فيه أُكمل حياتي، ولكنني أحس وأشعر أن هذا المكان ليس مكاني، بمعنى أن جميع أبعادي وكياني لا يتلاءم مع هذه الطبيعة المادية، لأن الإنسان عالِم بذاته والطبيعة غير عالمة بذاتها، إن الثنوية والوحدة والغربة يوجّهان الإنسان

---

(١) سورين أوبي كيركيغارد (١٨١٣ - ١٨٥٥م). فيلسوف ومفكر ديني دنماركي، يُعد أحد المؤسسين لمذهب الوجودية. وكان لآرائه الدينية وفلسفته وأدبياته أثر ملموس على بعض النصارى. حفلت كتبه العديدة بتفسير معنى الإيمان الديني النصراني. وعلى وجه الخصوص كان مهتمًا بالإجابة عن السؤال: ماذا يعني أن تكون نصرانيًا حقًا؟.
أصبح كيركيجارد مقتنعاً بأن كثيرًا من النَّصارى يعتنقون النصرانية بطريقة صورية فقط، والذين يعتبرون أنفسهم نصارى لا يمتلكون الإيمان المطلوب في الديانة النصرانية. وكثيرًا ما هاجم الكنيسة اللوثرية بالدنمارك قائلاً بأن أعضاءها لا يُعتبرون نصارى.
عاش كيركيجارد معظم حياته تقريبًا في كوبنهاجن. ودرس في جامعتها. وكان مشغولاً بكتاباته لدرجة أنه كان نادرًا ما يدعو أحدًا إلى منزله، ولكن كانت له جولات يتحدث فيها إلى أي شخص.

على هذه الأرض، وهذا هو ما يعتقد به الأنبياء والعرفاء. وحتى الأشخاص من المفكرين الكبار مثل «كامو» و«سارتر» يعتقدون بهذا الأمر، إن الاختلاف هنا هو، هل يوجد مكان آخر أم لا؟ كل ما هو موجود فهو غير كافٍ للإنسان، الإنسان صاحب الفكر الكبير والذي لا يوجد عنده شك، أما الإنسان الذي تكون حاجاته بقدر أحد أصابعه ويصبح معزولاً مرتوياً بقطرة واحدة فإن الأرض كافية له وقد تكون كثيرة بالنسبة إليه.

٧ـ المقصود من الطبيعة، هي هذه المحسوسات التي نشاهدها.

٨ـ الإنسان نفسه يرى أنه هو هذا الموجود من هذا الجنس، وهذه (النفس) تعني هذا الموجود، كما هو غير ذلك (أنا المطلق)، غير ما يراه بوذا (أتْمان)[١]، وكما يراه هيغل (الفكر المطلق)، وكما يصفه القرآن بالفطرة.

٩ـ عدم حضور الإنسان نفسه (عدم إرادة الإنسان) وحسب قول الشاعر حافظ[٢] «إن الإرادة الأزلية أوجدتنا بدون حضورنا»، هذا القسم أو الجزء الطبيعي من الإنسان (حَمَأ مَسْنون) أوْجَدَتْه بدون أن يكون له رأي أو إرادة.

---

(١) اتمان: في نظرية بودا يعني شيء مطلق وغير منتهي (المترجم).

(٢) حافظ الشيرازي (؟ -١٣٨٩م): الاسم الشعري للشاعر الفارسي محمد شمس الدين حافظ. أهم ما أنتجه «الديوان». وهو مجموعة شعرية تتألف من ٧٠٠ قصيدة. كتب القصائد الغنائية والرباعيات. يُسمّي أهل فارس (إيران) الشاعر حافظ «باللسان غير المرئي» بسبب جمال وروعة قصائده. فهم يرون في قصائده أغنيات حب.. وُلد حافظ في شيراز بإيران.

١٠ـ إن جميع الأدعية والصلاة، والتي جاءت على أجمل صورة في شعر الأناشيد، لا تزال تحظى بالتقدير والتقديس، وحتى تلك الأشعار التي قيلت في معابد أصنام آشور وبابل أو مصر القديمة. وهذا يصوِّر لنا فطرة الإنسان، حتى لو كان الدينُ دينَ عبادة الأصنام (عبادة الأصنام بالنسبة للبشر هو اشتباه فكري، أما الشعور الذي يجذب الإنسان لذلك الأمر فهو الإحساس والشعور الديني العرفاني). نحن نرى حينما يذهب آشور إلى معابد «لاغاش»[1] ويرفع أصنام ذلك المعبد عالياً ويضعها في المعبد المخصّص لها، فإن أحد شعراء المعبد الذي لم يكن اسمه معلوماً (ولكن الإنسان إلى حدٍ ما يشعر بالارتباط الروحي معه) يضع رأسه على جانب المعبد ويذهب عميقاً في همٍّ معبوده ويبكي بحرقة وألمٍ شديدين، فيضع إنسان اليوم، واقعاً، في حيرة من أمره. ومَن أبيات تلك الأشعار وتلك الأدعية نرى أن الملحّنين اليوم صاغوا ولحّنوا ألحاناً موسيقية وآثاراً أخرى، وخاصةً من الناحية الفلسفية فإن هناك تحاليلَ عميقة ومراجع كبيرة تستند إلى تلك الأشعار، وتلك الأشعار مع اشتباهاتها وأخطائها! تحمل تجلّياً روحياً عالياً.

١١ـ ماذا ولّد هذا الإحساس بالغربة والوحدة؟ لقد ولّد ضده، أي أطروحة معاكسة له!.

(١) لاكاش: أو «لاجاش»، اسم مدينة سومرية في جنوب العراق.

١٢ـ حينما يشعر الإنسان أنه في هذا العالم غريب ووحيد فإنه وبذاته يشعر بالارتباط بواحد أو بآخر ولكن «ليس هنا» ويحسّ ويشعر بوجود وطن له ولكن ليس هنا وهذا الشعور هو شعور باطني. وهذا هو عكس العمل الطبيعي لشعور الإنسان بالغربة والوحدة بالنسبة لعالم جامد وتحت سماء تتراءى الغربة تحتها، فهو يشعر بأنه لم يُخلَق لهذا العالم، وهو موجود هنا، ولكن لا يدري أين هو الآن!.

١٣ـ ثنوية الوجود والإنسانية، حيث إن الإنسان ومنذ بدايته، قسّم الدنيا وجميع الموجودات إلى رديء وجيّد وجميل وقبيح.

١٤ـ القلق الديني، وعدم الارتياح الدائم، وكأن الإنسان قد فقد شيئاً ويبحث عنه.

١٥ـ إلى هناك، ولكن أين؟ هناك (لا ندري أين)، وهناك (ليس هنا)، فحينما نعرف أن هنا ليس مكاننا، ولا يوجد تناسب بيننا وبين احتياجاتنا وتطلعاتنا وأفكارنا ومحبتنا، فهذه الأمور هي بنفسها تخلق عندنا نوعاً من الغربة وعدم الاستقرار والاضطراب وهي دائماً تردّد فينا كلمة (هناك) التي تجذب وتستحوذ على روحنا.

١٦ـ ذلك الوطن الذي لا نعرف ما هو.

١٧ـ نحن في هذا المجال نطالع وندرس حتى أكثر الناس بدويةً وتأخراً.

١٨ـ هذه كلها غير واضحة، ولكن جهتها تكون ثابتة في جميع الأديان، لهذا يوجد «هنا» فرق، أما في ذلك الأمر أي «هناك» وليس «هنا»، فالجميع متساوون.

١٩ـ انظر إلى قصة إبراهيم عليه السلام وكذلك قصة البشر.

٢٠ـ أحد خصائص هنا (هذا العالم).

٢١ـ بمعنى أن الشمس والقمر وكذلك السماء والنار، فإنها بالنسبة للفكر البدوي هي أمور ما وراء المادة وما وراء الطبيعة، فهذه الشعلة من النار وبلحظة سريعة تصبح خافتة، وبصورة مفاجئة تُحذف من الوجود، ففي هذه الشعلة رسالة ولكن لا ندري من أين يجب أن تكون، فيها إشارة من ذلك العالم ولكن لا توجد، كانت، هناك إشارة. لذا فإنهم يركعون لها ويعبدونها. هل أن عامل الخوف هو الأساس في الدين؟ الخوف، كم جعل الإنسان صغيراً، فقد جعل الإنسان وعلى طول التاريخ وفي أعلى تجليات حبّه وآماله وروحه إنساناً خائفاً وذليلاً. وإذا كان الخوف هو العامل الأساس في الدين فيجب أن تكون الأصنام مخيفة وكبيرة لا أن تكون صغيرة وظريفة وجميلة حيث إن الإنسان يعتبرها شيئاً مقدساً فهي تمثّل روح وجمال المحبة والعرفان والشعور بما وراء العقل الإنساني ولا يعتبرها مصدر

خوفٍ وذلّة، وإذا كان كذلك! فيجب أن يعبد الجمل والبقرة والنمر والجبل وأمثالها.

٢٢ـ هذا هو التصوّر ولأجل هذا فإن الإنسان يسجد بعشق وحاجة إليها.

٢٣ـ إن الناس مختلفون في أفكارهم وأجوبتهم أما همّهم فهو واحد والفطرة مصدرها واحد.

٢٤ـ إن الأبطال السومريين الذين عاشوا قبل ٦٠٠٠ سنة كانوا أبطالاً كباراً حيث إن الأرض كانت مروضة لقدرتهم وقوّتهم. أما تحت سماء سومر فإن الإنسان قبل ٦٠٠٠ سنة كان يصرخ من غربته وزواله ووحدته في هذا العالم، فكان يذرف الدموع ويتنفّس الصعداء على هذه الأرض. إن آهات الغربة لهذا البطل السومري الكبير (الذي يشبه رستم[1] فهو رستم تماماً ولكنه ليس هو) هي آهات عميقة لإنسان كبير ومتعال ومفكّر. إنه تجلّي لمثل هذا الشيء(ملحمة غلغامش ترجمة السيد شاملو).

٢٥ـ في منطقة جنوب ما بين النهرين.

٢٦ـ اختلاف هؤلاء في أجوبتهم التي يعطونها لهذا الحزن وهذا الاضطراب.

٢٧ـ حضرة الأمير علي عليه السلام في خطبته تلك التي يصف بها المؤمنين، فإن إحدى خصائص المؤمن هي الحزن، والحزن

(١) أحد أبطال الشاهنامة للفردوسي وستأتي ترجمته

بهذا المعنى، عدم الغمّ والضجر (إن الناس الذين يصبحون في غم ويتضجّرون دائماً ويحرصون على هذه الدنيا فإنهم أناس ماديون) إن غمّ الإنسان يجب أن يكون أكبر من تفكيره في الدنيا، وليس الذي يحمل غماً لأبسط الضربات وأهْوَنها.

٢٨ـ يقول أرسطو في «البوييتيكا» (فن الشعر)، إن الفن على قسمين، قسم فكاهي وآخر حزين، فالفن الفكاهي فن بسيط وعلاقته تكون مع البسطاء، أما الفن الحزين فهو الفن المتعالي للروح الإنسانية، والفن الحزين هو الذي يكون أساسه الغمّ، أما الغم الذي تكون فيه الآلام بسيطة فيُعتبر من ضمن الفن الفكاهي. في قصص «صادق هدايت»[1] نراه يستعرض

---

(١) صادق هدايت (٩٠٣ - ١٩٥١م): كاتب إيراني أسهم في فتح الأدب الإيراني الحديث على المؤثرات الأجنبية.
هو ابن إحدى أسر الأشراف الإيرانية الغنية. أُرسل في بعثة إلى فرنسا عام ١٩٢١م وعاد عام ١٩٣٠م، وعمل في البداية في القطاع المصرفي ثم سافر إلى الهند حيث تعلم اللغة البهلوية هناك ونشر روايته المعروفة «البومة العمياء» لأول مرة هناك، وقد حققت نفس الرواية شهرة واسعة في إيران حيث تُعد أبرز أعماله، وقد ترجمت إلى العديد من لغات العالم وكانت سببًا في رواج شهرته خارج إيران. وفي هذه الرواية يتضح أثر «فرانز كافكا» برؤيته السوداوية، وكان «هدايت» قد ترجم بعض أعمال «كافكا» إلى الفارسية.
لصادق هدايت اهتمام بالقصة القصيرة وبالتراث الفلكلوري الإيراني. كما اهتم بدراسة تاريخ إيران ولغتها، وقد أمضى سنة كاملة في مدينة بومباي بالهند لدراسة الديانة الزرادشتية في محيط اجتماعي ما يزال يعتنقها.
في عام ١٩٥١م رحل «هدايت» تحت وطأة يأس عارم إلى باريس وانتحر هناك.

شخصيات يكون همّها هو الهمّ الذي يشعر به هؤلاء الناس، فهو يجلس في غرفة ويفكّر بهذا وذاك.

٢٩ـ الشاعر «ملا الرومي» لديه نظرية عميقة، يقول: لماذا هؤلاء يبحثون عن الخمور والمُسكر العمدي؟ لأنه لا توجد عندهم وسيلة للفرار والنجاة، ويهربون من الحرية والاختيار، وبدون معرفة يلوذون إلى ما يخدّرهم ويجعلهم لا يشعرون بالمسؤولية والجواب. يقول «ألكسيس كارل»: النزهة والهروب من المسؤولية مستنقع لأولئك الذين لا يمتلكون هدفاً في الحياة.

٣٠ـ الإنسان يرى نفسه ضائعاً في هذا العالم، وفي هذا العالم المادي النسبي يشعر بالغربة، فمن غربة الوطن هذه ومن هذه الظواهر المادية تأتي فكرة المطلق والمتعالي في ذهنه، فتولّد عنه رغبة وانجذاباً لذلك العالم الذي لا يدري أين هو ولكنه يعلم أنه ليس في هذا العالم، فمن هذه الغربة يتولّد ويوجد عنده السعي وأمل الفرار والنجاة، وكذلك الاضطراب وعدم الراحة ومن هذا الاضطراب تتولّد عنده تجلّيات عالية وغير مادية، والتي كانت ترافق الإنسان دائماً.

إن هذه التجليات هي، الرجوع إلى الخالق، والسير إلى المطلق، بمعنى أن الإنسان خُلق من مادة ويرجع إلى روحانيته.

إن هذه الرسالة الفنية والتي هي اليوم بيد الإنسان

البرجوازي على شكل وسيلة تخديرٍ وخداع وفساد، يستعملها ضد الإنسان. إن غربة هذه الأرض هي أساس الدين والعرفان وهي واحدة في داخل الإنسان، وفقط أحياناً تظهر مختلفة في ظاهرها على مدى التاريخ.

إن الإنسان يريد أن يمتلك خاطرة عن ذلك العالم ويريدها أن تكون في هذا العالم وهو يمتلك فكرة عن المجتمع المثالي، فهو يضيف عليها ويتخيّلها، وهذه هي رسالة الفن والتي لا يمكن أن تكون موجودة في أي وقت من الأوقات، لذا، فمن الممكن أن يكون الفن خير وسيلة للتعبير عن تلك الفكرة التي لا يمكن أن توجد في هذا العالم.

ما هو السجن؟ السجن هو الوضع الموجود، الوجود في السجن هو هذا الوضع الذي نحن فيه.

الدرس الرابع

إن أحد الأسس المهمة لهذا الدرس، والذي كان يتمناه الجميع ويرغبون به الآن، هو طرح الأسئلة والانتقادات وسماع الأجوبة عن تلك الأسئلة، ولكن وللأسف هناك بعض الأسباب القائمة منعتني من إجراء هذا البرنامج.

حول الدروس التي أعطيها هناك أسئلة تدور في أذهانكم أيها الشباب، وكنت أتمنى أن أجيب عنها وأن تسمعوها، ويا حبّذا لو تعبرون عن ذلك، فهذا يعطي المدرّس حيوية وفاعلية، أما بدون طرح الأسئلة والانتقادات فلا يمكن أن نطمئن لبقاء حيوية الدرس.

لهذا أرغب أكثر مما تتصوّرون أن تكون فاتحة بحثي تبدأ بالبحث والانتقاد ومن ثم أصل إلى لبّ الموضوع.

أردت أن يكون الموضوع هكذا ولكن للأسف لم نستطعْ وذلك لوجود بعض الأسباب.

١ـ لم أكن أتوقّع أن يكون، من حسن حظي، أن يصل نصاب الصف وعدد الطلاب أكثر من العدد المتوقع، وهذا الزخم والعدد الكبير من الحضور لن يعطينا فرصة للانتقادات وطرح الأسئلة.

٢ـ في الجلسات السابقة صرفنا معظم الوقت في طرح وبحث أفكاري حول المواضيع، وهذا مما لا يتيح لنا فرصة طرح الانتقادات والأسئلة.

وللوصول إلى مسألة طرح الأسئلة التي ترغبون في طرحها، سوف أعطيكم فرصة بعد كل درس، بأن أجلس في قاعة الحسينية لأستقبل انتقاداتكم وأسئلتكم وسوف تحصلون على الوقت الكافي لطرح ما يدور في أذهانكم. أيها السيدات والسادة، إن طرح الأسئلة سيكون بصورة غير مقيدة ولكنني ملتزم أن أجيب على تلك الأسئلة التي تخصّ المواضيع التي طرحتها، وهنا فإن شرطي هذا سوف يقيّدكم أيضاً وسوف تصبح الأسئلة حول المواضيع التي طُرحت في هذا الصف فقط.

بداية الأديان في فترة الحضارة البشرية:

قبلاً، طرحت هذا الموضوع حول الأديان الابتدائية، وعلى أساس أنها أديان أولية وأصول مشتركة لجميع الأديان. وصلنا إلى الدين وإلى هذا السؤال.

ما هو الدين؟ وقد طرحنا الأجوبة وتوصّلنا إلى نوع من المعرفة عنها.

لقد كان طرح الأسئلة بتلك الصورة والجواب عليها بحسب قابليتي أنا. هناك مَن يقول إنني لم أطرح جميع الأمور المتعلقة بالدين، ذلك لأنني أعتقد أن العالِم والفيزيائي والطبيب والكيميائي يستطيعون أن يطرحوا مسائلهم، وهذا ليس عملي فلا أستطيع طرحها. ولكن ضمن حدود معيّنة لعملي وفي طريقة خاصة استعرضت بحث الدين، وكان طرحاً جديداً واستنتاجاً جديداً من بين استنتاجات كثيرة كانت مطروحة أو من الممكن أن تكون.

إن البشرية تدخل مرحلة حضارية كبيرة وجديدة، وكذلك فإن الدين يأخذ تكامله في فكر الإنسان والبشرية، وكذلك فإن المفهوم الذي يأخذه الإنسان اليوم عن الدين مفهوم متكامل، وبأشكال مختلفة يبني الأديان الحية الكبرى في تاريخ البشرية.

أديان الصين والهند:

نبدأ من الصين التي تُعتبر أديانها من أكبر وأقدم وأعمق الأديان، وكذلك تُعتبر الصين من أهم الأماكن وأقدمها من حيث الانتماء الديني والإحساس المذهبي إلى جوار الهند

(تُعتبر الهند متحفاً للأديان الإنسانية وتُعتبر مركزَ أهم الأماكن العرفانية على طول التاريخ، حيث إنها تركت تأثيراً عميقاً في جميع الأديان وحتى في المدارس المادية الأوروبية اليوم حيث تظهر آثارها واضحة، وإن أكثر الشباب اليوم مع هذا التمرّد على الأوضاع في الغرب يتأثرون بالعرفان الهندي).

هذه كانت مقدمة لمعرفة الهند وإن شاء الله قبل حلول العطلة النهائية نكون قد انتهينا من موضوع الهند. وليس فقط ننتهي من معرفة الإحساسات الدينية عند الإنسان الهندي وإنما معرفة أقدم وأشمل وأول ثقافة دينية بشرية.

إن أكبر رسالة للهند على طول التأريخ هو إظهار ونشر الإحساس العرفاني الذي يُعتبر سبباً لتقدُّم جميع الحضارات والمجتمعات والثقافات والفنون في السابق، واليوم أيضاً تُعتبر الثقافة الهندية مصدراً للنبوغ الديني. ومعرفة الهند في الوقت نفسه تُعتبر مقدمة لمعرفة الثقافة والحضارة الإسلامية في القرنين الثاني والثالث وما بعدهما وخاصة في القرن الخامس والسادس والسابع الهجري، فإنها أخذت من الثقافة الهندية، وهنا حينما نقول التصوّف والعرفان الإسلامي ـ فهذا لا يعني الدين الإسلامي ـ بل المقصود منه الثقافة والتاريخ والحضارة الإسلامية. فخلال القرون الوسطى وهي القرون

الزاهية والعظيمة والغنية بالثقافة والحضارة الإسلامية، من الواضح والمعروف أنها تُدين للثقافة العرفانية الهندية. هذا وإن لم يكن هو بذاته، فإنه بصورة مباشرة أو غير مباشرة متأثر بالثقافة العرفانية الصينية وهذا ما سوف أشير له.

إن جميع الثقافات والحضارات والأديان البشرية وبصورة عامة الروح الثقافية والمعنوية للإنسان في فترة الحضارة يمكن أن نقسّمها إلى قسمين. وهذان القسمان يمتلكان وجوهاً مشتركة عديدة، ولكن هناك مشخّصات جعلت كل واحد منهما يختلف عن الآخر، وعلى الرغم من اختلاف الثقافات والفنون والأفكار الفلسفية والاجتماعية فهناك وجوه اشتراك، وفي نفس الوقت هناك وجوه افتراق أيضاً.

من الأبحاث الكثيرة التي هي مورد بحث اليوم في العلوم الإنسانية في أوروبا هو اختلاف فكر هذا القطب عن القطب الآخر، وكذلك تقسيم الثقافات والحضارات والأديان والفنون والأنظمة إلى جهتين: شرقي وغربي.

إن هذا التقسيم في الحضارات والثقافات والأديان والأنظمة الاجتماعية والحقوقية إلى شرقي وغربي، ناتج عن تجلّي الروح والفكر الإنساني. لذا يجب أن نقول: الروح والفكر الشرقي، والروح والفكر الغربي.

وحينما نقول الروح والفكر الغربي فإن المقصود من هذا الاصطلاح، الثقافة والأديان والأنظمة اليونانية والاجتماعية والفن اليوناني، ومن ثم الرومي الذي يُعتبر وارثَ الفكر اليوناني.

الروح والفكر الغربي:

إن اليونان ومنذ القرن الخامس قبل الميلاد أصبحت وارثة للحضارة والثقافة الفلسفية والاجتماعية والفنية العالية، ونحن نعيش الثقافة وعلوم الأديان الغربية، وإلى حدٍّ كبير فإن الشرق وقع تحت تأثير تلك الأمور، إن هذه الثقافة والحضارة اليونانية وصلت إلى قمّتها خلال القرن الخامس والرابع والثالث قبل الميلاد، وقد وصلت إلى عظمتها بوجود سقراط وأفلاطون وأرسطو والفيزيائيين، ومن ثم تدنّى أمرها ووصلت إلى الحضيض وأصبحت مورد انجذاب للقدرة الاجتماعية الرومانية وأمبراطوريتها العظيمة.

لقد اضمحلّ المجتمع اليوناني في الأمبراطورية الرومانية، لكن الفكر والثقافة اليونانية أصبحت مورد بناء الفكر والثقافة الرومانية، وصار الرومانيون وَرَثة اليونانيين في استمرار وإدامة الرسالة الثقافية والمعنوية اليونانية. إن روما القديمة وصلت إلى عظمتها بواسطة الفكر والثقافة اليونانية

ومن هذا التعالي والعظمة بدأت بالسقوط والتهاوي بعد هجوم البرابرة عليها. ومن ثم الدين المسيحي الشرقي الذي سخّر الامبراطورية، ومن ثم بدأت القرون الوسطى.

إن القرون الوسطى في أوروبا بدأت من القرنين الرابع والخامس الميلادي وحتى القرن الخامس عشر، أي استمرّت عشرة قرون، وهذه الفترة تعتبر فترة تسلّط الثقافة والروح الدينية الشرقية حيث إن المسيحية بدأت من الشرق (فلسطين) ومن ثم بدأت بالسيطرة على الغرب وأوقفت التكامل الروحي الثقافي اليوناني الرومي، يعني الغربي.

إن بداية العصر الجديد هي نهاية القرون الوسطى، وهذه النهضة بدأت خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلادي، وكان هدفها هو الرجوع إلى العصر اليوناني والرومي القديم، بمعنى إلغاء التسلّط الثقافي الشرقي وإحياء الروح الغربية الميتة ومحاولة ربط الغرب اليوم بالغرب القديم أي بالعصر الذهبي اليوناني والرومي القديم. إذاً فمَهَمّة العصر الجديد هي مقاومة المد الشرقي والجسر الذي يربط القرون الوسطى وعصر التسلط الشرقي على الغرب، وكذلك ربط الغرب اليوم مع الغرب ما قبل الميلاد.

انتصر العصر الحديث أو النهضة الجديدة، ومنذ القرن

الخامس والسادس عشر وبالخصوص خلال القرن السابع عشر بدأت المؤسسات تُبنى على أساس المؤسسات القديمة الروحية اليونانية والرومية.

إن تكامل الروح الثقافية اليونانية والرومانية توقّفت حينما تسلّط الشرق عليها، ومرة أخرى تحرّكت هذه الروح مع النهضة الجديدة، وخلال القرون الثلاثة الأخيرة ارتبطت أوروبا بالألفية الذهبية اليونانية الرومانية.

لذا فإن الفكر الغربي يعني الفكر اليوناني قبل الميلاد، روما القديمة، وأوروبا بعد العصر الحديث.

الروح والفكر الشرقي:

إن الروح والفكر الشرقي يجب أن يؤخذ بمعناه الاصطلاحي والتأريخي، وهناك بعض المثقفين والباحثين يأخذون المعنى الجغرافي بالمعنى التأريخي والثقافي ولا يفرّقون بين تلك المعاني، وهنا وقعوا في اشتباه.

من الناحية الجغرافية إن كلمة شرق، تعني الصين والهند وأندونيسا واليابان وإيران والشرق الأوسط وآسيا الصغرى وغيرها، أما من الناحية الثقافية والتأريخية فالمقصود من الشرق، الروح الشرقية والفن الشرقي وبمعنى خاص، الهند والصين القديمة.

أما إيران والعرب، الساميون واليهود وآسيا الصغرى وأمثالها، فهي تقع في الشرق من الناحية الجغرافية، فلا يمكن أن يكونوا مظهراً للروح الشرقية بمعناها الثقافي والاصطلاحي.

وعلى خلاف ما نعتقده نحن والكثير من العلماء، فإن الدين الإسلامي والثقافة والحضارة الإسلامية وجميع الأديان الساميّة وما بين النهرين، لم يتقبلوا الأمور الشرقية بمختلف أشكالها ولم يمتلكوا جميع خصوصيات الروح الشرقية، ويمكن القول وبصورة أدقّ وأكمل أن الحضارة والثقافة الإسلامية تمثِّل تكامل الروح والثقافة لهذه المنطقة أي إيران والعرب وفلسطين ومصر.

تقع هذه المنطقة بين الغرب (الروم واليونان) والشرق وبمعناه الخاص الهند والصين من ناحية الجغرافيا، وكذلك من الناحية الروحية والفكرية والدينية (أي الاتجاه الديني)، وإن الحضارة والثقافة التي تظهر في هذه المنطقة هي بناء جديد للروح الشرقية والغربية. حيث إن الحضارة الإسلامية هي عبارة عن روح الإسلام، حلّت في جسمٍ أو شكل ممزوج من مصالح الحضارة الهندية والصينية ومصالح الحضارة اليونانية والرومانية، لهذا فإن بناء ثقافتنا وحضارتنا في هذه المنطقة من العالم وخلال هذه الفترة التاريخية مزيج من

المصالح الشرقية (الصين والهند) والغربية (اليونان والرومان القديم). فمثلاً، اتجاه التصوّف والعرفان في الحضارة الإسلامية هو اتجاه شرقي بصورة كبيرة، أما حكماؤنا وفلاسفتنا فإنهم يتّجهون بصورة أكثر نحو اليونان، وهذا يُظهر أن روحنا الإسلامية وفكرنا، ما قبل الإسلام، وكذلك جميع الثقافات في هذه المنطقة، واقعة تحت تأثير هذين القطبين.

إن روحنا وفكرنا لا يُعتبران روحاً وفكراً شرقياً مائة في المائة، بالمعنى الشائع والاصطلاح العلمي، وكما يعبّر عنه الأوروبيون بالثقافة والأصول الشرقية، حيث إن الأمر لا يصدُق علينا تماماً، وهذا ما سوف أوضحه في وقت آخر إن شاء الله.

خصوصيات الروح والثقافة الغربية

أولاً: أصالة القدرة:

إن الروح الغربية ومنذ البداية تسعى لكسب القدرة، والمقصود من القدرة[1]، هو مقدار الاستطاعة وقابلية

---

(١) إن كلمة (القدرة) ستتكرّر كثيراً كمصطلح يرتبط بالغرب في هذا الكتاب. لذا نلفت عناية القارئ الكريم إلى التعريف الذي أورده شريعتي كتوضيح للمقصود من كلمة (القدرة): (هو مقدار الاستطاعة وقابلية الإنسان للوصول إلى أهدافه وإشباع غرائزه وتأمين احتياجاته. وبصورة إجمالية قدرة الإنسان على تسخير الطبيعة).

الإنسان للوصول إلى أهدافه وإشباع غرائزه وتأمين احتياجاته، وبصورة إجمالية قدرة الإنسان على تسخير الطبيعة. إذاً فالإنسان الغربي ومنذ بدايته وخلال جميع العصور التأريخية، يسعى لكسب القدرة. وفي الثقافة اليونانية إن كلمة القدرة هي كلمة حيّة جداً، وفي الحضارة الرومانية فإن القدرة والجبر ملازمان لها. وإن أوروبا اليوم وبعد العصر الحديث أو النهضة الحديثة هي عبارة عن بناء عظيم قائم على القدرة. وهذه القدرة معناها أكبر من معنى القدرة المادية بل تعني التسلّط على الطبيعة أي القدرة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية.

إن تقدُّم التكنولوجيا في أوروبا أكثر من الشرق هو أحد نتائج السعي وراء امتلاك القدرة في الحياة، حيث إن الغرب يسعى دائماً للحصول عليها. إن أوروبا وخلال القرون الوسطى (حيث كان هناك تسلّط للروح والثقافة الشرقية) كانت تسعى وراء طلب الحقيقة وهي من خصائص الروح الشرقية، ومن ثم صار الغرب وبعد عصر النهضة يسعى للحصول على القدرة، وهي من خصائص الروح الغربية، ويُعتبر «فرانسيس بيكن» من أهم المفكرين وواضعي أسس الروح والفكر الغربي الجديد، ويقول «بيكن» حول العلم: إنه تجلٍّ واضح لروح القدرة الغربية، ويقول: إن العلم وعلى

طول التاريخ يبحث عن الحقيقة ويريد أن يكشف سر الحياة والكائنات والخالق والعشق، ويريد أن يعرف مستقبل أول موجودٍ وآخر إنسان، يريد أن يعرف ذات الأشياء ويريد أن يدرك ما وراء الظواهر وواقع وحقيقة الأشياء. والواقع أنه لم يصل إلى الحقيقة ولا إلى مسيرته ولا استطاع أن يخدم الإنسان حيث إن اليونان وفي أوج عظمتها العلمية ومع وجود نوابغها البشرية لم تستطع أن تخدم الفقراء والعبيد، فلم تبنِ سدّاً ولم تبنِ أهراماً يخلّد علماءها، وفي الوقت الذي كان يجب عليهم أن يهتموا بالحياة ولوازمها كانوا يبحثون عن الحقيقة ولم يصلوا إليها.

أما اليوم فيجب أن نترك جميع هذه الأمور، والشعار الدائم الذي يقوله العلم والفلسفة، «ما هي الحقيقة»؟ يجب أن نتوقف عنده، ويجب أن نجعل «القدرة» مكان الحقيقة، وأن يكون شعار العلم هو «طلب القدرة».

نرى اليوم أن جميع العلوم تبحث عن القدرة. الفلسفة، والمنطق، والفيزياء، والكيمياء، والرياضيات و... كلّها تبحث عن القدرة، حتى تصل إلى التكنولوجيا والصناعة وتغيير الطبيعة إلى شكل آخر، وتسخّر القوى الطبيعية لخدمة الحياة المادية.

ففي السابق حينما كانوا يدرسون، كانوا يدرسون من أجل

كشف أسرار الطبيعة والكائنات وتأثير النجوم في حياة ومصير الإنسان، وكانوا يعتقدون أنهم بهذا يصلون إلى الحقيقة.

أما الإنسان اليوم، فإنه إذا درس الكواكب السيّارة وسافر إلى الفضاء فإنه لم يطلب بذلك الحقيقة، فهو يأمل أن يحصل على القوة العسكرية والاقتصادية. لهذا فإن أساس وقيمة العلم اليوم هو تبديله إلى كسب القدرة من أجل الحياة. وهذا خلاف التصوّر المطروح، من أن هذا الأمر هو نتيجة للنظام الاقتصادي الفعلي الذي هو من دوافع الروح الغربية التي اكتسبتْ قدرة واضحة اليوم.

أما في الشرق، فلم يكن هذا شعار أيٍّ من العلماء والمفكرين والفلاسفة، فهم لم يقولوا بوجوب تبديل «العلم» إلى «قدرة»، لأن العلم دائماً في المقام السامي والرفيع عندهم. والعلم مولود يمتلك تقوى وروحانية ومعنوية خاصة. لأن العلم والعالِم لا يزالان يمتلكان في أذهاننا قدسية ما وراء الحياة المادية.

أما في أوروبا فالعلم صار بضاعة، حيث يمكن أن تُعيَّن قيمته المادية، وإذا لم يتقبّل العالِم أجوراً فإن هذا لا يعني توهيناً له، بل إنه لم يتقبّل مقدار القيمة ويريد قيمة أكثر أو أكبر من ذلك.

فمثلاً، جامعة السوربون تعلن عن دفعة الخرّيجين فيها وتخصّصاتهم: الفيزياء، الكيمياء، الذرة، علم الاجتماع، علم النفس، وحتى الفلسفة وغيرها، فتضع هذه التخصصات في المَزاد مثلما تضع السيارة وتقيّمها حسب الموديل والشكل والنظام الذي تعمل به. هؤلاء الخرِّيجون العلميّون توضع لهم قيمة أيضاً لجذب المشترين ويبيعونهم إلى الجهات التي تدفع قيمة جيدة، وإذا بقي شخص بدون مُشترٍ! فهذا يعني أنه لا يمتلك قيمة، لماذا؟ لأن الفكر الغربي مبني على الفائدة.

أما في الشرق والفكر الشرقي، كل ما له قيمة، فهو قيمة لم تكن مبنية على القيمة المادية، بل على مقدار التضحية والسابقة.

أصالة القدرة في اليونان لم تكن مهمة، أما في عهد الرومان فوصلت إلى عظمتها. في عصر النهضة الحديثة فإن فرانسيس بيكن يُعطي للقدرة صورةً وشكلاً علمياً، أما أوروبا اليوم فإن شعارها أصبح القدرة، وحتى الروابط الإنسانية اليوم في أوروبا تحمل هذا الشعار. إن أكبر رسالة للغرب هي نشر الحضارة للبشرية والأمم المحرومة منها، وإن الاستعمار يعني تعمير وبناء جميع نقاط المعالم المدمّرة وهذا يتم بواسطة اليد الغربية القوية، وهو تجسيد لقدرة السيطرة الغربية .

نرى وفي كل مكان، سواء في اليونان أو في روما أو في أوروبا اليوم، هناك عبارة واحدة وهي (الفكر الغربي).

ثانياً: أصالة الطبيعة:

إن واحدة من الخصائص البارزة للغرب هو التفكير في الظواهر الطبيعية، فأكثر آلهة اليونانيين والرومانيين تمثّل الظواهر الطبيعية، وبعد الظواهر الطبيعية تأتي وبالتدريج الشخصية الإنسانية والتي تتبدّل إلى آلهة في المثولوجيا اليونانية. إن أول فلسفة في اليونان القديمة أصبحت مدرسة فكرية هي الفلسفة الفيزياوية أو الطبيعية، وهؤلاء أشخاص عاشوا قبل سقراط وأفلاطون وأرسطو، وعندهم مدرسة فلسفية، وكانوا يعتقدون بأصالة الطبيعة.

كان اختلاف الفلاسفة اليونانيين حول هذه المسألة، هل أن أصل الطبيعة هو النار أو الماء، الفيلسوف «طالس» يعتقد أن العالم مكوّن من أعداد، وأما «فيثاغورس»[1] فيعتقد أن

---

(١) فيثاغورس (٥٨٠ق.م؟ - ؟ق.م): فيلسوف يوناني وعالم رياضيات. ذاع صيته بسبب نظريته المشهورة نظرية فيثاغورس، وكانت قواعدها معروفة قبل ذلك.
قرّر فيثاغورس في فلسفته أن الأعداد جوهر كل شيء، وربط بين الأرقام وبين الفضائل والألوان، وأفكار أخرى كثيرة. وذكر أيضًا أن الروح الإنسانية خالدة لا تفنى وأنها تنتقل إلى جسم كائن حي آخر، قد يكون=

العالم معجون مركّب يتألف من عناصر، وأما «جون لوستيك» وتلميذه «ابيكور» فيعتقدان أن الطبيعة مؤلفة من ذرّات، وهذه الذرات الصغيرة غير قابلة للتجزئة. أما الجميع فيبحثون عن المادة الأساسية للطبيعة ويعتقدون أن الطبيعة مخلوقة من عنصر مادي، فالفلاسفة الطبيعيون يختلفون حول المواد، ولكنهم يتّفقون حول الطبيعة المادية للطبيعة.

وفي عرض هذه الأفكار المادية، فإن الشرق يحاول البحث عن الروح والبحث عن أسرار الخليقة، وأن هناك سراً

= في بعض الأوقات حيوانًا ـ وسميت هذه الفكرة تناسخ الأرواح. وقد تجلّت هذه الأفكار في كثير من الديانات القديمة، ولا تزال الاعتقاد السائد لدى كثير من طوائف الهندوس. وربما يكون فيثاغورس قد استقى بعض تلك الآراء خلال أسفاره في الشرق.

اعتقد فيثاغورس أن الأرض كروية وأن الشمس والقمر والكواكب تتحرك وحدها تلقائيًا. أما أتباعه، فقد طوّروا هذه الفكرة بأن الأرض تدور حول نار مركزية، وبذلك يكون هذا الاعتقاد قد سبق نظام «كوبرنيكوس».

ولم يُعرف عن الحياة المبكرة لفيثاغورس سوى القليل. ولكن الدارسين اعتقدوا أنه ولد في جزيرة «ساموس» واستقر في «كروتونا» (إيطاليا) عام ٥٢٩ق.م. وأسس فيها مدرسة الأخوة وسط الحي الأرستقراطي بالمدينة.. وقد ساور الشك جمهور «كروتونا» حول مدرسة الأخوة الفيثاغورية لأن جميع أعضائها كانوا من الطبقة الأرستقراطية، ولذا قتل الشعب معظم أعضائها إبان ثورة سياسية. ولا يعرف المؤرخون إن كان فيثاغورس قد غادر «كروتونا» بعض الوقت قبل اندلاع أعمال العنف ونجى من الموت بعد هروبه أو قتل فيها.

وراء هذه الظواهر الطبيعية، فهناك مجموعة من الأسرار أو سرّ واحد.

لهذا فإن الفكر الطبيعي الذي كان عند اليونانيين والرومان، موجود الآن في الغرب، لهذا فإن أوروبا وفي القرون الجديدة تضع الطبيعة أساساً لتوسّع العلوم، ولهذا فإن اليونان القديمة ولأول مرة في الفكر التحليلي المنطقي للطبيعة بدلاً من أن يبحثوا عن الحقائق الأولية الكبرى، صاروا يبحثون عن العنصر المادي الأولي للطبيعة والعالم.

ثالثاً: أصالة الحياة:

إذا أردنا أن نحّدد اليوم ديناً أو مذهباً للروح الغربية في ثقافتها البرجوازية، حيث يكون هذا المذهب عاملاً مشتركاً بين جميع الأمم الأوروبية ويكون هذا المذهب دينياً أو غير ديني، فنستطيع القول أنه مذهب تقديس الحياة، والمقصود من الحياة هنا، هو إشباع الغرائز المادية والطبيعة الآدمية.

لقد عشت في شقةٍ كان المجاورون لنا فيها من المذهب الكاثوليكي، وكانت تلك العائلة تمتلك أحاسيس دينية وعاطفية وإنسانية شديدة، وكان بعضهم يخدم البعض الآخر. وكانوا يقضون معظم أوقاتهم إلى جانب الأم

والأب، وكانت هذه العائلة تتكوّن من رجل وامرأة وطفلين وأختين.

هذه العائلة تسافر في فصل الصيف إلى البحر، وبقيت أنا وحدي، ومن ثم أرسلوا لي عدداً من الرسائل، وكانوا يكررون عليّ في رسائلهم هذه الأمور بصورة مرتّبة، وهي:

١ـ كل شيء تستعمله حاول إرجاعه إلى مكانه.

٢ـ مجموعة تعليمات في النظام وطريقة الحياة.

٣ـ إن الرجل بعد أيام سوف يعود، ونحن سنبقى هنا، حاول أن تتناول الغذاء معه حتى تقتصدا في المصاريف.

رابعاً أو خامساً: إن أختي التي تبلغ من العمر ١٨ سنة، الطالبة في الجامعة، قد غرقت في البحر، وحاولنا إنقاذها فلم نستطع، وموتها آلمنا، ولكننا سوف نبقى إلى نهاية العطلة، لأن الشمس هنا جميلة جداً والأطفال يحبّونها.

أنا، وبعواطفي وروحي القروية، وقبل هذه الرسالة سمعت بموت تلك البنت، وكان كلّ همي هل أستطيع النظر إلى عيونهم! وماذا أقول! وكيف أقدّم لهم التعازي! وحينما يأتون ويرون أن المنزل خالٍ من البنت كيف سيتحمّلون هذا المنظر!.. كنت أفكر بهذا الأمر، والبنت الثانية كانت تكتب

لي بأن أقتصد في المصاريف مع زوجها، انظُر إلى هذا التفاوت؟

مثلاً، من أوروبا إلى إيران حينما نأتي بواسطة القطار، ترى هناك شاباً مع زوجته في المحطة في حالة الوداع يقبّل أحدهما الآخر، ثم يفترقان، وحينما يفترقان لا ينظر أحدهما خلفه ليرى الآخر، أحدهما يترك المحطة ويذهب، والآخر في القطار يبحث عن الراحة. في إيطاليا، لحظة الوداع ينثرون الورود (على الأقل يكون هذا بين الشباب وبعض الطبقات الخاصة ومع روابط وعلاقات خاصة) والوداع الأخير يستمرّ من خلال نوافذ القطار، ثم ينتهي. وحينما نصل إلى دول أوروبا الشرقية نرى أن البعض في لحظة الوداع يذرف قليلاً من الدموع.

وحينما نصل إلى اسطنبول، نسمع ضجيجاً وبكاءً وأصواتاً مملوءة بالحزن وممزوجة بالبكاء والضحك. هذا الأمر يجذب الانتباه، وأتصور أن شخصاً قد سقط تحت عجلات القطار، وحينما نسأل يقولون، لا.. ليس الأمر هكذا، إنهم عمّال أتراك يذهبون خلال الصيف للعمل في اليونان، والآن رجعوا، وقد استقبلهم أصدقاؤهم وأحباؤهم وجيرانهم وعوائلهم، فهم لم يستطيعوا الانتظار حتى يصل

المسافرون إلى المنزل، لذلك قطعوا مسافة طويلة حتى وصلوا إلى اسطنبول وهم ينتظرون منذ سبع أو ثمان ساعات للملاقاة.

هذه خصائص الروح الشرقية، عاطفة شديدة وعشق بكل هذه القوة، وقد أملك أفضل صورة مؤثرة عن العاطفة الشرقية، هو ذلك المنظر بين يوغسلافيا وتركيا في القطار، وهذا المنظر باقٍ في ذهني، حيث رأيت بعض المسافرين هناك من كبار السن تبلغ أعمارهم بين ٥٥ إلى ٦٠ سنة وقد سألت بعض المسافرين معي: لماذا المسافرون هؤلاء، كلهم من كبار السن؟ قال هؤلاء رجال أتراك يبحثون عن العمل - وأي عمل كان باستطاعتهم إدارته - وحينما وصلوا إلى أوروبا الشرقية والغربية سابقاً اشتغلوا في أعمال مختلفة مثل العمل في المطاعم ونقل الأشياء وغيرها من الأعمال الأخرى، والآن حينما أصبحوا متقاعدين وقبضوا حقوق خدمتهم رجعوا إلى منازلهم.

نرى أن هؤلاء يرجعون إلى منازلهم بعد الأربعين ليطلبوا الراحة في وطنهم، وأحياناً يكون هذا هو هدفهم في الحياة، الرجوع إلى الوطن والموت في مكان تتوفر فيه العاطفة، فهذه هي الروح العاطفية الشرقية. وتلك هي، روح المحاسبة والحسابات الغربية.

فحينما نأخذ شكل الروح الغربية، فلا شكّ أن النظام الاقتصادي يكون مؤثراً فيها، ولكن هذا لا يعني أننا لا ننظر إلى مسألة العواطف الإنسانية مع كل هذه الحسابات التحليلية والعقلية. فالروح تشبه الورد، وإذا أردنا أن نشرح الوردة ونحسب أوراقها بأصابعنا ونأخذ أطوالها وأعراضها فإننا سوف نفقد الوردة، لأنها تموت تحت أيدينا ويذهب كل جمالها، فيجب أن ننظر إليها وهي في صورتها الجميلة الطاهرة، لذا فهناك الكثير من المفاهيم الإنسانية تعطي للحياة إحساساً ومفهوماً للحياة كما في تلك الأمثال.

إن أصالة الحياة، هي أصل التفكّر الغربي، لأن جميع الأبعاد الروحية المختلفة هي وقف للمنتوج أو الإنتاج الجيد.

هناك امرأة عجوز عمرها ثمانية وتسعون عاماً، وأنا أعرفها عندما كانت شابة، وكانت تعيش في طبقة متوسطة، فهي، نتيجة الحرية الجنسية وتوقعاتها الكثيرة وأسباب أخرى بقيت عانساً ولم تتزوج، فالناس أمثال هذه المرأة ينتهون من الناحية الجنسية ويصبحون طيّ النسيان وليس عندهم ذرية ولا أحفاد، يبقون لوحدهم، ويقضون ساعات طويلة جالسين قرب النافذة ينظرون إلى السماء. فهؤلاء يصبحون كباراً ليس لهم

انتظار، ويفقدون الأمل، ويجلسون حَزَانى قرب الشبابيك. الحياة المادية تتوفر لهؤلاء، أما من الناحية الروحية فإن حياتهم مليئة بالهمّ والأحزان، وتلك المرأة وضعها مثل وضع كل الكبار في أوروبا.

مثال آخر، هو أن هناك بقّالاً ليس لديه صديق، وصديقه الوحيد كان كلباً ضعيفاً، وكان الرجل مريضاً، وبعد مدةٍ لم نرَ ذلك الكلب فسألناه عنه فقال لم يعُد موجوداً، إنه قد مات وأصبحت وحدي.

نرى أن الرجل أو المرأة حينما يتقاعدون مع الرفاه الكامل والحياة المؤمّنة، ولكنهم وحدهم وبدون شخص آخر، فإن المؤنس الوحيد الذي يتكلمون معه وينظمون له الشعر، هو كلبهم أو قبر كلبهم.

إذاً فأصالة الحياة عبارة عن انحصار جميع التجلّيات الروحية للإنسان في تأمين مصاريف الإنسان اليومية La Douceur De Vie (طعم الحياة)[١] وعلى قول أحد كبار الشعراء الفرنسيين: إن طعم الحياة هو عبارة عن روح العالم التي نبحث عنها، طعم الحياة، يعني لطف الحياة.

---

(١) كلمة Douceur في اللغة الفرنسية تعني: النعومة أو اللطافة.

رابعاً: النظام:

إن النظام هو أحد الأبعاد اللازمة لتقدُّم الحياة الصناعية والاجتماعية، إن التكنوقراطية والبيروقراطية الغربية نمت بواسطة النظام وهو أحد التجليات المشخّصة والمستقلّة للروح الغربية.

فالإنسان الغربي ومنذ البداية حينما يرى الأشياء فإنه يهتم بنَظْمِها، وهذا النَّظْم يمكن أن يراه مشخّصاً في أصغر الأشياء.

إن أحد الأمور المهمة والجدية في أعمال الأوروبيين وخصوصاً في إيطاليا وبريطانيا وفرنسا، هو تنظيم مائدة طعام الإفطار والغداء وحتى إذا كان الشخص وحده فإنه ينظِّم سفرته، وفي أوروبا حينما تنظر إلى تنظيم السفرة فكأنما هناك نظام لوزارة وحينما تدخل منزلاً وتجد التغيير في السفرة وطاولة الطعام فإنك، تفهم أن شخصاً يريد أن يأتي أو أن شخصاً قد ذهب.

خامساً: أصالة الصرف:

تأتي أصالة الصرف بعد أصالة الحياة، فأصالة الحياة مسألة فلسفية، وأصالة الصرف مسألة اقتصادية أو مسألة

روحية، لأنه من أجل تنظيم تناول الطعام، هناك جمال ولذة، أما في مسألة أصالة المصرف والصرف فهناك رسالة إنسانية.

الفرد الشرقي أحياناً ومن أجل تأمين المصاريف، ورأس مال الشراء نراه يبذل جهداً كبيراً وفكراً طويلاً، والفرد الشرقي يرى هذا مرضاً وهو يحسّ بهذا المرض النفسي، أما الإنسان الغربي فإنه ومن أجل أصالة المصرف يُعلن عن هدفه ويعرف فلسفته في هذا المجال.

إن أصالة المصرف أو فلسفة أصالة المصرف كما هو في لغة علماء الاجتماع والاقتصاد اليوم، بالنسبة للغربي، تكون بمعنى منحه الجنة، وهذا أصبح شعاراً أساسياً للبرجوازية وثقافة التجار الغربيين.

إن تصوّر الأرض كأنها جنة، هو تجلٍّ لهذه الروح الغربية وشعار أساسي للبرجوازي ولثقافة التاجر الغربي. لهذا فإن الإنسان الغربي وبهذا الهدف «زيادة المصرف» و«الأكثر تعلقاً بالمادة» أعطى الأصالة الإنسانية والفلسفية والأخلاقية.

سادساً: الرغبة بتحليل الأشياء بصورة عقلية:

الإنسان الغربي ومنذ البداية يريد أن يعرف الطبيعة، فهو يريد أن يعرف أساس وجذور المسألة، يريد أن يعطي تحليلاً

للإنسان وللروح والأخلاق والمقدسات وسر الخليقة، وكذلك يريد أن يعطي تفسيراً عن نفسه وخالقه. أيضاً يريد أن يعرف العلة والأصل والمنشأ وأن يقدِّم تحليلاً وتجزئة للأمور.

أما الشرقي، فإنه يضع لكل مسألة وأمرٍ إبهاماً أو يعطي له تفسيراً مجملاً ويمرّ عليه بصورة عادية. الرؤية الغربية - وخاصة الرؤية اليونانية - تريد أن تحلّل الأمور الروحية تماماً مثلما تحلّل الأمور المادية .

هذا هو الشرق - ومثلاً هنا في إيران - الشعر عندنا في أرفع مقاماته، أما في «النقد» و«تاريخ الأدب» فلا يوجد لهما مقام يُذكر، عندنا شعر ولكن لا يوجد تعريف للشعر. وهذا على عكس ما هو موجود في اليونان خلال القرنين الرابع والثالث للميلاد، فلا يوجد هناك شعر بالمعنى الواقعي للكلمة، ولكن هناك تعريف للشعر في أدقّ وأعلى مراتبه وهناك تقسيم للشعر وتجزئة وتحليل للأفكار والآثار الشعرية. وهناك كتاب (فن الشعر) لأرسطو، وهذا الكتاب ولمدة ألفين ومائتين أو ثلاثمائة سنة كان مصدراً أساسياً في الفن الكوميدي والتراجيدي وفي الشعر ولا زال موجوداً حتى الآن. أما نحن والذين نملك ذلك الشعر العظيم فلا نملك تعريفاً كاملاً عن الشعر، وإذا كان عندنا تعريف فإننا نرجعه إلى الشِّعر نفسه.

فمثلاً ملك الشعراء «بهار»[١] يقول في تعريف الشعر: ما هو الشعر؟ إنه جواهر في بحر العقل ممزوجاً بابتسامة من شفاه الحب، فهذا قبل أن يكون تعريفاً للشعر فهو شعر أيضاً وشعر جميل. والشاعر القوي المعروف «إخوان اميد»[٢] له تعريف

---

(١) محمد تقي بهار، ولد عام ١٣٠٤هـ (١٨٨٦م)، وتوفي عام ١٣٧٠هـ (١٩٥١م) وكان يلقب بمَلِك الشعراء، إذ يعدّه الإيرانيون كبير شعرائهم في القرون الأخيرة، وقد جمع إلى فصاحة الأقدمين مرونة الإفادة من صور المحدَثين وتعبيراتهم، في سبيل حيوية التصوير وغنى اللغة بما تحتاج إليه من عبارات ومفردات جديدة في الحديث وشئون الحياة. وقد جدّد في الموضوعات كما جدّد في الصور، فعالج تجارب فلسفية واجتماعية وسياسية، وجمع إلى سعة اطلاعه على الأدب الإيراني، تبحراً في معرفة الأدب العربي ولغته قبل الإسلام وبعده. ويدل نتاجه الأدبي وبحوثه أنه كان على علم كذلك باللغة البهلوية القديمة، إلى ما له بعد ذلك من ثقافة غربية، وكانت تجاربه الأليمة الاجتماعية والسياسية موضوع أشعاره، فقد صور في كثير من قصائده كفاحه السياسي والحزبي الذي لقي بسببه صنوف العذاب والتشريد والسجن والمنفى، وكثير من هذه القصائد السياسية قد نُشر في الصحف، ومنها جريدة «نوبهار» التي أسسها في «مشهد» ثم نقلها فيما بعد إلى «طهران» ثم جريدة «إيران الجديدة» (إيران نو) وجريدة «الترقي».. وفي عام ١٣٣٦هـ (١٩١٧م) أنشأ مجلة للجامعة كانت ذات أثر عميق في الأدب والنقد. ومنذ ذلك التاريخ انصرف إلى البحوث والتدريس بكلية آداب طهران، وتحقيق النصوص القديمة.

(٢) مهدي أخوان ثالث «م. أميد»: كانت مفاجأة سقوط حكومة مصدّق التأميمية بالانقلاب الأنكلو ـ الأميركي عام ١٩٥٣، وتأثيرها المخرِّب، من تثبيط الهمم بحيث إنها أصابت المجتمع الإيراني، وبالأخص المثقفين، بالخيبة ودفعتهم إلى اليأس والكآبة، ونرى أثر هذا التحول =

عن الشعر، وهو من أجمل ما قيل في الشعر المعاصر، ولكنه ليس تعريفاً للشعر. فهو يشبِّه الشاعر بالطير الذي يجمع الحبوب في الصباح والذي يأوي إلى الجبال والسهول الخضراء والذي يجلب ما حصل عليه من تلك الحبوب إلى فراخه. والشاعر بنظره، عجوز فقير بائس، منزله بسيط، يستوحي إلهامه من الأفق والنهر والورود وأمثالها، فهذه كلها توقد في داخله شعلةً وحينما يرجع إلى منزله فإن هذه الشعلة تتوهّج وتكبر وتظهر على الورق شعراً يدوّنه الشاعر.

إن العقلية اليونانية، عقلية منطقية. حتى الأخلاق يجعلون لها تقسيماً وجداول مثل الرياضيات. يقول أفلاطون: إن

= والتطور السياسي في الأدب القصصي والشعري الإيرانيين. ويعتبر مهدي أخوان ثالث (١٩٢٨ ـ ١٩٩٠) أبرز ممثلي شعراء اليأس في هذه الفترة. ((يقول: فالجو كئيب، والأبواب موصدة، والرؤوس في الياقات، والأيدي مخفية، الأنفاس غيومٌ، والقلّوب متعبة وحزينة، والأشجار هياكل من بلور مرصوف، والأرض ميتة القلب، والسماء واطئ سقفها، الشمس والقمر يعلوهما الغبار؛ إنه الشتاء)).

مع هذا فإن أخوان ثالث يعتبر من أهم الشعراء في إيران كما يعتبر من أبرز مَن قلدوا الأسلوب الخراساني؛ حيث القصيدة طويلة جداً. وفي أواخر حياته مال إلى الشعر الذي ينتهي بالآمال والسعادة!..

يَعتبر «أخوانُ» الشعرَ، وليد لحظات القلق وعدم استقرار الإنسان، حينما يشع عليه شعور الإلهام.. ((يقول: الكل يقول، أنت تعشقها ـ مع أنني أدري أن الجميع يعشقونها ـ لكنني أخاف، يا رب! أخشى أن يكون ما يقولونه صحيحاً)).

الأخلاق هي عبارة عن اعتدال القوى المختلفة للبَدن والغرائز. ومن أجل السلامة، هناك أربعة أنفس مختلفة وهي: العصبية ـ والسوداوية ـ والصفراوية ـ والبلغمية. وهذه يجب أن تكون معتدلة. أما الأخلاق فهي تعني غريزة الغضب وغريزة الانتقام وغريزة الحب والجاه وغريزة (كنجكاوي)[١] وطلب العلم وطلب القدرة والغرائز الأخرى، وهذه يجب أن تحافظ على اعتدالها.

نرى أن الإنسان الغربي مع الفكر المنطقي العلمي للأخلاق والذي يعتبره الشرقي أمراً عظيماً، وعجيباً، ومخفياً وسراً من أسرار الله وتجلياته التي منحها للإنسان والتي تمتلك جذوراً ما ورائية، إلا أن الغربي يعطيها تحليلاً علمياً دقيقاً وقاطعاً ويقدِّم لها التعاريف اللازمة.

أما «السعادة» فهي من أسرار الفلسفة الشرقية، ومع هذا التصوّر فلا يمكننا أن نعرّفها، أما مع الفكر الغربي فـ (سلون) تعرفها بهذه الطريقة البسيطة: إن السعادة هي عبارة عن جمال وترتيب الجسم واستقامته وخلوّه من الأمراض، وهي الراحة

---

(١) كنجكاوي: تأتي بمعنى صانع الطبشور أو صانع الكِلس. وتأتي أيضاً بمعنى مقلِّد صوت العصفور. ويبدو من سياق الكلام أن معناها هو «التقليد» و«التكرار» اللاواعي للأمور والأشياء والأصوات كالببغاء.

في الحياة وأما من ناحية الأبناء (كامياب)[١]، وإذا رأينا شخصاً بهذه المواصفات فإن ذلك الشيء موجود فيه وهو الذي تبحث عنه أي (السعادة). فنرى أن المسائل التي تكون معقدة ورمزية وغيبية، فإن الغربي ينظر إليها بأنها مسائل عينية.

يقول فيثاغورس: إن جميع العالم عبارة عن نظام، وهذا النظام عبارة عن عدد. فالموسيقى هي من الأعداد وكذلك الطبيعة والجبل والصحراء، وأخيراً فكل شيء مصنوع من أعداد وهي من (واحد) قد خُلقت، إذاً فإن العالم جميعه مخلوق ومصنوع من (واحد). نرى أن الغربي يحلّل جميع المسائل بالتحليل العقلي المنطقي وهذا ممّا يساعد الإنسان، حيث يمكنه معرفة الظواهر والقوانين والظواهر الطبيعية.

سابعاً: أصالة المجتمع:

إن الآلهة في الغرب هي التي تحمي المدن (cite’)، حيث إن «المدينة» هي الأصل وأن «المعبد» هو الفرع. وهذا خلاف ما هو موجود في الشرق، فليس للمدينة أهمية مقابل المعبد، بل إن المعبد هو بعنوان الحارس للمدينة.

في الشرق لا تجد مدينة مبنية على أساس مادي، بل إن

---

(١) أي أقلّاء، قليلون. أو أمر نادر. وكأن المعنى أن هذه الصفات قليلة ونادرة عند الأبناء.

معظمها لها قصص ومسائل دينية، فمثلاً في هذه المدينة دفن (النبي سليمان) وفي أخرى آدم عليه السلام, والثالثة عبر أو مرّ منها الإمام، وبالقرب من مدينة مشهد هناك مياه معدنية خاصة للشفاء من الأمراض وخاصة الأمراض الجلدية، وقبل ثلاثمائة سنة تقريباً بنوا في هذا المكان قاعة كبيرة تغطي المياه، ويبقى الإنسان في حيرة مع كل هذا التقدم لماذا لا تُبنى مثل هذه القاعات على مياه معدنية أخرى، قاعة نظيفة ومرتبة والناس يتمتعون بتلك الحمّامات النظيفة والجذابة، وإذا بحثنا السبب وراء هذا البناء وهذه النظافة وبقاء هذه القاعة والمحافظة على المكان، فإن الموضوع سوف يصبح واضحاً.

الناس يدخلون إلى تلك المياه وأمراضهم الجلدية تتعافى، فهذه القدرة لهذه المياه المعدنية على إشفاء الأمراض لم يستطعْ الفكر الشرقي تفسيرها تفسيراً علمياً بل إنهم يفسرونها تفسيراً روحياً وما ورائيّاً.

يقولون إن الإمام علي عليه السلام في حربه مع معاوية كان قد مرّ من هنا من قرب مشهد!! وكانت حرارة الشمس قوية جداً، وكانت أجساد المقاتلين مملوءة بالجراح وأصبح الجميع مرضى والدماء تنزف من أجسامهم، ولم تكن هناك وسيلة للعلاج وما كان هناك وجود لدواء، لهذا فإن عليّ عليه السلام ضرب بسيفه الحجر

وأحدثَ فيه شقاً فسال من خلاله الماء ثم أصدر أمراً بأن يغتسل جميع مقاتلي الحرب بهذا الماء، وحينما خرجوا من الماء لم يبقَ أثر لجراحهم بفضل ذلك الماء، ومن ذلك الحين بقي هذا الماء ماءً مباركاً يغتسل فيه الناس لشفاء جروحهم وأمراضهم وهذا هو دليل وجود مثل تلك القاعة التي ذكرناها والحمامات، لأن هذا المكان يمتلك قدسية فيجب أن يبقى نظيفاً.

في الشرق، كل مدينة، لها حكاية مثل هذه الحكاية، ففي مدينة «بلخ»[1] يوجد هناك تل يعتقد البعض أن سليمان عليه السلام مدفون هناك، والبعض يعتقد أنه زرادشت والبعض الآخر يعتقد أنه إبراهيم عليه السلام، لهذا نرى أن كبار الشخصيات تأتي إلى بلخ ويبنون بيوتاً بقرب قبر سليمان أو زرادشت أو أي شخصية مقدّسة أخرى.

كل مدينة في الشرق لها حكاية عمّا وراء الطبيعة، أما في الغرب فأصالة المدينة من ذلك المجتمع وعلى أساس الحياة

---

(١) بلخ: إحدى مدن أفغانستان، تقع قريبًا من منطقة مزار شريف.. وبلخ مدينة تاريخية عريقة دخلها الإسلام في القرن الأول الهجري، وكانت من أهم حواضر خراسان قديمًا، وفتحت في خلافة عثمان بن عفان، بقيادة الأحنف بن قيس.. ينتسب إلى بلخ علماء مشهورون في ميادين العلم والمعرفة منهم: جلال الدين الرومي صاحب المثنوي، ومنهم أيضًا المتصوف العابد إبراهيم بن أدهم، ومنهم أيضًا شاعر فارس أبو الحسين شهيد بن الحسين البلخي، وأبو معشر جعفر بن محمد البلخي عالم الفلك البارع في علم النجوم.

المادية تكون لها قدسية واحترام، والمعبد تابع للمدينة وليست المدينة تابعة للمعبد.

يقول أحد الكتّاب الفرنسيين المَرحين: إن وضع الآلهة والأديان اليونانية والرومانية كان وضعاً خاصاً. فعوام الناس كانوا يعترفون بجميع الأديان التي كانت موجودة قبل المسيحية، أما الفلاسفة فلا يقبلون شيئاً منها ويعتقدون أن جميع حكّام الأديان أهلُ منفعة.

الآلهة جميعاً هم مسؤولو المدن اليونانية. نار «مهر»[١] في إيران وقبل زرادشت كانت ناراً إلهية، ونار «اهورا مزدا»[٢] والتي ذهبت لبلاد الروم - مثل المسيحية - تصبح هناك نارَ روما وهي مظهر للقدرة والعظمة والنور والحضارة للمجتمع الروماني.

نرى أن نار «مهر» تتنزّل من منزلتها العالية الألوهية

---

(١) «مهر»، هو الإله الذي له مكان في الشمس وليس هو الشمس.

(٢) يتمثل جوهر الزرادشتية في فكرة الصراع بين الخير والشر. وقد نادى زرادشت بالإيمان بـ«أهورا مازدا» زاعمًا أنه إله الحكمة الذي هو واحدٌ أزلي حكيم عدل وخير. واعتقد أن «أنكرا مينو» روح شريرة حاقدة، وللقضاء على هذا الشر، نادى أهورا مازدا على «يازاتا»، وهي القوى الروحية الخيِّرة التي هي من جنسه، لمساعدته، كما تساعد أنكرا مينو مجموعة من الشياطين.. وسيشرح الدكتور شريعتي باستفاضة، رمزية أهورا مزدا في المذهب الزرادشتي في الجزء الثاني من هذا الكتاب

وتحصل على شكل اجتماعي لها. وهذا هو قول «دوركهايم»: «إن الدين هو تجلّي لقدرة المجتمع وروح الجماعة»، إن هذا الأمر واضح جداً ومشخَّص في الأديان اليونانية، أما في الأديان الشرقية فهو باطل بصورة كلية.

في الشرق، الأصالة للفرد، أما في الغرب فالأصالة لـ(المجتمع). يقول هتلر الألماني إن جميع الألمانيين فداء لروح ألمانيا. ولا يُعتقد أن الأفراد الألمان من روح ألمانيا، بل تبقى الروح الأبوية الهتلرية لها قدر وقيمة مع هذا الشعار الأبله والجنوني. هذه المبالغة في التفكير هي جزء من الفكر الغربي. جميع الأفراد تأتي أصالتهم بمقدار ما يقدّمون من فداء.

ثامناً: (اكوسانتريسم) ذاتية المحور أو المدار:

«أكو» بمعنى «ذاتية» أو ذاتي، و«سانتر» بمعنى «المركز» و«ايسم» هو الارتباط بالفكرة أو العقيدة. لهذا فإن معنى (اكوسانتريسم) هو ذاتية المحور أو الفكرة، أو المدار الفكري، وهذا المدار الفكري يعني كل شيء عندهم، ومنذ القرن الخامس قبل الميلاد وإلى الآن يعني منذ العهد اليوناني، هذه النقطة وهذا الموضوع هو محور أو ما يدور

حوله الفكر الغربي في اليونان (اكوسانتريسم) ذاتية المحور أو ذاتية المدار، حيث إن السوفسطائيين يقولون: إن الواقعية غير معروفة في العالم. ولا يوجد عندنا ما نقيس ونميّز به الحق عن الباطل. ولكن كل ما نعرف أنه باطل فهو باطل، وما قلنا عنه حقاً فإنه حق، فهذا هو المحور الذاتي أو ذاتية المدار في الفكر الغربي وهي تدور حول وجود الإله، والفكر الشرقي ينبع من هذه الفكرة أيضاً.

في «ذاتية المدار» الشرقي، أو ماهية وحقيقة ما يدور حوله الفكر الشرقي، هي أن الإنسان تابع لقطبٍ أزلي كبير، هو الله. أما في فكر الإنسان اليوناني فإن الإنسان هو القطب الأساسي وإن الآلهة وجميع الوجود يدور في فلكه. أما عند الروم فإن الإنسان بعنوان القطب مرفوض، وإنما القطب والمدار هو (روما)، فهنا تحلّ روما محل الإنسان، وتصبح روما هي مركز العالم الذي يدور حولها الإنسان، وهذا يعني أن جميع القيم يجب أن تكون قيماً رومانية.

إن هذه المطالب واضحة في الثقافة الرومانية. وفي العالم، جميع القوى والقدرات يكون لها اعتبار حينما تكون مرتبطة بالقوة والقدرة، والدين الحق هو الدين الذي يكسب شرعيته من قدرة القوة الرومانية.

واليوم أيضاً وفي هذا الوقت الذي يُقدَّس فيه الإنسان، فإن هناك وجوداً لهذه العقيدة وهي (المدار الذاتي) أو ذاتية المدار. وهذا نجده عند الديموقراطيين والليبراليين وحتى عند الاشتراكيين، ولكن هذه الفكرة نجدها اليوم في قسمين؛ أحدهما، أصالة الإنسان، والآخر برز بعد النهضة الحديثة، وقد برز هذا بقوة في محور إنكلترا وفرنسا وألمانيا والنسل الجرماني. وهذا حصل بعد أصالة الإنسان وتحوّل إلى أصالة الفاشية والشعوبية نتيجةً لفكرة أصالة الأمة والعِرقية، وذلك لأن الفاشية بسبب الجنون والمبالغة والجهل أصبحت هي المحور الذاتي، حيث إن «الذات» حلّت محلها كلمة «الأمة»، وأصبحت الأمة هي الذات أو هي المحور والمدار. يقول الفاشيون في دعاياتهم، أن الفلسفة والدين والتكنولوجيا والعلم والثقافة والأخلاق يجب أن تنفع ألمانيا، وكل شيء لم تكن فيه فائدة لألمانيا أو كان فيه ضرر لها، فهو باطل.

في المسرحية التي تُسمّى (القضاء) - والتي تُرجمت إلى اللغة الفارسية أيضاً - هناك ثلاث شخصيات رئيسة متهمة، أحدهما ماركسي والآخر يهودي والثالث ألماني فاشي، وكل واحد من الثلاثة قدّم دعوة على الآخر وذهبوا إلى المحكمة. يقول القاضي ـ إني رأيت الملف واطّلعت عليه بدقة، أتعلمون

أن الحق مع الألماني الفاشي، حتى إذا كان هناك اثنان قد سرقوا غطاء رأسه، أما المشكلة فهي أننا لا ندري من بين هذين الاثنين مَن هو المتّهم.

ولأجل حلّ هذه المشكلة فإن القاضي يطلب المساعدة من الدولة، أما جواب الحكومة إلى القاضي فيكون أن الاثنين متهمان.

نرى أنه حتى في المسائل الحقوقية فإن مسألة «الذاتية» و«الأصل» تعيّنها القومية أيضاً. أما في الأمم الأوروبية الأخرى فالوضع لا يشبه هذا تماماً، فإنه يصبح أقلّ ضعفاً بمقدارٍ ما، ولكن الأصل هذا المحور (انظر إلى الشعب الإنكليزي، ففي بريطانيا يعتمد نموذج العدالة على الاحترام والأدب والماضي).

إن أحد افتخارات الدين الإسلامي هو أن جميع الأقليات الدينية يمكنها أن تعيش فيه باطمئنان وأن تتمتع بجميع حقوقها الإنسانية. أما في أوروبا ومع مضي ٣٠٠ عام على انتهاء الحكم الكَنَسي فلا تزال هناك بعض المطاعم لا تستقبل السود، وفي جميع أنحاء أوروبا وحتى في فرنسا نفسها تتعرّض الأقليات الدينية إلى مضايقات بحيث إن هذه المضايقات التي كانت سابقاً موجودة هي موجودة الآن، وهذا كله نتيجة الحقد

والعداوة القومية الموجودة، وإن المسلمين أيضاً قد يفقدون قوّتهم بسبب هذا.

يقولون إن السيد المسيح له شكل ومظهر أوروبي والسيدة مريم امرأة تشبه (توئيكي) وهي امرأة فلسطينية وابنها رجل فلسطيني أيضاً. ومن ثم فالمسيح يأخذ شكلاً أوروبياً ويصبح إلهاً تتجلَّى فيه الشخصية الأوروبية واللاتينية، أما أسماء الكنيسية والبابا والكاردينال فهي أسامٍ جديدة وهي نفسها أسماء الأمبراطور والسيناتور الروميّة.

إن عكس هذا العمل الذي أوجده الأوروبيون بالنسبة لمظهر السيد المسيح، هناك شخص باسم (عالي جاه محمد) في أمريكا يقول إن محمداً رجل أسود، وكان لا يُجيز للأشخاص أصحاب البشرة البيضاء بالدخول إلى دينه ولم يشفع لهم.

«جوموكنياتا» رئيس جمهورية «كينيا» ويعتبر من الناحية العلمية والأدبية والفكرية عالماً كبيراً أيضاً، في أحد كتبه يقول: في يوم «آسانسيون» (معْراج حضرة المسيح) فإن قبائل كينيا السود، كانوا يصنعون مجسمات للآلهة البيض، وكذلك للسيد المسيح، على صورة الأشكال الموجودة في أوروبا ثم يحرقونها بالنار حتى يحترق إله البيض.

هذا لم يكن تعبير هؤلاء، وإنما جاء هذا نتيجةً للفكرة التي ينادي بها البيض الأوروبيون بأن المسيح هو إلههم المخصوص والذي يجب أن يتقبّله الأفارقة، ويُظهرون بصورة كاملة بأنه نموذج غربي مقدس.

هناك نوع آخر من هذا الاعتقاد المحوري «أكوسانتريسم» يحمل طابع العنصرية، هو الفاشية والقومية، حيث احتلّا مكانة وقدرة في سنوات ١٩٣٥ و ٣٤ـ ٣٣. ومثقفونا وقبل كل شيء يجب أن ينفروا من هذا الاعتقاد، ولكنهم ومن شديدِ أسف لم يكونوا في المستوى المطلوب وحتى علمائنا الجيدين الصادقين وقعوا ضحية هذه الادعاءات.

إن كلمة (اكسيدانتاليسم) تعني تقديس الغرب، واليوم هناك الكثير من العلماء الأوروبيين وهم من دعاة الإنسانية الكبار ومن الاشتراكيين ودعاة العدالة، لكنهم يؤيدون ويميلون إلى تقديس الغرب وأصالته. إن الذين يؤمنون بهذا المذهب يعتقدون بأنه يوجد في العالم اليوم حضارة واحدة، وهي الحضارة الغربية، وأما الآخرون فإما أن يكونوا متحضرين بحضارة الغرب وحينها يمكن أن نطلق عليهم لقب متحضرين وإلا كانوا متوحشين ومنحطّين. وهذا الشعار الذي رفعوه في العالم فإنه بنظرهم يصلُح للجميع، وأما مثقفو العالم

فقد قبلوا بهذا الشعار كي يكونوا متحضرين، ولم يذعنوا بعد ذلك لأي حضارة أخرى سوى للنظام والحضارة الغربية.

وأعتقد أن شعار «أصالة الغرب» أصبح موفقاً، لماذا! لأننا نرى اليوم أن كل شيء أصبح مرتبطاً بالثقافة الغربية، ففي انتخاب الأبطال مثلاً أبطال الرياضة، وأبطال الذكاء، والعلم، والأبطال المفضّلين والمتفوّقين، يتمّ تعيينهم على أساس القيم الغربية. ممثلو الشعوب يتمّ تقييمهم أيضاً بناءً على هذا الاعتبار الغربي، وهكذا (فالبنت الجيدة) في إيران، والصين، والهند، وتركيا وآسيا وأفريقيا، تُنتخب على الطريقة الغربية مع وجود الفوارق الثقافية والعرقية. وإذا كانت المرأة الهندية أو الإيرانية والصينية والآسيوية والأفريقية لا تشبه المرأة الغربية فإنها لا تكون في نظر الغرب غير لائقة فقط وإنما في نظر مواطنيها أيضاً .فأصبح مقياس اللياقة في كل أمر ومسألة هو هذا المقياس.

هناك عالم باسم «فنسان مونتيه»[١] يكتب في أحد تقاريره، إن جميع الرومانيين في العالم الذين حصلوا على جائزة نوبل (باستثناء السياسيين أو الذين حصلوا على جائزة

---

(١) باحث ومستشرق فرنسي، ترجم مقدمة ابن خلدون إلى الفرنسية، اعتنق الإسلام.

عن طريق التليفون) كانوا قليلين جداً وكانت نتاجاتهم مطابقة للملاكات الغربية، أما أولئك الذين كانت آثارهم الفنية والشعرية الكبيرة غير مطابقة للمعايير الغربية ولكنها تمتلك أصالة فلم تحصل على تلك الجائزة ولم يؤيدهم الغرب، وحتى في بلدانهم فإن نتاجهم لم يُحسب له حساب[١]. في فن الرسم، والشعر، والأدب، والفلسفة، والتاريخ، وعلوم معرفة الإنسان والأخلاق، فإن الأشخاص الموفّقين في هذه المجالات هم الذين درسوا هذه الأمور عند أشخاص غربيين أو أخذوها من أفراد غربيين. أما أولئك الذين يرغبون في أن يقدّموا شيئاً من عندهم ومن إبداعهم، ينظمون الشعر أو يكتبون في الفلسفة والأخلاق فإنهم لا يجدون مَن يقبلهم ويبقون غير معروفين في المجتمع، لأنه لا يوجد ناقد حتى يقيِّم هذا العمل حسب الأصول المعتبرة.

إن الغرب كيفما كان، وما هو عليه الآن، يحمل الطابع الغربي، وإن جميع الاعتبارات اليوم اعتبارات غربية. والتاريخ والفلسفة والدين والأخلاق أيضاً لها جذور أوروبية أو

(١) أولئك الذين في المجتمعات غير الأوروبية وهم لا يعتقدون بالسنن الأوروبية، كذلك لا يعتقدون بالقيم الأصيلة والمتعارفة... لم يُكمل المترجم ترجمة هذه الفقرة... ص ١٦٦ من النسخة الفارسية وهي تعليقة للمؤلف.

يجعلون لها جذوراً أوروبية! فمثلاً: زرادشت ولد في القرن السادس قبل الميلاد، وظهور موسى في ١٢٩٠ـ ١٣٠٠ قبل الميلاد ـ بمعنى أن موسى كان موجوداً قبل ٣٢٩٠ أو ٣٣٠٠ سنة، وأن زرادشت كان موجوداً قبل ٢٦٠٠ سنة، وأن إبراهيم ظهر سنة ١٩٧٠ أو ١٩٨٠ قبل الميلاد، يعني قبل ما يقارب ٤٠٠٠ سنة[١].

ولكن وبصورة مفاجئة نرى أن مفكّرينا وكتّابنا يقولون ويكتبون أن زرادشت ولد قبل ٤٠٠٠ سنة. وهذا يعني أن الآريائيين جاؤوا إلى إيران حوالي سنة ١٤٠٠ إلى ١٥٠٠ قبل الميلاد أي قبل ٣٥٠٠ سنة، وأن زرادشت حيث كان مولوداً قبل ٤٠٠٠ سنة أو على روايات ٥٠٠٠ سنة أو ٦٠٠٠ سنة أو ٧٠٠٠ سنة. وهذا يعني أن إيران بقيت خالية من السكان لمدة ٥٠٠ سنة حتى أتى الآريائيون وسمعوا تبليغ نبوته! أما لماذا كان المفكرون الجدد يصرّون ويؤكدون على هذه الثورة التأريخية! المسألة، تحتاج إلى بحث دقيق وعميق.

يعتبر الغربيون أن كل ما هو موجود له جذور غربية، فاعتبروا أن العلم والفلسفة والفن منبعها اليونان. وأن جميع الشعوب والأقوام والأمم كتبوا وأخذوا من هذا المنبع، ولكن

---

(١) وهذا يعني أن وجود إبراهيمعليه السلام، وموسىعليه السلام، كانا موجودين قبل زرادشت.

بالنسبة للدين لم يستطع الغربيون أن يقولوا أن جذوره من الغرب، ولم يستطيعوا القول بأن الأديان الكبرى وحيث إن الإنسان تدرّج في العبادة من عبادة الأوثان والحيوان، والنبات والأشياء والقوى الطبيعية ومن ثم وصل إلى التوحيد أن هذه الحركة بدأت من اليونان وأن افتخار وجودها يرجع إلى أوروبا وإلى الأوروبيين. لقد كتبوا لزرادشت تاريخاً جديداً - مع اختلاف في عدة آلاف من السنين - وهناك بعض الأقاويل مثلاً من أن توحيد إبراهيم ودين موسى، أخذ منشأه من زرادشت الآريائي وأن هذا النبي الآريائي يُعتبر أساس الأديان الكبرى (انظر إلى الكتب المعتبرة ومنها «مزديسنا[1] وتأثيره في الأدب الفارسي»، حيث إنه مكتوب باللغة الفارسية وبواسطة المسلمين الفرس).

وحسب النظرية الغربية وأتباع الغرب، فإن جميع الأديان بذاتها ترجع إلى أصل جرماني وآريائي وهؤلاء هم واضعو أسس الفلسفة والعلوم الغربية وهم الذين أوجدوا الأخلاق والعرفان والدين الشرقي، فالجميع، حتى بوذا، ولاوْتسو، وكونفوشيوس، يعني أنبياء الصين الذين لم يكونوا آريائيين فإنهم بعد زرادشت وقعوا في العرق الآريائي.

---

(١) مزديسنا: أي عبادة الرحمن، أو الدين المزدي مجسّماً نسبةً إلى «أهورا مزدا»، أو «مدح مزدا».

إذاً فجميع العلوم مثل الجبر والمثلثات والفيزياء والكيمياء وحتى العلوم الإنسانية والأخلاق والدين والعرفان وكل شيء، كانت تسير على الخط بين أثينا وفرنسا. وأما الشرق فكل ما هو موجود فيه، هو إبهام وأوهام من المحسوسات والخيالات. فاليوناني فقط هو الإنسان وكل ما سواه من غير اليوناني هو بربري ومتوحش.

هكذا كانت الأفكارية والعقيدة اليونانية ويمكن ملاحظة كُتُب تواريخهم. فالحرب بيننا وبينهم هي حرب اليونانيين مع البرابرة، وليست حرباً بين اليونان وإيران، وهذا النوع من التفكير موجود الآن أيضاً.

كتب «جان بول سارتر» في مقدمة (Les Damnes De la Terre) ما يقوله الأوروبيون وبطريقة ساخرة: إن العالم مقسّم بين ٥٠٠ مليون إنسان - أوروبي - بإضافة مليار وخمسمائة مليون إنسان عادي.

إن مسألة هذا يوناني، وهذا بربري، وغربي وشرقي، وعادي، وأصالة الغربي، نابعة من حب وعبادة الذات والمحورية «أكوسانتريسم»، وإلى يومنا هذا، هذه المسألة متعلقة بأفكار المفكّرين الكبار أيضاً. فمثلاً علماء الاجتماع وحقوق الإنسان ومنهم «زيغفريد» في كتاب (روح الأمم)

يقول: إن الله خلق القومية الأوروبية، خلقهم مدبِّرين ومديرين أكفّاء، وخلق أقواماً للعمل تكاثروا على الأرض بسرعة، لأن العمل يحتاج إلى أقل عدد من المسؤولين وإلى أكثر عدد من العمّال، لهذا فمن كل مائة شخص أوروبي في السنة يولد شخص واحد، ومن كل مائة شخص شرقي يولد ستة أفراد، فنحن نزيد بنسبة ١٪ وهم يزدادون بنسبة ٦٪ ـ لهذا فإن الخالق أو الطبيعة خلقتنا كمسؤولين عن العمل وأولئك هم العمّال.

وأيضاً يقول[١]: إن أصحاب العيون الزرقاء والشعر

---

(١) في محاضراته التي نُشرت تحت عنوان «الإنسان والإسلام» يقول شريعتي: السيد «زيغفريد» أستاذ جامعة وعالم اجتماعي معروف، وعضو الأكاديمية.. يقول: (نفس الشخص الفرنسي، هذا المتوسط العادي العامل، ذو العينين الزرقاوين، والشعر الأشقر، يتمكن من إدارة جهاز إداري عظيم، وتأسيسات عظيمة في الشرق، ببساطة. بينما إذا ذهبت إلى الشرق، ترى الشخصيات العظيمة المفكّرة، تعجز عن إدارة جهاز ذي ستة عمال، لماذا؟ .. لأن الدماغ الغربي دماغ إداري مدني، والدماغ الشرقي، دماغ عاطفي وشِعري وعرفاني، حتى الثياب، ليس لنا حق أن نلبس ما نريد، لأن الثياب والاستهلاك له صلة بالذوق، والمجتمع، والشخصية القومية، والدينية، والتاريخ والثقافة، والفن والجمال، إذاً يجب إبادة جميع هذه الأمور ليتحول هذا السيد، هذه السيدة إلى هيكل، نُلبسها كل ما نصنعه، ونتمكّن من أن نضع في حلقومها كل ما أعددناه، وهي لا تقول «أحب» أو «لا أحب»، عليكِ أن تحبي كل ما نُحب، هل أنت إنسانة، حتى تقولي أنا أحب أو لا أحب، أنت فارغة من نفسك، أنتِ لم تكوني أنتِ، عليك ألا تنطقي بكلمة «أنا») وكما ترون، فنحن لا نستعملها.

الداكن والذين يمرون عليهم ولا يُعيرونهم أهميةً، إذا ذهبوا إلى أفريقيا أو الهند فإنهم يستطيعون أن يُديروا أمورَ الدوائر الكبيرة أو الوزارات المهمة. أما في الشرق فإن الشخصيات الفكرية العظيمة والعرفانية والأخلاقية والزهّاد الكبار، لا يستطيعون إدارة دائرة صغيرة تتكوّن من عامليْن. ويقول أيضاً: وحينما يشتري الرجل الغربي سيارة فإنه يعمل عليها مثلاً لمدة ثلاثين سنة، لأن عقله يشبه الماكينة ولأنه يفهم الماكينة بصورة منطقية .أما الإنسان الشرقي فهو لا يفهم ما هي، وخلال ستة أشهر يعطلها، ومن ثم يعمل مع هذه السيارة لمدة تسعة وعشرين سنة وستة أشهر.

إذا نظرنا إلى فكرة المحورية الذاتية «أكوسانتريسم»، رأَيْنا أن لها وجوداً ابتداءً من اليونان ـ أثينا، وبعد ذلك الروم، ثم الجرمان والفرنسيين والإنكليز وفي جميع أوروبا، وهي موجودة الآن في الغرب أيضاً.

الكفار الذين واجهوا البابا في القرون الوسطى هم أولئك الذين لا يؤمنون به وبالكنيسة، لذا فإن البابا يقاتلهم على أنهم كفار، بالرغم من أنهم مسيحيون، ولكنهم يقولون إن كل أمة يجب أن تقرأ الإنجيل بلغتها، أما البابا فيقول إن اللاتينية هي لغة الخالق ـ وهو يقول الحقيقة ـ لأن لغة إنجيل الخالق

لاتينية. أما لغة الإنجيل فهي العِبرية، والمسيح عبري وفلسطيني، وهو لا يعرف اللغة اللاتينية، والدليل أن مفكري النهضة الجديدة لا يعرفون أن اللاتينية هي لغة الخالق ولا يريدونها، أما اللغة الرومانية فهي لغة أوروبا ولغة الثقافة الغربية، وحينما رفضوها أصبحوا كفاراً وأعلنت الكنيسة الحرب ضدهم، هذه هي المحورية الذاتية «أكوسانتريسم» التي كانت موجودة وهي الآن موجودة أيضاً.

تاسعاً: أصالة الإنسان (أومانيسم):

(هذا المصطلح يتكرر كثيراً في اللغة الفارسية أما معناه الشائع فهو خليط وغير متجانس. لذا أرجو أن تنتبهوا بدقة إلى الشيء الذي أريد قوله).

إن (أومانيسم) مدرسة فكرية جذبت إليها الكثير من المثقفين وهي تعتبر من المدارس الفكرية الفلسفية المهمة اليوم حيث إنها تُعرف بمدرسة أصالة الإنسان - يعني (اكزيستانسياليسم)، سارتر-[١] وهو القائل بأن الإنسان هو الأصل.

في اليونان القديمة لا يوجد معنى واضح لمصطلح أصالة

---

(١) هذه المدرسة تقول إن جميع الأشياء مخلوقة للطبيعة أو من الطبيعة وفقط الإنسان مخلوق بشكل آخر.

الإنسان، وحكمة «أومانيسم» تعني: أعطى الأصالة للإنسان مقابل الإله أو الآلهة.

وعلى طول التأريخ كان البحث الموجود دائماً هو أن المحور الأصلي للعالم هل هو الإله - أو الآلهة - أم الإنسان. الأديان تعتقد بأن المحور الأصلي للعالم هو الإله - أو الآلهة - وأن قيمة الإنسان ترتبط بقربه من الإله أو بتقرّبه إلى الإله، وبتكامله في طاعة الإله أو الآلهة، لذا فإن ملاك جميع القِيَم يترتبط بالإله أو الآلهة، وهذا ما يعبّرون عنه بـ«تاييسم»[١].

أما في (أومانيسم): فالإنسان هو الأصل، وليس من الضروري أن يجعل من نفسه نسخة من الخالق، لأن الإنسان هو مجموعة من القيم وهي (التعالي ـ الأخلاق ـ الجمال ـ الحُسن).

لهذا نرى أن (أومانيسم) تعطي للإنسان أصالة مقابل الخالق أو الإله وتجعل له قِيماً مستقلة ومشخّصة.

هذه الأصالة للإنسان تأخذ شكلاً واضحاً في الثقافة اليونانية أكثر من أي مكان آخر، وتُعتبر من أهم مشخّصات الفكر الغربي.

---

(١) التاييسم: الطاوية.

إن أساس العلاقة بين الإنسان والإله في اليونان لم تكن رابطة العابد والمعبود، والخالق والمخلوق، والجوهر والقشر، أو من يمتلك قيماً ومَن لا يمتلكها، وإنما هي رابطة وعلاقة قوّتين عالميتين مقتدرتبن تتصارعان من أجل السيطرة على العالم وتغيير المصير.

لذا فإن الآلهة في اليونان بصورة عامة هم رُقباء الإنسان ويريدون أن يتحكّموا في مصير الإنسان ويريدون أن يبقى الإنسان فاقد البصيرة وغافلاً وجاهلاً، لماذا؟ لأن الإنسان إذا وصل إلى المعرفة الذاتية فإنه سوف يصل إلى مرتبة الآلهة وتصبح قدرة الأمبراطور (زيوس) متزلزلة.

وبهذا الدليل، فإن الآلهة أزليّون باقون ويمتلكون النار الآلهية والنظرة الذاتية، وخلودهم راجع إلى تحكّمهم بمصير العالم لأنه بأيديهم، وهم يمتلكون الاستعدادات الإلهية.

إن النار هي رمز القدرة والنور والبصيرة وهي تحت تصرّف الآلهة واختيارهم. وإن سعي جميع الآلهة أن يحرموا الإنسان من هذه الشعلة الإلهية حتى يبقى الإنسان في هذه الدنيا يعيش بصورة مملوك وفي ظلام وجمود، وأسيراً لمشيئة الآلهة، ولكي لا يستطيع أن يتحكّم بمصيره ولا يمتلك القدرة

على التغيير في الطبيعة، لأن هاتين الصفتين هما من اختصاص الإله والآلهة.

الإنسان لديه معرفة واطلاع حول قدرة الآلهة، لهذا فهو يسعى للخلاص من مشيئة الآلهة والحصول على القدرة والتحكّم في المصير. في الثقافة اليونانية، إن الإنسان لا يفكر بمسألة التقرّب إلى الآلهة لأنه سيبقى في أسْرهم، بل إنه يريد التمرّد على الآلهة ويريد أن يأخذ القدرة بيده وأن يتحكّم بمصيره، وهذا غير ممكن، إلا إذا وصل الإنسان إلى المعرفة الذاتية والبصيرة، وهو سوف لن يصل إلى هذا إلّا إذا استطاع الوصول إلى الشعلة الإلهية. لهذا فإن الإنسان في الفكر اليوناني، في صراع مستمر من أجل أن يتخلّص من الأسر ومن طاعة الآلهة. والآلهة هم أيضاً في صراع لكي يبقى الإنسان تحت سيطرتهم.

إذاً فالعلاقة بين الأرض والسماء علاقة بين قطبين متخاصمين، وأن رابطة الإنسان والإله هي رابطة بين رقيبين، وهما دائماً في صراع، وأحدهما حاكم وهو الإله، والآخر محكوم وهو الإنسان.

إن فكرة أصالة الإنسان تنبع من هنا، وليست قيمة الإنسان تنبع من تقرّبه للإله ومقدار ما يمنحه الإله، بل إن

الإنسان بمقدار ما يستطيع أن يصل إلى، أو أن يحصل على، الشعلة الإلهية فإنه سوف يصل إلى منزلة الآلهة.

إذاً، فهدف الإنسان هو الحصول على مقام، قرب «زيوس» و«هرقل»[١] والآلهة الآخرين. أما الآلهة فيسعون إلى عدم وصول الإنسان إلى هذه القِمّة، قمة الآلهة.

إن الإنسان وبمساعدة «برومته» يصل إلى تلك الشعلة السماوية[٢]

---

(١) هرقل: أحد شخصيات الأساطير اليونانية. ولد هرقل في طيبة. وكان ابن الأميرة «إلكمين»، و«زيوس»، ملك الآلهة كما تزعم الأسطورة. وكانت «هيرا»، زوجة «زيوس» غيورة من «إلكمين» وكرهت هرقل. وقد اضطهدت هرقل طوال حياته.
وعندما كان هرقل طفلاً، أرسلت «هيرا» من يقتله. إلا أن هرقل فطن لهذا. وكان هرقل شاباً واسع الخيال وكان أمام خيارين؛ إما الحياة السهلة والسرور، أو حياة صعبة وخطرة ونصر، وفضيلة. وقد اختار الحياة الأكثر صعوبة ـ لكنها فاضلة. كُلّف بالقيام باثنتي عشرة مهمة خارقة فأنجزها وأصبح حرًا طليقًا. وزعموا أنه صعد بعد موته إلى جبل الأوليمبس وأصبح إلهًا.

(٢) بروميثيوس في الأساطير الإغريقية، كان واحدًا من الجيل الأول من الآلهة المدعوة «التيتان». وكان أبوه «إيابيتوس» وأمه قد تكون «ثيميس» أو «كليمين».
وتقول الأسطورة الإغريقية إنه عندما أمر الإله «زيوس» بتدمير البشرية، وذلك بحرمان الأرض من النار، سرقها «بروميثيوس» من الآلهة، وأعطاها للبشر فعاقبه «زيوس» بأن أمر بوضعه في أغلال فوق قمة نائية من قمم جبال القوقاز، وسلّط عليه نسرًا يلتهم كبده كل نهار، فتنمو الكبد مرة أخرى كل ليلة. وبعد عدة قرون من العذاب، قام «هرقل» =

ويصبح إلهاً وخالقاً للعالم، ومقرراً لمصيره، وملاكاً للحق والباطل وللجمال.

في مسألة المحور الذاتي «أكوسانتريسم» قلنا إن السفسطائيين وحسب ما يَرَونه من حق فهو حق وما يرونه باطلاً فهو باطل، والوجود وعدمه متعلّق بوجودهم.. وفي أصالة الإنسان، فالمسألة لا تختلف، فكل ما يراه الإنسان وما يتقبّله فهو حق، وخلافه فهو باطل.

إن أحد مشخّصات الآثار الفنية اليونانية والرومانية (في صناعة المجسّمات والرسم) هو الرسم أو التجسيد العاري، ويقولون إن جلّ اهتمام الرسام والنحّات في أن يقدِّم فنّه للمشاهدين بدون أن يكون فيه مظهر للباس. أما من خصائص صناعة المجسمات والرسوم الآشورية والهخامنشية[١] (يمكن

= البطل الإغريقي الإنسان بقتل النسر وأطلق سراح «بروميثيوس».
وصف «هسيود» الشاعر الإغريقي «بروميثيوس»، بأنه محتال ومشاغب. أما الكاتب المسرحي «أيسخيلوس» فقد قدمه بطلاً مأساويًا مغوارًا. ومن أبطال البشرية في مسرحيته المأساوية «بروميثيوس ذو الأغلال». وقد أوحت هذه الأسطورة بأعمال متنوعة للموسيقي الألماني «لودفيغ فان بيتهوفن»، والروائي الألماني «جوهان ولفغانغ فون جوته»، والشاعر الإنجليزي «بيرسي بيش شيلي»، ونشير إلى أن كلمة (برومته) الواردة في هذا الكتاب وفي غيره، تعني «برومثيوس»

(١) تشير الوثائق إلى أن اللغة الفارسية كانت لها شعبتان مهمتان هما: الفارسية القديمة؛ ويطلق عليها «پارسي باستان»، ولغة الأوستا؛ ويطلق عليها=

مشاهدتها في تخت جمشيد[١] وبيستون[٢]) وبصورة كلية في الشرق هو رؤية تلك المجسمات والرسوم، وقد ارتدى أصحابها لباساً عجيباً. اللباس كثير والبدن كله مغطّى باللباس، وحتى وجوه الكثير من الرجال، وهذا اللباس يمكن مشاهدته في آثار القرون الوسطى.

في ذلك الزمان حينما كانت السلطة للثقافة الشرقية والأصل فيها وجود الخالق، كانت المجسمات الشرقية والأوروبية في القرون الوسطى تريد أن تُظهر الخلائق، وخلقة آدم، والجمال، والخالق، ونور السماء، ومعجزة عيسى وشفاء المرضى والأعمى وإعادة الحياة للموتى. أما صناعة المجسمات في مدرسة أصالة الإنسان، فهي تُظهر المساحات الجميلة لجميع أجزاء البدن وهي ملاك الإنسان، وظهور الإنسان عارياً يُظهر جمال بدنه، وبهذا الجمال يستطيع أن

= «زبان أوستائي». فالفارسية القديمة كانت تستخدم في إقليم «پارسي» جنوبي إيران. ولأن أول مؤسس للإمبراطورية الإيرانية الأولى هو الملك قورش ـ مؤسس الإمبراطورية الهخامنشية (الأخمينية) ـ كان قد نشأ في هذا الإقليم، لذا غلب اسم فارس على البلاد التي سكنها الإيرانيون وكذلك على اللغة التي يتكلمون بها، لذا أُطلق عليها بلاد فارس واللغة الفارسية.

(١) تخت جمشيد: هي مجموعة قصور تقع في شمال مدينة شيراز، أمر ببنائها «داريوش الأول» الذي كان من أسرة الهخامنشيين «الأخمينيين».

(٢) صرح «بيستون» الأثري التاريخي والطبيعي الذي يقع في محافظة «كرمنشاه» وقد دخل في العام ٢٠٠٦ ضمن قائمة الآثار التاريخية العالمية.

يضاهي جمال الآلهة وملائكة السماء. في مجسمات القديسين في القرون الوسطى لم يكن هناك توجّه لإظهار جمال الوجه والأطراف وإنما كان التوجّه إلى روحانيتهم وروابطهم الدينية. أما قبل حكومة الكنيسة، ففي اليونان وروما القديمة وقبل النهضة الثقافية، نشاهد الأجسام العارية والأطراف الجميلة، لماذا؟ لأن الإنسان أصبح أصلَ كل شيء وأصبح الحق والباطل والجمال يُقاس فقط بواسطة هذا الأمر.

إن الغطاء واللباس علامة الكتمان وقلّة الجمال أو إنه شيء رديء. أما الرسم والتجسيد العاري فهو لا يُعتبر أمراً رديئاً وإنما مخجل، أما الإنسان الشرقي فهو يرى في اللباس ملاكاً لجمال الخالق، لأن النفس جميلة وكل ما سواها ناقص ورديء ومخجل، وفكرة الأصالة للإنسان ترى أن يكون الإنسان عرياناً، لأن اللباس لم يكن جزءاً منه، وعدمه يُعتبر جمالاً.

وقد قلت مرات عديدة إن قصة (برومته) هي من خصائص الفكر اليوناني وهو خالق الإنسان، والذي سرق النار السماوية من الآلهة وأتى بها إلى الإنسان، والإنسان بواسطة هذه النار حصل على البصيرة والصحوة والمعرفة الذاتية، والإنسان بواسطة هذه النار لن يبقى تحت سيطرة الإله زيوس (إله الآلهة) وهو بذلك سيحصل على استقلاله وحرّيته .

في الأديان الإبراهيمية وبالذات الدين الإسلامي، إن «برومته» يظهر على شكل شيطان، وهذا تفاوت، فمرةً يظهر برومته بمظهر مُحب الإنسان ومانح العظمة له، ومرة يظهر بمظهر الشيطان، لماذا؟ لأنه في الحالة الأولى، الإله والإنسان هما في حالة صراع ورقابة، وفي الحالة الثانية تكون العلاقة بين الناس والخالق علاقة العاشق والمعشوق والعابد والمعبود.

«برومته» و«الشيطان»، الاثنان يشتركان في مسألة إعطاء الإنسان «الفاكهة الممنوعة» فهما يعطيان الإنسان الصحوة والمعرفة، ولكن في الثقافة اليونانية يكون - الإنسان رقيب الإله - وأن برومته هو البطل، وفي الإسلام حيث يظهر الإنسان - هو العابد والعاشق للإله - والشيطان يظهر بمظهر عدو الإنسان[1]. ومن هنا يظهر أن أصالة الإنسان هي فكرة مطروحة مقابل فكرة أصالة السماء وأصالة ما وراء الطبيعة وأصالة الحياة بعد الموت، فهي أصالة للمادة مقابل أصالة

---

(١) هذا التحليل يشكّل انسيابيّة عميقة لفكر شريعتي وثقافته واطلاعه. وهو بحاجة لمزيد من التأمل لدى القارئ، ليقف على الظلّي والكامن والمستور في فكر الغرب ومنظومته الإستعلائية، وهو إلى ذلك يلخّص حقيقة (أصالة الإنسان) لدى الغرب، وحقيقة (أصالة الإنسان) في الفكر الإسلامي أيضاً.

الروح وأصالة ما يجب أن يكون مقابل ما هو موجود، حيث إن أصالة الإنسان تعني أصالة ما هو موجود مقابل أصالة ما يجب أن يكون موجوداً، وهي أيضاً أصالة كمالات الإنسان مقابل جمال وكمالات الطبيعة، أو جمال وكمال الروح وما وراء الطبيعة. وهذا كله ينعكس في الفلسفة والدين والحياة الاجتماعية.

أما في الدين فإنه ينعكس بهذه الصورة، فإن الآلهة الشرقيين وحتى الآلهة الصغار في فترة أو عهد الشرك، لهم قدسية متعالية، ما وراء المادة والإنسان. وفي عهد التوحيد فإن الإله يكون مطلقاً في ذهن الإنسان الموحّد، جمالاً مطلقاً، وكمالاً مطلقاً، وقدرة وحاكمية مطلقة، وعشقاً ومحبة مطلقة. وهو مجرد من كل شيء يدور في ذهن وتصوّر وخيال الإنسان، وهذا يتجلّى في الإسلام في أكبر شعار وهو «الله أكبر»، وبهذا يتّضح أن «الله أكبر من أن يُوصف»، فهو مجرد من الكيف والكم والصفة. فلا يمكن أن يُحدَّد الإله بهذه الحدود. وفي الأديان الابتدائية الشرقية يمكن ملاحظة هذا الأمر ببساطة من تلك الفاصلة العظيمة الموجودة بين الإله بين الأرض والمادة والطبيعة.

أما في أديان اليونان فالآلهة آلهة أسطوريون وهم أناس،

وفي هذه الحقارة والضعف يقولون مثلاً إن لـ«زيوس» تسع بنات وإن كل واحدة منهنَّ تمثّل مظهراً للفنون التسعة، الشعر والموسيقى والرسم والنحت وأمثال هذه، وهنّ يجلسنَ على قمة جبل (Mont Parnasse) دائماً ويمتلكن جميع صفات وإحساسات البنات، فهنّ ينتظرنَ العشق أو أنهن يعشقن إنساناً آخر أو أن لهنّ عدواً ورقيباً أو أحياناً يقعنَ في اختلاف مع والدهنّ!. وإن «زيوس» نفسه هو إنسان عادي، فهو يحسد ويحقد ويُعادي ويتراجع عن فكره.

لقد قيّد «زيوس» «برومته» بقيود، وأقسم يميناً أن لا يفك عنه القيود إلى الأبد. وحينما حلّق «هرقل» وهو طائر من مصر إلى اليونان، مرّ بطريقه على جبال القوقاز فرأى برومته مقيداً بقيوده، وجّه سهماً نحو قيود برومته وحرّره من قيوده، ثم قالوا له إن الذي قيده هو زيوس، فقال هرقل: هذا عمل غير صحيح، ثم إن هرقل بقي ينتظر زيوس في أثينا ليرى ما الذي يستطيع أن يعمله «زيوس»، ولكن «زيوس» لم يستطع أن يفعل شيئاً في مقابل هرقل، ووقع معه في حرب غير معلومة! وكما يُقال المزاح لا يصحّ مع مثل هؤلاء الأبطال، لذا كان مجبوراً أن يصل إلى اتفاق وهو تحرير برومته، ولكنه أقسم أن يُبقي حلقة واحدة من تلك السلسلة في رجله، فقبل هذا الأمر (ومن

المحتمل أن يكون الخلخال هو نوع من عبودية المرأة أمام الرجل!!).

في هذه القصة الروحية، يمكننا معرفة أكبر آلهة الميثولوجيا[1]، وأيضاً آلهة اليونان، هي من عوامل هذه القصة.

إن الفكر والمعتقد اليوناني يؤمن بعالم الآخرة والغيب مثل أي دين آخر، ولكن ذلك العالم مجاور لهذا العالم المادي لبنةً إلى جانب لبنة. وسماء ما وراء الطبيعة وآلهة السماء والأرواح والمجردات موجودة ولكنها بالضبط وراء هذه السماء التي نراها والتي تعتبر سقفاً للأرض. الآلهة موجودون ولكنهم يرتبطون أكثر بالأبطال القوميين ولهم معجزات وكرامات تشبه معجزات وكرامات أبطالنا مثل «رستم» و«زال» وأمثالهما. لهذا فإننا نرى أن الآلهة اليونانيين يشبهون الناس وليس الإله بالمفهوم الشرقي: سرّ الغيب المتعالي والمطلق، وهو ما وراء العقل والوجود.

الثقافة اليونانية تجعل من الآلهة أصغر فأصغر حتى يصبحوا قريبين من الإنسان، والثقافة الشرقية تجعل من

---

(١) الميثولوجيا: الفكر الأرسطوي، أو الذهنية الأرسطوية، أو العقيدة والعقلية الأرسطوية.

الإنسان أكبر فأكبر حتّى يرتفع إلى الخالق.

إن هاتين الثقافتين هما ثقافتان دينيتان ولكنهما متقابلتان.

يُعتبر فيثاغورس وأفلاطون آخر العلماء في اليونان الذين يملكون إحساساً عرفانياً ويعتقدون بروح ما وراء الطبيعة. والاثنان وقعا تحت تأثير الشرق ويمتلكون فكرة شرقية. وأحياناً تكون روح العقيدة اليونانية الغربية بهذا الشكل، ورأينا شكل النقلة القصيرة له، أما عمق الفكر والفلسفة اليونانية فإنها عميقة جداً. إن قدرة العقل اليوناني كبيرة وبعيدة، أما الحقيقة وعشقها فهي قليلة وظاهرية، وإذا أردنا أن نقارن بين الشرق والغرب كظاهرتين فكريتين فيجب أن نقول:

في الشرق تكون الروح دائماً في طلب الحقيقة والعشق في الوجود، والعلاقة بين الإنسان والخالق والغيب هي رابطة الوضيع بالمتعالي، المتشرّد بالملجأ، والعطشان بعين الماء، والطالب المحتاج إلى الحقيقة. أما في الفكر الغربي فهي رابطة رقيب مع رقيب، والرقيب الصغير هو الإنسان والرقيب الكبير هو الله، ورابطة العالم والمعلوم والمحتاج ولكن ليس عن طريق العشق والمعرفة بل عن طريق الحيلة والذكاء ويستطيع أن يستخدم قوى الطبيعة. إن الإنسان الشرقي يرى

الكون عبارة عن أسرار معقّدة وهو انعكاس لأسرار وحقائق تسقط باستمرار من السماء وأن قلبه دائماً تحت هذا النوع من المطر في حالة اضطراب وعطش. أما اليوناني فهو يرى العالم بأنه عبارة عن مؤسسات مكوّنة من عناصر بسيطة جداً وهو يستطيع معرفتها وهو يستطيع تأمين الاحتياجات المادية وتسخير هذا العالم له.

لهذا فإن القدرة الاقتصادية والحياة المادية هي متقدمة وفي حالة تقدّم دائمي، أما إحساس الحقيقة والعشق فإنه يبقى محدوداً وهذا تماماً خلاف ما هو موجود هنا، فإنهم يتلقون ويتعلّمون العرفان والإحساس الإنساني وتجلّي الإنسان كانعكاس للأمور الغيبية وأنها أمور غير عادية وأنها معجزة على الأرض. وأحياناً تكون الحياة الاجتماعية والمادية واقعة تحت تأثير هذا الأمر.

هناك في الغرب نظام يسمّى (بوليتيك) يعني نظام إدارة المدينة. يريد من القائد ورئيس البلدية أن تُدار المدينة بشكل حكومة غربية، بمعنى أن تكون هناك في المدينة حياة وثقافة وروابط اجتماعية بمقدار ما يستطيع أن يقدّمه مسؤول المدينة، فهذه إدارة جيدة وتحفظ المدينة والناس، وعلى هذا الأساس تقدّمت الديمقراطية اليونانية والنهضة الأوروبية. لأن في

الديمقراطية هناك منتخِبين ومنتخَبين. وأن أفضل مَن يُنتخب هم أولئك الذين ينتخبهم الناخبون وهذا ما يتناسب مع فكرة الديمقراطية، وهذه الفكرة كانت موجودة في اليونان وفي روما وكذلك في أوروبا الحديثة.

أما في الشرق فإن السياسة[١] تعني، مداراة الحصان الصغير الصعب الركوب والذي لا يقبل وضع اللجام في فمه، فيقوم المربي بمداراته ومسايسته حتى يقبل اللجام، وهذه السياسة تعادل كلمة بوليتيك اليونانية[٢]ولكن بنظرة شرقية كاملة. وهذان، يشكلان بُعدين متضادين، لأن الاثنين معاً يكونان كلمة واحدة ويُستعمل أحدهما لسوء الاستفادة من الآخر، حيث إن الحكومة والنظرة الغربية هي (بوليتيك) وهي عبارة عن الإدارة الديمقراطية التي منشؤها وأساسها المجتمع، وعلى أساس رغبة الشعب. أما الحكومة مع النظرة الشرقية فهي عبارة عن قدرة قيادية ثورية وتربوية وتغييرية للقيم وتربية المجتمع وكذلك تُعتبر قوة تغييرية للعلاقات الاجتماعية والعادات المنحطة، ومن أجل

---

(١) السياسة، هي مداراة الحصان الصغير من أجل ركوبه ومعناها الاصطلاحي هو تربية وتغيير الناس على أساس هدف معيّن. (المؤلف).

(٢) بوليتيك politique من police وتعني في اليونانية: المدينة، وتأتي بمعنى فن إدارة المدينة، وبمعنى أعم: إدارة المجتمع. (المؤلف).

تهيئة المجتمع وتكامل الأفراد والقيادة وتوجيههم(١) إلى مرحلة جديدة وحالة جديدة ووضع جديد.

لهذا فإن الفكرة السياسية الغربية تنطوي على حفظ الوضع الموجود مع زيادة المراعاة والمداراة، أما الفكرة الفلسفية السياسية الشرقية، فهي مبنية على هداية وتربية وتغيير الوضع الموجود إلى وضع مطلوب بعيد.

إن الفكرة الموجودة في الغرب هي إدارة المجتمع والمدينة على أساس ما هو موجود عند الناس وما يريدونه، وهو الحياة الكريمة حيث إن الأصالة تأتي من هذه الحياة وهذا المجتمع. أما في الشرق، فالأصالة من الفرد مقابل المجتمع وهذه حقيقة مخفيّة في القلب. فالظاهر هو أصالة الفرد. أما الروح فيجب أن تكون بشكل آخر.

إذا صارت الأصالة في الشرق للمجتمع فذلك أيضاً

---

(١) نرى أن الدين يسعى أيضاً لتربية الناس ويعطي للناس ما يطلبونه أو يوجد ما يجب إيجاده. وكذلك فالحكومات والقيادات الثورية على طول التأريخ في الشرق لم تعمل طبق رغبات الناس بل طبق رغبات القيادة. وهذا شعار الدكتاتورية. أن أقود المجتمع بطرف الأفكار والعقائد التي يجب أن تكون موجودة وليس طبق رغبة الشعب. نرى أن في الأمور الثلاثة: الدين، والحكومة الإصلاحية، والحكومة المستبدة، الأصل هو تغيير القيم والهداية في فكرة سياسية واجتماعية شرقية. وبالأخير فأحدهما يمثّل سوء استفادة من الآخر ووجهين لعملة واحدة. (المؤلف)

يرجع إلى قيمة الفرد، فالذي يقتل شخصاً أو نفساً فكأنما قتل الناس جميعاً، والذي يُحييها فكأنما أحيا الناس جميعاً، هذه الأصالة يعطيها القرآن للإنسان باعتباره فرداً، ليس فرداً مقابل المجتمع (يجب أن لا نقع في اشتباه، فالفرد مقابل المجتمع لا يعني الفرد في المجتمع) فهو يريد أن لا يلغي الفرد في ظل أصالة المجتمع، بل أن الأصالة للفرد الإنساني يعطيها لمجموع (أنا)، والمسؤولية تقع على عاتق مجموع (أنا)، ويريد أن يجعل التحوّل والتغيير والمعرفة الذاتية تسري داخل كل فرد من المجتمع. وإذا أراد أن يعطي الأصالة للمجتمع فيجب أن تكون لتنمية وتطوير الأفراد ولا يعني ذلك أنه يجب أن يكون جميع الأفراد ضحية لأصالة المجتمع. لهذا فإن جميع الأنبياء، في الوقت الذي كانوا يسعون فيه لتشكيل المجتمع على أساس المبادىء التي جاؤوا بها، كانوا يخاطبون القلب والروح ويقولون للشخص المقابل يجب أن تغيِّر نفسك، فيجب أن تتحرّر من هذه القيود اليونانية والغربية ومن هذه المحورية الذاتية، ويجب أن تنطلق نحو المطلق. فهذا ما ينتهي إليه الفكر والعقيدة الشرقية، وفي النهاية فإن العقيدة الإسلامية تريد أن تحلّق بالإنسان إلى ذلك المطلق.

وإذا أردنا أن نوضح الفكر الشرقي والغربي بعبارات قصيرة فيجب أن ننظر إلى الحياة من منظارين، شرقي وغربي.

يقول (باندرا) في اليونان القديمة: إن حديقة الحياة تحتوي على نوعين من الورود فقط، هما: الموفقية والشهرة.(١).

ويقول بوذا: إن نهاية الذهاب والإياب في هذه الحياة هي الدموع التي يذرفها الإنسان، وإذا جُمعتْ فإنها أكثر من ماء جميع المحيطات الموجودة على الأرض(٢). إن كل هذه

---

(١) إن أحد الشعراء الطهرانيين البرجوازيين من أولئك الذين يجلسون في مقاهي شمال طهران ويشربون قهوة (سبعة توامين) وينظم شعراً للفقير المسكين. يأتي رجل حلاق ليأخذ منه شعراً يرتبط بمهنته. ففي البداية ينظم شعراً حول الحياة وأنها وردة مفتحة و... ومن ثم يضيف ويقول إن الحياة حديقة... ومن ثم يريد أن يكمل البقية فيقول له رجل قروي، لقد ماتت زوجتي وفقدت شبابي بالقوة. فالحياة حديقة بالنسبة إليك وأورادها مختلفة الألوان. (المؤلف).

(٢) نعرف أن «بودا» يعتقد بالتناسخ ويقول إن الإنسان يموت وتنتقل روحه إلى بدن آخر، فهو يذهب ويرجع وهذا يسمونه (كارما) دورة التناسخ، فهذه دورة مملّة ويجب على الإنسان التخلّص منها. إن النجاة موجودة في جميع الأديان أما في دين بوذا فإن مصيبة الإنسان في هذا التناسخ وهذه الحياة. فهو يعتقد بالتناسخ ونحن لا نعتقد به. بوذا يبشر الحياة بحديقة فيها وردتان: الشهرة والموفقية، وقد كان قبله «فرانسيس بيكون» والفكر الغربي يقول: جاء الإنسان ليحصل على القدرة، وأصالة الإنسان هي المهمة عندهم. (المؤلف).

الآلام هي أساس الروح الشرقية، لأن العذاب بنفسه على سكة أو طريق، ويقابله العشق. وكلما كان هذا العذاب متعالٍ ويتعدّى هذه الأرض ويتعدّى فكرة أصالة الإنسان اليونانية الغربية، فهو بهذا المقدار من التعالي والعشق، يحصل على القدرة والرسالة المتعالية لما وراء الأمور المادية.

أما الشرق، فهو بمقدار العظمة التي منحها لروح الإنسان قدّم ضحية أيضاً وهو الحضارة المادية والحياة المادية.

فمقابل هذا العشق العظيم الذي كانت تطلبه الروح الشرقية دائماً، وكل هذه العظمة والإجلال الإلهي الذي منحه للإنسان ودفع الإنسان نحو الآلهة أو نحو الأديان الموحِّدة ونحو الله، فأحياناً يجعل الناس ينسون جوعهم وضعفهم ولقمة عيشهم.

في الأديان الشرقية، هناك فقط الأديان الإبراهيمية استطاعت أن تحرّر الروح من الحصار الأرضي المحيط بها (بدون الرياضة الروحية وعدم أكل الطعام) وأن ترتفع بها نحو الملكوت الأعلى، وبواسطة الرياضة الروحية وهي إعطاء الخبز والطعام للجياع وتحمّل الجوع من أجل الآخرين، فهذه الأديان تؤمِّن نجاة الروح وتحمل الروح إلى الخالق المتعالي.

الدرس الخامس

«طرح الفكر الغربي والشرقي لعنوان البنية التحتية، من أجل بحث أديان الشرق والغرب»

من أجل الوصول إلى دورة أديان عصر الحضارة، وكما قلتُ من وجهتيْ نظر، شرقية وغربية، حيث إنه ومنذ الدخول في عصر الحضارة، في تاريخ الثقافات والحضارات، تكون هاتان النظرتان مشخّصتين، وهي الآن مورد بحث.

في الجلسة السابقة إن ما طرحناه بعنوان أصول الفكر الشرقي وأصول الفكر الغربي بين علماء النفس وعلماء الثقافة وعلماء الإنسان، قلت إنه البنية التحتية لأديان الشرق والغرب التي أريد طرحها. لهذا فإنه ومن هذا الفصل، ما سنطرحه بعنوان أديان في الشرق أو الغرب يجب عليكم أنتم أن تقارنوا بينها على أساس الأفكار الخاصة الشرقية والغربية. وأن تقيّموا تلك الخصوصيات مع هذه

الخصوصيات الموجودة في هذه الأديان وأن تستنبطوا وجود المشخّصات الشرقية والغربية لدينٍ ما.

قلت إنه من أجل الدخول في أديان عصر الحضارة سوف نبدأ من الشرق، لأن الحضارة بدأت من الشرق. وإذا قبلنا أم لم نقبل! فإن الأديان الكبرى لعصر الحضارة مرتبطة بالشرق.

«في بداية عصر الحضارة، الدين الأفضل والثقافة الكبرى مأخوذة من الشرق»

هناك سؤال وهو: لماذا جميع الأديان بدأت من الشرق وجميع الأنبياء جاؤوا من الشرق وأن الغرب لا يوجد فيه دين. سؤال ينمّ عن عدم اطِّلاع على التاريخ، لماذا، لأن الأديان لم تكن خاصة بالشرق فقط. وأن جميع الأمم والأقوام وكما جاء في القرآن وما صرّح به التأريخ وتاريخ الأديان، لديها أديان، حتى أولئك الذين يعيشون في المناطق المتوحشة في أستراليا والهنود الحمر في أمريكا الشمالية وصولاً إلى المجتمع الشرقي والغربي حيث لا يوجد فرق بينهما.

أما لماذا كان أكثر أتباع الأديان هم أتباع أديان أنبياء الشرق، ذلك لأن الحضارة والثقافة الكبرى بدأت من

الشرق وأن الدين في عهد الحضارة هو مثل الأبعاد الحضارية والثقافية البشرية الأخرى، ولأن الآداب والفن والفلسفة والنظام المدني ونظام الحياة بدأ من الشرق ثم ذهب إلى الغرب، إذاً فالغرب لم يكن بدون دين ثم استحصل على الدين من الشرق. فالغرب صاحب دين، ولكن الدين الموجود هناك كان ابتدائياً ولم يكن يتناسب مع عهد وعصر الحضارة والثقافة. لهذا فإن الغرب حينما دخل إلى عصر الحضارة دخلها بوجوه أخرى للحضارة أخذها من الشرق، وهكذا دخل مع دينٍ آخر ليكون محل الأديان الابتدائية والبدوية له.

«المثقفون الشرقيون اليوم تحت تأثير الحضارة الغربية»

ألم يكن للشرق ـ إيران ـ الشرق الأوسط ـ والشرق الأقصى والأدنى وآسيا وأفريقيا، لهم فلاسفة وفنانون وأدباء؟ ولكن لماذا يقع مثقفونا تحت تأثير المدارس الفلسفية والفنية والأدبية الغربية؟ لأن الحضارة اليوم موجودة في الغرب. والحضارة الغربية أكثر تقدماً. ونحن بصورة طبيعية كما نأخذ منهم التلفاز فإننا نأخذ عنهم أيضاً النظام الحقوقي والاجتماعي، وكذلك الأفكار والمدارس

الفلسفية. وهذا لا يعني أن الفلاسفة هم في الغرب دائماً والشرق لا يملك فلاسفة ولا فلسفة، لأن الشرق وبدون شكّ يمتلك فلسفة وفلاسفة ولكن في مستوى وأبعاد ثقافتنا وحضارتنا. ونحن نصبح مجبورين حينما نحتاج إلى حضارة أخرى أرقى، فكما نحتاج إلى الأمور المادية الحضارية الجيدة، فإننا نطلبها ونأخذها، فكذلك نحن نقوم بأخذ روح فكر الحضارة الجيدة ثم نقع تحت تأثيرها. ونحن اليوم نعيش تحت تأثير الحضارة الغربية، ومن الطبيعي أن نقع تحت تأثير فلسفته، وكما كان الغرب سابقاً قد وقع تحت تأثير الحضارة الشرقية، فإنه وبصورة طبيعية وقع تحت تأثير الدين الأفضل.

لذا، حينما نريد أن نبدأ بتاريخ الأديان الكبرى يجب أن نبدأ من الشرق ومن أقدمها حضارة وثقافة، حتى يمكننا أن نتعرّف على المدارس الفكرية الدينية والثقافية والمعنوية والتي حكمت في الشرق. وابتداءً، هناك منبعان، أحدهما ما بين النهرين وما يتفرّع منها، والثاني هو أديان الهند وما يتفرّع عنها. والصين تُعتبر مقدمةً للدخول إلى الثقافة العظيمة والأديان الكبيرة والعميقة في الهند.

ـ الصين ـ

الأديان الابتدائية الصينية:

إن الصين تشبه جميع الملل الأخرى حيث إنها مرّت بعهد بدوي. دورة المجتمع القبائلي الابتدائي، والأديان الصينية في هذه الفترة بذاتها كانت أدياناً بدوية، وتلك المسائل نفسها كانت موجودة في (الطوطميسم)، (تابو) و(مانا)، (فتيشيسم) و(انيميسم) وهذه كانت أدياناً ابتدائية في الفترة البدوية. وهذا يمكن أن يكون موجوداً في دورة الحضارة الصينية. يعني أن الصينيين في فترة البداوة قبل ألف عام وإلى ألفين عام قبل المسيح، كانت أديانهم هي الأديان التي ذكرناها، وهي عبادة الروح وعبادة الأشياء والأجسام وغيرها من العبادات. لهذا لم يكن من الضروري أن ندخل هذه الدورة ونبحثها بدقة، لأننا اطّلعنا وبدقة وبصورة كلية على هذه الأديان، ويمكننا مقايسة ومقارنة أديان الصين الابتدائية مع تلك الأديان.

الأديان المتعالية في الصين:

إن الدين الصيني ومنذ أن أخذ شكله الفلسفي المتعالي وصار قابلاً للبحث، فإن هذه الفترة سمّيت بفترة حضارته،

حيث إنه ظهر وتجلّى بصورتين مشخصتين ومعروفتين: إحداهما «تائوئيسم»[١] أو «فكر تائو»[٢] وهذا يُعتبر من أكبر الأديان الصينية وأعرقها ثقافة وفكراً، والثاني هو مدرسة (كنفوشيوس) وهذا يعتبر مدرسة فكرية عقلية إصلاحية، وديناً صينياً ظهر في الفترة الآتية كدينٍ إصلاحي.

---

(١) تائوئيسم: الطاوية.. تقدّم الكلام في حاشية سابقة عن الشاعر والفيلسوف «لاوتسي» أو «لاو تسو» ـ معلم كونفوشيوس وأستاذه ـ وسيعرض الدكتور شريعتي بشكّل مفصّل في الصفحات اللاحقة لعقيدة الطاوية وكتاب «الطاو».. وهو كتاب صيني مقدس، يرجع تاريخه الى حوالي ٢٦٠٠ ق.م.

(٢) فكر تائو: فكر «الطاو».. أعادت أوروبا (الألمان والفرنسيون والإيطاليون) اكتشاف كتاب «الطاو» بداية القرن الماضي، وتخاطفه هناك الفلاسفة والشعراء والطليعيون، المتمردون، والصعاليك.. والحَدَاثيون والمابعد حداثيين يبحثون فيه، ربما، عن مخرج من أزمة القولبة الفكرية والحضارية والدينية المعاصرة.. مثلما أعادوا اكتشاف ملحمة جلجامش والإلياذة وألف ليلة وليلة. يحتوي «الطاو» على عشرة الآف نص، أو حكمة أو قصيدة أو سِفر أو مقولة أو وصيّة، أو «كائن» كما يسمّيها «لاوْتسي-لاوْتسو-لاوْتزو» أحياناً. وأحيانا يعرّفها بـ (العشرة الآف). غير أن الثابت والمتفق عليه من قبل دارسي الكتاب أنه في تلوّن وتنوّع «نصوصه» ـ وهي التسمية التي أرتاح إليها ـ تكمن طاقة شعرية لا حدود لها. يحتار المرء في تجنيس نصوص «الطاو» فهي دين وشعر وحكمة وفلسفة وآيات أسرار الحياة وأعماق الإنسان، وفوق كل ذلك هي كلمات سهلة غائرة في البساطة إلى حد البراءة وموغلة، في ذات الوقت، في المعرفة الصعبة، التي تولّد الأسئلة والتأمل.

النظرة الصينية:

من أجل معرفة (تائو) ومن أجل معرفة الروح العميقة والفكرة الدقيقة للدين والفلسفة الصينية، يجب أن نعرف النظرة الصينية.

إن النظرة الصينية لهذا العالم، هي نظرة خاصة. ويمكن معرفتها من خلال الألوان والأشكال ونوع الاستفادة من الطبيعة والأشياء الطبيعية والإنسان الذي يمتلك لوناً صينياً خاصاً، اللون الموجود في فنّه ودينه وفلسفته وحقوقه ومجتمعه وتاريخه فهو واضح وعلامة خاصة للصيني.

خصوصيات الروح الصينية:

التضاد أحد مشخّصات الروح الصينية:

إن أحد المشخّصات للروح الصينية هو التضادّ، حيث يظهر واضحاً في روح هذه الأمة. وهو مرتبط بجميع الشعب الأصفر وتعتبر هذه الصفة من الصفات المتعالية والمتكاملة لهذه الأمة حيث ظهرت وتجلّت خلال التاريخ. إن الروح الصينية لها جلوَتان متضادتان، إحداهما الخشونة والبأس في الحرب والحماس المملوء بالأناشيد أثناء القتال، وهذا واضح عند الصينيين، فهذا الحماس ملازم

للأقوام الصينية على مدى التاريخ، وهو ما يُعطي صفة خاصة لهذه الروح. هجوم المغول وهم من الأقوام الصفر في الماضي، والصراع اليوم في أبعاده المختلفة وخلال الثلاثين سنة والأربعين سنة الأخيرة والذي هو مستمر إلى الآن في الشرق الأقصى، وكذلك الحرب اليابانية خلال الحرب العالمية الثانية، هذه كلها انعكاسات وتجلّيات لهذه الروح. الصيني يحارب، والفيتنامي يحارب، والكمبودي يحارب، والهند والصين الكبرى وفرنسا. وكل واحد من هؤلاء يمتلك ظاهرة خاصة في الحرب، وهذه الظاهرة والخصوصية هي الروح الصينية، والخشونة الشديدة وسهولة قبول الموت ورؤية الدم، وفي نفس الوقت هناك ما هو ضد هذه الخشونة وهو وجود اللطف العميق، والإحساس والتجليات العاطفية الإنسانية داخل الفرد الصيني.

ومن جانب آخر فإن ألطف وأرقّ الحالات الشعرية والعرفانية والأخلاقية تتجلّى بقوة وعظمة لا يمكن تصوّرها في الشعر والفن الصيني وفي الروح الصينية. وهذا كلّه نتيجة هذه الروح الصينية العاطفية الحساسة.

إن من أهم مشخّصات الفن هي الدقة والظرافة، وفن

«المينياتور»[1] خير دليل على هذه الدقة والظرافة. والفن الصيني مثل الموسيقى والشعر اللذين يُعتبران من ألطف الشعر والموسيقى في العالم.

ويمكن مشاهدة تجلّي هاتين الروحين المتضادتين عند المغول المهاجم، فنرى أن في حملاتهم على إيران، كما كان في المناطق الأخرى من العالم، هو القتل والحرق والشدّة وعدم الرحمة، ولكن لم يمضِ جيلٌ واحد حتى تبدّل حكامهم إلى عارفين وإلى أرحم حكام تأريخنا، وتبدّل اسم «جنكيز»[2] إلى اسم «محمد» و«عبد الله» وأصبحوا

---

(١) المينياتور: عبارة عن رسوم صغيرة ودقيقة، ويُسمى هذا النوع من فن الرسم بالمينياتور. في العصور الوسطى في أوروبا كانت الأحرف الأولى لنصوص الكتب تُزين بكتابة الحرف الأول باللون الأحمر، ولهذا الغرض كان يُستخدم لون أحمر جميل سُمي «بالمينيوم» ويُصنع من أكسيد الرصاص، وتأتي كلمة «مينياتور» من هذا الإسم. فالمينياتور عبارة عن طراز من الرسم كان يُعرف في الغرب والشرق منذ القِدم، ويقول البعض أن المينياتور فن شرقي ذهب للغرب عن طريق الشرق.

(٢) جنكيز خان (١١٦٢ - ١٢٢٧م): فاتح مغولي كوَّن أكبر إمبراطوريّة في التاريخ. حكم مساحة تمتد عبر أواسط آسيا من بحر قزوين إلى بحر اليابان. كان جنكيز خان عبقرية سياسية وعسكرية، إذ وحَّد المغول وقبائل بدوية أخرى في قوة محاربة منضبطة وفعّالة. امتاز جنكيز خان بقدرات تنظيمية عالية. وكان مفرط الكرم لأتباعه. وعلى الرغم من أنه لم يكن مهتمًّا بالأمور الثقافية، إلا أنه شجّع شعبه على تعلّم القراءة والكتابة. كما أسّس أول نظام قانوني للمغول، سُمي «ياسا» أو «ياساك». هيّأت حالة=

ملازمين للصلاة والعبادة. لقد تحوّل هؤلاء الذئاب إلى متصوّفة وعارفين، وأحياناً لم تكن هذه الأمور خالية عن الأغراض السياسية. فهذه النصف ظاهرة من الإحساس والعاطفة والظرافة في الروح الصينية، تشكّل مع النصف الآخر وهو الخشونة والصلابة، الروح الكاملة للصيني.

فعند الأمير «تيمور»(١) و«هولاكو»(٢) الحاكمَيْن

= الانضباط التي أوجدها في جميع إمبراطوريته الواسعة نموًّا في التجارة بين الصين وأوروبا.

(١) تَيْمورلَنْك (٧٣٧؟-٨٠٨هـ، ١٣٣٦؟ - ١٤٠٥م). قائد مغولي مُسلم، أقام إمبراطورية مترامية لكنها كانت قصيرة الأجل، ويُشار إلى تيمورلنك أيضًا بتيمور الأعرج.
كان تيمورلنك من التتار، مغوليًا من سلالة جنكيزخان، وهو غازٍ آخر. وُلد تيمورلنك في أسرة لزعيم بالقرب من سمرقند في تركستان. وفي شبابه أصبح مشهورًا ببراعته الرياضية. وبعد عام ٧٦٠هـ، ١٣٥٨م اشترك في حروب كثيرة (قبل إسلامه). واعتلى عرش سمرقند سنة ٧٧١هـ، ١٣٦٩م، وحكم مملكة واسعة في آسيا الوسطى. وبعد عام ١٣٦٩م انطلق جيشه غربًا وجنوبًا إلى أفغانستان وبلاد فارس والهند وآسيا الصغرى.. فتح تيمورلنك الهند سنة ١٣٩٨م، واتجه إلى سوريا سنة ١٤٠١م. واستولى على بغداد، وفي ١٤٠٢م دمر الجيش التركي الذي أُرسل لمقاومته، بأكمله.. استولى على دمشق وهزم الجيوش المصرية. وبذلك أصبح حاكمًا لإمبراطورية شاسعة كان مركزها في تركستان. وتحرك بعد ذلك ليغزو الصين. ولكنه قبل أن يحقّق هدفه مات بالحمّى في معسكره. وتفكّكت إمبراطوريته بعد ذلك بزمن قصير.

(٢) هولاكو خان (١٢١٧ - ١٢٦٥ م). حاكم مغولي، غزا معظم أراضي غرب آسيا. وهو حفيد «جنكيز خان» وأخو «أريغ بغا» و«كوبلاي خان» و«مونكو=

المعروفين بسفك الدماء في التاريخ والمرتبطين بتلك القومية، نجد عندهما في نفس الوقت، حالات لطيفة من العرفان الإنساني.

ويقول الشاعر الألماني «هاينه»[1] حول هولاكو: حينما

= خان». وهو أول «خانات» فارس.. كان هولاكو شديد الولع بالحضارة الفارسية وثقافتها، فكان أن أصبح «خان» بلاد فارس، ومؤسس عهد «الخانات» فيها. وكان العديد من معاونية ومستشاريه من الفرس.
أُرسل من قبل أخيه «مونكو» في عام ١٢٥٥ لإكمال ثلاث مهمات في جنوب غرب آسيا، أولاً: لإخضاع قبيلة اللُور- في جنوب إيران، ثانياً: القضاء على طائفة الحشاشين، وثالثاً: إخضاع الخلافة العباسية في بغداد والدولة الأيوبية في الشام ودولة المماليك البحرية في مصر. وأمره أخوه «منكو خان» أن يعامل الذين يستسلمون له برحمة وأن ينكّل بمَن لم يستسلموا.

(١) هاينريتش هايني (١٧٩٧ - ١٨٥٦م): أديب ألماني يُعد ضمن أكثر الكتاب شعبية في الأدب الألماني، وكان العديد من قصائده معروفًا جيدًا باعتباره جزءًا من الأدب الشعبي الألماني. وقد وضع ملحنون مثل «شوبير»، و«مندلسون»، و«برامز» ألحانًا موسيقية لأشعار «هايني».
وُلِدَ «هايني» في «دوسلدورف»، وقد جمع الكثير من أشعاره الأولى في «كتاب الأغاني» (١٨٢٧م). وتُعد مجموعة أشعار الحب هذه أكثر أعماله شهرة وأكثر كتاب شعر مشهورًا في الأدب الألماني. وقد وُصِفت القصائد بأنها «الحلو المر» لأنها تدمج البساطة والجمال مع التهكم الذي يعطيها نبرة ساخرة، والقصيدة الأكثر شهرة هي «لوريلي».
وكان نثر «هايني» المبكر خليطًا فريدًا من القصة والمقالة. وقد نشر الكثير منه في أربعة مجلدات باسم «الصور المسافرة» (١٨٢٦ - ١٨٣١م). ومثل معظم كتابات «هايني»، اتسمت هذه الأعمال بالمرح والسخرية والوضوح، والذكاء.

يصل إلى مدينةٍ ما، فإنه يأمر بالقتل العام، ويحرق المدينة، وحينما يغادر مع جنوده المدينة المحروقة فإنه يسأل أحد الضباط أو الجنود: ما اسم تلك المدينة؟ وهذا الإنسان، في أي مدينة، وقبل أي عمل، يذهب إلى المقبرة ويؤدّي الاحترام لقبورها. هذه الحالة هي حالات إنسان عارف، إنها روح عرفانية في بدن إنسان سفّاك للدماء.

«هاينه» في أحد أشعاره الجميلة يشير إلى هذا التوجّه الموجود عند هلاكو بالنسبة للقبور ويقول: جاء إلى طوس[(١)] ووصل إلى المقبرة إلى جوار قبر «فردوسي» وأمر أن يُحفرَ القبر وحينما نبشوا القبر كان مملوءاً بالورود الحمراء. وبعد، حينما ذهب جنكيز إلى الشرق الأقصى أصدر أمراً أيضاً بحفر قبر فوجده مملوءاً بالدماء...

«تقديس القومية والانحياز الشديد للوطنية إحدى خصوصيات الروح الصينية»:

إن إحدى الخصائص الأخرى للروح الصينية هي الانحياز الشديد للقومية والوطنية، حتى أن بعض الناس من

(١) طوس مدينة مشهد وتسمى خراسان أيضاً أو هي جزء من إقليم خراسان (المترجم).

تلك القومية، وقد أصبحوا الآن جزءاً من المجتمع العالمي ويُنادون بالمسائل الإنسانية، يفتخرون الآن بـ«جنكيز خان» باعتباره بانياً للقدرة والافتخار في التاريخ.

هذا الانغلاق في الروح الصينية يظهر واضحاً فيما بعد في الديانة الصينية أيضاً، وهذا الانغلاق كان قومياً وتقديساً للقومية، وجعل الوطن معبوداً، بحيث إن الوطنية والانتساب والتعصّب للقومية والعادات الاجتماعية والتأريخية أصبحت من خصائص هؤلاء القوم، كما كانت على مدى التأريخ، وهي الآن موجودة أيضاً، وفي نفس الوقت، تمتلك فلسفة ونظرة عالمية وإنسانية خاصة. لهذا، فإن علماء الاجتماع وعلوم الإنسان الأوروبيين يسمّون الماركسيين الصينيين والشعب الأصفر اليوم، يُسمّونهم بالماركسيين العارفين.

وهذا يدحض أن مشخصاتهم وصفاتهم القومية محفوظة حتى عند الماديين، لهذا فإن هؤلاء الشيوعيين هم شيوعيون عالميون. وهذا التضادّ عندهم يصبح واضحاً ومشخصاً، والمادية مادية خاصة بهم، وأما أصالة الإنسان فإنهم يعتقدون بها حسبما يتّفق مع وضع قومهم.

الاعتقاد بالطبيعة أحد خصائص الروح الصينية:

البُعد الآخر الذي يصبح مكملاً لمثلث تضاد الروح الصينية هو الاعتقاد بالطبيعة. والعقيدة الطبيعية الصينية تختلف عن العقيدة الطبيعية الأوروبية، فالطبيعة الأوروبية هي في المحسوسات الموجودة على الطبيعة الملموسة والتي يسمونها بذات الفائدة، فهم لا يؤمنون بغير ذلك، أما الصينيون فإنهم يرون أن هناك روحاً عرفانية وعقيدة دينية في عمق الطبيعة المادية.

هذا التضادّ في الروح الصينية يعتبر تضاداً كبيراً ومهماً وهو مفتاح تلك الروح الرمزية المخفيّة.

في إيران وحتى في أوروبا، حينما يريد الإنسان أن يهرب من شر الحياة الاقتصادية والمادية ويلجأ إلى الأمور المعنوية فإنه ينزوي في غارٍ أو منزل أو مسجد أو معبد وخلال هذه الخلوة يبدأ بمراجعة نفسه ويمارس الرياضة الروحية. أما الفرد الصيني فإنه حينما يفرّ من الحياة المادية والاجتماعية والاقتصادية فإنه يلجأ إلى الطبيعة المادية وإلى عمقها وأحضانها. فالطبيعة بالنسبة له وبالرغم من أنها طبيعة فهي أيضاً إله، وهي مظهر من مظاهر ما وراء الطبيعة أيضاً. فالطبيعة بالنسبة له بالرغم من أنها

مادية إلا أنها تحمل روحاً أيضاً، فهو لا يرى المادة في عمق الطبيعة كما يراها الفرد الأوروبي، بل إنه يلمس ويحس أن فيها روح العالم والإله. ويمكن ملاحظة آثار هذا الانجذاب في الرسم والأدب والفن والنحت والثقافة الصينية. وهذا الانجذاب بحد ذاته انجذاب عرفاني، عبادة الإله وما وراء الطبيعة.

الروح الصينية في لغة الشعراء:

يعتبر (لوي) شاعراً صينياً كبيراً. وقد يكون من أفضل الشعراء الروحيين في العالم ويختلف عن شعرائنا بأنه لا يلجأ إلى الانزواء كشعرائنا الصوفيين. يقول: عندي حب للحياة ومن خيرها ومن شرها ومن هذه المدينة وأسوارها المرتفعة أريد أن ألجأ إلى عمق الطبيعة وقلب الغابات التي لم تطأها الأقدام. وأشم هناك الهواء البارد الغليظ عند السَّحر، وأصيد الطيور بيديّ الرحمة، لن أقتلها. حيث إن الطيور هناك لم تعرف الخوف والرعب. لأن الإنسان لم يصل إلى هناك ولم يستطع التخريب. آخذ الطيور بقبضتي الحنونة وأمسح بأنامل الحرية على أجسامها العارية. هناك يكون جسم الإنسان العاري الفار من الحياة وبرجوعه إلى ذاته يكون قد وصل إلى الطبيعة. . هل أن هذا يعتبر شعراً

أم فلسفة؟ ديناً أم عرفاناً؟ مادة أم رهبنةً؟ يجب أن نبذل جهداً لفهم كل هذا.

الموت المجلل بالعرفان للشاعر الصيني:

موت الشاعر له أيضاً جانب عرفاني: مرّ الليل من جانب النهر ـ كان مخبّأ بالروح العرفانية الشرقية الخاصة ـ وكانت صورة القمر بكاملها في النهر ـ مرّ رجل وقد نظر إلى صورة القمر في النهر ـ كان القمر يسبح عارياً في الماء ـ وقف الرجل ينظر إلى جسم القمر العاري ـ ارتفع فيه العشق والشوق ـ سمع صوت أرجل الماء ويديه ـ القمر يسبح والأمواج تتلاطم فيما بينها. ترتفع أصوات الموسيقى وهي توحي بأن القمر يسبح في النهر.

وقف الرجل يتأمل مدّةً وانجذب لذلك المنظر ـ خرج من ذاته وبشوق وجنون ارتمى في الماء ـ وأخذ القمر وضمّه إلى صدره ـ غرق الرجل في الماء ومات. . هذه هي النظرة الصينية إلى الطبيعة، وهذه النظرة موجودة في فلسفته ودينه كما هي موجودة في شعره وفنّه ونَحْته.

«تجلي الروح الصينية في الشعر واللغة والرسم»

الرسم الصيني (مينياتور) حيث تكامل فيما بعد في

إيران، فهو رسم حديث جداً ومن أنواع رسوم الفنانين «غوغان»[١] «فان جوخ» و«سورات»[٢] وأمثالهم، فهم يملكون الأمل والشهرة فيه.

يقول سورات: بحق، نحن الرسامون الطبيعيون في رسومنا أو قصصنا نندفع كثيراً، وإذا كان هناك من انتقاد فهو أننا نهتم بالأشياء المادية كثيراً، ولكن لو نظرنا إلى رساميهم ورسوماتهم وقصصهم نجد أنهم حينما يريدون أن يصفوا غرفة مثلاً فإنهم يأتون على جميع الأشياء الموجودة

---

(١) بول غوغان (١٨٤٨م - ١٩٠٣م): رسَّام فرنسي اشتهر بالسيراميك، والنحت، والرسم الخشبي.. في لوحاته الزيتية المزخرفة، كان يغيِّر الصورة الطبيعية بإدخال مساحات واسعة ملوّنة ومتعرِّجة. وسّع أسلوبه الطرق التي يمكن للفنانين التعبير بها عن أنفسهم في بداية القرن العشرين. أثّرت لوحاته الزيتية على المدرسة «الفوفية»، وبخاصة الرسام الفرنسي «هنري ماتيس»، كما أثّرت على التعبيريين الألمان.

(٢) جورج سورا (١٨٥٩-١٨٩١م): فنّان فرنسي، طوّر نظام التنقيطية أو التصوير بالنقط. فبدلاً من أن يستعمل ضربات الفرشاة، كان «سورا» يرسم نُقطًا منتظمة ملتصقة ذات ألوان باهرة. وتبدو هذه النقط من على البعد مندمجة، وتوحي بألوان أخرى ذات ألوان باهرة بالدرجة نفسها. وظهرت التنقيطية في أشكال مختصرة لدرجة أن أشكال البشر تبدو بلا شخصية، وتقارب شكل الإنسان الآلي. وتبدو هذه الصفات في لوحة سورا المسماة نهار الأحد على جزيرة «لاجراند جات» (١٨٨٦م).
وُلد سورا في باريس، وكان انطوائيًا، لم يُعرف سوى القليل من التفاصيل عن حياته الخاصة. وكان يرسم دائمًا، ولكنه أكمل القليل من أعماله. مات سورا بالديفتيريا.

فيها. فيقول هكذا كانت الجدران، والمدفأة كانت هناك، وفلان كان جالساً على هذه الصورة وفي ذلك المكان وكان يرتدي هذا اللباس وكانت يداه في هذا الوضع ورأسه إلى اليمين أو الشمال، وهذا ينظر هكذا .

ويعطي سورات الجواب فيقول: ينتقدوننا لماذا تعطون كل هذه الأهمية للحياة المادية وجزئيات الظواهر الطبيعية، وبحق فمثلاً هذا الحصان حينما نرسمه أو نكتب عنه فإننا نصفه بدقة، ولكن هذا الحصان ليس هو الحصان الموجود في مربطه أو المربوط إلى العربة، إنها غير موجودة على الأرض وتحت السماء، فهو ليس هذا الحصان الموجود، إنه الحصان الذي يجب أن يكون موجوداً، الحصان الذي نخلقه نحن وليس الحصان المخلوق في الطبيعة.

إذاً فالفنان التشكيلي هو الذي يوجد أشياء في الرسم أو القصة ولكن ليس تلك الأشياء الموجودة، بل تلك التي يريدها الشاعر أو الرسام، وهذا فقط هو الجوهر الكلّي للحصان والذي اقتُبس أو أُخذ من الطبيعة.

سماء الأرض، سماء الدنيا زرقاء، أما بالنسبة لي أو لأبطال أثري الفني حيث أحترق في نار الاضطراب والقهر، فإن السماء الزرقاء تصبح ليس لها معنى وليس فيها ألم.

فأنا أصوّر السماء بلون أصفر حيث هذا اللون يحكي قصة اضطرابي وآلامي، لا توجد سماء صفراء في الطبيعة ولكن الفنان التشكيلي هو الذي أوجد هكذا سماء.

لذا فإن الكتّاب أو الفنانين في هذه المدرسة الحديثة للرسم أو القصة، يعطون معنىً للأشياء من عندهم، ولم يكن هذا المعنى موجوداً في الأشياء نفسها، فهم يخلقون ويكتشفون، وهذا العمل يُشبه بذاته عمل المينياتور.

ففي (المينياتور) نرى أحياناً أناساً لا يشبهون الناس الموجودين في الطبيعة، وهذا لا يعني أن الرسام لم يستطع رسم هؤلاء الناس الطبيعيين، ولكن الرسام الكبير برسمه لمثل هؤلاء الأشخاص، لديه قصد وفلسفة من وراء الأمر.

وأحياناً نرى في المينياتور نهراً مرسوماً باللون البنفسجي. لا شك أن الرسام يمتلك عقلاً بقدر عقولنا ويعرف أن النهر ليس بنفسجياً. أما إذا كان هناك بعض الناقدين الذين ينتقدونه في الصحيفة ويقولون إن الرسام لم يفهم حينما رسم النهر باللون البنفسجي، فإن الرسام يعرف أن اللون البنفسجي ليس هو لون النهر، ولكنه يريد أن يرسم نهراً باللون البنفسجي، يريد أن يرسم نهراً غير موجود في الطبيعة.

ففي المينياتور، ليست الأشياء كما هي في الطبيعة، وإنما كما يريدها الرسام.

في لوحة فنية ترجع إلى القرن السادس قبل الميلاد حيث الدورة الابتدائية للرسم الصيني ـ فقد صور الرسام الفضاء بلون أصفر وهذا يعكس شدّة الحرارة وقوّة الشمس ـ أما الأرض فهي مغطاة بالثلج والأشجار مثل زجاج البلور، تشبه قلب الشتاء. شمس تموز في السماء وثلج الشتاء على الأرض والأشجار.

إن الرسام تعمّد هذا التضادّ، التضادّ غير الموجود في الطبيعة، ولكنه موجود في روحه، فهو يريد أن يجسّم ما هو موجود في روحه، في الخارج. إن النظرة المينياتورية هي نظرة الفرد الصيني للطبيعة. والطبيعة كما يراها الصيني، وليس تلك الطبيعة التي يراها الأوروبي. فالأوروبي يرى الطبيعة كما هي عليه ويمكن أن يوضحها ويبيّنها الفيزيائي والكيميائي، أما الرسام الصيني فيصوّر الطبيعة باللون الذي يريده وهو يعطيها وجهاً ويعطيها أبعاداً أخرى، ويبنيها ويصوّرها كما يريد وليس كما هي موجودة.

هذه هي النظرة الصينية للطبيعة. وكذلك في الفلسفة. والطبيعيون والعقيدة الطبيعية هي عرفان وتصوّف عميق.

«عقيدة تائو»

في النظرة والثقافة الصينية هناك ثلاثة أصول موجودة وهي أساس مدرسة العقيدة التائوية[١]، والطاوية هي المدرسة الفكرية الكبيرة في الصين، ومرة ثانية سوف أقول إنني لن أكرر الأصول المشتركة للأديان. وحول هذه المدرسة أقول أنتم يجب أن تبحثوا عن أصولها وتقارنوا بينها.

«الأصول الثلاثة الأساسية لعقيدة تائو»

أولاً ـــ وحدة الوجود:

إن الصيني يرى الوحدة في الوجود والطبيعة. هذه واحدة من العقائد المشخّصة والبارزة في وحدة الوجود في الصين، القمر، النجوم، الأرض، السماء، المعادن، الماء، الإنسان، الرديء، الجيّد، والحيوان والجماد، هي أمور كثيرة، وهذه الأمور مختلفة ومتفرّقة. أما الفرد الصيني فمنذ البداية ومع مضي أكثر من ألفيْ عام ما قبل الميلاد، يرى أن تحت هذه الاختلافات يوجد أمر مشترك، ويرى أن هناك تحت هذه الكثرة وحدة. الفرد الصيني يرى أن هذا الإنسان قتل إنساناً، وقدّم إنساناً نفسه ضحية لإنسان آخر،

---

(١) التائوية: الطاوية.

فوقعت الزلازل ودُمّرت المدينة ونزل المطر واخضرّت الأرض، وهذا تضادّ، تضادّ في طبيعة الإنسان وفي الطبيعة. والصيني يرى هذا التضادّ ولا يفهمه، لماذا في الطبيعة والإنسان، لماذا يرى كل هذا في جميع الحركات والتغيّرات والتبدّلات! كل هذا ناتج عن عدم وجود العدالة، ولكنه يرى هناك نظاماً واتّحاداً ووحدة في جميعها، ففي كل ذرّة، وفي كل ورقة، وفي الحشرة، وفي الأرض والسماء، هذا النظام موجود وهذه الوحدة موجودة، فالنظام هو الذي يحكم العالم.

أما هذا النظام والتضادّ والوحدة والكثرة الموجودة في عالم الوجود، كيف يمكن للصيني أن يحلّها؟

يانغ ـ وين ـ القوة المثبتة والقوة المنفية في الفكر الصيني:

يقول الصيني أن هناك قوّتين أو خصوصيتين موجودتين في جميع الأشياء والأشخاص والظواهر الطبيعية المادية أو المعنوية:

«يانغ»[1] وهي القوة الفاعلة، أو القوة المذكَّرة، أو

---

(١) هذه فلسفة «تُونغ تْشونْغ شو»، وركيزتا فلسفته هما ألـ«يانْغ» yang، =

المثبتة، أو القوة البنّاءة، وهي في المرتبة العليا، أما «يين» فهي القوة المنفيّة، أو المنفعلة أو القوة المؤنثة.

فالشمس تشرق على الأرض والمطر ينزل عليها فيُحيي الأرض وتخرج النباتات. السماء التي ترسل النور والمطر فهي مرتبطة أو هي صاحبة (يانغ)، والأرض التي تستقبل المطر والنور وحرارة الشمس فهي مرتبطة أو صاحبة القوة (يين)، ومن خلال جمع يانغ - السماء، ويين - الأرض، فإن مولوداً سوف يظهر أو معلولاً سيأتي وهو الخضار أو النبات.

النهر الذي يتحرك فهو «يانغ»، والساحل الذي يكون رطباً فهو «يين»، والأشجار والنبات على ضفّتي النهر هما نتيجة للاثنين.

= والـ«يِنْ» yin. المبدأ الأول هو جوهر السماء، أو هو مبدأ غامض يصعب صبّه في مصطلح عَرَبي، أو غرْبي، واحد وحيد. فاليَانْغ، في عمارة «تُونغ تْشونْغ شو»، هو تارةً كائن مادي، وهو ذو وعي تارةً أخرى؛ بل هو في تعريفات أخرى «الطبيعة». وفي جميع الأحوال، إن اليانْغ هو الجانب الإيجابي من الطبيعة أو من مادة الإنسان، أو من العلائق الإجتماعية. أما الجانب الآخر السلبي، والذي هو ألـ«يِن»، فهو جوهر الأرض؛ بل هو مبدأ تتوضّح صورته إنْ عرفنا موقعه، ودوره، في مقابل اليانْغ، ففي كل العلائق (العائلية، الإجتماعية المتنوعة، السياسية، الأقاربية، أَلَخ.. بل وحتى بين الأشياء المادية) نجد ذَيْنَك الجوهَرَيْن: بين الحاكم والرعيّة، الزوج وزوجته، الأب والإبن، أَلَخ..

كذلك فإن جميع الموجودات وحتى الأرواح المجرّدة والموجودات الغيبية تمتلك «يانغ» و«يين». فالملائكة عندها «يانغ»، والأجنّة عندها «يين».

حتى حركات الإنسان كذلك أيضاً: فالقيام «يانغ» والقعود «يين». وعلى هذا فجميع الوجود ومع جميع الظواهر هما مسرح لـ «يانغ» و«يين»، وإن جميع الأفراد وجميع الأرواح ما وراء الطبيعة وجميع الحوادث والحركات هما نتيجة هذا الصراع، الصراع بين هاتين الظاهرتين اللتين توجدان شيئاً أو أشياءَ جديدة.

نظرية الثبوت والتحوّل، هل هي شرقية أم غربية؟

هذه النظرية تعتبر أساساً لطريقة تفكّرٍ ومنطقٍ خاص، حيث إن الأوروبيين ينسبونها إليهم. ويقولون إن منطق الديالكتيك هو أوروبي والحال أن أساس هذه النظرية من الشرق.

يقول الأوروبيون دائماً، وبالذات علماء الاجتماع الجدد، أن الشرقيين يفكّرون تفكيراً ثابتاً. بمعنى أنهم يقولون ويعطون لكل شيء ولكل ظاهرة تعريفاً ثابتاً، فمثلاً يقولون: إن المادة هكذا تكون والإنسان بهذا الشكل، وأن

تعريف الأرض بهذه الصورة والسماء كذلك. وهذا التعريف جيد وهذا رديء. والحقد مثلاً هكذا يُعرّف والعشق هذا معناه. وهذه التعاريف ثابتة لكل شيء، لأنهم يعتقدون أن جميع هذه الأمور وهذه الظواهر ثابتة .أما نحن الغربيون فعلى خلاف ذلك، فنحن نعتقد بالتغيير والتبديل حيث لا يوجد هناك شيء أزلي وثابت، بل إن كل شيء وفي كل لحظة هو في حالة تبديل وتغيير إلى شيء آخر، لأن الحقائق غير ثابتة في حال صيرورتها وحياتها وموتها.

لهذا فالشرقي يفكر تفكيراً منطقياً يعني تفكيراً ثابتاً، والغربي دياليكتيكي. يعني الحياة الغربية في حالة حركة وتغيير، ويفكر أن كل شيء اختاره يمكن أن يذهب في أي لحظة، والإنسان يمتلك قدرة تغييرية، أما الشرقي فإنه يرى أن كل شيء مقدس وأزلي وغير قابل للتغيير، وهذا تسليم.

إن الغربي يرى أن كل شيء اعتباري وفي حالة تغيير، وفي حالة انتهاء، الغربي يبني ويتسلّط. أما الشرقي فهو معلّق وغير بنّاء، حيث إن تفكيره ثابت.

هل إن كل هذه الخطابات صحيحة، ولكن على عكس ذلك، فالمنطق الثبوتي هو من أرسطو وقد دخل تاريخ الإسلام منذ القرن الثالث وأخذ اسم المنطق الإسلامي

ويُدسّ الآن في حوزاتنا بعنوان المنطق الإسلامي[١].

«الفكر الإسلامي شيء والعلوم الإسلامية شيء آخر»

الطلاب قالوا ويقولون إن القرآن يقول: إن الأرض واقفة على قرن بقرة[٢]. والقرن على البقرة نفسها! والبقرة على سمكة والسمك على الماء و...!

قلت: أي قرآن يقول هكذا؟

قال: أنا نفسي درستُ عند شخص يدرِّس العربية والعلوم القديمة وعلوم الهيئة، وفي كتاب الهيئة هكذا مكتوب.

قلت: هذه الهيئة هي في الأصل بابلية وترجع إلى ألف سنة قبل رسول الإسلام.

فأحياناً هناك علوم تُدرس بعنوان علوم إسلامية ولكنها

---

(١) يرى شريعتي أن المنطق الأرسطوي، منطق ثابت. ويرى أن الديالكتيك (الثابت والمتحوّل) أو (الثابت والمتغيّر) موجود منذ قديم الزمان في الشرق، والغرب أخذه عن الشرق، ومن خلال عرضه لمنطق (تشونغ)، (اليانغ) و(الين) ظهر أن الديالكتيك كان موجوداً في الصين قديماً. وسيعرض شريعتي أيضا للديالكتيك الإسلامي الذي يبدأ منذ خلق آدم عليه السلام، من خلال المزج بين الحمأ المسنون، ونفخة الإله.. ولهذا ولغيره لا يمكن أن يكون المنطق الأرسطوي الثابت، منطقاً إسلامياً.

(٢) هذا الحديث ورد في متون أهل السنة، وورد في كتاب غير معتبر عند الشيعة، وقد أثبت المحقّقون من العلماء كذب هذا الحديث وبطلانه. فاقتضى التنويه.

لا ترتبط بالإسلام. فالصرف والنحو العربي يُدرّس ضمن العلوم الإسلامية، ولكنها قوانين لغة ولا ترتبط بالإسلام مثل قواعد اللغة الفرنسية أو أي شيء آخر. الشعر الجاهلي والمعلقات السبع وشعر شعراء الجاهلية حاربه الإسلام، ولكنه يُدرّس أيضاً، فهو ليس إسلامياً.

المنطق الأرسطوي هو من أرسطو، وأرسطو عاش قبل المسيح بأكثر من ثلاثمائة وألف سنة قبل الإسلام، فما ربطه بالإسلام وبالحضارة الإسلامية وبالثقافة الإسلامية وبتاريخ الإسلام؟

في تاريخ الإسلام هناك أمور أخرى كثيرة، مثلاً عمل البلاط الكاشي[١] يُعتبر جزءاً من الحضارة الإسلامية، فهل هو مكتوب في القرآن؟ إنه غير مرتبط بالإسلام، وأمر عجيب أن يربطوا هذه الأمور بالإسلام. إن أكبر مهمة تُناط بالمثقف هي أن يُخرجوا الفكر الإسلامي من الصراع الحضاري والثقافي والعلوم الإسلامية، ويجب أن يفهموا الإسلام كما فهمه «بلال» وليس كما فهمه «أبو علي سينا» أو «الملا صدرا» أو «محي الدين بن عربي» أو «الغزالي».

---

(١) البلاط «الكاشي» أو «القيشاني» هو الاسم التجاري للبلاط المزخرف المستخدم بطريقة توحي بوجود خلفية لونية مع نقش بلون آخر مباين. واسمه باللغة التجارية الحديثة «الموزاييك».

يجب أن يفهموا الإسلام كما فهمه «أبو ذر» المسافر في الصحراء.

(يجب أن تُعرف الثقافة الإسلامية وتُميّز عن الثقافات الواردة على الإسلام).

يجب أن نفهم الإسلام هكذا ويجب أن ننقذ فكرته وعقيدته من الثقافة والعلوم الإسلامية. ولا يوجد شكّ أن العلوم الإسلامية مهمة جداً وهي من افتخارات البشرية ولكن العقيدة الإسلامية شيء آخر.

فهناك تفاوت بين الثقافة والعلوم وبين العقيدة مثل اختلاف «أبو ذر» مع «أبو علي سينا». فما يعرفه «أبو علي» لا يعرفه «أبو ذر»، فهو لا يعرف «القانون» ولا «الشفاء». وإذا قرأ «الجوهر» و«الهيولى» وأمثال هذه المسائل فإنه سوف يقع في حيرة. وكذلك الأمور التي يعرفها «أبو ذر» ويحسّ بها فإن «أبو علي» و«ملا صدرا» و«محي الدين بن عربي» وبقية النوابغ الذين قدّموا عملاً ثقافياً وحضارياً عظيماً لنا لا يدركون ما يدركه أبو ذر، فهم لا يعرفون ولا يحسّون، إن إحساس وعقيدة «أبو ذر» أمر، وفكر «أبو علي» فكر آخر.

يجب أن نوضح الواجب الإسلامي وتعاليمه ومن أين

نستقيه، هل يجب أن ننظر إلى القرآن بمنظار علي عليه السلام، وأبي ذر وبلال، أو بمنظار الفلاسفة والعرفاء والمتكلّمين والمنطقيين والأصوليين وأمثالهم[1]!

يجب أن نفصل بين هؤلاء. وأحياناً يصبح الأمر هكذا حيث إن المنطق الأرسطوي يصبح جزءاً من ثقافتنا، وحينما نقرأ العلوم الإسلامية يجب أن نقرأ المنطق الأرسطوي، ولم يكن الكثيرون ليعرفوا أن المنطق والفلسفة من أثينا. صحيح أن المنطق بدورته من الإسكندرية والأفلاطونية الجديدة جاء إلى الإسلام وأحدث له تغييراً وتكاملاً، ولكن كيفما كان فإن بدايته من أثينا. فهو فكر يوناني الأصول، والمنطق الذي وضعه أو دوّنه أرسطو، ومنه الغربي أيضاً.

إن المنطق الشرقي والدين الشرقي أو الدين الإبراهيمي مشتركان بهذا الأصل على أساس عدم الثبوت وتعيين الأشياء والجواهر. إن الأصل في الفكر الشرقي الكون والفساد، والكون والفساد هما نظرية الديالكتيك.

إن الفيلسوف اليوناني قال: لا يمكن أن نَرِد النهر أكثر من مرة واحدة، يعني في المرة الثانية فالإنسان ليس هو والنهر أيضاً قد تغيّر وليس هو، فذلك النهر هو ديالكتيك في اليونان. أقول:

---

(١) كلام في قِمة الروعة.

إذا كانت جميع هذه الأشياء في حالة تغيير فالأصل الفلسفي والفكر الفلسفي أيضاً، إذاً فهنا نحن جميعاً فلاسفة لأن الأساس والمعتمد هو كلامنا، وهذا أيضاً انتهى، وأن جميع العالم مرتبط، وكل شيء يأتي من خلال ألم وإحساس وينتهي من خلال ألم آخر (كل شيء هالك إلّا وجهه). لهذا، فما هو الشيء الثابتٍ؟

هذه هي الفكرة التغييرية حيث إن العالم في حالة تغيير دائم وكل شيء غير ثابت، ويتحوّل إلى شيء آخر.

إن أصل التضاد هو أصل الديالكتيك، وهو أصلٌ وفكرة وثقافة شرقية. ففي الثقافة الشرقية طبيعة ديالكتيكية. تاريخ ديالكتيكي وإنسان ديالكتيكي، يعني طبقَ أساس التضادّ.

(عُرف الإنسان في الإسلام بجامع الضدّين)

في الإسلام ـ (وسنتكلم بصورة كاملة حينما نتحدث عن العلوم الإسلامية) ـ يُعرف الإنسان بظاهرة تجمع الضدّين. ومن خصوصيات المنطق أنه لا يقبل الجمع بين الضدين، حيث إن الأضداد لا يمكن جمعها. فلا يمكن أن يكون هناك نهار وليل في نفس الوقت، ولا يمكن لشيء في نفس الوقت أن يكون حسناً ورديئاً، فلا يمكن جمع الضدين ولا يمكن رفعهما، يعني لا يمكن أن يكون هناك

ليل ونهار وأن لا يكونا، أما نحن فنرى أن الضدين يمكن جمعهما. فهناك أناس ليسوا جيّدين وليسوا رديئين وليسوا أحياء وليسوا أمواتاً. الديالكتيك يقول يمكن جمع الضدين، فالشيء الذي يكون حسناً بالنسبة لأحد فهو بنفس النسبة يكون رديئاً أيضاً. والإنسان من جانب هو من مادة متعفنة، ومن طرف آخر هو روح الله. هذه إحدى ظواهر الديالكتيك. لهذا فإن هذا الإنسان الواحد ليس له تعريف ثابت ومشخص والإنسان يمثل صيرورة ويمثل جانبين وهو متكوّن من طين متعفّن وروح، إذاً فما هو؟ لا شيء، فهو منتخب، وهو جهاد، وصراع، وصيرورة، فهو عبارة عن طين متعفن وروح الإله، ظاهرتان منفصلتان ومتضادتان حيث إن روح الإله ليست من هذا الحمأ المسنون. وهذا هو منطق أرسطو حيث يقول: الإنسان حيوان ناطق وهو حيوان ضاحك، بمعنى أن كل موجود إذا كان ناطقاً وضاحكاً فهو إنسان، هذه التعاريف ثابتة وأحياناً يصرّح الإسلام ويقول: إن الإنسان هو جمعٌ من ضدّين، إلهي وأيضاً شيطاني، فهو لديه القابلية بأن يرجع إلى الله وكذلك من الممكن أن يكون فتنة للشيطان، هذان هما الإمكانان المتضادان اللذان جُمعا في الإنسان. هذه ظاهرة ديالكتيكية،

وأن التاريخ والثقافة يتجليان على أساس الديالكتيك.

«فلسفة التأريخ في الأديان قائمة على أساس التضادّ»

إن جميع التواريخ، فلسفة التاريخ في الإسلام، وفي دين زرادشت، ودين بوذا ودين وعقيدة الطاوية، قائمة على أساس التضاد. فالحرب بين القطبين المتضادين هو الذي يبني التاريخ. في الإسلام، بمعنى الدين الإبراهيمي، منذ ذلك الحين ومن البداية، من آدم أبي البشرية، الإنسان متكوّن من روح الإله ومن حمأ مسنون ـ يبدأ التاريخ ويبدأ الصراع (صراع هابيل وقابيل) ويستمر هذا الصراع على طول التأريخ وحتى يصل إلى آخر الزمان ـ إن كل عمر التاريخ منذ البداية وحتى النهاية هو صراع وهذا يعتبر ديالكتيكاً.

في عقيدة «الطاو» وفي الثقافة الصينية، النظرة الديالكتيكية واضحة جداً. إن جميع الأشياء قائمة على أساس «يانغ» و«يين» وهما في صراع دائم، وجميع حركات الأشياء هي نتيجة هذا الصراع أيضاً.

خذ قطعة من الخشب وادفنها في الأرض، فحينما يأتي المطر من السماء وحينما تضربها الشمس سوف تصبح خضراء، هذه «يين»، حيث إن «يانغ» ما أخذته من السماء،

ومن ثم تصبح فاكهة ووروداً وهذا نتيجة تعلّق «يانغ» و«يين» بها. والخشبة التي كانت «يين» فهي أيضاً تمتلك «يانغ»، فحينما نضرم فيها النار فإن عنصر «يانغ» يولّد الشعلة، فإذاً هناك وجود في الخشبة لـ«يين» وأيضاً لـ «يانغ»، هو سالب وأيضاً موجب، وأحياناً يكون الغالب في شيء ما «يانغ» وأحياناً يكون «يين». إذاً فـ«يانغ» و«يين» قوتان متضادتان موجودتان في جميع الأشياء وبصورة مخفيّة، وإن كل شيء هو في حالة صراع داخلي في أعماقه وهذا هو أساس الديالكتيك، فهو موجود وفي كل ظاهرة (انظر إلى الذرة فيها إلكترون وبروتون فهي منفية ومثبتة).

«ماركس يدخل فكرة التضاد إلى علم الاجتماع»

إن الديالكتيك بعد «هيغل» أصبح داخلاً في علم الاجتماع، ففي المجتمع هناك أسياد ورعية، هناك أصحاب رؤوس الأموال وهناك الطبقة العاملة، والثورة هي نتيجة لهذا الصراع، مثلما نحصل على الحركة من الصراع بين الإلكترون والبروتون، إن الصراع الديالكتيكي موجود في داخل كل شيء. فمثلاً البيضة حينما نضعها تحت الدجاجة فهي تأخذ الحرارة، وفي كل يوم تنمو بداخلها الفرخة «انتي تز»، فالبيضة هي «تز» وليست البيضة هي التي تنمو، وإنما هناك صراع داخل البيضة، هذا الصراع ينفع الفرخة التي

هي (أنتي تز)، ونتيجة لذلك تنمو الفرخة وتكبر حتى تحتل جميع البيضة ثم تخرج[١].

فإذاً البيضة تحمل الشيء ونقيضه، ونتيجة لهذا الصراع تتولّد لدينا الفرخة الصغيرة، وهذا التمثيل ينسحب على جميع الحركات عند هيغل، في التاريخ والإنسان والطبيعة،

---

(١) تعتقد المادية الديالكتيكية أنّ كلّ ظاهرة مركّبة من ضدّين «تز» و«أنتي تز»، والتضادّ هو العامل في حركة تلك الظاهرة وتغيّرها، حيث يحتدم الصراع بينهما، وينتصر الـ«انتي تز»، لينشأ من ذلك ظاهرة جديدة هي الـ«سنْتز»، فمثلاً بيضة الدجاجة تحتوي على نطفة تأخذ بالنموّ تدريجيّاً، وتهضم الموادّ الغذائية في نفسها، وبعد ذلك توجد الفرخة التي تمثّل الـ«سنْتز».
والشحنة الكهربائية الموجبة والسالبة نموذج آخر للتضاد في الظواهر الفيزيائية، وكذلك عمليّة الجمع والطرح في الرياضيّات الابتدائية، والمشتق والعدد الصحيح غير الكسري «الأنتي جرال» في الرياضيات العالية.
وللديالكتيك دوره أيضاً في الحوادث الاجتماعية والتاريخية، ففي المجتمع الرأسماليّ توجد طبقة البروليتاريا، أي الطبقة العاملة التي تمثّل الـ«أنتي تز» والضدّ للطبقة الرأسمالية، وتأخذ الطبقة العاملة بالنموّ والتطوّر، بالتدريج، لتنتصر في نهاية الصراع على الطبقة الرأسمالية. ليوجد نتيجة لذلك: الـ«سنتز» أي المجتمع الاشتراكي والشيوعيّ.
ويضيفون: أنّ أصل التضادّ هذا يثبت بطلان النظرية الميتافيزيقية في استحالة التضادّ والتناقض.
ولا بدّ أن نؤكد بأنّ أحداً لا يرفض وجود موجودين ماديّين متجاورين، بنحو يؤدي أحدهما إلى ضعف الآخر، بل ربما أدّى إلى إبادته وفنائه، كما يلاحظ ذلك في الماء والنار، ولكن: هذه الحالة ليست شاملة، ولا يمكن أن نتقبّلها كقانون كونيّ شامل، إذ يمكن أن نضرب المئات بل الآلاف من الأمثلة على خلاف هذه الحالة.

فهو يفسرها جميعاً بهذا التفسير. وهذا هو ما يقوله الصينيون: إن «يانغ» و«يين» الموجودين في جميع الأشياء، هما سبب الصراع، وأن جميع الأشياء والظواهر هما نتيجة لهذا الصراع.

ففي الأشياء والظواهر التي تتولد نتيجة الصراع ما بين «يانغ» و«يين»، هذا الصراع أيضاً مستمر في جميع التغييرات، لهذا السبب فإن الطبيعة في حالة تغيير مستمر ولا يوجد هناك شيء ثابت ومستقر. ولا يمكن أن يكون هناك عنصر ليس لهذا الصراع دخلٌ فيه. وإذا كان الشيء في حالة «يانغ» فهو لا يستقبل أثراً من «يين»، وإذا كان في حالة «يين» فهو محفوظ من «يانغ».

«فلسفة التضاد تعني الديالكتيك الصيني»

ونحن نرى أن جميع هذه الحروب، وجميع هذه الحركات، وجميع هذه التضادات والتغيّرات، وحركة كل شيء في العالم، هي على أساس نظام واحد لا يتغير ولا يقبل أي صورة استثنائية. وأن هذا النظام الموضوع للعالم ولكل شيء، للإنسان والحيوان، المالح والمُر، الأرواح وموجودات ما وراء الطبيعة، وللنباتات والجمادات هو الحاكم والمسيطر وهو قانون كلّي وأزلي، وهذا هو الذي ذكره «لاو تسو» في كتاب

أصوله ووصفه بقوله: أنه أزلي، وأبدي، وكلّي، وهو مخفي ومستور ومغطّى (غيبي)، وهو يظهر في كل شيء وفي كل مكان ولكن لا يمكن تناوله، وله وجود متساوٍ في كل متضادّ. وأن جميع الأمور تسير طبق إرادته ومشيئته، وهو يعطي ويمنح النظام لجميع الظواهر والصراعات المختلفة، حيث إنه موجود في جميع ساحات الحياة والمادة. فهو كل شيء وليس هو شيء واسمه (الطاو).

(ما هو تائو)؟

إن كتاب «أصول تائو»[١] نفسه كان قد كُتب في القرن الخامس والسادس قبل الميلاد يعني قبل ٢٦٠٠ سنة، وهو يعترف أن «الطاو» غير قابل للتوصيف وهو نفس المفهوم الموجود عندنا حول الله. حيث إن العقل لا يمكن أن يدركه، ولكنه موجود وله حضور في كل مكان، فهو أمر غيبي ولكنه لا يغيب عن أي مكان، فهو ليس شيئاً ولكنه موجود في كل شيء، وإن كل شيء هو جزء منه وتجلٍّ له، وحتى الأمور الحسنة والسيئة والجميلة هي تابعة لإرادته، فهو «الطاو».

---

(١) أصول تائو: أصول الطاو.. مرّ ذكره في حاشية سابقة، ومن الآن وصاعداً سنستخدم كلمة «الطاو» بدلاً من كلمة «تائو».

إن الفهم اللغوي لمعنى كلمة «الطاو» يساعدنا كثيراً على فهم معناه، فـ«الطاو» في اللغة معناه هدوء الماء. يعني أن النهر المتغير والمتحرّك والماضي ليس فيه شيء ثابت إلا هدوءه، فهدوء النهر أمر ثابت، أما الماء الذي يجري فيه فهو متحرّك ومتغيّر.

إن لهدوء النهر معنىً آخر أيضاً، وهو أن الهدوء هو (مَسير)، حيث إن الماء الآتي من الجبل والصحراء يهديه هذا المسير إلى منزله الأخير وهو البحر المحيط .

إذاً فما هي العلاقة بين هذا المفهوم الفلسفي والمفهوم الديني والمعنى اللغوي؟

إذاً فـ«الطاو«: هو عبارة عن مسيرٍ وجريانٍ جامع، حيث إن جميع الأمواج الصغيرة والكبيرة والذرّات غير القابلة للرؤيا، وكذلك جميع الظواهر والمتضادات وجميع الأشياء التي تمرّ من خلاله، تُهدى وتُسيَّر بواسطته حتى تصل إلى ذلك المحيط، إلى ذلك الكمال المطلق، أو تصل إلى غاية ونهاية وجودها.

إذاً فالطاو، هو طريق الماء[1]، طريق جميع الأشياء، وهو قانون وذات كلية، حيث إن جميع الأشياء والموجودات تابعة

---

(١) حاشية لم يترجمها المترجم ص١٩٩ من النسخة الفارسية.

له. إن الطاو يمثل الإرادة الكلية الحاكمة للوجود وهو قانون مسيطر على جميع الموجودات، وإن وحدة وارتباط الأشياء جميعها على شكل الطاو وإن التضاد والصراع يكون أساس «يانغ» و«يين».

يقول أحد شعراء الطاوية:

انظر إلى هذه الشجرة، لماذا لم تضطرب في أي وقت من الأوقات؟ لماذا لا يعلوها الحزن في أي وقت؟ فهي توّاقة في فصل الربيع، تنمو وتحصل على شبابها وأوراقها الزاهية وتُعطي الزهور والثمار، ومن ثم تصبح صفراء وعارية في فصل الخريف، ومن ثم تركن إلى النوم في فصل الشتاء، ومن ثم تعود إلى الحياة في بداية الفصل الجديد وتستمر بمسيرها وحركتها من جديد.

لماذا لم يحصل لها اضطراب؟ لماذا لم تقتل الشجرة نفسها، لماذا لم تكن متوترة الأعصاب ولم ينتابها الغضب، لم يراودها التعب، لم تصل إلى اليأس الفلسفي؟

لأنها تابعة لقانون الطبيعة، وفي مسير الطاو.

أما لماذا ينتاب الإنسان المرض، ولماذا هو في حالة حرب وصراع، ولماذا يواجه المشاكل والاضطراب واليأس، ولماذا يكون رديئاً وفي حالة حزنٍ وعذاب؟

لأنه وبعقله الجزئي البسيط هذا، يحاول أن يحكم على الأمور مقابل النظام الموجود في العالم، فهو وبواسطة عقله هذا ينتخب ويسير في طريق آخر.

«إبحار المسافر الذي ذهب إلى المريخ حول أناس الكرة الأرضية»

السيد محمد حجازي الكاتب المعروف! والذي كتب قصة تحمل هذا المضمون: إن عالماً من الأرض ذهب إلى المريخ، كان يتمشّى في شوارع المريخ، وكان ينظر إلى إعلانات السينما والصحف وفجأة شاهد إعلاناً مكتوباً يفيد أن العالِم والبروفسور الفلاني وهو عالم من كوكب المريخ قد رجع بواسطة صاروخه من الأرض وأنه سوف يقوم بعرض اكتشافاته الجديدة والتي تحكي عن وجود كائنات حيّة على الأرض.

يقول العالم القادم من الأرض، قلت في نفسي أنا من الأرض ولدي رغبة أن أشترك في هذه الجلسة وفعلاً اشتركت، كان المجتمعون يصغون وبصورة عجيبة إلى كلام البروفسور، حيث إنهم كانوا يعتقدون أنه لا وجود للحياة سوى على كوكب المريخ، والآن قد اكتشف هذا العالم أن هناك موجوداً حيّاً أيضاً على قشرة هذه الكرة.

يقول البروفسور: لقد ذهب مجموعة من علمائنا وقاموا

بتحقيقات هنا وهناك فوجدوا أن هناك كائنات حية كثيرة على سطح الأرض حيث إنها أكمل من جميع الأشياء، ويدّعون أنهم كائنات من البشر، ماذا أقول وكيف أصف حتى تتمكنوا من تصوّر ذلك الكائن؛ أستطيع أن أقول إنه شيء حجمه كبير مثل القربة، يمتلك أربعة أذرع وثقبين ويزحف على الأرض، وقد تعلّق بحرص وهيجان عجيب بكل شيء، فهو بعد أن ينتهي من غارته على الأرض والجبال والأشياء والحيوانات والأشجار يغسل يديه، ثم يتصارعون مع بعضهم البعض حتى يسقط منهم قتلى كثيرون وإنهم يرتاحون ويتلذذون بصورة عجيبة لهذا القتل. حيث إن المجموعة المنتصرة والتي قتلت الكثير يطلقون عليهم تسمية الأبطال ويعطونهم الجوائز والهدايا، والأشخاص المهمّين في تأريخهم هم أولئك الذين قتلوا أكثر عددٍ من البشر.

وهناك عمل عجيب آخر يقومون به مع كبر عقلهم وشدّة ذكائهم وهو، أنهم يأخذون تلك الفواكه والخضراوات الطيبة الطرية العطرة، وكذلك اللحوم السالمة الطبيعية التي يأخذونها من الحيوانات، فلا يأكلونها، بل يضعونها في أوانٍ وقدور ويضعون عليها موادَ أخرى مثل الفلفل والكركم والدهون المختلفة ويطهونها على النار حتى

تحترق ثم يأكلونها، بعدها تبدأ قلوبهم وأمعاؤهم بالآلام فيذهبون إلى أناس محترمين ويلتمسونهم ويعطونهم الأموال حتى يُخرجوا ما أدخلوه في أمعائهم من غذاء بواسطة الدواء. ولكنني لم أفهم لماذا يقومون بمثل هذا العمل!

هذا هو انتقاد المرِّيخي للإنسان. أما العقيدة الطاوية فهي تنتقد الإنسان لأنه ابتعد عن الطبيعة ولم يسير في طريق الطاو، ولم يستفد من ذلك الطعام الذي جعله الطاو تحت تصرفه ولم يستفد من تلك المعدة التي منحها له، فهو، أي الإنسان، صنع غذاءً مخصوصاً له وترك منزله الطبيعي وسكن في الدار التي صنعها هو لنفسه، لهذا فهو يسبح في العذاب، وصار في دوامة صراعٍ وحسدٍ وحقد، فهو يقتل أبناء جنسه حتى يتقدّم أكثر، ولكنه يفنى ويصل الآخرون قبله. فهو دائماً في حالة اضطراب وجنون وأمراض نفسية وعصبية وروحية وفلسفية واعتقادية، لهذا فإن بدنه يقع في دوامة المرض.

أحد الطلاب يسأل شخصية كبيرة من شخصيات العقيدة الطاوية، وهو في مرض موته، فيقول له:

سوف تذهب، ولكن أين ندفنك وأين نكفّنك؟

قال له: قبري هو الأرض، وسقفه السماء، ونور ضياء قبري في الليل هو القمر، وفي النهار هو الشمس.

قالوا له: إذا تركناك في العراء فسوف تأكلك الطيور والديدان.

قال: لماذا تحرمونهم من ذلك الغذاء الذي أعدّه لهم الطاو؟

فهذه هي طريقة الفكر الطاوي.

(أين هو طريق الخلاص)

في الوقت الذي يجب أن يعيش الإنسان فيه تحت نور الشمس وعلى سطح الأرض، فهو يولد في بيت اصطناعي مغلق، لهذا فهو يبقى محتاجاً إلى النور والهواء والفيتامينات ويصبح عرضة لجميع الأمراض المختلفة.

إن الطاو منح للإنسان الرِّجْل التي يتحرك بها.

إن هذا الإنسان انحرف عن مسيرة الطاو، وترك تلك الطبيعة الواسعة التي منحها له بدون مقابل، ووضع نفسه بين جدران ضيّقة وسمّوها المدينة والزقاق والشارع والمنزل، فهو لم يستفد من الطبيعة التي منحها له الطاو، وصنع لنفسه جمالاً زائفاً. فهو لم يستفد من البطيخ الطبيعي والذي قيمته زهيدة جداً، ولكنه يشتري لوحة مرسومة للبطيخ بأغلى من هذا الثمن.

فهو قد بنى المدينة ووضع قانوناً لإدارتها وأصبح بحاجة

للمتخصّص والقانوني والأمن بحيث يأتون ويؤسسون حكومة لهم، وهذه الحكومات دائماً تأتي بالظلم، فيصبح مجموعة من الناس أسياداً والآخرون رعية، وهناك مجموعة تصبح من الأشراف وأخرى تصبح عبيداً. يصبح الإنسان مجبوراً على تعلّم بعض العلوم التي توصله إلى أهداف مؤقتة ثم إن هذه العلوم نفسها تصبح سلاحاً بيد أشخاص معدودين يستخدمونها ضد البعض الآخر، وهذه هي النتيجة الغائية لها، وهؤلاء بواسطة العلم والتكنولوجيا والاطلاع على الطبيعة يستطيعون الحصول على ثروات عظيمة من الطبيعة، ولكن هذه الثروات تصبح لقمة يتصارع عليها هؤلاء ويقتل بعضهم بعضاً في سبيلها، ثم إن علاقاتهم تصبح علاقات مادية وحيوانية تحصل نتيجتها الكوارث الإنسانية ويسود الظلم والكذب، ويصوغون قوانينَ تتناسب مع مصالحهم، حيث هناك من يظلون أوفياء لأسيادهم فيُمسخون، والبعض الآخر يتمردون على هذه القوانين فيصبحون مجرمين وآخرون يحاربون هؤلاء فيصبحون حكّاماً ظالمين.

الحضارة وليدة الظالم والمظلوم:

هناك العديد من الناس يصبحون طغاة ويصيرون مذنبين وجناة، وآخرون يسعون لمحاربة هؤلاء الطغاة والجناة

والحكّام المستبدين، ولكن هناك مَن يصير ضحية بين هذين الطرفين المتصارعين، ومثل هذه المجموعة الفاسدة المجنونة التي تنادي باسم المدينة والحضارة فإنها تضيّع أفرادها في هذه المفاهيم. ومَثَل هؤلاء مثل دودة القز حيث إنها بواسطة ما تفرز من فمها وروحها وبتلك الطريقة الجميلة التي تبني ذلك النسيج الجميل فهي تقتل نفسها بنفسها، هذه هي الحضارة.

ظواهر الحضارة:

لو نظرنا ودقّقنا في ظواهر الحضارة على طول التأريخ فإن أحدها هو الإهرامات المصرية والذي يعتبر معلماً من معالم حضارة مصر حيث إن هناك العديد من العبيد ممّن ماتوا بسبب هذا البناء حتى تصل هذه الحضارة إلى هذا المقام العالي. والمثال الآخر هو سور الصين العظيم والذي يعتبر مظهراً من مظاهر الحضارة الصينية والذي بُذلتْ في بنائه جهود عظيمة، حيث لم يتركوا حجارة أو حجراً إلّا جاؤوا به ووضعوه في هذا البناء، هذا البناء الذي صيّر الإنسان قطعة من طين، وإذا ضعف في العمل أو قصّر فإنهم يضعونه في الجدار محل الحجر.

إن هذه النماذج من الحضارات الكاذبة والخدّاعة،

والاستعباد، والتي تقتل الإنسان، اختلطت مع بعضها البعض وشكّلت عنواناً لمصطلح الحضارة الحديثة، مثل أبطال «أوجين يونسكو»[١]، مثلهم مَثَل حيوانات الكركدن[٢]، الذي يشوّه وجهه قرنه البارز في جبينه، أو أنهم صاروا ممسوخين مثل أسطورة بطل (كافكا)[٣]. إن الناس المستضعفين النجباء

---

(١) أوجين يونسكو (١٩١٢ - ١٩٩٤م): كاتب مسرحي فرنسي معروف، وُلد في رومانيا. ومسرحياته الخارجة عن المألوف والتقاليد غالبًا ما تكون مفعمة بأشياء تتسم بالخواء، ولا حياة فيها، تتكاثر حتى تخنق الشخصيات البشرية. ويبدو كثير من شخصياته وكأنه فقد القدرة على التفكير، وصار يتصرف مثل «الروبوت». ولما كانت هذه الشخصيات تتحدّث بعبارات لا معنى لها أحيانًا وعبثيّة فقد افتقدت أسباب التواصل فيما بينها.
وُلد يونسكو في سلاتينا برومانيا. ثم هاجر إلى فرنسا واستقر فيها منذ عام ١٩٣٨م. وانتُخب عضوًا في الأكاديمية الفرنسية عام ١٩٧٠م.

(٢) الخَرْتيت: حيوان ضخم جدًا، وهو واحد من أكبر المخلوقات الأرضية الموجودة. ويطلق عليه أيضًا الكركدن ووحيد القرن. وجسمه هائل صلد، وسيقانه قصيرة، قوية وممتلئة. ويبدو جلده السميك وكأنه يتكون من عدة طيات، غير أنه في الواقع متجعد فقط عند المفاصل. ولمعظم الأنواع شعر قليل. وللخرتيت، حسب نوعه، قرن أو قرنان مقوسان قليلاً، وناتئان من أنفه الطويل. ويستمر القرن في النمو طوال حياة الخرتيت، وهو يتكون من مادة شبه ليفية قرنية تشبه خليطًا من الشعر وأظافر الأصابع. وتبدو القرون وكأنها متصلة بصفة دائمة بأنفه، إلا أنها تتحطم أثناء التقاتل.

(٣) فرانز كافكا (١٨٨٣-١٩٢٤م): كاتب تشيكي يهودي الأصل نال شهرة عالمية بعد الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩- ١٩٤٥م). ونُشر عدد قليل من قصصه القصيرة أثناء حياته. وقد كان يود أن تحرق كتبه المخطوطة=

أصبحوا يُسحقون بالأقدام كما تسحق الحيوانات الدواب الأخرى برِجلها . . إذاً فماذا حصل من تقدُّم داخل الإنسان على طول هذا التاريخ؟

تبدل الإنسان إلى إنسان مغلوب على أمره ومقتول بواسطة تجار العبيد والعبودية، وبالمخادعين والخدعة، وبالمستعمرين والاستعمار، حيث إن واحداً من هؤلاء لم يمتلك صفة الإنسانية، هذا هو التقدّم الحاصل من الحضارة، وهذا هو الإنسان المتحضّر.

مصير الإنسان التائه:

لماذا صار الإنسان إنساناً تائهاً؟ لأن هذا الإنسان يعتبر أحد ظواهر «الطاو» الخالق العظيم، الذي خلق الجبال

= التي لم تنشر بعد وفاته، إلا أن صديقه «ماكس برود» قام بتحريرها ونشرها.
ارتبطت أعمال كافكا الخيالية بالحركات الفكرية مثل: التعبيرية والسريالية والوجودية، إلا أنه لم يندمج مع أي عقيدة أو طبقة أو مجموعة عرقية معينة، ولا تنتمي كتاباته إلى مدرسة أدبية معينة. وكان يكتب بالألمانية.
تجمع كتابات كافكا في صورة فريدة بين الوصف الواقعي، وبين جو عام من الخيالات والأحلام والكوابيس. وقد صوّر المواد والأحداث بدقة، إلا أنها تبدو عديمة الغرض أو المعنى.
ولد كافكا في براغ لأبوين يهوديين يتحدثان الألمانية. وقد قضى معظم حياته محاميًا في التأمينات. وتوفي بعد إصابته بالسل الرئوي.

والأرض والسماء والكواكب وكذلك خلقك أنت أيها الإنسان، الذي يمتلك عقلاً وإرادة وتفكيراً، أما عقلك هذا فهو عقل بسيط وجزئي مقابل العقل الكبير للطاو، ومقابل ذلك الطريق الذي انتخبه لك، وأنت أيها الإنسان تحاول أن تجد لك طريقاً آخر، وهذا يعتبر تدخلاً في عمل العقل الكبير، وهذا التدخل هو سبب الانحراف الذي أصابك، بحيث صرت تبني مكاناً وتربط أجزاءه مع البعض، وصرت أنت تختنق بداخله وتخلّفت عن المسير الأصلي الذي رسمه لك الطاو. فأنت تشبه الأسماك، الأسماك التي تعيش في نهر ضيّق وأصبحت أسيرة ذلك النهر. والتي لا تدري ماذا تفعل حتى تصل إلى البحر الكبير لتصبح فيه حرة وتنعم بسعته؟ فما عليهم إلا أن يحاولوا ويبذلوا الجهد حتى يكتشفوا اتجاه ومسير النهر، وحينما يكتشفون ذلك الطريق فما عليهم إلّا أن يخضعوا للواقع ويسيروا مع ذلك المسير وبذلك الاتجاه، يجب أن يتخلّوا عن عقلهم وإرادتهم وأن يضعوا عقولهم وإرادتهم تحت إرادة ومسير ذلك النهر، والذي ينتخبونه يجب أن يكون ذلك الطريق الذي انتخبه لهم النهر، حينئذٍ يمكن أن يكونوا مطمئنين، ويمكنهم الوصول إلى الهدف والغاية النهائية بدون أن يرتكبوا

الجرائم والقتل أو يحسدوا الآخرين أو يعذّبوهم.

هناك بعض الأسماك الذكية، تختار البقاء وتتخلّف عن مسير النهر ويسألون أنفسهم باستمرار، كيف يمكن أن نعيش؟ فواحدة تختار زاوية معينة والأخرى تختار زاوية ثانية، البعض يحتمي تحت سقف القنطرة والبعض الآخر يلوذ بحجر كبير، والجميع يُبدون سرورهم لأنهم حصلوا على مكان لهم وأوجدوا ملاذاً آمناً، ولكن الجميع لم يصلوا إلى البحر ولم يحصلوا على الحرية المنشودة.

إن الإنسان الذي ينتخب طريقاً للهداية غير طريق الطاو، والذي يفكر ويتمنّى أن يبني حضارةً لوحده، فإنه بهذه الطريقة سوف ينحرف ويخرج من المسير العام ويصبح أسيراً لعقله القاصر. وبسبب هذا العمل فإنه سوف لن يصل إلى البحر ولن يحظى بالسعادة وسوف يحرم نفسه من منزلة الطاو، وكذلك سوف يكون سبباً في تأخر العالم عن التقدّم والازدهار. لذا فإذا كان هذا التدخل وهذه الأخطاء وهذه التغييرات، ولم تكن هذه المدن وهذا القتل، وبقي الإنسان على طبيعته، وظل يعمل على نظام الطبيعة كما هو موجود، أي يعمل طبق تعاليم الطاو وإرادته ومشيئته، فإنه سوف يصل إلى الهدف.

الرجوع إلى الطاو:

لذا علينا أن نرجع إلى الطاو، أما ماذا يعني الرجوع إليه؟ يعني أن نضع ذلك العقل - الذي كنا نرجع إليه وينظر ويخطط لنا - جانباً، وأن نرجع إلى فطرتنا الأصلية وإلى قلبنا الذي نستوحي منه المعرفة والإلهام، نرجع إلى ذلك الهدوء والاطمئنان الموجود في أعماقنا، نرجع إلى ذاتنا والتي تعتبر هي العقل الكلي، العقل الذي يجري ويسيطر على جميع الأشياء، العقل الذي ينمّي العشب والنبات في فصل الربيع ويُخرج ثمرها في فصل الصيف والذي يُركنها إلى السبات في فصل الخريف، العقل الذي يُسيّر بداخلي أيضاً جزءاً من تلك الطبيعة والتي أحسّها بنفسي وأنمّيها، وعندها أستسلم لها.

أما تحت هذا العقل ورعايته، كيف يمكن أن نحسّ بالطاو، وكيف يمكن الوصول إليه، وكيف يمكن الذوبان فيه؟

إنها المعرفة الخاصة التي لا تأتي عن طريق العلم، ولا يمكن أن يحصل التهذيب عن طريق العقل ولكن بواسطة المكاشفة والشهود يمكن أن يحصل الإحساس بالطاو ومعرفته. حينها سوف يحصل الإنسان على الاطمئنان

وسوف يحصل على الطريقة اليافعة وسوف يحصل على السلامة والسكون، وحينها سوف تنجلي عنه جميع الهموم والاضطرابات والأحقاد ويحلّ محلها محبة وعشق الطاو.

أما بالعقل والتفكّر والاستدلال، فلا يمكن الوصول إلى طاو العالم وطاو النفس، ولأن الاثنين هما واحد فلا يمكن بواسطة العلم والمنطق الوصول إليهما. يمكن بواسطة الرقص والموسيقى والشعور، ولكن بواسطة العبادة والمحبة يكون الوصول أفضل من الرقص والموسيقى. وأما الرياضة الروحية والبدنية فهي أفضل من العبادة، والرياضة تعني أن يفرغ الإنسان ويحرر نفسه من العقل الناقص وأن يبتعد عن اللذائذ وموائد الطعام المصطفة التي هُيئت وأُعدت في القرية والمدينة، وعليه أن يلبس ثوب الفقر محل ثوب الاحتياج إلى المدينة، وأن يُلقي نفسه في أحضان الطبيعة وأن يلتجيء إلى الطاو، وأن يجلس مع نفسه معزولاً عن الآخرين يجذبه العشق والمحبة، وأن يستغرق في أفكاره وتأملاته.

التناسب بين فكر الطاو والتصوف الموجود عندنا:

نرى أن هذه المصطلحات هي مصطلحاتنا الصوفية، فكر وحدة الوجود الذي له وجود في ثقافتنا. والفوارق

حينما ننظر إليها بعين العقل أو بواسطة الإشراق[(١)] فإنها ستتحول إلى وحدة العالم، فالرياضة الصوفية تعني زوال الأفكار الشيطانية التي تعكّر حياتنا، وإن قطع هذه الأفكار والروابط المادية يعني وصولنا إلى تلك الوحدة. هذا هو الفكر الطاوي الذي يُعتبر رئيسه (لاو تسو) عظيماً، وهو الحكيم الذي ولد عام ٦٠٤ق.م.

وهنا نقول هل إن اصطلاح (الطريقة) في التصوف هو ترجمة لكلمة الطاو؟ أو إنه «سلوك» وسفر على الطريق، وهو تلك الدعوة على طريق الطاو. أو إنه الاعتقاد، بأن كل كثرة حينما ترجع إلى الفطرة فإنها تصل إلى وحدة الوجود. ألم يكن هذا هو فكر الطاو؟ أو إن العلم والاستدلال والعقل لم يصل إلى نتيجة، وإن السير الحقيقي يجب أن يكون عن طريق العشق، ألم تكن هذه هي دعوة الطاو؟ وكذلك ألم يكن هذا من أقوال الطاو، وهو أننا يجب أن نستغرق في الحقيقة الكلية ونعشقها في قلوبنا، حيث إننا لا يمكننا الوصول إلى الطاو بواسطة العقل، بل بواسطة التوفيق الفطري الذي ينبع ويشرق من أعماقنا فبواسطته يمكن معرفة الطاو.

---

(١) يشير إلى مذهب الإشراقيين المنسوب إلى الحكيم السهروردي، والذي كان يقول بوحدة الوجود.

أصول الفكر الطاوي وفكر جان جاك روسو[١] الرجعي[٢]:

إن الصراع مع الحضارة، ومع العقل، ومع الإرادة

(١) جان جاك روسو (١٧١٢ - ١٧٧٨م): فيلسوف فرنسي، كان أهم كاتب في عصر العقل. وهو فترة من التاريخ الأوروبي، امتدت من أواخر القرن السابع عشر إلى أواخر القرن الثامن عشر الميلاديين. ساعدت فلسفة روسو في تشكيل الأحداث السياسية، التي أدّت إلى قيام الثورة الفرنسية. حيث أثّرت أعماله في التعليم والأدب والسياسة.
وُلد روسو في مدينة جنيف فيما يُعرف الآن بسويسرا. وكانت أسرته من أصل بروتستانتي فرنسي، وقد عاشت في جنيف لمدة مائتي عام تقريبًا. توفيت أمه عقب ولادته مباشرة، تاركة الطفل لينشأ في كنف والده، الذي عُرف بميله إلى الخصام والمشاجرة. ونتيجة لإحدى المشاجرات عام ١٧٢٢م، اضطر والد روسو إلى الفرار من جنيف. فتولّى عم الصبي مسؤولية تربيته.. وفي عام ١٧٢٨م، هرب روسو من جنيف، وبدأ حياة من الضياع، ومن التجربة والفشل في أعمال كثيرة. ولكنه كان دائمًا تستهويه الموسيقى. وظل لسنوات مترددًا بين احتراف الكتابة أو الموسيقى.
قام روسو بانتقاد المجتمع في رسائل عديدة. ففي رسالته تحت عنوان: «بحث في منشأ وأسس عدم المساواة» (١٧٥٥م)، هاجم المجتمع والملكية الخاصة باعتبارهما من أسباب الظلم وعدم المساواة.. كان روسو يعتقد أن الناس ليسوا مخلوقات اجتماعية بطبيعتهم، معلنًا أن من يعيشون منهم على الفطرة معزولين عن المجتمع، يكونون رقيقي القلب، خالين من أية بواعث أو قوى تدفعهم إلى إيذاء بعضهم بعضًا. ولكنهم ما إن يعيشوا معًا في مجتمع واحد حتى يصيروا أشرارًا. فالمجتمع يُفسد الأفراد من خلال إبراز ما لديهم من ميل إلى العدوان والأنانية.
لم يكن روسو ينصح الناس بالعودة إلى حالة من الفطرة. بل كان يعتقد أن الناس بوسعهم أن يكونوا أقرب ما يكونون إلى مزايا هذه الحالة، إذا عاشوا في مجتمع زراعي بسيط، حيث يمكن أن تكون الرغبات =

والعلم، ومع جميع التدخلات التي تصدر من الإنسان في الطبيعة والتي تعتبر مخالفة للطبيعة، وكذلك برجوع الإنسان إلى فرديته وإلى النظام المسلّط على المخلوقات والذي يعني تجلّي إرادة ومشيئة الطاو، وكذلك المسير والحركة نحو المنزل المقصود والكمال المطلق وهذا المسير وهذه الحركة تتمثّل فقط بمسير الطاو، وكذلك فإن الإنسان عليه أن يلتزم بهذا المسير وهذا الشهود والكشف بدلاً من التفكّر والابتكار والاختراع، وعليه أيضاً أن يسلّم ويفوّض أمره إلى هذه المشيئة وهي مشيئة الطاو (وهذه هي أصل فكر المدرسة الطاوية)، وهذه المدرسة هي المدرسة التي ترفض الحضارة والعلم والتكنولوجيا، والتي أعلنها «روسو» في القرن الثامن العشر حيث يقول «جان جاك روسو»:

إن الإنسان حينما عقد اتفاقاً جَماعياً واجتماعياً فإنه أصبح أسير الظلم والحرب والتبعيض، فحطموا جميع هذه

= محدودة، والدوافع الجنسية والأنانية محكومة، والطاقات كلها موجهة نحو الانهماك في الحياة الجماعية. وفي كتاباته السياسية، رسم روسو الخطوط العريضة للنظم التي كان يعتقد، أنها لازمة لإقامة ديمقراطية يشارك فيها كافة المواطنين.

(٢) لم أقف على سبب وصفه لفكر (روسو) بالرجعي! فمن خلال القراءة التحليلية لم نجد وصفاً رديئاً فيما سطّره شريعتي عن فكر (روسو).. وقد يكون هناك خطأ في الترجمة!!..

المقررات وهذه القوانين الكاذبة التي اختفى وانخنق الإنسان فيها، إنها جعلته إنساناً مقتدراً، إنها جعلت منه إنساناً ظاهرياً ووحشياً وقاتلاً.

ارجعوا إلى الطبيعة الخالصة، إلى تلك الحرية الموجودة تحت سقف السماء وإلى تلك الروح الأخوية المتساوية والتي حكمت الإنسان قبل هذه الأنظمة المعقّدة حتى يمكننا الوصول إلى المحبة والعشق بدل العقل، وإلى المعرفة الذاتية بدل العلم المصطنع، وإلى الفضيلة بدل القدرة.

إن هذه الخطابات لروسو وخطابات الطاو، هي خطابات المدرسة الطاوية التي تعود للفيلسوف (لاو تسو).

مدرسة الانجذاب للفرد توجّه ضربة للمجتمع الصيني:

إن مدرسة أصالة الفرد هذه، التي تهتم بالإنسان نفسه، والتي تنفر من الحضارة والمدنية والعلم والإرادة، قد وجّهت ضربة عنيفة للحضارة الصينية وللمجتمع الصيني، لماذا؟ لأن الطاوية تُعتبر المدرسة الكبرى للعرفان، الذي يعتبر أكبر مربٍّ للفرد (وهذا ما نكرّره دائماً وفي كل مكان) وإن الفرد الذي تبنيه هذه المدرسة عظيم بحيث إن روحه يمكنها أن تعرج إلى ما وراء الحياة المادية، الفرد الذي

يستطيع أن يتحرّر من جميع القيود والأجور المادية في هذه الحياة، أما بالنسبة للمجتمع فإنه مادة مخدّرة ومهدئة فقط.

لهذا فإن الفرد عليه دائماً أن يسير ويتربّى وفق الخط العرفاني، والعرفان هو الذي يربيه، أما المجتمع فيسير بواسطة العقل والاقتصاد، فالفرد يجب أن يُصفّى ويتكامل بواسطة العشق[١]. والمجتمع يجب أن يدار بواسطة العقل. هذان أصلان ومزاجان مختلفان.

الانجذاب إلى التصوّف أوجد اختلالاً في المجتمع:

انظر إلى العرفان الإسلامي كيف بنى أناساً عظماء. فالغزالي، وكذلك الشاعر شمس التبريزي[٢]، والشاعر

---

(١) العشق ـ المقصود به العشق الإلهي أو عشق الخالق أو ما وراء الطبيعة (المترجم).

(٢) شمس الدين التبريزي: هو شمس الدين بن علاء الدين.. الذي يمُت بالنسب إلى الصوفي الكبير «كيا» الذي كان إمام الإسماعيلية الفاطمي. وُلد في تبريز وتتلمذ على يد الصوفي الكبير (بابا كمال الدين جندي) وأصبح من مريديه وكان يتنقل من مكان إلى آخر حتى وصل إلى قونية التي التقى فيها جلال الدين الرومي وصاحبه بصورة دائمة فكان يقيم معه في نفس الدار،وتزوج من جارية جلال الدين الرومي «كيميا» كما أصبح معلمه الروحي، وكان شمس الدين التبريزي أُمياً لكنه يتسم بالحماس الروحي في حديثه، كما كان ذا أثر بالغ في نفوس مستمعيه، وقد أثر في حياة جلال الدين الرومي فأصبح لا يفارقه حتى أن تلاميذ الرومي حقدوا عليه لأنه صرف أستاذهم ومرشدهم عنهم واعتبروه دخيلاً استحوذ على اهتمام أستاذهم، فكانوا يتحيّنون الفرص لأذيته والنيل منه=

مولانا، وكذلك سنائي[١]، أناس عظماء. ولكن المجتمع إذا بُني على هذه القاعدة، وكان جميع المنظّرين له من أمثال هؤلاء، فإن المجتمع يصبح مجتمعاً مخيفاً. ففي مثل هذا المجتمع لا يمكن أن نركب أو نستعمل حتى سيارة الأجرة، بحيث إذا قلت للسائق اذهب إلى المكان الفلاني فسوف يقول لك لا أنا ذاهب إلى مكان آخر، أي تفاوت يصنعون!.. فالدنيا عندهم، دنيا اعتبارية وليست لها حقيقة!.

لذا يجب أن يعيش المجتمع وفق أصول العقل والاقتصاد والعدالة، حتى يمكن لهذا الإنسان وهذا الفرد

= مما اضطره إلى أن يسافر دون علم جلال الدين الرومي إلى العراق ومنها إلى دمشق، فتأثر الرومي لفراق شمس الدين التبريزي تأثراً بالغاً وأصابه اليأس واعتزل تلاميذه وأهل بيته لأن التبريزي كان صديقه ومعلّمه الروحي فاضطر ابنه (سلطان ولد) إلى أن يسافر دمشق ليقنع شمس الدين التبريزي بالعودة إلى قونية وإلى أبيه، فرجع معه إلى جلال الدين الرومي وبقي مدة سنتين إلا أن تلاميذ الرومي لم يرتاحوا لوجود شمس الدين التبريزي مع أستاذهم فضايقوه وهاجموه مرة أخرى فاختفى شمس الدين التبريزي نهائياً هذه المرة وقيل أن تلاميذ جلال الدين الرومي قد قتلوه وذلك عام ٦٤٥ هجرية، فحزن جلال الدين الرومي أشد الحزن فأنشد فيه شعره المشهور باللغة الفارسية، في فراق معلمه الروحي.

(١) سنائي: أبو المجد بن محمود بن آدم سنائي الغزنوي، ويُعتبر أول الشعراء المتصوّفين الثلاثة العظام ممّن كتبوا المثنويات في إيران، وأما ثانيهم فهو الشيخ فريد الدين العطار، وأما ثالثهم فهو جلال الدين الرومي.

أن يكون حراً، وحتى يستطيع أن يصل كلما كانت عنده قدرة واستطاعة.

مدرسة لاوْتسو الطاوية كانت في صراع مع فساد المجتمع والفساد الحضاري الصيني، وكانت ردة الفعل على هذا الأمر هو الفساد الاجتماعي. ولكنها بتعاليمها هذه، والاهتمام الكبير بشخصية الفرد، والمعنوية الفردية، والآخرة، والفضائل الأخلاقية المجرّدة، وطريقة الزهد، أضعفت المجتمع الصيني.

كونفوشيوس:

كونفوشيوس عكسَ العمل في مقابل لاوْتسو. وقانون «لي»، يعتبر خليفة قانون «الطاو»، ولكن ما هو قانون «لي»؟.

لقد عمل (لي) في المجتمع كما عمل (الطاو) في الطبيعة، وإن (لي) عبارة عن أصول وقوانين تحافظ على المجتمع بحيث يبقى سالماً، وتصبح فيه إدارة ويحصل على تكامله.

يقولو كنفوشيوس: أنا أعترف أن المجتمع هو الذي أفسد الإنسان، وأن الحضارة أضاعت الإنسان ونرى أن الإنسان إنسان مقتدر وفعّال، ولكن الحضارة صنعت منه

إنساناً ظاهرياً، ومجرماً وقاتلاً، ولم يكن هذا بتوجيه المجتمع وإنما بسبب القوانين غير الصالحة التي يُدار على طبقها المجتمع.

(إذا أصبحت إدارة المجتمع طبق قوانين (لي) فإنها سوف تصل إلى التكامل الطاوي)

اشتباه لاوْتسو -هذه هي مقالة كونفوشيوس حول لاوْتسو، الذي يُكِنّ في نفسه احتراماً له- أن لاوْتسو يرى أن المجتمع في حالة تراضٍ ومرض، وأنه يُدار بواسطة قوانين ليست قوانين إنسانية، وعلاقات لم تكن متناسقة.

إن جميع الانتقادات التي قالها لاوْتسو حول المجتمع هي مورد قبولي، أما أنا فلم أقل خلاف ما قاله، حيث إن المجتمع يسير على خلاف ما رسمته الطبيعة وما قررته له، وكذلك فإن الحضارة تسير خلاف إرادة «الطاو»، فأنا أقبل هذا الأمر وهو أن المجتمع يسير على خلاف الطاو، ولكنني أعتقد أن المجتمع والحضارة إذا سارتا على أساس «لي» - الناموس الاجتماعي- وأصبحت إدارتهما طبق هذا القانون، فإن هذا المجتمع لن يكون مجتمعاً مخالفاً للطاو وتعاليمه، بل إنه يسير ضمن حركة الطاو نحو التكامل وسوف يعجّل بتحقيق الفكر الطاوي، أنا أقبل ذلك المثال حول السمكة،

ولكن ذلك المجتمع هو نفسه الذي يبني الإنسان الفاسد، تعالوا لنبدّل المثال، حيث إن ذلك السمك الذي قلنا أنه يعشق البحر والنهر ويسلّم أمره إليه، عليه أن لا يسلّم أمره إلى أي أجنبي ودخيل حتى يصل إلى البحر.

وإذا استعملوا عقولهم وعِلمهم واستفادوا منها، وضعوا لهم سفينة تسير بسرعة أكبر وأقوى من سرعة جريان النهر، فإن هذه السفينة لم تكن فقط غير متضادة مع مفاهيم الطاو بل إن السمك سوف يصل بسرعة إلى البحر.

إذاً فإن المجتمع الذي يُبنى طبقاً لتعاليم (لي) وعلى أساسها، هذا المجتمع تكون طبيعته مبنيةً على أساس الطاو وسوف يحصل بسرعة على التكامل المطلوب. إن الإنسان إذا بقي يسير فقط بمساره الطبيعي فإنه سوف ينمو على أنغام الحيوانات والنباتات، وإذا تحققت مسيرة (لي) في المجتمع فإنه سوف يحصل على تكامله لأنه يسير في طريق الطاو، لماذا؟ لأن نظام (لي) هو نظام اجتماعي يتحرّك على أساس مبادىء الطاو.

إن حرب «جان جاك روسو» و«فولتير»[١] في القرن

---

(١) فولتير (١٦٩٤ - ١٧٧٨م): واحد من أشهر الكتاب والفلاسفة الفرنسيين. ويعتبر كتابه «كانديد» (١٧٥٩م) أشهر أعماله؛ إذ تُرجم إلى أكثر من مائة لغة. وهذا الكتاب في ظاهره وصف لمغامرات شاب صغير السن قليل=

الثامن عشر في فرنسا، هي نفسها حرب «لاوْتسو» و«كنفوشيوس».

= الخبرة، ولكن النظرة الفلسفية العميقة توضح أن الكتاب استقصاء دقيق لطبيعة الخير والشر.
دخل فولتير السجن بتهمة تأليف أشعارٍ تسخر من الحكومة. وأودع سجن الباستيل عام ١٧١٧م؛ حيث استطاع خلال فترة سجنه التي امتدت إلى أحد عشر شهراً، إكمال مسرحيته المأساوية «أوديب»، التي جعل نجاحها من فولتير أشهر مؤلف مسرحي في فرنسا.. عاش فولتير في المنفى بإنجلترا خلال الفترة بين ١٧٢٦ - ١٧٢٩م؛ حيث التقى بأشهر الأدباء والفلاسفة والعلماء الإنجليز. عاد فولتير إلى فرنسا، عام ١٧٢٩م وقام بنشر عدد من مؤلفاته، ولكن عندما ظهر كتابه «الرسائل الفلسفية» الذي امتدح فيه الملك والنظم والمؤسسات الإنجليزية؛ غضبت السلطات الفرنسية باعتبار أن ذلك المدح تعريض بها؛ ولهذا أدين الكتاب وفر المؤلف من باريس.
بعد فراره من باريس عاش مع المركيزة دو شاتليه خلال الفترة بين ١٧٣٤ و١٧٤٩م؛ فأنجز العديد من المسرحيات بجانب مقالة في الميتافيزيقا (ما وراء الطبيعة). وكتابٍ عن السير إسحق نيوتن، بجانب قصتين فلسفيَّتين مهمتين، تناول في إحداهما، «زادق»، مسألة مصير الإنسان، كما تخيّل في الأخرى هبوط زائريْن عملاقيْن من كوكب زُحل، استخدمها في كشف الادعاءات الإنسانية، من خلال الإجابة عن العديد من المسائل الدينية، كما شجع فولتير في هذا الكتاب استخدام العقل للارتقاء بالعلم.
بعد وفاة مدام دو شاتليه عام ١٧٤٩م، استجاب فولتير لدعوة الإمبراطور فريدريك الأكبر، للإقامة معه في برلين، حيث قضى ثلاث سنوات تحت هيمنة هذا «الملك الفيلسوف»، حسب قول فولتير عنه.
بعد ذلك عاش فولتير في سويسرا، في قصر ريفي بالقرب من مدينة جنيف، وعندما بلغ عمره ٨٣ عاماً، عاد إلى باريس؛ حيث كان استقباله حاراً، وتوفي في باريس.

نرى أن الحرب التي كانت دائرة بين «كنفوشيوس» و«لاوْتسو» في القرن السادس قبل الميلاد قد تكرّرت في القرن الثامن عشر الميلادي.

فقد كان «روسّو»، مدافعاً عن الأخلاق والفضيلة والأمور المعنوية الإنسانية والتي كان وجودها قبل أن توجد المجتمعات، أما «فولتير» فقد كان مؤيداً ومدافعاً عن الحضارة والعلم والتقدّم والمادة والصناعة. وحرب هذين الرجلين هي نفسها حرب كنفوشيوس ولاو تسو والتي كانت قائمة قبل ٢٤ قرناً تقريباً، فهذه الحرب تكررت مرة أخرى في فرنسا (وفي جميع أنحاء العالم) وأصبحت واضحة للعيان.

حرب الهيبيين هي من هذا النوع:

والآن، هذه الحرب مستمرة. ومن أهمّها حرب الأفكار الهيبيّة، وتعتبر هذه النهضة من أهم النهضات الإنسانية وأعمقها أصالةً في أمريكا اليوم، فهي حرب بين هؤلاء وبين أصحاب رؤوس الأموال، فهم يسعون ويريدون أن يكون العالِم والفيلسوف والمخترع والحاكم والنظام الاجتماعي وغيرها من الأمور خاضعة للضوابط الإنسانية، وهؤلاء هم ضد أولئك الذين يمتصّون دماء الآخرين

ويصادرون حقوقهم، وكذلك يقفون ضد أولئك الذين يؤيدونهم ويناصرونهم.

لقاء مع هيبي:

لقد كان لي لقاء «في مشهد» مع أحد هؤلاء الهيبيين. وقد كان رجلاً متعمّقاً ويمتلك شعوراً وإحساساً أكثر من «نيكسون» بألف مرة. لقد كان الاختلاف بيني وبينه جذاباً. فقد كان هو شاباً أمريكياً ولم أكن أنا رجلاً شرقياً ومسلماً. وكان هو يدافع عن الأمور المعنوية وكنت أدافع عن الأمور المادية. أما الأمور المعنوية التي كان يدافع هو عنها فهي غير قابلة للتحمل عندي. فأنا أقبل الأمور المعنوية التي تدافع عنها أنت وأنا أُكِنّ لك احتراماً. أما الاختلاف بيننا فهو أنك أنت تريد أن تخرّب مسيرة الحضارة بتلك المعنويات والروح التي تدافع عنها. أما أنا فأقول يجب أن نحافظ على ذلك البناء الحضاري ولكن يجب أن نعطيه الروح الإنسانية ويجب أن نعطي الروح المعنوية لهذه الحضارة بدل النظرة المادية غير الإنسانية الموجودة الآن والتي تسري في بدن حضارتكم الأمريكية (يعني روح الحضارة الهندية) أو أن تؤسس حضارة أمريكانية في الهند. حينها يمكن أن يكون الإنسان عندنا يمتلك روحاً عرفانية

من جانب ومن جانب آخر فهو يسير كما تسير «الأبولو» إلى الأفق.

ولكن هؤلاء لا يملكون سلّماً جيداً حتى يزيلوا الثلوج التي تسقط على سقف منزلهم ثم يركبون الطائرة أو يجلسون في الأبولو ويسافرون إلى ما وراء الهواء والغيوم. أما شعورهم وأخلاقهم فهي مساوية لأخلاق أحد الحيوانات، فلماذا يسافرون إلى الفضاء؟ من أجل الجواهر والألماس أم من أجل النفط أو لأجل التجارب الذرية!.

أما إذا استطعنا أن نبعث روحاً عظيمة في هذه الآلة العظيمة التي أوجدَتها الحضارة ففي ذلك الوقت يكون هناك معنى للصناعة والحضارة.

أما الشاب فقد أجابني وقال: كل هذا، أمر ليس له معنى. إن العالم هو عالم شمسي وإن جميع ما يتفرّع فهو شعاع لها، الشمس هي الله، وإن كل الانشعابات والأنوار الإلهية، هي هو، وكل ما سواه فهو ظلمة.

لهذا لم يحتج الإنسان إلى اللباس والمنزل، أنا أعرف الناس وأُكنّ لهم احتراماً، وهم يستطيعون العيش بالماء والهواء والشمس فقط. أما لماذا؟ فلأن الإنسان الذي يُحب

الخالق ويعشق عبادته، يستطيع أن يتغذّى بواسطة هذا العشق وأن يعيش على هذا الحب.

فرار الشباب الغربي من الحضارة التي تحمل القيود بيد والنقود بيدٍ أخرى:

هذا هو منطق الشباب الغربي اليوم.

لقد عادت الطاوية أو الفكر الطاوي إلى الغرب. لقد عاد الفكر الطاوي من ذلك التمدّن الذي يُفسد الإنسان. وهذا ما قاله كنفوشيوس.

إن هذه لا تُسمى حضارة، لأنها تجعل من الإنسان إنساناً فاسداً.

إن مثل هذه الحضارة، هي الحضارة الغربية. أو أن مثل هذه الحضارة، شبيهة بحضارة القرن السادس قبل الميلاد.

ولكن حينما تخرج الحضارة من القيود ومن عبّاد المال والنقود وتصبح تحت أيدي وتحت اختيار أصحاب الشعور والأخلاق من الناس، فسوف تصبح وسيلةً لتكامل الإنسان، وليس وسيلة للتخريب والفساد، وإذا صارت الإنسانية والفضيلة وجميع الأشياء فداءً للحضارة، فسوف نرى أن الحضارة ستكون بأيدي غير المتحضّرين.

لقد حمل المتوحش سلاحاً، وجلس الجاني في الطائرة، والنمرود (ذلك الذي أراد أن يحارب الله بواسطة طائر العقاب) صار الآن يركب الأبولو.

ولكن إذا كانت جميع هذه الأمور تحت اختيار الإنسان الذي يمتلك العقل والثقافة، فإن الحضارة والإنسان لن يبقيا سالمين من الفساد فقط، بل سيحصلان على تكاملهما الكبير.

فإذا كانت الحضارة اليوم تحت اختيار روحٍ متعالية، ويمكن للتلفاز والمذياع والمسرحية والفن والكتاب وبصورة كلية جميع وسائل الارتباط الجَمعي، أن تنشر وتبثّ تلك الروح المتعالية للحضارة إلى جميع العالم، حتى تصل الحضارة إلى أبعد نقطة وإلى أوحش الناس على وجه الكرة الأرضية، فإن جميع المجتمعات سوف تحصل على تكاملها وبصورة سريعة.

إذا وقعت الحضارة تحت اختيار الروح، وإذا بنينا المجتمع على أساس (لي) فإن الإنسان سوف يحصل على تكامله الطاوي ويصبح أكثر رشداً. يجب أن نعرف أن (لي) لم يكن مقابل (الطاو) بل إنه يمثل استمراراً لـ(الطاو).

ما هو لي؟

حينما يصل كنفوشيوس إلى هنا، يظهر الخراب. فهو يذكر خمسة أصول فضّية وهي:

أولاً - إطاعة الابن للأب: وهنا يتحدّث كنفوشيوس حديثاً جميلاً جداً فيقول:

ولدي! اِلبس لباساً أقلّ من عمرك دائماً، لأنه حينما ينظر إليك أبوك وأمك فإنهما سوف لن يحزنا على ذهاب عمرهما ويتصوّران أنهما لا يزالان في عمرٍ أقل (مثلاً إذا كنت شاباً في العشرين من العمر فعليك أن تلبس لباساً وتتصرّف تصرفات يتخيّل فيها أبواك أنك لا تزال طفلاً). . هذا كلام في مجمله جميل، وليس فيه إلا هذا الجانب.

ثانياً - أن يطيع الأخ الأصغر أخاه الكبير أوالأكبر منه: نحن نعرف أن المرحلة كانت مرحلة الأب الكبير، وحينما يكون الأب الأكبر أو المسيطر موجوداً يكون هو صاحب الأمر والنهي، ولكن بعد وفاته فإن الابن الأكبر سيكون هو الوارث له في كل شيء وحتى في نسائه، ومن ضمنها أمه نفسها (أي أم الابن) فهي تكون موروثة لولدها. وهذا الأصل عند كنفوشيوس من الأصول الخمسة لعقيدته، وهو نتيجة ذلك الوقت وتلك المرحلة.

ثالثاً - إطاعة المرأة لزوجها (مرحلة تسلّط الرجل) إطاعة محضة، بمعنى أن على المرأة أن تطيع وتنفّذ كل ما يقوله ويفعله الرجل وهي لا تملك أي رأي ومشورة مقابل رأي الزوج ومشورته.

رابعاً - إطاعة العامل لصاحب الخبرة أو الذي يفوقه في العمل.

خامساً - طاعة الرعيّة للحاكم.

إذا عمل المجتمع وفق الأصول الخمسة لكنفوشيوس:

هذه الأصول الخمسة! والتي تسمّى بقانون أو أصول (لي)، أو الأصول الخمسة الفضية! لكنفوشيوس، إذا سار المجتمع عليها فسوف يصل إلى درجة الكمال (كما يزعم كنفوشيوس).

فالفضائل كلّها تجري وفق هذه الأصول وطبق رعايتها. فحينما تطيع المرأة زوجها فإن الزوج سوف يبقى وفيّاً، وحينما يكون الأخ الأصغر مطيعاً، فإنه سوف يحصل على حماية ورعاية أخيه الأكبر، وحينما يكون الابن مطيعاً، فإن الأب سوف يصبح مربّياً، وحينما يطيع المجتمعُ الحاكمَ فإن الحاكم سيكون مربياً أيضاً، وحينما يزول الصراع والتنازع من المجتمع ويحب الناس بعضهم البعض، وتكون هناك مجموعة مُطاعة وأخرى مُطيعة، فهنا تزول الاختلافات ويصبح الجميع جيّدين،

ويصبح الوضع جيداً، وسوف يحصل المجتمع على النجاة.

إذاً فما هو مذهب وعقيدة المجتمع طبق عقيدة وقانون (لي)؟ هو رجوع هذا الجيل وهؤلاء الناس إلى ماضيهم الطاهر (كانوا في الماضي أرباباً مثل «فوشي» أو «فوهسي»، حيث إن هذا الحاكم كان يحكم الناس طبقاً لقانون (لي)، فكان عادلاً ويحب الخير للناس وكان الناس يحبّونه ويطيعونه، فكان مثالاً للعدل والعطاء، لذا يجب الرجوع إلى الأخيار من الأجداد واحترام السُّنَن الماضية وتقديسها).

وكيف يمكن تربية الروح؟ بواسطة الأدب. بالآداب والتعاليم والعادات والتقاليد، وبالموسيقى.

أما لماذا يعتمد كونفوشيوس على كل هذه العادات والتقاليد والاعتقاد بالسُّنَن القديمة؟ لأن الاعتقاد بالسنَن الماضية، هو فكر صيني، ويُعتبر كنفوشيوس من مُظهري هذه السنّة والمحافظين عليها، والطاعة والاحترام لهذا الأمر هو أساس ومبدأ الإنسان المحافظ.

الاعتقاد بالسنَن، والإيمان بالماضي، والاستناد إلى الإقطاعيين الذين حكموا بداية التاريخ (الذين وصلوا إلى مرتبة لي)، تُعتبر من الأمور المهمة في المدرسة

الكونفوشية، حيث أراد كونفوشيوس من الناس أن يرجعوا إليها حتى وإن رجعوا إلى الأساطير التي كانت موجودة في زمان (فوهسي)، حيث يرون أن العدالة كانت قائمة آنذاك وكان الجميع منشغلين بالأفراح والعيش الرغيد وأمثال هذه الأمور.

خصائص كونفوشيوس:

أولاً، إن كونفوشيوس كان على خلاف مع المدرسة الطاوية التي تؤمن بالروح والروحانية وَتَرْك الحياة المادية والرجوع إلى الفردية والرهبانية، فـ«كونفوشيوس» كان يدعو إلى تكوين المجتمع والحياة الاجتماعية، وإلى هذا العالم، وكان ضد الرهبانية والفكر العرفاني.

باعتقادي أن هذا الأمر يُشبه أمر سقراط بقوله إنه هو الذي حوّل موضوع الفلسفة من موضوع يتحدث عن السماء إلى موضوع يتحدث عمّا هو موجود على الأرض، حيث كانت الفلسفة تتحدّث دائماً عن أرباب الأنواع، والسماء، وصراع الآلهة وغيرها من الأمور، فجعلها فلسفةً تتحدث عن الأخلاق وتكامل الروح والروابط الحياتية والاجتماعية. إن كونفوشيوس أيضاً، نزل بالدين، من الحديث عن السماء، إلى الحديث عن الأرض، وعن وسيلة بناء التقدّم

الإنساني والحياة الاجتماعية وعن هذا العالم، حيث كان العالم غارقاً في مسائل العرفان والروح والزهد والانزواء، فإن كونفوشيوس حوّل هذا الأمر، إلى الحياة الاجتماعية.

ثانياً، لقد كان مبدأ تقديس السنن القديمة والحفاظ على الأمور الاجتماعية يجري لصالح ومنفعة الطبقة الحاكمة، وبضرر عامة الناس.

لذا فإن من آثار قدرة وانتشار فكر كونفوشيوس هو أنه وبعد مرور أكثر من ألفين وأربعمائة عام فإن الصين طوت مرحلة خاصة عجيبة. وأنها في هذه المرحلة، أي أن المجتمع الصيني في هذه المرحلة لم يكن مجتمعاً متوحشاً ومتأخراً، ولم يكن مجتمعاً متقدّماً ومتكاملاً، ولم يحصل على نهضة متطورة ولم يحصل له سقوط أيضاً، بل إنه كان في حالة بين هذا الأمر وذاك، بمعنى أنه لم يكن حسناً ولم يكن سيئاً، وبقي مجتمعاً متوسطاً.

في هذه المرحلة، كانت الصين تملك حضارة وفناً متقدماً، ولكن هذا الفن وتلك الحضارة كانت جامدة وتسير على وتيرة واحدة ولا تملك حركةً وتطوراً وثورة. وهذا كله يعود إلى مبدأ الاعتقاد بالسنن والمحافظة عليها والذي كان يعتقد به كونفوشيوس.

لقد حافظ كونفوشيوس وحافظت مبادئه على هذه الحالة ولمدة ستة وعشرين قرناً في المجتمع الصيني، لماذا؟ لأن الاعتقاد بالسنن والعادات والتقاليد القديمة يعني بقاء المجتمع على حالته، ولم يسمح له بالارتقاء أو الهبوط عن ذلك المستوى. والعهد الجديد كان يمثل عكس العمل وردّة فعل للدورات التي جاءت بعد كونفوشيوس وحكومته.

إن التفكّر الصيني الذي يؤمن بأن الأرض مسطحة والسماء سقف لها، وأن الصين تقع وسط الكرة الأرضية وأن قصور ملوك الصين تتوسط الصين، وأنهم أبناء السماء، هذا الطراز من التفكير يشكل النظرة الصينية للعالم، أما كونفوشيوس فهو بمبادئه الخمسة أراد أن يضع نظاماً في قلب هذا المجتمع، وأن يستقر هذا النظام وفقاً وطبقاً لتعليماته.

لهذا فإن كونفوشيوس، يُعتبر من المعتقدين بالمجتمع، وهو يَعتبر هذا العالم عالماً عقلياً وفلسفياً، وهذا خلاف «لاو تسو» الذي يُعتبر عرفانياً، فردياً وضد المجتمع، ويميل إلى الفضائل الأخلاقية.

الفرق بين قادة أديان الصين والهند واليونان والأديان الإبراهيمية:

هناك نقطة اشتراك بين كونفوشيوس و«لاو تسو»، وهي أن الاثنين من الأشراف، (في النظرة الإسلامية) قلت إن جميع أنبياء الصين والهند وإيران واليونان كانوا يؤدّون دورَ الأنبياء[1]، وبدون استثناء كان جميعهم من الأشراف. إن كونفوشيوس نفسه هو من الأشراف، ثم صار معلّماً للملوك ثم وزيراً لحكومة (لو) مسقط رأسه، و«لاو تسو» أيضاً ولد في عائلة من عوائل الأشراف ثم صار مسؤولاً عن حفظ مستندات ووثائق دولة الصين، ثم تحوّل إلى العرفان والانزواء، وحصل له ذلك التغيير الروحي.

إن كونفوشيوس و«لاو تسو» هما من الأشراف، وهذه

---

(١) من الرَّخويّات الفكرية اعتبار كونفوشيوس أو لاتسو من الأنبياء، لكن ذلك الرأي، جائز وسديد. فهؤلاء الرجال حكماء، ومعلِّمون توصلوا إلى تعاليم موجّهة للإنسان أو للبشري عموماً، وللإنسانية، وقدّموا أطروحات قاصدة لتعليم الفضائل، وإقامة العلائق المتماسكة النبيلة في المجتمع، وصقل النفس أو تهذيبها بمعايير مطلقة. . وهل يجب عليَّ أن أذكرّ أن شريعتي هنا، يناقش الأمور ويحلّلها على ضوء علم الإجتماع، وهو يعطي مصطلحاته بُعدها الاجتماعي داخل الذمة العالمية للثقافة، لذا فإن شريعتي عندما يصفهم بالأنبياء، فهو لا يقصد المعنى الإصطلاحي للنبوة، أي النبي الذي يتلقّى الوحي من السماء، بل يقصد بأنهم كانوا يؤدّون دور الأنبياء كما صرّح في المتن.

الأشرافية ظهرت على شكل فكر عرفاني عند «لاو تسو»، وعلى شكل إيمان بالسنن القديمة عند كونفوشيوس.

إن هذين المذهبين ولدا من رحم الأشراف والرفاهية، وهذا على خلاف الأديان الإبراهيمية وبدون استثناء، فهنا ولدت الأديان من رحم المجتمع والأمة - يعني من عامة الناس - وهذه الأديان، فكرها هو بناء العالم، وهو فكر متحرّك وثوري.

«إذا اتحد مذهب كونفوشيوس ولاوتسو كان ديناً كاملاً»

لقد كان كونفوشيوس حكيماً كبيراً حيث إنه أنقذ المجتمع الصيني الذي كان غارقاً في الخرافات، والوهم الذي أوصله إليه الفكر الطاوي، أنقذه كونفوشيوس وأوصله إلى الحياة الاجتماعية.

لقد كان تفكير المجتمع الصيني قبل كونفوشيوس منصبّاً على كيفية خدمة أرواح الموتى. وحينما سأل طالب من طلاب كونفوشيوس عن كيفية خدمة أرواح الموتى، قال له كونفوشيوس في معرض الجواب: ولدي! أنت لا تعرف كيف تخدم الأحياء وهم لم يروا منك خدمةً في حياتهم، فكيف يمكنك خدمتهم بعد موتهم؟

تكرر السؤال مرتين حول الحياة بعد الموت، وسمعتم الجواب، حيث إنكم لم تعرفوا الحياة قبل الموت، الحياة الحالية، فكيف تريدون أن أعرف لكم الحياة بعد الموت[١]؟

وكذلك طلبوا منه أداء العبادات والسحر الطاوي، فقال: إن حياتي هي عبادتي.

إن هذا التوجّه العقلي لحياة هذا العالم أضاف وجهةً إيجابية وعقلية وبناءّة للنظرة الواقعية، ولكن هذا سبّب تراجعاً للأمور المعنوية والفضائل التي كانت في الفكر الطاوي، لهذا بقي الاثنان مجتمعين، ومنفردين، ولكن اتحادهما يمثّل أمراً بناءً، فإذا اتّحدت الكونفوشيّة والطاوية في نظرية واحدة، فإن هذه النظرية ستصبح متكاملة، ويصبح مجموع أفكار المدرسة الكونفوشيّة والطاوية مدرسةً متكاملة تؤمّن حياة الإنسان والفرد والمجتمع.

---

(١) كان كونفوشيوس يُحجم عن المناقشات الدينية، وكان يتكلّم عن السُّبل التي يجب على الإنسان اتباعها. فلقد أجاب أحد مريديه مرة عندما سأله عن كيفية التعامل مع أرواح الناس بعد موتهم: «إنك عاجز عن التعامل مع الأحياء، فكيف يمكنك التعامل مع أرواحهم بعد الموت؟». وأجاب آخر عندما سأله عن الموت: «إنك لا تفهم الحياة، فكيف يمكنك أن تفهم الموت؟»..

«الحكيم إنسان محبّ وإنسان يحب الكمال»

كان كونفوشيوس إنساناً يؤمن بالسنن القديمة ويميل إلى نظام الأشراف، النظام الذي يدافع دائماً عن مصالح الطبقة الحاكمة. ولكنه في نفس الوقت كان إنساناً حكيماً، يحبّ الخير، ويحبّ الإنسان الكامل (لا توجد فرصة لتعريف الإنسان الكامل) وسنتحدث عن جزء من حياته حتى تصبح شخصيته واضحة لدينا.

كان يعبر الصحراء مع طلابه، فشاهد امرأة عند أحد القبور المهجورة تبكي، طلب من تلاميذه أن يسألوا المرأة عن حالها، أجابت المرأة: إن هذا القبر هو قبر والد زوجي، لقد قتلته الحيوانات المتوحشة هنا، ودُفن في هذا المكان.

قال: إذاً لمَن هذا القبر الآخر؟ قالت: هذا قبر زوجي، كان مزارعاً في هذه المزرعة، وأيضاً قتلته الحيوانات المتوحشة يوماً ما.

ثم إن تلميذه أشار إلى قبر آخر، قالت المرأة: هذا قبر ولدي، كان مصيره مثل مصير والده وجدّه. والقبر الأخير هو لأخي، حيث إنه صُرع بواسطة ذئب مفترس آخر. ثم عاد التلميذ وسأل أستاذه بعدما سمع ذلك: لماذا لا تترك

المرأة هذه الأرض وتذهب إلى مكان آخر خالٍ من كل هذه الذئاب؟.

أجابت المرأة على هذا السؤال قائلة: إن حكومة هذه الأرض، حكومة عادلة، وهذا سبب بقائي هنا. وإن كونفوشيوس له جملة يقول فيها: إن التاريخ والثقافة والأفكار لها قيمتها الكبيرة. تعال يا تلميذ، إن الحكومة الظالمة هي أكثر وحشية من الذئاب.

سؤال وجواب:

س: في الجلسة الثالثة وضمن الحديث قال الأستاذ حول نظرية التكامل لـ«داروِن»، أنه في المرحلة الأخيرة للتكامل وجد الحسّ المذهبي، وهنا يرى السامعون أو القراء أن نظرية داروِن تقول إن الإنسان مشتق من القرد أو أن أصله يرجع إلى القرد (وهذا غير مقبول عند علماء التطور)، لطفاً يا أستاذ، نحن هنا نحتاج لتوضيح أكثر، فمثلاً من وجهة نظر علماء الوراثة فإنه لا يوجد هناك تطابق بين حليب الإنسان ونطفته وبين حليب القرد ونطفته[١].

ج ـ إذا كنتم تتذكرون، وفي الدرس السابق، فإنني لم أطرح نظرية داروِن كعنوان لإحدى النظريات الإسلامية أو

---

(١) هذا يعكس إشكالناالمتقدِّم على عرض شريعتي لنظرية التكامل عند داروِن.

الدينية، ولكنني طرحتها ضمن التعاريف المختلفة التي طرحها العلماء الذين يملكون الحس الديني والحس المذهبي اليوم، وأنا بيّنت وشرحت النظرية وما تقوله حول الإحساس المذهبي في نوع الإنسان، بمعنى أنني قلت: أنه من ضمن الأشخاص الذين يقبلون بوجود الإحساس المذهبي عند الإنسان هو دارون، وهذا من الناحية العلمية يعني أنه يتناسب مع أفكار أولئك العلماء ومذاهبهم. هذا ما طرحوه هم أيضاً سواءً كان دارون مخالفاً لعقائدهم أو متّفقاً معها. وإن التديّن والإيمان بشيء أو عدم الإيمان به، أمر آخر، ولا يعني صحة أو خلل نظرية الشخص. فهناك شخص يدين بدين ولكن من الممكن أن يكون اعتقاده خاطئاً، فهناك من يعبد الأصنام وهو رجل شريف ولا يعني هذا أنه ليس لديه عقيدة، ولكن اعتقاده خاطىء. ونحن ننتقد هذا الاعتقاد، ولكن في نفس الوقت، نعتقد بأن لديه عقيدة يؤمن بها.

أنا أريد أولاً أن أثبت هذا، وهو أن دارون إنسان يمتلك عقيدة ما. وثانياً من ناحية وجود الإحساس العقائدي -أو قوله العرفاني- حول الإنسان فهذه النظرية موجودة. لذا فأنا بيّنت نظريته التسلسلية التكاملية الخاصة، وهي التي

تؤمن بتبديل الأنواع من نوعٍ إلى آخر ثم يصبح تكاملها النهائي، هو الإنسان.

على أية حال فإنني كأستاذ طرحت النظريات المختلفة وحتى المتناقضة منها، وهذا لا يعني أنني أقبل نظرية دارِون كاستدلال عقائدي، وأعتقد أنه أصبح واضحاً تماماً ماذا أريد أن أقول. فالبحث لم يكن حول نظرية دارِون التكاملية، ولم يكن البحث أيضاً حول تبدّل الأنواع أو ثبوتها أو أمثال هذه المسائل، ولكن البحث كان، أن دارِون وخلاف النظرية العقائدية العامة له نظرية خاصة حول الدين. أما مسألة البحث في تبدّل الأنواع وتبديل الجينات الوراثية من وجهة نظر التاريخ والعلوم الطبيعية، اليوم، هل أصبحت المسألة ثابتة أم لا، فهذا البحث يختصّ به العلماء، وأنا ليس عندي اختصاص في هذا المجال. ولكن أنا أستطيع أن أتحدّث حول دارِون من خلال البحوث التي كتبت حول نظرية دارِون، وهذه الأمور يمكنكم أنتم مطالعتها والتحدّث عنها.

س ـ ألف ـ هل أنتم تتفقون مع فلسفة «الطاو» أو فلسفة «لي»؟

ب ـ في فلسفة الطاو يقولون إن العقل غير مرتبط

بالعبادة والرياضة الروحية. هل هو كذلك؟

ج ـ إذا دققتم في ذلك الأمر، وأنا قد قلت رأيي، وحسب الأصول يجب أن لا أعطي رأياً في الأمر، وبعد هذا قلت، ماذا يعني الطاو؟ وماذا يقول لاوتسو؟ ومن هو كونفوشيوس؟ وماذا يقولون حول الطاو والفكر الطاوي وحول «لاو تسو»؟ لقد قلت إنه في الفكر الطاوي يكون الفرد كبيراً يحلّق في مجتمع ضعيف، وأن مجتمع كونفوشيوس مجتمع قوي ومقتدر ولكن الفرد والإنسان فيه إنسان ضعيف ومبتذل، وهذا حكمي العام حول العرفان والعلم (العلم الموجود الآن)، فالمجتمع قوي ومسلّح ولكن الإنسان فيه صغير وضعيف. أما في العرفان، فالناس كبار، والإنسان كبير، ولكن المجتمع مجتمع فاقد للوعي. فالعرفان يعطي قوة معنوية للروح ويحلّق بها في السماء، ولكن المجتمع مجتمع عادي وفاقد للوعي. وهذا يخالف تماماً الحضارةَ القائمة اليوم حيث إن قدرة الإنسان وتسلّطه على الطبيعة أصبحت كبيرة ولكنه يحتفظ بروحٍ ضعيفة في داخله. لذلك فإن عقيدتي واضحة وهي تلك الجملة المشهورة التي قلتها حول الإنسان المرسَل (أو النبي)، فأتمنى أن تكون القيادة والعقيدة مركّبة من كونفوشيوس

ولاوتسو، يعني أن يكون المجتمع مبنياً طبق أصول (لي)، وروحه مبنيّة طبق (الطاو). وهذا مشابه لما قلته في موضوع المعارف الإسلامية حول صفات النبي ﷺ: أتمنى يوماً أن أرى سيف قيصر في يد المسيح، وروح الشرق في الحضارة الغربية، وعقل ديكارت[1] مع قلب باسكال، ومعرفة أبو علي سينا في نظرة أبو سعيد أبي الخير، والمحبّة والعقل كجناحين في جانبي الإنسان[2].

س: إن بين هؤلاء الكتّاب العرفانيين الماضين يوجد

---

(١) رينيه ديكارْتْ (١٥٩٦ - ١٦٥٠م): فيلسوف ورياضيّ وعالم فرنسي كثيرًا ما يُلَقَّب بأبي الفلسفة الحديثة. وقد اخترع ديكارت الهندسة التَّحليليَّة. وكان أول فيلسوف وصف الكون الماديّ من حيث المادة والحركة. كما كان رائدًا في محاولة صياغة قوانين عامَّة بسيطة في الحركة تَحْكُم جميع التَّغيُّرات الطَّبيعيَّة.
كتب ديكارت ثلاثة مؤلَّفات رئيسية وهي: «رسالة في منهج التَّصرُّف العقلي السليم للمرء والبحث عن الحقيقة في العلوم» (عام ١٦٣٧م) ويُعرف هذا الكتاب باسم شائع وهو «رسالة في المَنْهَج». أَمَّا الكتابان الآخران فهما: «تأمُّلات في الفلسفة الأُولى» (عام ١٦٤١م) ولعلَّه أَهمّ عمل لديكارت، «ومبادئ الفلسفة» (عام ١٦٤٤م). وأَصبحت فلسفته تُعْرَفُ بالديكارْتيَّة.

(٢) يقصد المؤلف من هذا أن الشرق يمتلك روحاً روحانية والغرب يمتلك حضارة خالية من الروح المعنوية، وديكارت صاحب العقل الكبير مع قلب باسكال العالم الرياضي العرفاني المذهب وأبو علي سينا صاحب الفلسفة إلى أبي سعيد أبي الخير صاحب العرفان والتصوّف، فهو يريد أن يجتمع العقل والعاطفة عند الإنسان ليكونا مثل الجناحين له لكي يتحرّك في المجتمع (المترجم).

بعض الأشخاص مثل أبو سعيد أبي الخير[١]، ومولوي[٢]

---

(١) أبو سعيد أبو الخير: أبو سعيد الميهني (من قرية ميْهنَة في محافظة خراسان)، من أشهر العرفاء وأكثرهم عرفانية، له رباعيات جميلة، سُئل: ما هو التصوف؟ قال: «أن تدَع ما في فكرك، وأن تُعطي ما في يدك، وأن تندفع بما يأتي عليك» التقى بابن سينا، حضر ابن سينا يوماً مجلس وعظه، وكان أبو سعيد يتكلم في ضرورة العمل وآثار الطاعة والمعصية.
كان أبو سعيد أبو الخير أول أئمة التصوف الذين اعتمدوا على الشعر الفارسي لنشر تعاليمهم، رغم أن المشرّعين كانوا يعتبرون الشعر إغواء شيطانياً ومخالفاً للشرع، وأن الشعراء أناس ضالون، لذا فقد تعرّضوا له بالطعن واللعن، بل واستنجدوا ببلاط الحكّام وألّبوهم ضده.. توفي سنة ٤٤٠ هـ.

(٢) جلال الدين الرومي (٦٠٤-٦٧٢هـ، ١٢٠٧- ١٢٧٣م): محمد بن محمد بن الحسين بن أحمد، عرّف نفسه بالبلخي، ولُقّب بالقونوي نسبة إلى «قونية» التي سكنها وتوفي فيها، كما لُقب بالرومي نسبة إلى بلاد الروم. وكانت قونية، تقع في وسط تركيا الحالية، في عهده من أعظم مدن الإسلام بالروم، فأصبح يعرف بالبلخي القونوي الرومي.
وجلال الدين الرومي عالم بفقه الحنفية والخلاف وأنواع العلوم، ثم متصوّف بعد أن ترك الدنيا والتصنيف. ولد في بلخ بفارس، وارتحل مع أبيه إلى بغداد وهو ابن أربع سنوات، ونشأ في المدرسة المستنصرية، ثم استقر في قونية عام ٦٢٣هـ. برع جلال الدين في العلوم الإسلامية خاصة الفقه، وتولى التدريس في أربع مدارس بقونية بعد وفاة أبيه عام ٦٢٨هـ.. رغب جلال الدين عن التدريس وتصوف سنة ٦٤٢هـ، وشغل بالموسيقى والرياضة ونظم الشعر. نظم كتابه «المثنوي» بالفارسية، وقد ترجم إلى التركية والعربية. والمثنوي منظومة صوفية فلسفية في ٢٥،٧٠٠ بيت في ستة أجزاء. تكاثر مريدوه وتابعوا طريقته المولوية المنسوبة إلى (مولانا) جلال الدين إلى أن توفي بقونية.

وغيرهم.. وهؤلاء لا يمتلكون النظرة المادية وقد شرح الأستاذ هذا الأمر لعدّة مرات، وهؤلاء لم يستطيعوا أن يعطونا صورة للحياة مركّبة من الماديات والمعنويات، وقد عرّف لنا هؤلاء الحياة الواقعية ويريدون منّا أن نسير وفق هذا الواقع. وأنا أريد أن أسأل، مع العلم أن هذا الموضوع يحتاج لشرح أكثر، ما هو رأي الأساتذة؟ ما هو الطريق أو الحل الذي يقترحونه حتى يمكنهم أن يخرجونا من بين تلك الأفكار المادية، والأفكار التي تؤمن بما وراء المادة أو الأفكار المعنوية، كي نستطيع أن نعيش الحياة الصحيحة؟

ج ـ نحن نرفض المادية الغربية وذلك نسبة إلى الأفكار الشرقية التي نحملها، وهذه الأفكار الشرقية تجعل منّا كفاراً لأنها أفكار ملحدة أيضاً، كذلك فإننا نخاطب أولئك الذين يمتلكون فكراً وثقافة، فعليه وفي نفس الوقت الذي رفضوا فيه الفكر الشرقي، أن لا يؤمنوا بالأفكار الغربية. وبعد هذا الشك الديكارتي فإن المثقف يمكنه أن يتحسس رسالته للإنسان وحتى لقارة آسيا أو أفريقيا (العالم الثالث)، الرسالة التي بيّنها (فرانتز فانون)[1] والذي يُعتبر أفضل من

---

(١) فرانز فانون (١٩٢٥- ١٩٦١): طبيب نفسانيّ وفيلسوف اجتماعي أسود، من مواليد جزر المارتينيك الكاريبية، عُرف بنضاله من أجل الحرية وضد=

أي شخص آخر (وقد بيّن هذا في كتاب كبير اسمه Les Dammes De La terre وهذا يحمل عصارة فكره وتجربته التي استمرّت سبع سنوات في الصراع والجهاد، الجهاد الفكري والاجتماعي والحرب ضد الاستعمار، وقد عُرف من خلال ذلك بأنه من الشخصيات المهمة ومن مثقفي العالم الثالث).

إن (فارنتز فانون) هو من الجنس الأسود وهو من جُزر الأنتيل الكاريبية في أمريكا، تخصّص في أحد الفروع الطبية في فرنسا -حيث أراد أن يصبح طبيباً متخصصاً فيما بعد- لكنه ترك تحصيله والتحق بجبهة تحرير الجزائر وأصبح عضواً فيها، ويُعتبر أيضاً كاتباً في جريدة (المجاهد)، وقد كتب شيئاً بعدما قيل له أنك مصاب بمرض السرطان وسوف تموت بعد ستة أشهر، كتب لأستاذه في الجبهة

= التمييز والعنصرية. حارب ضد النازيين في الحرب العالمية الثانية. عمل طبيباً عسكرياً في الجزائر في فترة الاستعمار الفرنسي، وعالج ضحايا طرفي الصراع. على الرغم من كونه مواطناً فرنسياً، انضم فرانز فانون كطبيب إلى جبهة التحرير الوطني الجزائرية (F.L.N). وصار رئيس تحرير جريدة المجاهد حين كانت تصدر من تونس، وفي ١٩٦٠ صار سفير الحكومة الجزائرية المؤقتة في غانا. توفي فانون عن عمر يناهز ال- ٣٦ من مرض صعب (لوكيميا الدم) ودفن في مقبرة مقاتلي الحرية الجزائريين. آمن فرانز فانون بأن مقاومة الاستعمار تتم باستعمال العنف فقط من جهة المقموع، فما أُخذ بالقوة يستعاد بالقوة.. وسيقف الدكتور شريعتي عند عدّة محطات من أفكاره في الصفحات اللاحقة.

يقول: (أنا سوف أموت بعد ستة أشهر وقد قررت أن أترك القلم، لأن محل عملي يجب أن يكون بين المجاهدين وفي مواقع القتال، لأنني لا أريد أن أموت خلف مكتبي، وأريد أن أكون شهيداً بين تلك الجبال والهضاب، وأريد أن يكون دفني في مقبرة «ابن مهدي»).

وقد عمل المجاهدون وبإصرار على تطبيق وصيّته، لأن تلك المقبرة كانت في إحدى قرى الجزائر حيث إن الفرنسيين قتلوا أهل هذه القرية بأجمعهم، ثم تبدّلت تلك القرية إلى مقبرة سمّوها (مقبرة الشهداء) وباسم «ابن مهدي» وهو أحد المجاهدين الشهداء، وهذه المقبرة كانت تحت سيطرة الفرنسيين، أما «فانون» فقد مات في إحدى المستشفيات السيارة في تونس والذي كان يديره المجاهدون، ولكنهم دفنوه في تلك المقبرة عملاً بالوصية.

لقد كان ذلك الرجل رجلاً عظيماً حيث لا نجد إلا قلّة مثله في عالمنا اليوم، يقول فانون: أيها الرفاق! (وحينما يقول أيها الرفاق فهو لا يعني الجزائريين ولا يعني الأفارقة ولا يعني شعب جزر الأنتيل في أمريكا الجنوبية، بل إنه يقصد جميع شعوب العالم الثالث، كل الناس الذين وقعوا تحت التحقير والظلم والقتل) يقول: تعالوا أيها الرفاق من

أفريقيا، نحن لن نبني أوروبا ثالثة، يكفينا تجربة أمريكا، حيث إن أمريكا قامت بهذا العمل وهو أنها بنَت نفسها طبق النموذج الأوروبي وصارت أوروبا رقم اثنين، بمعنى أن الناس كانوا يعانون من مشكلة واحدة ولكنهم أصبحوا يعانون من مشكلتين الآن. وإذا أنجز المجاهدون والمثقفون وشعب أفريقيا مثل هذا الأمر، فإن أفريقيا سوف تصبح فرنسا أخرى وبريطانيا أخرى وأوروبا غربية ثانية وإلى آخره.. سوف تكون هناك أوروبا ثالثة عندنا.

هل تريدون أن تبنوا من آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية، أمريكا أخرى وأوروبا أخرى؟ وإذا كان الأمر هكذا، فهذا يعني أننا سنسلّم دولنا للاستعمار الأوروبي لأنهم أقدم منّا في بناء هكذا حضارة، أما إذا أردتم أن نبني مستقبلنا بأيدينا فيجب أن لا ننتظر حتى تخرج فرنسا وأمريكا وبريطانيا، فنحن حينما نُخرجهم من الباب فإنهم سوف يعودون من النافذة.. وفي الوقت الذي نخرجهم منها فإننا نُعيد إلينا ثقافتهم وطريقة تفكيرهم وحضارتهم. وهنا نصبح مرتاحين لأننا ننجز العمل ونؤدي الأمور التي تريد تلك الدول القيام بها فإننا ننجزها بأنفسنا. نحن في آسيا وأفريقيا لم نقاتل من أجل أن نُقيم فاجعة اسمها الحضارة حتى نغيّر

الإنسان فقط بمعنى أننا نجعل الإنسان ذا الشعر الأسود مكان الإنسان ذي الشعر البنّي. نحن مثقفو العالم الثالث، لم تكن ثورتنا فقط لرفض الاستعمار ولم تكن ثورتنا لتغيير الناس فقط، لم تكن مَهمّتنا هي تجديد الحضارة الغربية وإحياؤها في الشرق، فهذه لم تكن خدمة نقدمها لأفريقيا وآسيا ولا للبشرية أيضاً، لأن البشرية في هذه الحال سوف تستفرغ ما لفظته مرة أخرى، ونحن إذا بنينا في آسيا وأفريقيا، أوروبا وأمريكا أخرى، فإن أوروبا وأمريكا سوف ترى هنا، شكلها وصورتها الممسوخة التي كانت هي السبب وراء مسخها. وهذا الأمر لم يكن في خدمة أو في مصلحة الاستعمار ولا في مصلحة أوروبا ولا الحضارة ولا البشرية. لهذا يجب أن نعرف أن الضحية الكبرى للحضار الغربية هو الإنسان. ولهذا فعلى مثقفي العالم الثالث أن لا ينجرّوا إلى ذلك الطريق وأن يبحثوا عن تلك الأفكار التي كانت سبباً في مسخ الإنسان. لذا علينا نحن مثقفو العالم الثالث أن نتحرك ونعمل لبناء أفريقيا وآسيا جديدة، لبناء نظام جديد، ويجب أن نسعى أيضاً لبناء إنسان جديد، ونسلٍ جديد وفكر جديد. يجب أن يكون الإنسان الجديد، إنساناً لا يتأثر بمنافسات الصناعات الغربية الممسوخة، ولا

يكون إنساناً كل همّه وفكره أن يصبح صاحب ثروة ومال وبسرعة جنونية، بحيث لا يرى الناس القريبين منه والذين يعملون معه. علينا أن نترك مثل هذا السباق الجنوني وأن نتعرّف على الناس وأن ننقذ الإنسان من محنته. إن هذا الإنسان الجديد، وهذا اللون الجديد سيكون عنواناً لنسلٍ جديد وجيلٍ جديد، لا يكون أبيض وأسود وأصفر وأحمر. إن اسمه يكون الجيل والعنصر والقومية الإنسانية، وهذا يأخذ مرحلتين. وهنا نحتاج لطوفان نوح، الطوفان النوحي الذي يَغرق فيه كلُّ بناءٍ ضد الإنسانية بُني فوق الأرض، وبعد هذا سنحصل على جيل قد تطهّر ويبقى جيلاً إنسانياً مميزاً، وهذا سيكون بداية شروع التكامل الإنساني، وهذه هي المسؤولية العظيمة لمثقفي العالم الثالث. وإن مسؤوليتهم لم تكن فقط، تحرير واستقلال أنفسهم أو محاربتهم للاستعمار، بل إن رسالتهم هي لإنسان الغد، وعلى هذا يجب أن يعملوا على إنقاذ ونجاة إنسان اليوم، فمهمّتهم هي إعطاء الحياة وليس الوصول إلى الأفكار الأوروبية.

إن هذا النسل الجديد والجيل الذي يجب أن يُبنى ويُنشأ، يجب أن يكون خليفةً لعنصرية البيض والحمر

والسود والصفر، فأي جيل وقومية هذا؟ وأي ثقافة ستكون ثقافته؟ أنا أعتقد أننا الآن تحت عنوان مثقفي الشرق نمتلك عوامل بناء هذا الإنسان، وأن الحضارة الغربية تمتلك تلك المصالح تحت عنوان الجسد، وأن الثقافة الشرقية وذلك الدين الطاهر دفنته تلك الخرافات تحتها، وأن جميع المثقفين أصبحوا غير مرتاحين لها، فيمكن أن يندرج الدين تحت عنوان الروح، ومن هذين الأمرين يمكننا أن نبني الإنسان، إنسان متحضّر يفهم العشق والمحبّة، وإنسان صاحب قدرة وعالِم صاحب فضيلة، حيث لم يستحق فضيلة البشرية تحت جناح التقدّم والحضارة، بل إنه يستفيد من قدرة الحضارة ويستخدمها في تكامل روح الإنسان، ليس الإنسان الذي صار ضحية السوق الذي يفرضه عليه الرأسماليون، والإنسان الذي صار قطعة غيار للآلة التي صنعوها، بل يجب أن يكون سيد الآلة وصاحبها، وفي هذه الحالة يمكن أن تكون الآلة منقذة الإنسان ومصدر سعادته. في ذلك الوقت يمكن أن يكون الإنسان إنساناً متكاملاً وصاحبَ فهمٍ يمتلك روحاً إنسانية وإحساساً إنسانياً، وإذا كان يمتلك آلة فإنه ومن أجل معيشته بدل أن يعمل عشر ساعات فإنه سوف يعمل ساعتين، وهذه تمنحه وقتاً ويعرف

أنه يمتلك آلة، وأنه يمتلك وقتاً يصبح فيه حراً من أجل أن يفكّر ويتأمل في كيفية بناء التكامل الإنساني والتكامل المعنوي لإنسان التاريخ.

س: أعطِ توضيحاً لمعنى (براغماتيسم) من ناحية أنه تجلّي الوجدان السياسي-العملي؟

ج ـ إن البراغماتيسم[1] هو مصطلح وعنوان مدرسة ترتبط بوليام جيمس[2] الأمريكي، أما إذا أخذناه بعنوان

---

(١) براغماتيسم: الذَّرائعيَّة.. فلسفة تحاول تطبيق الأساليب العلمية على الفلسفة. وتتركَّز فكرتها الأساسية على أنَّ أي معنى أو حقيقة لأي فكرة ما، تتحدّد بتأثيرات الفكرة في الممارسة والسُّلوك.

(٢) وليم جيمس (١٨٤٢ - ١٩١٠م): واحد من أكبر الفلاسفة الأمريكيين الذين قرئت كتاباتهم في القرن العشرين الميلادي، وقاد مع «تشارلز بيرس» و«جون ديوي» حركة الفلسفة الذرائعية.
وُلد جيمس ـ وهو شقيق الروائي هنري جيمس ـ في مدينة نيويورك. ودرس ـ وهو طالب بكلية الطب في جامعة هارفارد ـ علم التشريح وعلم وظائف الأعضاء على يد أستاذه «لوي أجاسي»، وهو عالم طبيعة ذائع الصيت. ولكن ميول جيمس تحولت إلى علم النفس والعلاقة بين التجربة والتفكير والسلوك. ويُعد كتابه «مبادئ علم النفس» (١٨٩٠م) عُمدةً في موضوعه.
حاول جيمس الإجابة عن أسئلة فلسفية بمصطلحات ذرائعية. وهو يعتقد أن كل اختلاف في التفكير ينتج عنه اختلاف على الشخص والمكان. فإذا اختلفت نظريتان، يكون الاختلاف واضحًا عندما ندرك: ١- كيف تختلفان حول الحقائق الموجودة ٢- الاختلاف في سلوكنا إذا اعتقدنا أن أحدهما أو الآخر على صواب.

التفكّر فإنه قديم جداً ويرجع أصله إلى الهند والصين وإيران القديمة. إن البراغماتيسم يعني أصالة العمل وله جذور فلسفية، وإذا كان عندنا وقت فسوف نطرحه بعنوان مدرسة فكرية.

أما في هذا الوقت القصير فيجب أن نقول إن «براكسيس»[١] تعني أن كل شيء لا يملك وجوداً إلا إذا دخل ضمن حيّز العمل. وقبل العمل فهو لا شيء. وهذا المعنى يبيّنه سارتر أفضل من غيره في (L'être et le neant) (الوجود وعدم الوجود). فالشاعر الذي لم يقل شعراً فإنه متساوٍ تماماً مع الإنسان غير الشاعر، المفكّر والمثقف الذي لا يعمل فإنه مثل الجاهل الذي لا يعمل بمعنى أن الاثنين متساويان، والاثنين غير موجودين، وتصنيفهما إلى شاعر وغير شاعر، ومثقف وجاهل، غلط ذهني. وحينما

= وقد يدّعي أحد الأشخاص ـ كما يعتقد جيمس ـ أن الناس أحرار، ويمكنهم تحديد خياراتهم الحقيقية. ويدّعي شخص آخر أن الناس ليسوا أحرارًا نظرًا لوجود عوامل تقع خارج إرادتهم تعمل على تحديد القرارات والأفعال البشرية. ولهذا وطبقًا لرأي جيمس، يجب علينا البحث عن طريقة لنفصل بينهما، ذلك لأن سلوكنا يعتمد على الخيار الذي نتبناه.

(١) البراكسيس (les praxix): لفظة إغريقية تعني الفعل والممارسة. وهي تتعارض في الفلسفة اليونانيّة مع النّظريّة Théoria التّي تعني بالأساس التّأمّل والتّفكير النّظري الخالص.

يتحقق الشيء ويأتي منه عمل فإنه يأتي بالمعنى المطلوب «براكسيس» .

في التعريف الذي يختصّ بالدين، هناك اختلاف حوله بين الأشاعرة والمعتزلة وبين السُنّة والشيعة. وهذا الاختلاف، هو اختلاف «براغماتيستي». فعلماء أهل السُنّة عرّفوا الدين بهذه الصورة، إن الدين هو الإيمان بالقلب والإقرار باللسان، يعني أن الدين هو ما نعتقده بقلبنا ونقوله بلسانا، وماذا يعني هذا؟ يعني أن الإنسان يعتقد بنبوة محمد ﷺ وبالتوحيد وبنزول القرآن، ويعتقد أن هذه الأمور كلها صحيحة، بعدها يقول (أشهد أن لا إله إلّا الله وأشهد أن. . .)، فهو إنسان مؤمن. أما الشيعة فإنهم يضيفون أصلاً آخرَ، فيقولون: إيمان بالقلب وإقرار باللسان وعمل بالجوارح. بمعنى أنه يصبح مؤمناً في البُعد الثالث، فقبل العمل لا يوجد إيمان. يعني أن الإنسان الذي يعتقد بالنبوّة حينما لا يملك عملاً فإنه يصبح مساوياً لذلك الذي لا يؤمن بها، وهذا لا يعني أنه كافر وأنا مؤمن، طالما أن الاثنين ليس عندهما عمل فهما متساويان، لماذا متساويان؟ بمعنى أن عدم وجود العمل عند الاثنين هو عدم الإيمان في القلب وفي اللسان، إن اللسان هو عبارة عن مجموعة من الألفاظ والكلمات، والقلب هو الأمر العقلي أو الذهني، وهو مسألة نظرية، وهذا ليس له وجود، وإذا

كان له وجود، فوجوده ذهني وروحي وداخلي، وهذا لا يُسمى وجوداً وإنما هو عدم محض. أما البراغماتيسم، فهو يعني أن هذا الإيمان، وهذه العقيدة، وهذا اللون من الاختلاف الفكري، وهذا التحوّل الروحي حينما يظهر مع فكر جديد فهو يجب أن يُجسّد في العمل فحينها يكون له وجود. ولهذا نجد أن البراغماتيسم لم يحقق أو يهتم بمسألة الحق والباطل قبل أن يتجسّدا في الواقع، لأنه لا وجود لهما قبل العمل وهما يساويان صفراً. أما بعد العمل فيمكن أن نقول هذا حق وهذا باطل، فالإنسان الخائن الذي لم يُقدِم على الخيانة يكون مساوياً للإنسان الخادم الذي لم يقدِّم خدمة للمجتمع، أما هذه الصفات التي نقول عنها أن أصله جيد ونفسه طاهرة وشكله نوراني وعائلته جيدة، فكل هذه الألفاظ لا معنى لها. فماذا قدّم من عمل؟ في ذلك الوقت يمكن القول ماذا هو؟ إن أحد البراغماتيستيين المشهورين يقول لا تسألني ما هو الإنسان؟ لأن الإنسان لا شيء، ولكن قل مَن هو؟ فأقول لك من هو.

س: كيف يمكن أن نربي مجتمعاً ما، تربية عرفانية، والمجتمع مبني على أساس الأمور العقلية؟ هل من الممكن إيجاد هكذا مجتمع؟

ج: نعم. تلك المسرحية التي عرضها طلّاب من مشهد وعالجوا فيها هكذا مسألة وأتمنى أن تشاهدوها. وهي حياة

أبي ذر. إن أبا ذر في «الربذة»[1] وهو في حال الاحتضار كان يحدّث نفسه، ويقول: أولئك الذين حطموا بني أمية وجبروتهم، وتحمّلوا العذاب والجور على أنفسم، كانوا رهباناً وزهاداً «زهّاد الليل وأُسد النهار»، أولئك الذين كانوا في قلب ومقدمة الجهاد الاجتماعي ضد الظلم والفقر والاضطهاد، كانوا أشخاصاً عاشقين وفي عظمة عشقهم كان العشق الأكبر لرسول الله ﷺ أكبر نبي في التاريخ.

لقد كان أبو ذر أحدهم. وعلي كان أيضاً منهم. فكانوا يشبهون عملةً واحدة وخلية ومنظومة واحدة، فمثلاً من أجل حفر بئر للماء كانوا يعملون سوية، وإن شكل العامل الخالد في التاريخ هو هذا: فإذا أرادوا أن يصنعوا تمثالاً لعامل بمعناه الواقعي والحقيقي فإنه علي عليه السلام، فهو بيديه يحفر قناةً في صحراء المدينة الحارقة، وبيديه يُخرج الماء من وسط تلك الصحراء القاحلة. (لهذا فهو عملة اقتصادية). فهو بعد أن يحفر البئر وينبع الماء دفعة واحدة يصرخ علي وينادي أبناءه أن يُخرجوه من وسط البئر، فيخرج علي وقد غطّى الطين والتراب وجهه وبدنه فيخرج وهو كالتمثال المصنوع من الطين

(١) الرَّبَذة: قرية من قرى المدينة على ثلاثة أيام، قريبة من ذات عِرْق على طريق الحجاز.

والتراب (ولذا لقّب بأبي تراب) وحينما يخرج يقول: هذا ليس إرثاً -أي البئر- لبني هاشم، بل إنه للفقراء والمساكين في المدينة.

لهذا فإن لهذا الإنسان بُعْدَين، وهذا ليس شيئاً ذهنياً. حتى لو اعتقدنا أن علياً سار على طريق الوحي والدين، فـ«علي» صار لنا ولو كنا مثقفين ولا نعتقد بالمذهب والدين، فهو على أية حال أصبح صورة واقعية خارجية ومظهراً حقيقياً واضحاً، ولم يكن تمثالاً خيالياً يحمله ويتصوّره الذهن فقط، فهو لم يكن مثل رستم[١] يعيش في أحد نواحي سيستان[٢] والذي خلقه فردوسي بأقواله وجعل منه «رستماً». بل كان عليّ إنساناً، تحمّل العذاب والجوع وضربات السيوف وأحسّ بالآلام، ومثل هذا الإنسان الذي تحمّل الجوع وهو يقوم بعمله هو أكبر وأعظم من بوذا في

---

(١) رستم: أو «رستم دستان» أو «رستم بن زال» يُسمى بالفارسية (رستم پسر زال) هو بطل أسطوري فارسي خيالي أبعدهم صيتًا وأبقاهم ذكرًا.. وهو حسب الأسطورة الفارسية فارس ومغامر تغنّى به «الفردوسي» في ملحمته «الشاهنامة». ومآثره ملء القصَص الفارسى، واسمه مردّد في الشعر القديم والحديث.

(٢) سيستان: إحدى مقاطعات إيران الثلاثين. تقع جنوبي شرق إيران على الحدود مع باكستان وأفغانستان. عاصمتها زاهدان التي يسكنها ٤٢٠ ألف نسمة.

تركه الدنيا، وأعظم من العُرَفاء في باطنه وأعظم من تلك الروح الموجودة في الطبيعة، فهو يعشق، مثل الأشياء التي تتعلق بالمغناطيس، في مركز جاذبية الكون ويصبح متصلاً ومجذوباً لها، وفي نفس الوقت فهو يمثّل أو يُشبه العامل الذي يعمل طوال الوقت في إنجاز العمل والذي لا يعرف إلّا حياته المادية وعمله. في ذلك الوقت وفي السنة الأولى للهجرة حيث كان مجتمع المدينة مجتمعاً فقيراً، يديره عدّة أنفار من اليهود وقد وصل الناس إلى قمّة الفقر آنذاك حيث إن الفقر كان العلامة المميّزة لذلك المجتمع. في ذلك الوقت أصبحت المدينة وبعد وقت قصير، مركزاً للعمل، والقنوات، والحياة الاجتماعية، والتجارة، والحضارة، والتعليم، والتربية، والحياة المادية، والجيش، والسلاح، والقدرة الدفاعية، ثم صارت بعد عشر سنوات تقود الحملات، وتهدّد الأمبراطوريات العظيمة مثل الروم والفرس، وكانت هذه المدينة شبحاً مخيفاً لتلك الأمبراطوريات في الشرق والغرب والشمال، هذا من جانب القوة العسكرية. أما من جانب القدرة المادية والاقتصادية، فأصبحت المدينة مركزاً للثروة والمال. وأما من جانب العمارة والفن والفكر وبناء الإنسان، فقد وصلت

إلى أوج عظمتها. وإذا أردنا أن نبحث عن الناس الذين كانوا يعملون، فنجدهم في المدينة، وكذلك الأشخاص الذين وصلوا إلى عظمتهم في العشق والحب فهم في المدينة أيضاً. ونذكر واحداً من هؤلاء (هو علي وأمثاله حيث كانوا رجالاً كباراً)، وإذا أردنا أن نذكر إنساناً صغيراً فيها، فهي تلك المرأة التي كانت تعيش في أطراف المدينة والتي ارتكبت الزنا بعد أن سمعت بأن هناك مدرسة جديدة وفكراً جديداً وإيماناً جديداً في المدينة، ذهبت تلك المرأة إلى المسجد وتقدّمت من الرسولﷺ وقالت له وبحضور الناس: أنا ارتكبت محرّماً، أرجو أن تقوم برجمي، أما الرسولﷺ فلم يكن مرتاحاً، فقال لها اذهبي حتى تضعي حملكِ ثم تعالي. تذهب المرأة وتأتي بعد تسعة أشهر، وتقول وضعت حملي فيقول لها الرسولﷺ اِذهبي وأرضعي طفلكِ وحينما يصبح غير محتاج إليكِ تعالي لإقامة الحد. ثم تعود بعد سنتين وهي تحمل طفلها وبيده قطعة من الخبز وتقول يا رسول الله انظر فقد بدأ يعتمد على نفسه، ينظر إليه رسول الله ثم لا يجد أمراً شرعياً آخر يدفع عنها الرجم، فيأمر بإجراء الحدّ عليها. وهذا يعني أن امرأة تعيش في البادية وفي القرن السابع الميلادي، تكون صادقة إلى هذا الحدّ مع إجراء الحكم الإلهي، لقد ربّت المدينة هكذا نماذج. وهناك بعض المقاتلين الذين

يتركون صفّهم ومكانهم ويتقدّمون بأنفسهم إلى العدو قبل أن يلتحم الجيش فيُقتلون، لهذا نزلت آية في الجهاد: «ولا تُلقوا بأيديكم إلى التهلكة»، وهذا لا يعني تحريم القتال وإنما يعني تخفيف حالة الشهادة والاندفاع الفردي، لأن القوة الدفاعية سوف تنهار في حال الاندفاع والمبارزة الفردية، لقد كانوا هكذا حريصين على القتال! وفي نفس الوقت فهؤلاء الناس والقيادة في مرتبة واحدة، بحيث يعملون من أجل الحياة الاقتصادية وبدون اسم وعنوان.

إن علياً هذا الذي أصبح رمزاً للعرفان والتصوّف في تأريخنا، ومع تلك العظمة الروحية التي يتصاغر أمامها بوذا، الذي لم يذق إلّا عذاب الفلسفة، أما علي فهو يتحمّل عذاب ذلك الطفل الذي لم يجد ما يغذّيه من الحليب في المدينة.

لقد دُعيَ أحد ولاة الأمر في زمان خلافة الإمام علي عليه السلام من قِبل بعض التجّار إلى وليمة، وقد أجابهم وتناول معهم الطعام. من هو ذلك الوالي؟ إنه مالك الأشتر! إنه، عين علي، فهو حقيقةً كل شيء عنده، في الوقت الذي خانه معظم أصحابه وقادته، ولكن بقي مالك الأشتر على وفائه، فهذا الرجل كان مظهر التقوى والمحبة لعلي، فحينما كان والياً دعاه الأشراف، وذهب، ولم يتناول الخبز الخالي ويعود، ولكن علياً

يكتب إليه رسالة شديدة يهدّده فيها ويقول بما معناه: لقد ذهبت إلى مكان وتناولت طعاماً، وهناك في المدينة من لا يَجِد قوته، كيف يمكنك أن تكون بعيداً عن هؤلاء؟ ثم يقول له إن الرعية من المسلمين هم إخوان لك في الدين، وأما أولئك الذين يعيشون في كنف حكومتك وفي ولايتك من غير المسلمين فهم إخوان لك في الإنسانية، وعليك أن تتصرف وتتعامل معهم ضمن حدود الأخوّة. (الناس صنفان: إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق).

هذا من الجانب السياسي، وذاك من جانب العمل الاقتصادي، وذاك من جانب العمل البدني، وذاك بلحاظ الأمر الروحي والفضائل الأخلاقية والمحبّة والتعلّق بالروح العالمية الكبرى، وكذلك التكامل الفردي فإنه يصبّ أيضاً في منفعة ومصلحة المجتمع. نستنبط من علي حيث يقول: (مَن لا مَعاش له لا مَعاد له) ـ يعني، أن المجتمع الفقير ليس له دين، فالدين سيصبح خرافة عندهم، فالمجتمع حينما يكون فقيراً وليس لديه حياة مادية فهو لا يملك معاداً وحياة معنوية. والمجتمع الجائع، يكون دينه ديناً خرافياً موروثاً وكاذباً ومخدّراً، وهذا فعلاً ما نراه في المجتمعات المنحطّة من الناحية الاقتصادية والتي لم تفكر في الدنيا، فهي تكون منحطة أيضاً من الناحية المعنوية، هذا ما يقوله علي (مَن لا مَعاش له لا مَعاد له).

فيجب أن نُمعن النظر جيداً في هذا القول وماذا يعني؟! ألم يكن هذا منطبقاً على الفرد، بمعنى أن كل إنسان حينما تكون حياته المعاشية متردّية، تكون حياته المعنوية متردية أيضاً. وإذا كان الأمر هكذا! فهذا يعني أن الأثرياء يكونون أرفع درجة منّا في الأمور المعنوية، ولكن نرى العكس في الفرد. إن الأفراد الذين يتركون معاشهم من أجل الناس ومن أجل المعاد ويتحمّلون الذلّ والفقر والحرمان فإنهم يكسبون معنويات كبيرة، ونرى أن الفقر الاقتصادي يوجد تكاملاً في الفرد ولكنه يحمّل المجتمع انحطاطاً.

س: أستاذ أنت حينما شرحت عن الدين، قلت إن جميع الأديان وخاصة أديان المجتمع الصيني يؤمنون بعاملَيْن متضادّين، ومن المسلّمات أن عوامل التضادّ هذه سيكون لها في مسيرها روابط متقابلة مع البعض، بمعنى أن سيرها النهائي سيكون نحو التكامل، هل من الممكن أن نقول إن هذا الأمر موجود في الإسلام أيضاً، حيث إن وجود مثل هذه الحركة وهذا السير يجب أن يكون موجوداً داخل الدين الإسلامي، وأن هذه الفترة من الزمن يجب أن تُعطي تغييرات فيه؟ وهذا لا يتوافق مع بعض الاعتقادات

التي تقول إن الإسلام دين أزلي وأبدي، نرجو توضيح هذا الأمر.

ج: إن الإسلام منذ اليوم الأول الذي جاء فيه بنو العباس، توقف وبقي كما كان عليه، وصار ذلك اليوم تاريخاً له.

وقبل هذا التاريخ مثلاً، كان هناك فلاسفة في البصرة يقولون إن القرآن يُعطي المعنى الفلاني للتوحيد، وأن الجبر والاختيار بهذا المعنى، والدين هكذا. وفي الكوفة يقولون بمعانٍ أخرى، وفي المدينة يقولون برأي آخر، وكذلك في الأندلس فإن لهم آراءً مختلفة في المسائل، وهكذا علماء نيشابور وبلخ، فهذه المدارس المختلفة وهذه الآراء المتعدّدة والأفكار الكثيرة في فهم الإسلام وفي التحقيق في معاني الإسلام والدين والقرآن، كانت سبباً وعاملاً لتقدّم الفكر والمدارس الفكرية والثقافة الإسلامية.

نرى أن هذه الحضارة والثقافة العظيمة التي ظهرت وعمّت العالم ولم يكن لها نظير، نراها خلال القرنين الثالث والرابع. وبصورة مفاجئة، نرى أن أحد خلفاء بني العباس يصدر أمراً يكون فيه دفن تلك الثقافة الإسلامية، يصدر ذلك الأمر من الخليفة، ومَن حوله من العلماء

يؤكدون فيه مثلاً أن القرآن وضّح وقال إن الجميع يجب أن يعتقدوا بالجبر، وأن التوحيد يعني هكذا، وأن معنى هذه الآية هو هكذا، وأصول الدين تعني هذه، والفروع بهذا المعنى، وليس من حق أي إنسان أن يُفتي برأيه وعلى الجميع العمل بهذا الأمر والالتزام به، وإذا لم يلتزم فإنه سوف يعرّض نفسه للعقاب. وأما العلماء الذين يؤيدون هذه النظريات والآراء التي تصل إليهم عن طريق مقرّ الإمارة، فإنهم يردّدون هذه الأصول من على المنابر ويوصلونها إلى الناس. أمّا العلماء المخالفون فإن عليهم أن يجلسوا في زاوية ويغلقون بابهم، لأن الإسلام قد انتهى. وانتهى تكامله وتحوّله. بعد هذا نرى أن الاجتهاد خلال تلك الدورة يعني، توافق روح القوانين الإسلامية مع الدورات الجديدة، فنرى مع وجود كلمة «انتهى» وإغلاق باب الاجتهاد أن الإسلام ينتهي أيضاً، وينتهي دور الإسلام كمدرسة فكرية فعّالة، وتنتهي روح المعرفة الإسلامية باعتبارها روحاً متكاملة ومتجدّدة، ويحلّ محل هذه الروح، الجمود، وتتبدّل الحركة إلى مؤسسة ثابتة غير قابلة للتغيير، حيث كان الإسلام فكراً وحركةً دائمة (Mouvement) يتحوّل إلى (Institution) بناءٍ ونظامٍ إداري جامد، وهنا يقف الإسلام.

ولكن عند مذهب الشيعة لم يقف الأمر عند هذا الحدّ ولم يُغلق باب الاجتهاد، والسبب هو أن الشيعة لم يكونوا خاضعين للنظام. ولم يقبلوا النظام الذي يأتي عن طريق السلطة، وصاروا يمتلكون في الخفاء ثقافة خاصة بهم نقلوها عن طريق أهل البيت عليهم السلام. ونرى هذا التحوّل يستمرّ عند التشيّع حتى قيام الدولة الصفوية، حيث إن كل عالم ومجتهد يأتي، له رسالة خاصة به في الفقه والأصول وفي الأمور الأخرى، تختلف عن سوابقها من الرسائل. وهكذا العالِم الذي يأتي بعده فإن له نظرته الجديدة أيضاً، وهذا يُعطي من الناحية الفكرية إبداعاً جديداً وقوانين جديدة، حيث إن احتياجات ذلك الوقت وتلك الفترة تُحلّ وترفع الإشكالات حسب الأصول الموجودة في العلوم الإسلامية. ولكن حينما ظهرت الدولة الصفوية، رأينا أن الشيعة أيضاً تبدّلوا وأصبح نظامهم نظام مؤسسة، ونظاماً مركزياً أيضاً. فالشاه عباس يعمل في الوسط الشيعي ويجمع حوله علماء الشيعة الذين هم مركز وقطب الشيعة، ويقول يجب على الناس أن يأخذوا من هؤلاء. التشيّع، أصبح نظاماً حاكماً ويجلس على كرسي الحكم، ومن هنا تقف حركة التشيّع ويصبح محافظاً وملتزماً. وفي الوقت نفسه أصبح العلماء يأخذ الواحد منهم عن الذي كان قبله، وهكذا تحوّلوا إلى عملية استنساخ أحدهم للآخر، وأصبحوا يرون أن

«الفضل للقدماء» من العلماء، لأنهم قالوا كل شيء. لذا ماذا يجب أن نعمل نحن؟ واجبنا أن نعرف ماذا قالوا، ويجب أن يستمرّ الأمر إلى نهاية الدنيا، وهو معرفة ماذا قال الأولون.

لذا نرى أن كتابة وتأليف الكتب المذهبية قد توقّف، وإذا وجدنا تأليفاً فهو استنساخ وطباعة للقديم فقط، فلا يوجد كاتب جديد، وإنما يوجد مستنسخ لما قبله.

فالجميع يأخذون من بعضهم البعض، والجميع يأخذون من كتبٍ قديمة قد تكون كُتبت قبل مائة أو مئتين وثلاثمائة سنة!. وبهذا يصبح الاجتهاد عند الشيعة متوقفاً أيضاً. طبعاً الاجتهاد عند الشيعة هو اجتهاد الإسلام، والشيعة لم يكونوا هم الذين وضعوه بل إن الاجتهاد له وجود في الإسلام. إن نظام الدولة كان السبب وراء توقّف الاجتهاد عند السنة، لأن الدولة هي التي قالت باجتهاد وفقاهة الأشخاص الأربعة وهم: أبو حنيفة، الشافعي، مالك، وأحمد بن حنبل، والجميع إلى آخر الدنيا يجب أن يأخذوا من هؤلاء الأربعة ويتبعونهم، وعلى هذا فإن الفقه والتربية والقوانين الإسلامية أصبحت متوقفة. لقد كانت الحكومات ترعى هذا الأمر بالقوة، وكل من يعصي الأمر فإن رأسه سوف يُضرب! وإذا كان هناك عالِم، أو شخص يعترض

على أقوال أبي حنيفة مثلاً فيقولون له، جيد، إذا كنت غير مقتنع بأبي حنيفة فعليك أن تتبع أحمد بن حنبل. وإذا اعترض على أحمد، يقولون له، هناك الشافعي. وإذا رفض الشافعي، يقولون له، هناك مالك. وإذا رفض مالك، فيقولون له، أنت مخطىء! وعليك اتّباع أحد هؤلاء الأربعة.

إن نظام الحكومة صار سبباً في توقف الحركة الفكرية في الإسلام. لقد كان الاجتهاد يعبِّر عن حالة التحوّل في زمان الأحكام الإسلامية، وهذا يعني أنه كان يشكّل عاملاً يؤمّن حال التحوّل والتغيير وتناسب الأحكام مع ذلك الزمان. والاجتهاد كان يعني السعي في المعرفة والفهم، واكتشاف ووضع القوانين المناسبة والمتناسبة مع احتياجات ذلك الزمان. وإذا رأينا أن القوانين الإسلامية عاجزة اليوم عن وضع الحلول المناسبة، فذلك بسبب عجز وتخلّف واضعي القوانين الإسلامية، وليس بسبب أنه يجب أن تكون القوانين ثابتة ويجب أن تُطبق هذه القوانين في هذا الزمان مع وجود المتغيّرات في الزمان، لا، ليس بهذا المعنى الذي نقوله، من أن الإسلام هو عقيدة جاءت بعنوان حقائق طبقَ معرفةِ وعلمِ الإنسان، فهو دين ثابت، بل الإسلام جاء بعنوان أحكام عملية متغيرة حسب احتياج الزمان لها، والأشخاص الذين لديهم معرفة واطلاع بالإسلام يجب أن

يعطوا التكامل للنصوص الإسلامية حسب احتياجات ومتغيرات ذلك الزمان، ويجب أن تتناسب تلك الأحكام مع الأصول والأهداف الإسلامية.

إذا نظرنا إلى الفقه في القرن السادس، نرى أن له أبعاداً متقدمة عميقة، أما الفقه في القرن الأول فيمثّل فقهاً عادياً، وهذا يدلّ على أن حركة الفقه في القرن الأول إلى القرن السادس حصلت على تكاملها، لماذا؟ لأن المجتمع الإسلامي الابتدائي في المدينة تحوّل إلى مجتمع إسلامي متقدّم ومتعالي، فقد تحوّل إلى أمبراطورية كبيرة تحتاج لأحكام متطورة، وهذا هو سبب تقدّم الفقه والاجتهاد. ثم نرى بعد هذا، أنه في القرون الثلاثة الأخيرة عند الشيعة، والعشرة الأخيرة عند السنّة، يصبح الفقه فقهاً جامداً، بمعنى أن أحكام الإسلام صارت متوقفة، وهذا لم يكن يعني أنه من الضروري أن يتوقّف الفقه ويصبح بهذا الجمود، وإنما السبب هو أننا بقينا على حالنا ولم نتقدّم، وبقي فقهنا أيضاً جامداً، وكذلك أدبياتنا بقيت كما هي عليه سابقاً.

إن أدبياتنا لم تتغيّر منذ سبعمائة سنة ماضية (انظر إلى التعبير، نقول إنه قبل ٧٠٠ سنة كانت هناك أمور قد كُتبت ولكن حينما نقرأها الآن، فكأنما كتبها كاتبٌ اليوم، وهذا

أحد افتخاراتنا). هذا لا يعني أن سعدي عمل معجزةً ولكن السبب أننا نحن عملنا معجزة، وهو أننا بقينا على حالنا منذ ٧٠٠ سنة، أي في عصر وزمان سعدي. لماذا لم يفهم الفرنسيون أدبيات القرن الثامن عشر؟ لأنه في هذا القرن حصل تقدم كبير للأدبيات والفلسفة، وهذا لم يكن سابقاً لزمانه لما بعد مائتي عام، وإنما سابقاً لزمانه بألفيّ عام، أما نحن فحينما نقرأ شعر فردوسي فكأننا نقرأه وقد كُتب الليلة الماضية لأنه لم يتحرّك، وهل هذا يعني أنه يجب أن يبقى فقهنا وأدبنا ثابتاً ونحن نتحرك ونتغيّر؟ لا، فالاثنان باقيان على وضعهما، وإذا تحرّكنا نحن، فإن فقهنا سوف يتحرّك أيضاً.

الدرس السادس

في بداية درسنا لهذا اليوم، نعيد مرة أخرى ما قاله المعلم وهي تلك العبارة: أن هناك فرقاً بين (التدريس) و(التبليغ)، حيث إن التبليغ يأتي على أساس وجود رسالة، وتفسير وتوضيح وإثبات لتلك الرسالة، أما التعليم فهو على مرحلتين.

مرحلتا التعليم:

المرحلة الأولى للتعليم، هي سعي المعلّم والمتعلّم من أجل فهم فكرة أو فهم أثر معيّن ومدرسة معيّنة أو مذهب معيّن بصورة صادقة وخالصة. وهذه المرحلة تُعتبر أول مرحلة علمية وتحقيقية حينما نكون قد أنهينا تلك المرحلة بصورة مطمئنة ومرضية، حيث إننا نكون قد أخذنا درساً أو اجتزنا مرحلة عن طريق ترويض الفكر ترويضاً علمياً وفكرياً، في المسائل الاعتقادية والذوقية والتاريخية والتربوية والحياتية والتربوية والفنية، وحتى يصبح إحساسنا

وتصبح روحنا بعد هذه المرحلة، في قالب وبُعدٍ آخر.

أما المرحلة الثانية للتعليم، وحيث إننا انتهينا من المرحلة الأولى واستطعنا مثلاً أن نتعرّف ونفهم ديناً أو مذهباً، فإننا بعد هذا يمكننا أن نُصدر حكماً بالنسبة لذلك الدين، نقبل أو لا نقبل، ننتقد أو نُنتقد من قِبل الآخرين، نبحث، فإما نقبل الأمور أو لا نقبلها، إننا نمتلك صلاحية بأي صورة وبأي شكل من الأشكال في أن نقدّم تقييماً لتلك الأمور التي عرفناها.

أما قبل أن ننهي المرحلة الأولى، فمن الناحية العلمية لا نمتلك أي صلاحية لإصدار أي حكم أو رأي، ولا نستطيع ولا يمكن وحسب اعتقادنا ونظرنا الخاص أن نطرح تلك الأمور ونقيّمها، وإذا فعلنا ذلك فنحن أناس عاديون، ولسنا علماء ومحققين.

«جوجمان دو فيه» و«جوجمان دو فالور»:

Jugement de fait et Jugement de valeur.

إن لجميع التحقيقات الموجودة عندنا سواء في هذه الدروس، أو في الدروس المقبلة، أو في أي كتاب نطالعه، أو في أي أثر نقوم بتقييمه، هناك طريقتان علميتان موجودتان سوف نشير إليهما.

وهما: ١ـ (Jugement de fait) وهذا اصطلاح فني ورسمي لمرحلة ما، وهذا المصطلح يعني إصدار الحكم والقضاء، أما كلمة (fait) فتعني ما حصل، أو الشيء الموجود في الخارج وله وجود وعينية.

ففي المرحلة الأولى أي مرحلة الحكم والقضاء، فإن (فت)، أي الموجود في الخارج أو الواقع أو الأمور الواقعية، فإننا سوف نقوم ببحثها وننهي مرحلة التحقيق عنها.

٢ـ أما المرحلة الثانية وهي: (Jugement des Valeurs) فهي تعني أن ما عرفناه سابقاً نقوم بتقييمه، إما أن نقول عنه بأنه جيد أو غير جيد، أو نعتقد به أو ننكره، أي نصدر حكماً بحُسنه أو قُبحه، بأحقيّته أو بطلانه. فالإنسان العادي لا يستطيع أن يميّز بين هاتين المرحلتين، لذا فهو من الوهلة الأولى حينما يرى الشيء يصدر تقييمه وحكمه عليه، صالحاً كان أم طالحاً، خيراً كان أم شراً، وإما أن يعتقد به أو ينكره، أو يقول أحبّه أو لا أحبه. وهذه الأمور والأحكام كلها، تصدر بدون أن يمرّ بالمرحلة الأولى، وهي معرفة الشيء كما هو موجود، ثم الحكم عليه.

البحث حول دخول الإسلام إلى إيران:

حينما نحقق مثلاً في دخول الإسلام إلى إيران، فإن هناك بعض العلماء وقبل أن يدخلوا المرحلة الأولى يقولون مثلاً، إن الإسلام حينما دخل إيران، أحيا إيران وأوجد فيها حضارة عظيمة وجعل للإيرانيين مقاماً كبيراً، وقادهم إلى طريق الهداية والحقّ.

فهم منذ البداية يدخلون المرحلة الثانية، أي مرحلة إصدار الحكم، ويبدؤون بذكر الآثار الحسنة للإسلام في المجتمع الإيراني. أو على العكس، يبدؤون بذكر أمورٍ سيئة عن دخول الإسلام إلى إيران ويقولون إن الإسلام ضيّع جميع الأمور الاعتقادية والتاريخية لنا، وأنهى تاريخنا، وأن أخلاق المجتمع صارت منحرفة، وصرنا خاضعين للعرب وغير ذلك من الأمور. فهذا دخول إلى المرحلة الثانية، وإصدار للحكم والقضاء بدون أن نبدأ بالبحث والتحقيق الذي أشرنا إليه في المرحلة الأولى.

التحقيق حول الإسلام بالطريقة الأولى:

أما في التحقيق وحسب الطريقة الأولى، فإن جميع المحققين الذين يعتقدون بالإسلام أو الذين ينكرونه، عليهم

أن يضعوا اعتقاداتهم جانباً، سواءً كانوا متدينين أو غير متدينين، مسلمين أو غير مسلمين، فإن الطريقة الصحيحة في التحقيق إلى أين سوف توصلهم؟.. إذا أردنا أن ندخل المرحلة الأولى، ونحقق في دخول الإسلام إلى إيران مثلاً ونطّلع على الآثار التي تركها الإسلام على إيران، فعلينا أن نحقق ونبحث في أنه كم كان هناك من الجامعات في نهاية العصر الساساني، وكم مكتبة، وكم عالماً، وكم فيلسوفاً، وكم طبيباً، وكم عالم طبيعة، وكم فناناً، كان لهم وجود في إيران. ثم نأتي ونبحث عن إيران في القرن الأول والثاني والثالث الهجري، حيث نرى كم جامعة كانت موجودة، وكم طالب علم، وما هو عدد الأستاذة، وكيف كانت تُدار هذه الجامعات، ثم نرى كم نابغة ظهر خلال هذه القرون، وفي أي تخصّص كان لهم وجود أكثر ـ الآداب، الفقه، الفلسفة، الفن ـ وهؤلاء وصلوا إلى قمّة العلم والنبوغ.

وهذا كله يجب أن يُبحث وطبقَ أرقام وحقائق موجودة.

وهنا فأنا إذا كنت مؤمناً بالإسلام أو مخالفاً، معتقداً أو غير معتقد، فهذا لا يُحدث فرقاً، لماذا؟ لأنني وعلى أي منهج كنت وبأي فكر أؤمن، فإن هناك مثلاً وجوداً

لثماني عشرة جامعة (وهذه الثماني عشرة جامعة هي «فت» أي حقيقة ووجود عيني).

وفي أوائل القرن الثاني والثالث، لدينا أرقام عن علماء الرياضيات الكبار في كتب الرجال، وكذلك أرقام عن الشعراء والأدباء الكبار، حيث إن دواوينهم موجودة وأسماءهم موجودة، وكذلك أرقام عن الفنانين، والمعماريين، وصنّاع الكاشي، وفناني الصنوف المختلفة، وكذلك أرقام عن المناطقة والأطباء والمهندسين وعلماء الموسيقى والفقهاء والأدباء والكتّاب والمترجمين، وكل هؤلاء هم واقع موجود، ويُعتبرون أمراً واحداً عند أصحاب العقائد المختلفة.

وبهذا نكون قد انتهينا من البحث في الحقائق الموجودة في القرون الإسلامية الأولى، والحقائق الموجودة في أواخر الحكم الساساني، وبالمقايسة بينها نكون قد عبرنا وانتهينا من المرحلة الأولى، ومن ثم نستطيع أن نقوِّم تقييماً مُثبتاً أو نافياً حول الأمر، ومن ثم نصدر حكمنا حول دخول الإسلام إلى إيران، سواء كان خدمةً لإيران أو كان خيانة لها، هل جلب دخوله الحضارة والتقدم أم جلب التوحش والهمجية. وكذلك فهل إن دخول الإسلام إلى

إيران رفع مستوى العلم والفضائل الأخلاقية، والمعرفة، والفلسفة، والفن، والقدرة الاجتماعية، والمنظمات الاجتماعية الإنسانية والاقتصادية والحقوقية، أم أنه كان سبباً وراء تراجع هذه المؤسسات والعلوم المذكورة.

هذا التحقيق والتقييم في النهاية، سوف يكون مرجعاً وأساساً لإصدار حكمٍ علمي، وهذه هي المرحلة الأخيرة وهي مرحلة القضاء والحكم، والتي سمّيناها مرحلة (جوجمان دو فالور).

المرحلة الأولى (جوجمان دو فت) مرحلة الجهاد النفسي والشهامة العلمية:

إن المرحلة الأولى أي مرحلة التحقيق، ضرورية بالنسبة للعالم، وهي مرحلة أولية، لأنه في هذه المرحلة يبدأ التحقيق والعلم، وبدون معرفة (فت) الأشياء والأمور على واقعها الخارجي، لا يمكن أن يبدأ العلم. إن مرحلة «جوجمان دو فت» هي مرحلة الجهاد النفسي والغيرة العلمية، والشهامة لا تعني استعمال السيف والدفاع بواسطته، ولكن بمعنى أننا في هذه المرحلة نصل إلى قمة الشهامة والغيرة العلمية وتحكيم الضمير المجرّد.

تحقيق كارليل حول رسول الإسلام ﷺ نموذج للشهامة العلمية:

إن الكاتب الإنكليزي المعروف «كارليل» الذي عاش خلال القرن الثامن عشر في بريطانيا لا يملك في الدنيا سوى القلم، لقد عاش في زمن كسب فيه شهرةً عظيمة، علمية وأدبية، وصار محبوباً لدى جميع المجتمعات، وفي ذلك الزمان الذي عاش فيه كانت القدرة بيد الكنيسة العظمى، وقد سخّرت الكنيسة قدرتها كلها ضد الرسول الأكرم ﷺ وكانت توجّه التُّهَم دائماً للإسلام ولرسوله الكريم، وفي نفس الوقت كانت الحملات الاستعمارية ضد البلدان الإسلامية قائمة لضرب المسلمين وقتلهم ومحاربة عقائدهم وتاريخهم وثقافتهم، وفي هذا الوقت الحسّاس والعصيب يظهر هذا الكاتب وبكل شهامة فيسطّر أجمل التعابير والحروف والجمل الأدبية في الدفاع عن رسول الإسلام ﷺ، وخاصة خلال ذيْنك القرنين، وحتى من الكتّاب المسلمين لا يوجد له شبيه ومثيل في هذا الدفاع في ذلك الوقت، هذا هو البطل، ولم يصل أحد إليه في فكره وموقعه. إن المحقق وفي هذه المرحلة يحتاج إلى هكذا شهامة، وحتى يتمكن من أن يكون مطمئناً في أنه فهم تلك العقيدة أو المدرسة التي يبحث عنها وعرف حقيقتها معرفة صادقة وواعية وعلمية ودقيقة وتبحّر في عمقها، عليه أن يتجرّد من عواطفه وميوله

وإحساساته، والجيّد وغير الجيّد الذي فهمه يتبدل إلى حقيقة وواقع.

وحينما تنتهي هذه المرحلة (ينتهي بحث الحقائق) ثم يجمع بعضها إلى بعض، ومن خلال قدرة ولياقة البحث يمكن أن يحصل على ربحه ويصل إلى الحقيقة، وهنا يمكن أن يفتح فكره ويستحضر العقائد ويجلس ليدقق ويقيّم بعين مفتوحة، وهنا يمكن أن تصبح عنده إجازة لإصدار الحكم ضد ذلك الشيء.

فنحن في المرحلة الأولى (جوجمان دو فت) نحتاج أكثر إلى الصدق، والشهامة، والعلم، والإنتاج.

دخول إلى عالم الهند:

إلى الآن، كل ما مضى كان بعنوان مقدمات، للدخول إلى عالم يُعتبر من أعمق العوالم وأشدّها حساسية وأكثرها انجذاباً روحياً في تاريخ أديان العالم القديم.

كانت الهند، لمدة ألفين وسبعمائة عام إلى ألفين وثمانمائة عام إلى ثلاثة آلاف عام، منبعاً للحضارة والعرفان والتصوّف.

إن معرفة روح الهند من الجانب العقلي مسألة معقّدة وصعبة، لماذا، لأن هناك لغزاً وهو أننا لا يمكن أن نفهم

بإدراكنا العقلي الفعلي تلك الأمور، وللتقرّب إلى تلك الروح وذلك الإحساس، وتدفّق ذلك الإحساس وتلك الروح الهندية، نحتاج إلى سعي وبحث كبير حتى يمكننا حلّ ذلك اللغز والوصول إليه والذي كان سارياً منذ ثلاثة آلاف عام، وفي جميع الأبعاد وفي جميع الأديان والمذاهب في الهند. إن الحصول أو الوصول إلى ذلك اللغز يُعتبر مفتاح الوصول للمدرسة العرفانية في أدوارها المختلفة ومذاهب الهند المختلفة. أما المشكلة الثانية وهي الدخول إلى عالم الروح الهندية، فهي من جانب تُعتبر روحاً شديدة وقاسية، ومن جانب آخر تُعتبر روحاً دينية ظريفة، فالروح الهندية لها بُعد ولها اتجاه شديد وفيه مبالغة وإفراط. وإن جميع الجوانب الجمالية في العالم التي أوجدتها الروح الهندية هي نتيجة هذا الجانب الثقافي للروح الهندية. وكذلك فإن جميع الانحطاطات التي نراها في تاريخ الهند هو نتيجة لجانب الغرق والتفكّر في ذلك.

وهذه المسألة موجودة أيضاً عند الفنانين الهنود الكبار، فهناك فنان يرسم ساعةً، وساعةً يقوم بالألعاب الرياضية، وساعة يعطيها للسياسة والعمل الاجتماعي، وساعات يقضيها بزيارة ورؤية الأصدقاء. هذا هو التعدّد في

الاتجاهات بحيث إذا تعطّل أحد أعماله، فإنه يبقى يختلق أعذاراً متعددة. أما الرسام «فان غوغ»[١] فوجوده للرسم فقط ولا وجود للبقية. لذا فإن جميع نقاط الضعف في حياته هي نتيجة لهذا الولع والعشق لجانب واحد وهو غرقه في الرسم، لذا فإن قيمة هذا الفن وهذه الإحساسات والتعالي الروحي والتي رفعت مستوى فنّه، هي نتيجة لهذا العشق. فالروح الهندية هكذا روحية.

هجرة الأريائيين إلى الهند وإيران وأوروبا:

لأجل معرفة أول حركة وتجلٍّ للروح العرفانية في الهند، علينا أن نعرف ونتعرف على الآريائيين حيث سنشير لذلك وبصورة سريعة.

إن الآريائيين هم من الأقوام البيض، هاجروا إلى الهند

---

(١) فينسنت فان جوخ (١٨٥٣ - ١٨٩٠م): واحد من أكثر الرسامين شهرة في فن التصوير التشكيلي. ورغم ذلك لم يجد أي تقدير ولم يبع إلا لوحة واحدة فقط طوال حياته. كان فاشلاً في حياته ولم يجد عطفًا أو صداقة من أحد. اتجه للتصوير التشكيلي ليعبّر عن مشاعره الدينية القوية وحاجته الشديدة للحب والاحترام. وخلال السنوات الخمس الأخيرة من حياته أكمل فان جوخ أكثر من ٨٠٠ لوحة زيتية.
كان فان جوخ طوال حياته يهوى المراسلة إلى جانب التصوير التشكيلي، فكان يراسل أخاه «ثيو» وأناسًا آخرين. جُمعت رسائله في كتاب بعنوان «الرسائل الكاملة» وطُبعت في ثلاثة مجلدات في عام ١٩٥٨م. وهي تعطي نظرة مقربة لحياته وأفكاره.

من نواحي شمال بحر الخزر[١]، أو من شمال أوروبا أو نواحي تركمانستان[٢] خلال القرون الثامن عشر والسادس عشر إلى القرن الثاني عشر قبل الميلاد يعني قبل ٣٣٠٠ إلى ٤٠٠٠ عام. وكانت هجرتهم على شكل جماعات وقبائل مختلفة وفي أزمنة مختلفة. وأما إلى إيران فإنهم دخلوا من نواحي شرق إيران وفلاة إيران، وبهذا يكونوا قد عمّروا الهند وإيران حيث إنهم في البداية لم يكونوا قوميّتين منفصلتين. بل كانوا قبائل متعددة يمتلكون تفكيراً وشعوراً

---

(١) جغرافياً، يُعد بحر الخَزَر (بحر قزوين) أضخم بحيرة مغلقة على وجه الأرض. يبلغ طولها ١٢٠٠ كم وعرضها زهاء ٣٠٠ كم. تنبسط من الشمال إلى الجنوب عند الحدود بين أوروبا وآسيا على مستوى أكثر انخفاضًا من مستوى المحيط العالمي بـ ٢٨متراً. وتتقلّص مساحة البحر باستمرار بسبب التبخّر وانخفاض منسوب الأنهار التي تصب فيه.. وتتوزّع شواطئ بحر قزوين بين خمس دول هي: روسيا التي تحدّه من (الشمال الغربي)، وإيران (الجنوب الغربي)، وكازاخستان (الشمال الشرقي)، وتركمانستان (الشرق)، وأذربيحان (الغرب) ولها أصغر حصة من الساحل محصورة بين إيران وروسيا .

(٢) تُرْكُمَانِسْتَان قُطرٌ إسلامي في وسط آسيا تغلب عليه الصحراء، بقي نحوًا من ٧٠ عامًا كإحدى جمهوريات الاتحاد السوفييتي سابقًا. كان اسمه جمهورية تركمانيا السوفييتية الاشتراكية، وفي عام ١٩٩١م أصبحت تركمانستان دولة مستقلة. وتقع تركمانستان في الأراضي المنخفضة الواسعة الجافة الواقعة شرقي بحر قزوين، وتبلغ مساحتها ٤٨٨،١٠٠كم^٢ معظمها صحراء. يبلغ عدد سكانها أكثر من ٤ ملايين نسمة، والعاصمة هي عشق أباد، وهي أكبر مدنها. واللغة الرسمية هي التركمانية وهي لغة تركية.

واحداً. وإذا نظرنا إلى الأديان واللغات الأولية الابتدائية للهند وإيران نرى أن الآلهة كانوا متشابهين وكذلك أسماؤهم كانت متشابهة.

القوميّتان تتشابهان معاً في الاعتقادات وحتى لغتهم واحدة (الفارسية القديمة ولغة سانسكريت[١] لهجتان للغة واحدة) ثم إن الآريائيين انقسموا إلى قسمين -إيران والهند- يحددون سكنهم ويصبحون منفصلين من الناحية الجغرافية، وكذلك ينفصلون من ناحية الفكر واللغة، ويبنون قوميتين هما القومية الهندية والقومية الفارسية. ثم يهاجرون إلى الغرب، ويصلون إلى اليونان والروم وهناك ينشئون الحضارة الغربية.

---

(١) السنسكريتية أقدم اللغات الهندية، والأساس لكثير من لغات الهند الحديثة كالأردية والهندية، ويقسّمها معظم المتخصصين إلى مرحلتين تاريخيتين متداخلتين بعض الشيء. استمرت المرحلة الأولى، وهي مرحلة السنسكريتية الفيدية من القرن السادس عشر إلى القرن الرابع قبل الميلاد، ومصطلح فيدي يشير إلى «الفيدا» أقدم الكتب المقدسة الهندوسية، أما الفترة الثانية وهي مرحلة السنسكريتية الكلاسيكية فإنها بدأت من القرن السادس قبل الميلاد وامتدت إلى نحو القرن الحادي عشر الميلادي ومنذ ذلك التاريخ ظل الدارسون الهنود يدرسون السنسكريتية ولكنهم لم يستخدموها في كتابة أعمال جديدة.
تنتمي اللغة السنسكريتية إلى عائلة اللغات الهندو-أوروبية التي تضم اللغة الإنجليزية والألمانية واللاتينية والفارسية.

الحضارات الكبرى وليدة الهجرة:

لهذا فإن قومية هندية وأوروبية لهما وجود، هاجرتا واستطاعتا أن تبنيا الحضارة الهندية الكبيرة والحضارة الإيرانية العظيمة وكذلك حضارة اليونان والروم الكبيرتين. (هذا نموذج من نماذج النظرية التي قدّمتها خلال محاضراتي عن «الهجرة والحضارة» وذلك في مؤسسة الإرشاد هذه، حيث وضّحنا أن الحضارة هي وليدة الهجرة، أما أولئك الذين لم يهاجروا وبقوا في مدنهم فإنهم بقوا على حالهم منحطين، أما أولئك الذين هاجروا، لم يكونوا ليحصلوا على أوطان جديدة فقط، ولكنهم أيضاً أصبحوا شيئاً آخر، وبهذا التغيير تحوّلوا من أناس متوحشين إلى أناس متحضرين، ومن ثم أوجدوا أدياناً ومذاهب وثقافات وفنوناً ومجتمعات كبيرة).

هؤلاء الأقوام الآريائيون المهاجرون، هم بناة الحضارات الكبيرة. حيث نرى أنه في بلدهم الأصلي - الهند- لم يقدّموا هذا الشيء.

(يُسمون تنابلة في تعبير علماء الاجتماع الغربيين)

هناك حكم عند علماء الاجتماع يطلقون عليه (العجز الهندي ـ تنبل هندي) وإن أغلب علماء الاجتماع الغربيين

يستعملون هذه الصفة، حيث إن الروح الهندية روح هادئة وجامدة، وتفكّر دائماً بما وراء الطبيعة، لأن الآريائيين حينما وصلوا إلى الهند وجدوا أرضاً خصبة، وكثيرة العشب والأشجار والمياه، لهذا لم يكونوا بحاجة لأن يبذلوا جهداً للحصول على الغذاء، لأنه كان متوفراً.

كانت الأنهار متوفرة والمياه كثيرة، وهذا على خلاف ما نراه في منطقة «كناباد» الإيرانية[١] مثلاً حيث نحتاج لحفر مئتين متر تحت الأرض للحصول على الماء.

في مثل تلك المناطق التي تتوفر فيها الخيرات الطبيعية ولا تحتاج لسعي وتعب، فإن الفن والإبداع ما كانا ليظهرا فيها، وحسب قانون «توينبي»[٢] فإن الحضارة هي وليدة

---

(١) مدينه كناباد: تقع شمال شرق إيران، في محافظة خراسان.
(٢) آرنولد جوزيف توينبي (١٨٨٩-١٩٧٥م): مؤرخ مشهور طُبع كتابه الموجز عن الحضارات «دراسة التاريخ» الذي يقع في ١٢ مجلدًا ما بين ١٩٣٤-١٩٦١م. وقد قسَّم توينبي التاريخ العالمي إلى ٢٦ حضارة، وتقصّى نشوءها وانحدارها وسقوطها وأعلن أن بقاء الحضارة الغربية متوقف على إعادة بعث الروح النَّصرانية.. وقد لقي منهجه المبتكر والصريح قبولاً واسعًا لدى الغربيين؛ وهو منهج يقوم على النظر إلى الحضارة الغربية المعاصرة من خارجها من وجهة نظر مؤرخ قديم. وقد اختصر عمله الضخم في مجلدين بيعت نُسَخُهُمَا بأعداد هائلةٍ في أوروبا والولايات المتحدة. وتشمل كتاباته عددًا من المصنفات التي تتناول المشاكل التاريخية والاجتماعية مثل كتابه «القومية والحرب» (١٩١٥م)؛ =

الصراع بين الإنسان والطبيعة، وإذْ لم يكن هناك صراع بين الإنسان والطبيعة، فإن الإنسان سوف يتوقّف ويصبح خاملاً وغير متطوّر.

مثال ذلك، جزيرتا بحيرة الرضائية[1] ـ وقد اطّلعتم على أخبارها حتماً في الصحف ـ حيث الحيوانات هناك حيوانات وحشية تصطاد الإنسان، كيف تبدلت إلى حيوانات أليفة ولم تعد تلك الوحشية وذاك الخوف له وجود. لهذا فإن الروح الهندية تقتات على الطبيعة وهي من الناحية الاقتصادية متوفرة ومؤمّنة، وهذا يدعو إلى التفكّر والتعمّق والتخيّل الباطني ويدعو إلى الانجذاب الروحي والسكون، فالإنسان حينما لا يمتلك عملاً فإنه يصبح أسير الخيالات والتفكّرات المجرّدة، ويصبح تفكيره خارجاً عن محيط الحياة والمعيشة اليومية. وطبقَ نوع العمل والحركة الفكرية التي توجد عنده، من الممكن أن تتطور معنوياته وتخيّلاته الوهمية.

= وكتابه «محاكمة الحضارة» (١٩٤٨م)؛ وكتابه «العالم والغرب».
وُلِدَ توينبي في لندن. ودرس في كلية «باليول» بجامعة أكسفورد، وفي مدرسة الآثار البريطانية بأثينا في اليونان. وأصبح أستاذًا للتاريخ العالمي في جامعة لندن سنة ١٩٢٥م.

(١) الرضائية: هي منطقة تقع في شمال غرب إيران، وهي عاصمة محافظة غرب آذربيجان.

لا يوجد ارتباط كلّي بين المسائل الاقتصادية والمسائل المعنوية:

هذا الأمر، يمكن أن يكون صحيحاً إلى حدّ ما، فحينما ننظر إلى الطبقة البرجوازية في أوروبا نرى أن فنّهم وفكرهم وفلسفتهم تأخذ جانباً مجرداً، والذهنيات المجردة، والمعاناة غير المعروفة، والعذاب الروحي الذي ليس له اسم.

والبرجوازيون الأوروبيون يبحثون عن هكذا عذاب، وهكذا مفاهيم، وهكذا فنون وعقليات. أما الطبقة العاملة التي تعاني من الفقر والاحتياج والأمراض، فإنهم يفكرون ويبحثون دائماً عن الحياة المادية والعينية الملموسة. فهم لا يعانون من آلام ليس فيها ألم، ولا يعانون من هموم مُبهمة وعذاب ليس له عنوان، لماذا، لأن النار التي تحرقهم معروفة، والآلام التي يعانون منها واضحة.

فالروح الهندية، تشبه هذا اللون من المعاناة، فهي معاناة فكرية وباطنية، وبما أن العالم المادي الخارجي قد هيأته لهم الطبيعة، لذا فهم توجّهوا إلى العالم الباطني، هذا هو شكل الروح الهندية. أما اتجاهها تماماً بهذا الاتجاه، فلدي شك في ذلك (وإذا كان الأمر هكذا)

وكانت هذه المقولة صادقة، فيجب أن يكون الهنود في أمريكا الشمالية أعمق روحاً وأكثر تجرّداً في الفكر وأجمل إحساساً من الهنود، بسبب أن طبيعتهم أكثر عطاءً وأخصب تربة من أرض الهند، وكان يجب أن يكون الأمريكيون مظهراً للعرفان والتصوّف والمعنويات الروحية، وهم كما نراهم الآن!!! إن الذين يعتقدون أن تأمين الوضع الاقتصادي هو دليل على العرفان والتفكّر الباطني والروحي للهنود ويصفونهم بالكسالى، فهم الكسالى، لأنهم وبهذه البساطة يوجهون الروح الإنسانية والمسائل المعقّدة بحسب ذوقهم، وهم مثلاً مرتاحون لأنهم اكتشفوا أن الروح الآريائية الخشنة والتي لا تعرف الرحمة، قتلت أولئك الأقوام أصحاب الأرض الذين كانوا يعيشون في الهند وإيران، وكانت بشرتهم تميل إلى السواد أكثر قليلاً من الآريائيين.

ويوجد الآن قسم منهم في نواحي كرمان[١]، وأغلبهم

---

(١) محافظة «كرمان» هي إحدى محافظات إيران الثلاثين. تقع في جنوب شرقي البلاد وعاصمتها مدينة «كرمان». يصل عدد سكان المحافظة لمليونَيْ نسمة. تُعد المحافظة ثاني أكبر محافظة من ناحية المساحة في إيران حيث تصل مساحتها لـ١٨١،٧١٤ كم.^{2} من مدنها مدينة «بام» الإيرانية التي ضربها زلزال في ٢٠٠٣ م.

يدينون بالديانة الزرادشتية، ويتوقع علماء الأجناس أن هؤلاء من أصول غير آريائية إيرانية، وفي الهند هناك «باراها» أو «الدراويد» -ويطلقون عليهم كلمة (كاست) وبعضهم يطلق عليهم الطبقة «النجسة»!- حيث إنهم على الأغلب أصحاب الأرض، وقد أوقع بهم الآريائيون قتلاً عاماً وأسروا ما بقي من أجدادهم، وقد أظهرت التحقيقات أن الدراويد، هم مَن يُسمّوْنَ اليوم بالطبقة النجسة، حيث كانوا يمتلكون حضارة مزدهرة قبل ثلاثة آلاف سنة، وقبل ورود الأريائيين، أما حضارتهم فقد دمّرت بسبب هجوم الآريائيين على أراضيهم.

إن الأريائيين قتلوا وبدون رحمة أصحاب الأرض الأصليين سواءً في الهند أو إيران أثناء هجومهم عليهم، وتتمثل الروح الخشنة هذه في (إبراهيم بورداود) وكان آريائياً قومياً ومتعصباً لقوميته وفي مقدمة كتاب (بيجن ومنيجه) -طبع شركة النفط- يقول: «في بعض ما يقوله أهل الجنوب وجنوب غرب إيران أن كلمة آريائي وآريا تعني (سفاك الدم)، الإنسان الخشن والوحشي والقاتل، وأن هذه الكلمة بقيت من حين هجوم الآريائيين على أصحاب الأرض القدامى في إيران وهي باقية إلى الآن، وهي تذكرنا بتلك الدورة».

إن بوذا والبوذيين يرون أن كلمة «آريا» تعني المقدس والمتعالي وصاحب الشرف والنجابة، وحتى في المسائل المعنوية، يقولون مثلاً: هذا الكلام آريائي، هذا إحساس آريائي، وثقافة آريائية، وهذا إنسان آريائي.

وهنا يصبح واضحاً، أنه في مقابل كلمة خشن، وحشي، قاتل، وسفّاك الدم وظالم، التي وصف بها أصحابُ الأرض الآريائيين، فإن الآريائيين وبعنوان عكس العمل أعطوا للكلمة معانٍ مختلفة تماماً، مثل نجيب، شريف، متعالي، كبير، مهم ومقدس.

الأديان الآرائية الإيرانية والهندية:

إن الأديان الأولى في إيران والهند، هي أديان عبادة الطوطم، وعبادة الفتيش، وعبادة الأرواح «أنيميسم»، والسحرة، وعبادة المظاهر الطبيعية. وما قلناه حول الأديان البدوية، كذلك يمكن أن يكون لها وجود أيضاً في الأديان الآريائية، وينطبق عليها القول العام لعبادة المجتمعات في ذلك الوقت.

الدين الودائي يعتبر أقدم الأديان الأصلية في الهند:

حينما نريد التحدث عن تاريخ الأديان المتقدمة والمتحضرة، يمكننا القول أن دين «ودا» يعتبر أقدم دين

متحضّر وأصلي في الهند والأديان الأخرى -برهمنيسم[١]، جينيسم[٢]، سيتيسم، ومذهب بوذا- وهذه كلها تأخذ شكل الدين الودائي وهي تحول له.

إن الأصل المشترك لجميع هذه الأديان، هو الأصول الأساسية لدين «ودا». وإذا فهمنا دين «ودا»، يمكننا أن نفهم جميع الأديان التي جاءت بعده.

إن في دين «ودا» آثاراً من عبادة الطوطم، وهذا هو علامة ارتباط هذا الدين والأديان الأخرى المتحضّرة، مثل الدين الإبراهيمي والأديان البدوية مثل (الطوطم) (عبادة الروح) (وحرمة الأشياء).

---

(١) البراهمانيّون: نسبةً إلى «براهما» وهم طائفة الكهنة أو أصحاب الزعامة الدينية والروحانيّون.

(٢) الجينيسم: نسبةً إلى مذهب «جين» أو (Juinism).. ظهر في القرن السادس قبل الميلاد بواسطة فاردهمانا ماهافيرا (Vardhamana Mahavira). وكلمة «جينا» أو «جاين» تعني الفاتح والمنتصر والمُنجي رقم أربعة وعشرين في هذا العالم. وتعاليمهم تتطابق مع بعض تعاليم الهندوسيّة. ويحذّر بشدة من إيقاع الأذى بالحيوان أو أي ذي روح، وتشكّل الآراء الأخلاقية محور هذه الفلسفة. وهي تهدف إلى تبيان سُبل «انعتاق» الروح البشرية من أسر كافة النزوات والشهوات. وحالياً يتجاوز أتباع هذا المذهب أكثر من ثلاثة ملايين. يتواجدون في «كوجارات» و«راجستان» في غرب الهند. ولأنّ مذهب «جين» أو «جاين» لم يعترف بمصونيّة كتاب «ودا» ولم يقبل آلهتهم وبعض طقوسهم مثل القرابين للآلهة، اعتبروه مذهباً مستقلاً.

البقر وبقية الرموز الأخرى:

إن البقرة، حيوان مقدس في الهند، وحينما نقرأ المتون الزرادشتية نجد أن البقرة كانت إلى جانب النهر، ثم صارت قصبتين خضراوين، قصبة في هذا الجانب للنهر وقصبة في الجانب الآخر له.

ومن هنا فإن «كيومرث»[1] وهو الإنسان الأول ظَهر أو خُلِق، وهنا يظهر أن البقرة في التعاليم والفلسفة الزرادشتية ترافق خلقَ أوّل إنسان في الكون، لذا فإن البقرة في الدين الهندوسي والدين الزرادشتي هي مظهر لأول طوطم آريائي، وقد تجسّد الجدّ الأعلى في البقرة.

ورؤوس الأعمدة الباقية تشير إلى هذا المعنى، حيث إن أغلبها يشبه رأس البقرة، وحتى وقت قريب فإن رؤوس هذه الأمور تزيّن بعض الأماكن وحتى بعض المساجد فإنهم يزيّنون أماكن وضع الورود والأشجار بهذه الرؤوس. والفَرو المستعمل في المساجد كان علامة للطوطم (وهو فراء يزدي) وكانوا يصنعون منه في زمان الخامنشيان «الطوطم» الذي يعبدونه.

---

(١) يزعم الزرادشتيون أن المبدأ الأول من الأشخاص هو «كيومرث» والمعني به آدم عليه السلام، وبعضهم قال المبدأ الأول هو «زوران» الكبير ويُعد أول معلّم لهم، ثم النبي زرادشت.

لقد كانت البقرة هي الطوطم في الهند، واليوم أصبحت حيواناً مقدساً حيث إنهم لا يأكلون لحمها، لأن أكل لحم حيوان الطوطم يُعتبر حراماً، لأن الطوطم يُعتبر تجلياً لروح الجَدّ الأكبر، وإذا كان أحدهم قد تناول لحم البقر فإنه قد أكل لحم جدّه الأكبر، وفي الشرق الأقصى مثل الهند والصين، فهناك معبد «مار» (الحية)، والحيّة هي جدّ لأولئك الأقوام، وفي الهند أيضاً هناك من يعبدون الحيّة حيث إنها معبود وطوطم الهنود الأوائل.

القرد كان طوطماً أيضاً وكانوا يقدسونه، وهناك معابد لعبادة الأعضاء التناسلية. وخلاصة القول أن الهند هي محطة لأديان عجيبة وكثيرة وكبيرة التفاوت، وفي هذا الاختلاف والتفاوت هناك أصول مشتركة لروح العبادة، وهذه هي إحدى خصوصيات روح الدين الهندي، فالروح الدينية، والفكر الديني، عميق وعرفاني ويشترك في التجلّيات، وتجلّياته معقّدة جداً ومختلفة أيضاً.

الدين الودائي: (دين ودا)

إن أساس دين «ودا» يمكن معرفته حينما نعرف كلمة «ودا». و«ودا» هو عبارة عن مجموعة من الكتب، كُتبت خلال تاريخ دين ودا، وهناك احتمال أن دين «ودا» وجد قبل سبعمائة أو

ثمانمائة أو تسعمائة قبل الميلاد يعني قبل ألفين وسبعمائة سنة أو أكثر، واللافت في الأمر أن هذا دين مهم جداً، لأن أكثرية الشعب الهندي يؤمن بهذا الدين وهو أساس بناء أديان الهند المختلفة، ليس لهم نبي أو أنبياء حتى أن الذي وضع هذا الدين غير معروف[١].

إن بعض المتون «الودائية» تمتلك جمالاً وعمقاً في المعنى حيث إن الإنسان ينجذب لها ويبقى متحيراً كيف يمكن أن لا يكون لهذا الدين اتصال بعالم الغيب.

الدين باعث للاطمئنان و(شوبنهاور)[٢] كان من المنجذبين إليه:

من قبل ما يقارب ألفين وثمانمائة سنة وحتى تسعمائة سنة، تُعتبر دورة. لم يكن الآريائيون قبلها قد دخلوا الهند، كانوا أقواماً متوحشين وعبَدَة رموز «طوطم» وكذلك عبَدَة سَحَرَة، أما كيف استطاعوا بعد عدة قرون أن يكتبوا متوناً تُعتبر الآن من

(١) أشرنا في حاشية سابقة إلى أن كتاب «ودا» صاغه شخص روحاني يدعى «وياسا» أو «واياسا» (Vyasa) منذ ثلاثة آلاف سنة.

(٢) آرثر شوبنهاور (١٧٨٨-١٨٦٠م): فيلسوف ألماني، اشتهر على نطاق واسع بسبب آرائه التشاؤمية وأسلوبه النثري المرهف. تأثر شوبنهاور بقوة بالفيلسوف الألماني إيمانويل كانط. ففي سياق الجدل الكانطي، أصر شوبنهاور على أن الحياة التي نمارسها من خلال حواسنا مجردُ عَرَض. وهو بذلك يعني أننا لا نمارسها كما هي، ولكن نعرضها على أنفسنا. وأثناء عرض الحياة على أنفسنا، نقوم بتغيير أحداثها.

الأمور اللافتة والمهمة للفيلسوف والمفكّر، حيث إن «شوبنهاور» يقول: حينما قرأت «الأوبانيشاد»[١] شعرت بمتعة لم أشعر بها طوال عمري ولم أقرأ متوناً مثلها، وقراءة هذا الكتاب كان سبباً لانبعاث الهدوء والسكينة في نفسي، وبعث فيّ روح التكامل، وليس في حياتي فقط، ولكن حتى في موتي وبعد موتي.

في بعض مقاطع أو كتابات أو أناشيد (أوبانيشادها)[٢] روح عرفانية ومتعالية وأفكار كبيرة، حيث إن القارىء لا يمكنه أن يصدّق أن هذه المتون غير مرتبطة بعالم الغيب، أما مَن كتبها، وعن أي طريق جاءت، ومَن نقلها، فهذا ما لا أعرفه ولا يعرفه التاريخ.

---

(١) الأوبانيشاد أو الأبانيشاد نصوص كتبها حكماء الهندوسية منذ آلاف السنين بأسلوب بسيط وسلس أثّر على الفلاسفة القدماء مثل أرسطو وأفلاطون وأفلوطين كما أثرت على فلاسفة العصر الحديث مثل «شوبنهاور» الذي قام بترجمة الأوبانيشاد إلى اللاتينية عام ١٨١٨، كذلك أثّرت تلك النصوص الفلسفية الدينية بأسلوبها المتميّز على شعراء الرومانسية الألمان وكذلك تأثر بها العديد من مفكري ومثقّفي أوروبا. أما كلمة «أبانيشاد» فتعني «الجلوس بالقرب من»، وهذا يشير إلى أن هذه المادة كانت سرية في الأصل. كان معظم أجزاء الأبانيشاد مصوغًا في شكل حوار بين معلِّم وتلميذه، وظهرت أهم أجزاء المجموعة بين عامي ٨٠٠ و٦٠٠ ق.م.

(٢) الأبانيشاد. وفي اللغة الفارسية تُلفظ (أوبانيشادها).

وإذا كانت هناك فرصة فسوف أقوم بشرح هذه النصوص وسوف أقوم بمقارنتها مع متون أخرى.

إن «ودا» هو الاسم الأول لهذه الكتب، و«ويديا» تعني البصيرة أو المتبصّر أو علم البصيرة، وهو نوع من المعرفة، وهذا المعنى أو هذه الكلمة جذورها من اللغة الفارسية (دري)، وقد قلت إن اللغة الفارسية الآرية والسانسكريت لهجتان للغة واحدة، وأن بين اللغة الهندية واللغة الفارسية هناك الكثير من اللغات واللهجات المشتركة، حيث إن كلمة رؤيا أو مشاهدة هي من جذور أخرى لتلك اللغة.

وإن كلمة (بينش) وهذه تعني تفكّر، و(بين) تتطابق مع كلمة (فوار) voir الفرنسية وتعني المشاهدة أو النظر، وكلمة (فوايان) (Voyant) وهي تعني النظر أو المشاهدة وكلمة (ويديا) تعني علم المشاهدة.

وإن كلمة «ودا» تعني (كتاب هذا العلم) أو بمعنى الكتاب الخاص للمعرفة والاطّلاع، فهي من جذر واحد ومشتقات للغة واحدة.

التوحيد يبعث المعرفة الذاتية والبصيرة في الإنسان:

في العلوم الإسلامية كما أوضحت، إن أساس جميع الانحرافات الروحية ناتج عن الخوف والمنفعة والجهل، وإن التوحيد يكون باعثاً وسبباً لزوال هذه الأمور الثلاثة،

والتوحيد يجعل الإنسان حراً في الدنيا ومعتمداً على الله سبحانه وتعالى. وحينما يكون الإنسان موحداً فإنه لا يخاف ولا يرهب آلاف الأخطار والمخاطر، فهو لا يخاف ولا يرهب الأشباح والناس والقوى الأخرى، ويكون مطمئناً في حياته ومستقلاً. ومن أجل تأمين مصالحه فهو لا يتملّق ولا يخضع لأي سلطة، لأن هذا التملّق يمسخ الإنسان من إنسانيته وهو السبب في أن يجعل الإنسان إنساناً فاسداً، أما الموحّد فهو لا يخضع ولا يتملّق من أجل حفظ منافعه ومصالحه.

فالموحّد يشعر بأن العالم عالم واحد وصورة واحدة، عالِم وصاحب إرادة. وهذه النظرة الكونية تصون الإنسان من الجهل وتجعله في موقع بعيد عن الجهل واليأس، وصاحب نظرة واضحة وذات معرفة.

إن المقصود بالجهل هنا، ليس الجهل الذي هو ضد العلم، حيث نرى أن العلم لم يسلب مثل هذا الجهل، والحمد لله نرى هناك الكثير من العلماء ولكنهم جهّال، والعلم هنا هو عبارة عن معلومات ترِد إلى الذهن فقط بدون أن تزيل الجهل.

إن هذا الجهل هو ضد أو عكس المعرفة الذاتية والاطّلاع، وهناك فرق بين هذين المعنيين. فالاطلاع

والمعرفة الذاتية لم يكن حتى أبو علي سينا يحصل عليهما، ولكن بلال الحبشي الرجل الأمي يمتلك هاتين الصفتين[١].

هذه النظرة والمشاهدة قد نراها عند عامل بسيط، أو قروي في عالمنا اليوم، ولكن قد نفقدها أو لا نراها عند أستاذ كبير أو عالم اجتماع أو فيلسوف أو عالم دين.

لهذا فإن العلم هو معرفة مفاهيم خاصة، وهو لا يمنح المشاهدة والاطّلاع والمعرفة الذاتية، مثل شخص يعرف أرقام جميع المنازل وأسماء أصحابها وعنده علم عن كل هذه الأمور، ولكن هذا العلم لا ينفع العالم.

ومن الممكن أن نقول إن مثل هذا العلم لا يعتبر علماً، وهو مفيد لجهةٍ ما ونحن لسنا بحاجة إليه، وإذا احتجنا إليه فهو سوف يصبح علماً، ويعطي لعالِمه درجة (دبلوم)، حتى يستفاد من هذه الشهادة طبقاً للقوانين.

هذه النظرة والمشاهدة هي ما وراء العلم، وما وراء الفن، وما وراء الفلسفة، وما وراء التكنولوجيا، وهي بموازين ومقادير مختلفة، ولا يوجد بينها وبين الفلسفة والتعليم والتربية أي ارتباط، فهي تحصل عند الإنسان (لا أقول إن العلوم والفلسفة و... ليس لها أثر في هذه

---

(١) هذه هي أُنْشُودة علي شريعتي القِيَميّة الرائعة.

المشاهدة والنظرة وإنما أقول إنها غير مرتبطة بهذه العلوم، فهي شيء آخر).

الذي يحمل فلسفة سقراط لا يُلدغ:

هذا العلم، الذي أطلق عليه سقراط سابقاً (حُب الحكمة)، ويقول نحن جميعاً نبحث عن الحكمة لنا ونسعى لأن نصبح حكماء.

أما فيثاغورس فيقول: نحن لا يمكن أن نكون حكماء، نصل إلى الفلسفة ونصبح فلاسفة، نحن فلاسفة، يعني نحب الحكمة وفي طلبها نسعى، ولكننا لا نستطيع الوصول إليها، لماذا؟ لأن الحكمة مكانتها مرتفعة جداً.

إن نظر سقراط وفيثاغورس بأن العلم الماروائي هو مشاهدة بدون الماورائي، وكما يقول سقراط كل من يمتلك (الحكمة)، فإنه لا يُلدغ.

ومن الطبيعي فإن هذه النظرة هي مشاهدة ما وراء العقل وما وراء العمل، حيث إن هذه المشاهدة لها أثر وتسيطر على أخلاق وسلوك وفطرة ومصير الإنسان[1] فهي تبدِّل الإنسان ولكنها لا تغيّر العالم.

---

(١) المقصود من المشاهدة هنا ليس المشاهدة العينية وإنما هي كلمة عرفانية تعني المشاهدة الباطنية ويستعملها الفلاسفة العرفانيون (المترجم).

العقل النوراني في إيران القديمة:

العقل النوراني وهو الذي يعلّقونه[1] في إيران القديمة على بعض الشخصيات الكبيرة مثل زرادشت، وبعض أهل الفهم والمعرفة يقولون: إن العقل النوراني أو النيّر يعني العقل المقدس (اسبندارمذ أو سبندمن) بمعنى «أنا متنّور»، وكلمة (بينش، بينائي) هي كلمة مصطلحة تشبه تماماً مصطلح (سوفيا) في اللغة اليونانية.

إذاً فالنظرة البيضاء أو النورانية تختلف عن النظرة العلمية والنظرة الفلسفية والنظرة الفنية، حيث إنها من الممكن أن تكون سوداء أيضاً.

الشرارة المقدسة المضيئة لـــ (ويديا):

إن هذا الفكر المقدّس هو هذا الذي يُسمى في الهند «ويديا»، لهذا فإن «ويديا» هي رؤية خاصة ونور مقدّس خاص، حيث إنه يُشعل أو يضرم شرارة في ذات الفهم الإنساني وفي عمق إحساسه. ونتيجة لذلك فإن حقائق العالم وبصورة مباشرة ومستقيمة تدخل في عمق الفهم الطاهر والنقي للإنسان، وتنعكس عندما تعطي لقوة ذلك العقل وقوى تلك النظرة حقيقة واضحة، إنها حقائق يحسّ

---

(١) يعلّقونه: بمعنى يطلقونه.

بها في داخله وفي نفسه، فهي تسكن في داخله، وتخلق رابطة وأواصر قوية بين باطن الإنسان وتلك الحقائق، ثم تغيّر ذات الإنسان، فتجعله إنساناً.

إذاً يصبح واضحاً أن دين «ودا وكتب «ودا» هي على أثر «ويديا» وعلى طريق المشاهدة.

العلم والحكمة القرآنية هما نورٌ:

الفلسفة كما هو وارد في القرآن جاءت تحت اسم «الحكمة» وحتى لو قيل «علم» فأيضاً هو بمعنى «الحكمة». وقد جاء في إحدى الروايات (العلم نورٌ يقذفه الله في قلب من يشاء) هذا العلم، ليس من جملة العلوم الأخروية كما يقول «مولوي».

فهذا العلم نور وذلك العلم وسيلة. فهذا نور وطريق هداية، وذاك وسيلة وباعث قدرة، وهذا نور ما وراء الطبيعة الذي منحه «برومته» للإنسان.

الحكمة ضالة المؤمن:

هذه الحكمة، (الحكمة ضالة المؤمن)، فسّر البعض كلمة «الضالّة» فيها بمعنى «التائهة»، والسبب هو أن الحكمة في القرآن عُرفت فيما بعد من الفلسفة اليونانية حيث إنها كانت ضالّة الباحث (وهذه حقيقة)، والحال أن الحكمة هي في متن

القرآن أظهر من الفلسفة اليونانية بمعنى أن المشاهدة والرؤية لما وراء الفلسفة هي ضالة المؤمن، وبمعنى أدقّ أن الإيمان هو البحث عن الحكمة، أو «الويديا»، أو «الفلسفة»، أو «العقل النيّر المقدس».

وكما يقول دين «ودا»، إن كلّ علم خالٍ من الحكمة والمشاهدة أو «ويديا» فإنه جهل، فهو علم جاهل وعلم أعمى.

في أناشيد «ودا» في كل مكان تقول (هكذا أسمع)

في مطالعاتي ليلة أمس جذب انتباهي هذه المسألة في كتب «ودا»، أن جميع الأناشيد دائماً تبدأ بهذه الصورة أو تعتمد على هذا الاصطلاح وهو: «أن هذا الكلام صار مسموعاً»، «هكذا أسمع»، «استمع»، والأستاذ الفلاني سمع من شخص. بمعنى اعتماد على «السمع»، أو على «الاستماع»، أو «سمعَ» أي يعتمد على حاسة السمع.

إن اعتماد «ودا» هذا على السمع والاستماع يُعتبر أصلاً حساساً وهو بالنسبة لي أمرٌ مهم جداً، فأنا لا أعرف ولكن سبب توجّهي لهذه المسألة الآن هو أنني أحسست بأهميته، وحقيقةً هذا الأمر فيه أهمية.

وفي اللغة الفارسية أيضاً لدينا الكثير من هذه

الاصطلاحات، مثلاً نقول «إنه إنسان يسمع الكلام»، ومن هنا يصبح واضحاً أن هذا العلم أو هذا الفكر يُعطي أهمية للسمع. لم يَقولوا: إنسان يرى جيداً، أو صحيح الفهم، أو صادق، أو صاحب أخلاق و... بل يقولون: «يسمع الكلام» ولا يقولون: «يقرأ الكلام». ومن هنا أصبحتُ متوجهاً لنظرية (ماكدولين)، وأصبح لها أهمية عندي.

نظرية ماكدولين تعتبر المرحلة الأولى في التعليم عن طريق السمع:

إن نظرية ماكدولين التي تُسمّى (التحوّل في شكل الثقافات والتربية والتعليم في تاريخ البشر)، تقول: إن تاريخ تغيير الثقافات البشرية، التعليم والتربية، والعلم والمعرفة مرّت بثلاث مراحل: فالمرحلة الأولى، هي مرحلة السمع، ومرحلة الحس، يعني لا يوجد هناك كتاب ولا قراءة ولا كتابة، فالشاعر مثلاً في تلك المرحلة لم يقرأ أي ديوان شعر أو كتاب أو رسالة أو لوح أو صحيفة أو مقالة، ولم يرَ بعينه أي شيء.

التعليم السمعي في عصر الجاهلية:

مثلاً «امرؤ القيس» -وشعراء الجاهلية العرب- فهو فوق جَمَله يجوب الصحراء وكتب شعراً في النجوم

والشمس وفي قلب الهضاب كان ينظم الشعر، وكل شعر قاله في مكان ما فإنه يُسمع ويُردَّد من قبل الشعراء في سوق عكاظ، أو مثلاً إذا قيل شعر في المسجد أو القبيلة الفلانية فإنه يُردد بين الآخرين، وخلاصة القول إن اطّلاعاته ومعلوماته هي سَماعية وليست عن طريق المطالعة، فالشاعر الجاهلي وخلال سفره من مكان لآخر، فإن الشعر الذي يقوله بحق ولده أو أصدقائه، يحفظه الذين يسمعونه ويرددونه.

كيف كان التعليم في صدر الإسلام؟

التعليم في صدر الإسلام كان بتلك الصورة، وفقط الآيات هي التي أمر الرسول ﷺ بكتابتها وهذه كانت مشكلة بالنسبة لهم. حيث لا يوجد بينهم القرّاء والكتّاب، وحينما جاء إلى المدينة كان كاتبه شخصاً يهودياً. لأن «الأنتلكتوئل»(١) لم يكن موجوداً آنذاك وبعدها وجد ومن ثم أصبح غير صالح. فكان كلام الرسول ﷺ يُسمع ويضبط ويحفظ من واحد لآخر، وفي الفترات اللاحقة تُكتب هذه المسموعات وتدوّن الخطب والروايات والأحاديث

(١) الأنتلكتويل «intellectuelle»: مصطلح فرنسي مرادف لكلمة «الفكر» أو «الفكري»، وهذا المصطلح يستخدمه الدكتور شريعتي بقوة للتعبير عن الثقافة الذهنية والفكرية الناتجة من القراءة والكتابة.

والمقالات. إذاً ففي فترة عدم وجود الكتابة والخط وعدم وجود الثقافة الذهنية والفكرية كانت فترة سماعية تعتمد على السماع، وكانت جميع المعلومات والتعليم تأتي عن طريق السمع والحفظ. وبعد أن وجدت الكتابة، أصبح الناس يدوّنون رسائلهم وأفكارهم وعقائدهم على الجدران والعظام والخشب والصخر والجلود، وعلى شكل رموز. ولمّا لم يعد للسماع دور، بدأوا يقرؤون ومن ثم يتفكّرون ويفكرون حول الموضوع الذي يقرأونه ثم يقررون. فثقافة مثل هذا الإنسان هي ثقافة ذهنية وليست سمعية، ثقافة مطالعة بصرية نظرية، والعين هي وسيلة للتفكّر هنا، أما السمع فيأخذ المعنى بصورة مباشرة ويوصلها إلى الذهن.

المعلومات المرئية لطلاب اليوم:

إذا نظرنا اليوم إلى المعلومات التي يتلقّاها الطلّاب فسنجد أكثرها أو نسبة ٩٠٪ منها هي معلومات مرئية، أي بواسطة الكتب والكرّاسات والأمور المستنسخة والمخطوطات، ويمكن أن لا تتعدّى المعلومات السمعية نسبة ١٠٪ ولكني في حالة تلقّي البَدَوي للمعلومات كما عرفنا يعتمد على السمع في أكثر الحالات، فهو يقول مثلاً: قال جدي هكذا، وقال أبي هكذا، وهكذا قال

عمي، ويقول: أنا هكذا يكون رأيي أو جوابي.

أما الطلاب اليوم فيقولون: الكتاب الفلاني، الصفحة الفلانية، الكاتب الفلاني، المقالة الفلانية، والصحيفة المحلية الفلانية. ويقول: سمعت من بعض الناس هكذا يقولون. وهنا يصبح واضحاً أن تلقي ذاك يكون ذهنياً، وتلقي هذا يكون سمعياً.

إن كُتب «ودا» والثقافة «الودائية»، ترتبط بمرحلة كان المجتمع فيها لم يصل بعد إلى النمو الذهني، والتعلّم والتعليم كان سمعياً فقط، فهذا سمعي، البصر يسمع و... ومن ثم تحدث عملية التكرار لهذه المسموعات وتكون جميع الإسنادات سماعية. ثم تأتي الدورة الذهنية، وفي الإسلام نجد الحالتين أي الذهنية والسمعية.

التعليم السمعي الصناعي اليوم:

يقول «ماكدولين» أن التعليم يرجع مرة أخرى إلى مرحلة السمع ولكن بصورة اصطناعية، مثل دور السينما والتلفزيون والمسرحيات وغيرها، وهذه الأمور تأخذ مكان الكتاب الآن، فمثلاً هناك في جامعات متقدمة جداً يكون تلقّي المعلومات عن طريق أفلام سينمائية، وعن طريق الأشرطة، والمؤتمرات العلمية، والمسرحيات وأمثالها.

وحتى في عملية التدريس، جهاز التلفاز مطروح الآن (هذا هو الرجوع إلى الدورة السمعية).

النتيجة التي أريد الوصول إليها وهي أن المجتمع الودائي كان مجتمعاً أمّياً ويمتلك ثقافةً لم تتطور، لأن الكتاب الديني لهم هو سمعي ويعتمد على الاستماع، ولهذا لم تتطور ثقافتهم.

وحسب نظرية ماكدولين، وهي نظرية مائة في المائة علمية وبديهية وليست فرضية. يجب أن يكون القرآن كذلك، بدليل أن الرسول ﷺ كان أمياً وقومه كانوا أيضاً أميين وأن مجتمعه في تلك الفترة لم يكن قد وصل إلى المرحلة الذهنية مرحلة التأمل والتعلم، والكتابة ليس لها معنى، فهو مثل «ودا» يكون سمعياً ودائماً يكون الانتقال عن طريق السمع ويعتمد على الاستماع، ولكننا تماماً نجد العكس في الأمر!

نبي الإسلام لم يقرأ ولم يكتب وكان يرعى الغنم:

وقد صرّح القرآن بذلك وهو أن الرسول الأكرم ﷺ لم يكتب بيده خطاً واحداً والتاريخ يقول إنه لم يكن يقرأ، والبعض يقولون إنه يستطيع القراءة ولكنه لم يقرأ! فأي عمل هذا؟ إن افتخار الإسلام هو في عدم تمكّنه من القراءة، وأولئك الذين يحملون شهادة الإعدادية يتصورون أنهم بهذه

الطريقة يرفعون رسول الله ﷺ، فكيف نبحث نحن القيم[١]؟

أو هناك من يقول وبحسن النية! وقد اعترض عليّ بالقول لماذا تقولون إن الرسول ﷺ كان راعياً للغنم والحال أنه من طبقة الأشراف، ولكن أين الأشراف؟ أشراف قريش؟ أشراف أثينا، الذين لم نعرف لهم حتى قيمة مثل قيمة الحيوانات. الأشراف الذين يقول عنهم أرسطو أنه «في كل الدينا لا يوجد أكثر من عشرين أو ثلاثين عائلة من الأشراف»، وبين أشراف قريش هكذا يكون قدرهم، فأي افتخار لرسول الله ﷺ، أن ينتسب إليهم؟[٢] وإذا كان يستطيع القراءة ولم يقرأ فأي مكاسب في هذا الأمر! وأي افتخار للرسول ﷺ، من وراء ذلك؟

فالقرآن رسوله أمي، وزمانه أميّ، ومجتمعه أمي، وأن

(١) يريد شريعتي أن يقول بأن النبي ﷺ كان لا يقرأ ولا يكتب، أي لم يتعلّم بواسطة الأدوات المعرفية التي يحوزها البشر، وإنما كان علمه ومعرفته بواسطة الوحي ومن السماء، وبعبارة أضحى وتقول الأكثر: كان معلّمه هو الله تبارك وتعالى، وهذا يدعو للافتخار والاعتزاز. فأميّة النبي ﷺ مفخرة وأي مفخرة، حازها النبي ﷺ ليصبح ـ وهو الأمي ـ معلّماً للبشرية جمعاء.

(٢) طبعاً بغض النظر عن أبي سفيان وأبي جهل وأبو لهب ومن لف لفهم وهؤلاء كانوا يسمون أشراف قريش، ولكن الأشراف الحقيقيين في مكة هم عبد المطلب وأبو طالب وخديجة وأمثالهم من العوائل الأخرى والرسول ينتمي لهؤلاء الأشراف وليس إلى أشراف الجهل والجريمة (المترجم).

ما يملكه الجميع من معلومات هي أدبيات، تجريبيات، أمثال وحكم، وفلسفتهم نشأت من المسموعات، والمجتمع آنذاك ما كان يمتلك حتى مدرسة واحدة، ثم ورد إلى المرحلة الذهنية، وفي ذلك الوضع انتُخب اسم القرآن على خلاف ما ننتخبه نحن لأسماء كتبنا، فمثلاً في قواعد اللغة الفارسية لدينا كتاب اسمه «البحر المواج في دورة الديباج» وهو بسيط ويحمل رسالة وتبياناً لكل شيء.

أول خطاب في القرآن «اِقرأ»، وليس «إسمع».

القرآن، بمعنى المقروء. وأنا أرى أن هذا الاصطلاح هو اصطلاح الفترة الذهنية، وكان أول بيان فيه، بياناً عجيباً وعميقاً ويحتاج إلى تأمل كبير، إن أول رسالة لرجل أمي لكي يبلّغ مجتمعاً أمياً لم تكن «إسمع» وإنما هي «إقرأ»، ولو كانت «إسمع» فالرسول ببساطة سوف يسمع، أما «اِقرأ» فهي رسالة لم تكن رسالة عادية حيث يمكن سماعها، بل إنما هي آيات كُتبت على حرير أو نور تظهر أمام عينيه ويقول له «اِقرأ»، فيقول له لا أستطيع القراءة. يضغط على حنجرته بحيث يحسّ بالموت آنذاك ثم يقول لا أستطيع القراءة، بعد أن يرتاح يقول له الوحي «اِقرأ» مرة أخرى وكذلك يضغط مرة أخرى على حنجرته ويحسّ بالموت

ولكنه يقول لا أستطيع القراءة، وإلى المرة الثالثة، يستطيع القراءة. ومن هنا تبدأ دورة القراءة في التاريخ ويدخل الإنسان المرحلة الذهنية والتعليم الفكري، وطبعاً إن رائد هذه الدورة وهذه النهضة الفكرية، هو نفسه رجل أمي لا يستطيع القراءة ولا الكتابة، والأهم من ذلك أنه يعيش في مجتمع أمي يعتمد على السمع فهو مجتمع لا يقرأ ولا يكتب.

القرآن يقسم بـ«ن والقلم وما يسطرون» فهو يقسم بجوهر ومادة الكتابة، وبالقلم، وبالذي يكتب. ولا يقسم بالأشعار والأناشيد والرسالة.

(إن الجوهر والقلم والكتابة في القرآن هي بمثابة أساس وأصل طريقه التعلّم الذهني والثقافي):

إن الأمر الذي يثير الإعجاب هنا أن قيمة التفكّر والتأمل هو في هذه الأمور، ولم يكن في (أبولو ١٣) بعد انطلاقها، وهذه نستخرجها من القرآن!

انظر إلى مادة الكتابة والقلم والذي يُكتب فيه، فهي بشكل كامل لمنشأ مرحلة التعلم الذهني والثقافي.

إن الاسم الآخر للقرآن هو «الكتاب» لأن مصير

ومستقبل كل ما يدور في الوجود وجميع الحقائق والقوانين ونواميس العالم قد دوّنت فيه، فهو «لوح».

«لوح محفوظ»، و«كتاب مبين»، و«صُحُف». وكذلك في يوم القيامة وهو وقت الحساب والكتاب وهو وقت السؤال وبحث الأعمال، أيضاً في ذلك اليوم كل شيء يُكتب في كُتب وصُحف، وكل إنسان سوف يسلّم كتابه إما بيمينه أو شماله، وفي هذا الكتاب دوّنت أعماله جميعاً. كل هذه الأمور بأجمعها تشير إلى دورة التعلّم، وكل ما يخالف فهو أمر جبري وبديهي. أما تلك الأمور التي ترتبط بالدورة السمعية وثقافة الإصغاء والاستماع، وكان المجتمع هكذا، فكل ما يُقال فيه فهو ضد الدورة وضد المجتمع ومخالف للأصول.

طبقات المجتمع الهندي:

حول الآلهة والأصول الأولية للعقائد الهندية سوف أتحدّث عنها في جلسة أخرى، ولكن الآن سوف أطرح بعض الأمور لتكون مفتاحاً للدخول إلى ذلك العالم، وسوف يكون عملنا صعباً نوعاً ما، ومسألة طبقات المجتمع الهندي هي من هذا النوع.

إن المسألة المهمة في المجتمع الهندي هي مسألة

وجود الطبقات الاجتماعية، لأن المجتمع الهندي هو مجتمع طبقاتي سابق.

واليوم انحصرت الطبقات وفقدت وضعها االرسمي، وغالباً لا يوجد اعتراف رسمي بها، ولكنها من الناحية العملية لها وجود، ولا زال هناك طبقة في المجتمع الهندي تسمّى الطبقة العالية، وتعتبر هذه الطبقة من الطبقات الدائمة والمُحكمة بين طبقات العالم.

بداية الأمر، المقاتلون يحكمون القبيلة المهاجمة:

في بداية الأمر وحينما دخل الآريائيون إلى الهند فإنهم ألغوا الأقوام الابتدائية الموجودة ثم أعادوا تشكيل المجتمع. ويمكن ملاحظة ذلك من أشكالهم. فإحدى الطبقات هي طبقة المقاتلين وهم الذين يقودون القبيلة المهاجمة فيحاربون السكان الأصليين وينتصرون عليهم ثم يحلّون محلهم.

كذلك في موضوع هجرة الأوروبيين إلى أمريكا، فإن أصحاب الجاه والأقوياء والمتمثلين بما يُدعى بـ(الكاوبوي) هم الذين يقودون الأمة ويسيطرون على مقدراتها. في فيلم من أفلام (الوسترن) -في مسألة كشف أمريكا وتصرفها

والسيطرة عليها- يوضح لنا الفيلم بصورة جيدة ومشخصة، قادة تلك الأمة.

في هجرة الآريائيين إلى إيران والهند كذلك، فهؤلاء المقاتلون وأولئك الذين يثيرون الشغب والذين يصبحون مميّزين عن الناس العاديين، يُسمّون في الهند بطبقة «الكشاسريا»، أو «الكشاتريا» أي المقاتلين[1].

هؤلاء يأتون ويسيطرون على الوضع ويشكّلون الحكومة، وتصبح القدرة السياسية والاجتماعية تحت تصرفهم، ويصبح الحكم حكماً وراثياً في عوائلهم، فالمقاتلون الأوائل يصبحون ملوكاً وأبناء ملوك وتصبح «الكشاتريا» أي طبقة المقاتلين، تعني، طبقة الملوك والسلاطين في الهند. وهذا يؤشر على وضع الطبقة الابتدائية أو الأولى من الآريائيين التي دخلت الهند.

الطبقة الثانية: وهم القدّيسون والذين يؤمّنون الاحتياجات الروحية للأمة:

الطبقة الثانية، وهم القدّيسون أو المقدسون والذين يؤمّنون الاحتياجات المعنوية للناس. لقد كان الآريائيون

---

(١) الكشاتريا: هم ارستقراطيّة الجند، وهم الطائفة الثانية في المجتمع الهندي المُغلق.

يؤمنون بوجود القوى الغيبية الرمزية، وكما قلنا سابقاً فهم كانوا عبدة أرواح وأمور روحية غيبية، وأن ديانة (أنيميسم) الابتدائية مصدرها هذه الأمور.

ويعتقدون أن الأرواح الخبيثة والجن والأرواح الشريرة في الطبيعة، تعيش بين الغابات والأنهار والأماكن المظلمة والجبال، وأن أرواح الأعداء تطوف وتدور أيضاً، ومن المحتمل أن تُحدث صدمةً ما لهم، وكذلك يعتقدون بوجود آلهة للخير ويعتقدون بأن أرواح الآباء والأجداد تحتاج إلى ذِكر وإلى تقديم الأضاحي والصلوات لها.

وهكذا إذاً، فمثلما كانت طبقة المقاتلين تريد أن تُخضع أصحاب الأرض وأن تسيطر على البلاد، فهي بحاجة أيضاً إلى أشخاص يسخّرون الأرواح الشريرة والقوى الخبيثة ويدفعونها عنهم. وأيضاً يحتاجون إلى قوى الخير والعطف والمحبة، يحتاجون إلى آلهة كبار، آلهة للطوفان وآلهة للزرع وآلهة للأرض وآلهة للأمطار، وآلهة... تجلب لهم أموراً أخرى، أما أولئك الذين يدفعون الشر ويجلبون لهم خير ومحبة وعطف ورحمة الآلهة، فهم الروحانيون والذين يُسمّون بالبراهمة.

لهذا فمنذ بداية دخول هذه القبائل المهاجمة، كانت

هناك طبقتان مميّزتان، وهما طبقة «الكشاتريا» وطبقة «البراهمة»[1].

الطبقة الثالثة والرابعة، الفلاحون والصنّاع

وبعد أن استقرّ المزارعون وبدأت الزراعة أصبحت هذه الطبقة هي الطبقة الثالثة في ترتيب طبقات المجتمع، أما الصنّاع والغلمان فهم يشكّلون الطبقة الرابعة.

وقبل هذا قلت، أنه في العصر الزراعي أو الدورة الزراعية، كان هؤلاء أي الصنَّاع مشغولين في الصناعة أي أنهم يمتلكون درجة أقلّ من المزارعين، حيث نرى نموذجاً لهذا في القرى وفي حياة البدو الرحّل، فالفلاح مثلاً الذي لا يمتلك أرضاً ويعمل عند الاقطاعي فهو من الناحية الاجتماعية مثلاً أفضل من الحداد وصانع الأقفال والصناع الآخرين، ففي الدورة الإقطاعية والزراعية فإن الصنّاع أصلاً، يُعتبرون أقلّ قيمة، وطبقة سطحية، حيث يُصنّفون مع طبقة الغلمان.

---

(١) البراهمانيون أي طائفة الكهنة تأتي في المرتبة الأولى في المجتمع الهندي القديم، ويأتي الكشاتريا أي ارستقراطية الجند في المرتبة الثانية. والجدير ذكره أن المجتمع الهندي القديم كان يتألف من أربع طوائف مُغلقة.

الطبقة الخامسة، الأقوام غير الآريائيين، (النجسة)!:

أما الطبقة الخامسة في المجتمع الهندي فهي ما تُسمى بطبقة «الدراويد» وهم من غير الآريائيين، وتعتبر هذه الطبقة، الطبقة التحتية في المجتمع ويسمونها الطبقة (النجسة) ولا تزال موجودة حتى الآن. وقد سمّاهم غاندي لأول مرة باسم طبقة عبيد الخالق. وحينما يريد الناس أو طبقة الأرباب أن يعطوا نقوداً لهؤلاء، فإنهم يلفّونها بالورق ويسلمونها إليهم، أو يسلمونها بواسطة إناء ثم يغسلون الإناء بعدها، أو مثلاً يضعون بقايا طعامهم في الحقول والغابات خارج المدينة ومن ثم يأتي هؤلاء، أي الطبقة النجسة، لتتناوله.

إذاً فهناك خمس طبقات في المجتمع الهندي، وهي على الترتيب التالي: البراهمة، الكشاتريا، الفلاحون، الغلمان والصناع معاً، والطبقة النجسة والغرباء[١].

---

(١) أشرنا إلى أن المجتمع الهندي القديم كان يتألف من أربع طبقات أو طوائف مُغلقة وليس خمس طبقات كما أشار الأستاذ المعلّم، وهذه الطبقات هي: ١- البراهمانيّون، ٢- الكشاتريا، وقد تقدّم الكلام عنهما. والطبقة الثالثة هي «الفاسيشيا» أي طائفة الزرّاع والصنّاع والتجّار، والطائفة الرابعة هي طائفة «الشودرا» أي الطائفة الدنيا، وكان أبناء «الشودرا» تابعين للطوائف الثلاث الأعلى منهم.

البراهمة (الروحانيون)

تعتبر طبقة البراهمة أقوى الطبقات في الهند، ويعتقد الناس أن هؤلاء هم الرابطة بين العوالم الغيبية والأرواح. وهؤلاء طبقة مشخّصة ومتميزة، ويملكون خبرة فنية في جعل هذا الامتياز والإرث خاصاً بهم دون سواهم في المجتمع.

أكبر عمل البراهمة هو تقديم القرابين:

إن أكبر عمل للبراهمة هو تقديم الضحايا والقرابين للآلهة وللأرواح الطيبة، وهذا العمل لا يجلب رضا الآلهة فقط، بل إن الآلهة جَوْعى ويحتاجون إلى اللحوم والدماء، يحتاجون إلى هذه القرابين. وتقديم الضحايا لا يعني أنه عمل فيه صلوات ودعاء فقط بل إنه يجلب رضا الآلهة، لأن عملية تقديم القرابين هذه هي بحدّ ذاتها تمثّل الاحتياج الدائم لروح العالم والآلهة حيث إنهم يديرون الكون، وهكذا فإن أجدادنا أيضاً هم بحاجة إلى هذه القرابين.

انتبهوا جيداً كيف أن هذه المسألة وكيف أن هذه الأمور وُجدت في الجوانب الخفيّة لروح الدين الابتدائي ولها وجود أيضاً في الأديان المتقدمة، وهي موجودة في روح الأفراد وليس في الدين نفسه. لقد كان هذا العمل

عملاً عادياً في بداية إقامة المراسم حيث إن ربّ العائلة يمكنه بنفسه أن يقوم بهذا العمل. ولكنه أصبح فيما بعد محصوراً في طبقة خاصة، فهذا العمل العادي والعاطفي والإحساسي والذي كان بعنوان مجموعة من المناسك والأعمال المشخّصة، يتحوّل إلى عمل مُجَدْوَل بيد هؤلاء ولا يستطيع أحد القيام به سواهم، وهم بأنفسهم يجب أن يقوموا بهذا العمل، لماذا؟ لأنه ليس بإمكان أي شخص آخر القيام به.

مثلاً هناك محل اجتماعي كان قبلاً يُدار من قبل ثلاثة أشخاص حيث إن أحدهم غالباً ما يكون شخصاً إضافياً، والآن وبعد مرور سنتين، نجد أن هذا العمل نفسه له مؤسسة مستقلة ومدير عام وأحياناً له وزير مستقل.

وهنا، فالعمل الذي كان يُنجز بثلاثة أشخاص وبيوم واحد، تصبح له مؤسسة كبيرة ومهمة، وله أصول عجيبة وغريبة، وله أعمال غير واضحة، وهناك سلسلة مراتب ودرجات إدارية ومسؤوليات مختلفة، وعلى بعضه البعض فإنه يمكن أن يُفقد بواسطة ورقة أو كارت.

وإذا أردنا أن نقوم بعملٍ يكون عملاً عادياً وبسيطاً فأنت تقول أستطيع ذلك، أما إذا كان بهذه الصورة فإنه

يصبح عملاً موحشاً، ويصبح باعتقادنا عملاً مُشكلاً ولا يمكن عمله بصورة عادية.

لماذا لا يوجد عشق ومحبّة في الارتباط؟

في الأمور المتعارف عليها في إيران، عند عقد القِران (الزواج) حينما يدعون رجل الدين ليقوم بإجراء العقد فإنهم يأتون ببعض «كله قندي» السكر المضغوط، ويأتون بقطعة قماش ويمسكونها من الطرفين وهي تتدلى فوق رأس العروسين، ومن ثم بطريقة معيْنة تقف امرأة وتقوم بعملية احتكاك بين قطعتي «القند»، وبترديد بعض الكلمات يقوم الرجل بعقد القِران. وأما إذا عقد الرجل العقد بسرعة وذهب، فهنا لا يوجد «تكنيك» في العملية ولا يوجد مراسيم. إن المظاهر تطغى أكثر من العلاقات الروحية للارتباط وهي العشق والمحبة.

قراءة القرآن عند القبور يحتاج لحساب:

يصبح العمل عملاً عادياً في حال تقديم القرابين بدون أن يكون هناك كتاب يتألّف من ثلاثة أجزاء، وهذا الكتاب يشرح ويوضّح مراسم عملية تقديم القرابين، حيث إن قطع رؤوس الأغنام لا يتمّ بطريقة عادية. وهذا ما قاله ذلك الرجل في المقابر حيث شرع بطريقة فيها شيء من الشكوى

يقول: كل إنسان حينما لا يكون مرتاحاً من أمه فإنه يأتي ويصبح قارئاً للقرآن. ويتصور أن قراءة القرآن تتم بهذه البساطة، ومن ثم يشرع بالقول ويقول أموراً كانت قد سُمعت من خلف جدار المدرسة القديمة: إن القرآن شيء جاء من الخارج وهو مصدر، وفي هذا المصدر تنفتح تسعة وجوه، ومن كل وجه تنفتح عدّة وجوه أخرى، وإذا أردت أن أعدّدها فإنكم سوف تتعبون. لذا فإن الإنسان إذا أراد أن يقرأ القرآن يجب أن يحسب حساباً لجميع هذه الأمور، وأحياناً لا يُقبل منه. نرى هنا بأنه يوجد «تكنيك» في هذا الأمر وإذا لم يفعل هكذا فإنه يُعطى قرآناً ويذهب. أما إذا تعرّض لكل هذه الأمور أي المصدر والاشتقاق والفصول المختلفة، فالإنسان يخجل أن يعطيه مالاً قليلاً (فهذا هو التكنيك الذي نتحدّث عنه ويجب أن تلاحظوه بدقة).

فأنت حينما تقوم بعمل ميكانيكي، لا يوجد لهدفك ونيتك أي تأثير. وحينما تضع الماء على النار، فعند ١٠٠ درجة حرارية فإنه سوف يتبخر، وإذا كان هناك اشتباه فلا يمكن الحصول على البخار.

وكذلك حينما نحلّل الماء، فإذا نسينا المادة المحلِّلة فإن التحليل أو التجزئة لا تتم، ولكن إذا توفّرت الشرائط،

فأي إنسان كنت وبأي نيّة عملت فإن التجزئة والتحليل سوف يتمّان، سواء أردت بهذا الأوكسجين الخارج من التجربة أن تُحيي أو أن تقتل به إنساناً. فمن أجل العمل، لا يوجد فرق في التكنيك، لهذا جاء في كتاب «ودا» أن القربان سوف يصل ويكون مقبولاً إذا تمّ تقديمه بشرائطه وأحكامه الدقيقة اللازمة له. ولو أنك لم تكن تملك اللياقة والصلاحية لذلك العمل، وحتى لو أنه قُدّم بدون نيّة خالصة وهدف خالص، ولا يوجد هناك شعور ومعرفة خاصة بذلك العمل، فالمهم هو الشرائط والأحكام الدقيقة اللازمة له. فهذا العمل يعتبر عملاً تكنيكياً، ويجب أن يكون تماماً طبق الأحكام الفنية المقبولة. فإذا تمّ بهكذا شكل فإنه أصاب الهدف، وإلا فلا يكون له تأثير بأي شكل من الأشكال.

صعوبة وجود شخص أُميّ في مناسك الحج:

حينما كنت في مكة المكرمة رأيت رجلاً يمسك حاجّاً ويقول له: كل حجّك هذا وصيامك وصلاتك باطل وإن امرأتك حرام عليك أيضاً، إذا لم تردّد هذا الكلام بالصورة المطلوبة (والتي لم يتمكّن العرب أنفسهم من ترديدها بصورة صحيحة).

جيّد، كيف نصبح عرباً حتى نتمكن من التلفّظ

الصحيح؟ قال له: أنا لم أقرأ ولكني دفعت مبلغاً من أجل أن يقرأوا لي، وإن قيمة القراءة كذلك معلومة من ثلاثين إلى خمس وثمانين ريالاً، هذا ما جاء في الروايات.

ولم يتركه ليقول له تعالى أصحّح لك قراءتك وأصحّح لك «نيّتك»! ما هذا الأمر العجيب؟

إن الإسلام يقول (إنما الأعمال بالنيات)، انظر كم لهذا الأمر من معنى عظيم، فالنيّة يجب أن تكون مطابقة للقراءة الصحيحة.

نرى أن هذا «تكنيك»، والحال أن الأعمال ليست بالتكنيك وإنما بالإنسان الذي يقوم بالعمل، وإلا لكانت هذه الحروف والتي تُلفظ بنغمات ولهجات مختلفة في العالم تكون لغات محيّرة ولا تساوي قرشاً واحداً إن لم يكن لك أيها الإنسان شعور ولياقة بقدر معرفتك أن هذا العمل سوف يكون مؤثراً ويترك أثراً مغيّراً فيك.

يجب أن تكون النية والعمل صحيحين:

وهذا لا يعني نفي التكنيك، لأن كل إنسان يعلم وليس لديه شكّ بأن كل عمل يجب أن يُؤدّى بشكله القانوني، أما إذا كان بتلك الصورة المعقدة التي تجرّده من المحتوى فهو عمل غير مقبول. وإذا أهملنا الترتيب والنظام يمكن أن نفرّغ

العمل من المحتوى وتختلط الأمور مع بعضها البعض.

إذاً فعلينا حفظ الشكل. أما الأصالة فهي ليست في الشكل. الشكل هو وسيلة ومحتوى وروح الأعمال، وإن كل التقييم يُرتّب على الشكل.

وهذا العمل لم يكن عملاً إدارياً أو تكنيكياً، وإنما عمل إحساس وعشق ومحبّة وإخلاص وإيثار وعمل إيمان، فالإنسان عليه أن يكون صادقاً مع نفسه ومع ذلك الشيء الذي يعشقه ويعتقد به، وإلا فإن أي تكنيك في العالم لا يستطيع أن يمنحه شيئاً.

لماذا تكون كل الأعمال الدينية حصراً على البراهمة وهم فقط الذين يقومون بها وهي حرام على غيرهم؟ لماذا يكون السحر والشعوذة وتسخير الأرواح والنذور واحتياج الآلهة وإقامة الصلوات الجمعية أو الجماعية والأدعية جميعاً في يد البراهمة فقط؟ لأن البراهمة هم فقط وفقط يمتلكون تلك الروح المرموزة الخفية.

إن ما يدعونه «شورينكا» وهي روح مقدسة خاصة واستعداد خاص ما وراء إنساني محصورة فقط بالبرهم، وفي الروحانيين خلال الدورات المختلفة.

وحتى في المسيحية نجد أن الروحانيين يمتلكون

«أسْبري- esprit» روحاً لا يملكها الآخرون. و«أسبري» هي «شورينكا» في ديانة البراهمة الموجودة في البرهم والسحر، ولا توجد هذه الروح عند الآخرين.

البراهمة يمتلكون «شورينكا» (روحاً مقدسة) ويرتبطون بالعالم العلوي:

إذاً فهذا العدد الخاص المتخصّص من البراهمة يملكون «شورينكا»، أي استعداداً أو روحاً خاصة ترتبط بالعالم العلوي مع قوى ما وراء الطبيعة، وإن جميع الأعمال الدينية والقوانين تنحصر في هؤلاء فقط، وإن هذا الانحصار الطبقي هو وليد الاستعداد الروحي «شورينكا» حيث إن له وجوداً في ذات فطرة هؤلاء، لذا فإن هذا الأمر يصل إلى أبنائهم عن طريق الوراثة والميراث.

إذا نظرنا إلى التوراة، نجد أن أكثر من سبعين صفحة فيه، تتحدث عن المذبح والذبح وعمليات تقديم الأضاحي، وهي تعلّم موسى هذه الأمور وكيف يتم الذبح، وإذا أردنا أن نطبقها الآن بكامل جزئياتها، لتطلّب منا صرف مليار دولار أي ما يقابل مصاريف مركبة الفضاء (آبولو).

«الروحانية عندهم مسألة إرثية!»

إن مراسم تقديم القرابين التي جاءت في متن الكتاب جاءت بصورة معقدة ودقيقة وعجيبة، بحيث إن الإنسان لا يصدّق أن روحانيي الدين اليهودي (الحاخامات) يتمكّنون من القيام بها، والعقل لا يقبلها أيضاً، والأمر المهم في هذا هو أن جميع الروحانيين اليهود هم من أبناء هارون «أخو موسى»، وهذا يعني أن الروحانية في هذا الدين هي مسألة وراثية أيضاً.

وهكذا نلاحظ أن مبدأ الروحانية وانتخاب الروحانيين في الدين اليهودي والمسيحي ودين «ودا» لا يعتمد على المعرفة العلمية أو الفلسفية، بل إنما يعتمد على مبدأ «شورينكا» أي بمعنى امتلاك «أسبري» (الروح) فقط كما يقول المسيحيون، ووراثة هارون كما يقول اليهود، وامتلاك «شورينكا» كما يقول الودائيون، وهذه هي روح خاصة، فمثلاً نقول: السيد فلان لا يمتلك معلومات، ولكن نفسه حسنة وروحانية، ووجهه نوراني.

امتياز المرجعية في الإسلام، هو اعتمادها على العلم والتقوى:

إن من أكبر المفاخر في الإسلام هو أن الروحانية تبتني وتعتمد على العلم، بمعنى أن الناس الذين يعملون في

الأمور الإسلامية لا يتميزون عن الآخرين ويمتلكون «شورينكا» أو «أسبري» يعني روح أو روحانية أو من خلال صلتهم بالإرث، بل هم أناس كالآخرين. أما امتيازهم فهو من خلال سعيهم في تحصيل العلم، ورفعتهم ومكانتهم نابعة من مقامهم العلمي وليس الروحي. مثلهم مثل الطبيب والجراح والفيزيائي والكيميائي والأديب والمؤرخ، والاصطلاح الرسمي (الإسلامي) لأنهم يشتغلون ويعملون بالأمور الدينية فهو «عالم»، ورابطة وعلاقة الناس مع هؤلاء هي علاقة الطلاب والمعلّم، علاقة إنسان ليس لديه اطّلاع على العلم مع إنسان يمتلك تخصصاً بذلك العلم، مثل رابطة وعلاقة الجراح والفيزيائي وغيرهم الموجودة اليوم.

هذه العلاقة والرابطة هي علاقة ورابطة عقلية، مثل أبعاد الحياة الأخرى، فهي رابطة عادية وليس لها عنوان، وهذه لا يمكن أن تكون محصورة بأشخاص معينين لأنها ليست مسألة وراثية أو مشخّصة لأفراد معينين لأن أساسها هو العلم، وهذا ما نراه عند الشيعة، حيث إن نائب إمام الزمان عليه السلام وهو خليفة، لم يقلْ للناس أنا مُنصّب من السماء ومن عالم الغيب وأنتم مجبورون على الطاعة، ولكنْ يُنتخب من قبل الناس، وهذا الأمر في منتهى الأخلاق والقيم، الناس

تنتخب، ومَن هو الذي ينتخبه الناس؟ هو الشخص الذي يكون أعلم من الآخرين، وهذا أمر عقلي كبير، وليس من تلك الأشكال.

التوحيد والشرك:

في علم اجتماع الأديان وكما سأوضح، هو على خلاف (ديفيد هيوم) الذي يعتقد أن الشرك كان أولاً ومن ثم وبعد تكامل الروح والفكر فإن الناس وجدوا طريقهم إلى التوحيد، فأنا أعتقد العكس، إن التوحيد كان أولاً (على أساس بحوث علم اجتماع الدين وعلى أساس البحوث التأريخية والدينية وليس على أساس الاعتقاد التعبدي لأدياننا) ومن ثم نتيجة لتعدد الطبقات الاجتماعية وجد الشرك وهذا ما قلته في كتاب (الحسين وارث آدم) أن البنية التحتية للشرك هو المجتمع، وفي نفس الوقت وفي دورة الشرك، فإن ذهن الإنسان بقي محتفظاً بتوحيده. فهكذا كان الكثير من الناس يعبدون أشياء كثيرة ولكنهم يعبدون الله كذلك. وكما يقول المرحوم الشيخ جعفر الشوشتري: إن كل الأنبياء جاؤوا ليقولوا للناس، أيها الناس لا تعبدوا أي شيء واعبدوا الله فقط، وأنا أقول: أيها الناس، أنتم تعبدون أشياء كثيرة، فتعالوا واعبدوا الله أيضاً. وخلال

عمر التاريخ فإن الشرك قد وجد بأشكاله المختلفة، ولكن هناك التوحيد في قلب ذلك الشرك، (وكذلك في قلب الشرك الهندي) حيث إن من أكبر أديان الشرك هي الديانات الهندية. والتوحيد له معنى جميل وكبير، فروح الفرد الهندي تعتقد بوجود إله أكبر وأفضل، وهذا المتن من نشيد الخلقة يوضح كيف أن في قلب أحد أكبر أديان الشرك (الدين الهندي) هناك وجوداً متعالٍ للتوحيد.

نشيد الخليقة:

في نهاية هذا النشيد نقرأ حتى نعرف أن الأناشيد «الودائية» أو (اوبانيشادها) إذا أردنا قراءتها كيف نقرأها وكيف نحللها. وهذا يكون نموذجاً لتجزئة وتحليل جميع القصص والأساطير التي توضح مجموعة أشعار، وفلسفة لها جمال كبير وعميق ومعقد. بحيث إنه حينما يريد أن يقرأها إنسان بسيط فإما أن يستهزىء بها أو يصبح في حيرة منها أو يقف ضدها، ولكن إذا طالعها الذهن الذي يستطيع أن يفهم أبعادها المختلفة فإنه لا بد وأن ينجذب إليها.

من الشرك إلى التوحيد:

إن أغلب القصص الدينية وخاصة تلك التي تتحدث عن

الخليقة وحول الإنسان، تمتلك شكلاً منظماً ومُحكماً ولها نهايات مشوّقة جداً[١].

أحدهم يسأل ويقول: أستاذ: تحت هذا المعنى القائد والمربي وهذا البرهم ـ كم هو عدد الآلهة؟ يقول له: ثلاثة آلاف وثلاثمائة وثلاثة وثلاثون ـ هذه الطريق وهذا هو الأسلوب في طرح سؤال (أوبانيشادها).

يقول: أستاذ قل لنا حقيقةً ما هو تعداد الآلهة؟ يقول له: ثلاثمائة وثلاثة وثلاثون. إلى أن يقول: أستاذ، عَرِفْنَا، ولكن قل لنا العدد الحقيقي مرة أخرى للآلهة؟ فيقول له: ثلاثة وثلاثون. فيقول له: أستاذ، عرفنا، ولكن قل لنا العدد الحقيقي مرة أخرى، (إن طريقة هذا الكتاب الديني هو بهذه الصورة) فيقول له: ثلاثة. فيسأل ويقول: عرفنا يا أستاذ، ولكن قلنا لنا أيضاً كم عددهم الحقيقي؟ فيقول له: اثنان. فيسأله مرة أخرى ويقول: أستاذ عرفنا، ولكن نريد العدد الحقيقي للآلهة؟ فيقول له: واحد ونصف. فيقول له أستاذ:

---

(١) هنا أنا أعتمد كثيراً على فلسفة الخلق، وقد جمعت وقارنت الفلسفات المختلفة لها في أديان وثقافات مختلفة، وآمل أن أخرجها بشكل مستقل خاصة فلسفة الخلق في الإسلام والفكر الطبيعي، وقد توصّلت إلى مفاهيم جذّابة جداً وإن شاء الله سوف أقدمها وأطرحها يوماً ما.(المؤلف)

عرفنا، ولكن قل لنا أيضاً الرقم الحقيقي للآلهة؟ فيقول له: واحد.

(انظر بأي صورة وطريقة متعبة لنا، كيف يأخذ الأستاذ روح المستمع وذهنه من الكثرة إلى الوحدة!)

ومرة أخرى يسأل الأستاذ فيقول: عرِّفنا الذات الحقيقية والآلهة. فيقول له الأستاذ: اذهب، وانظر لتلك الشجرة. فيقول له: إنها شجرة تين .

فيقول له الأستاذ: اقطع واحدة وأْتِنَا بها، وافتح وَسَطها، وإذا فتحتها ماذا سترى بها؟ سترى حبّات صغيرة كثيرة العدد. يطلب الأستاذ منه أن يُخرج واحدة من تلك الحبّات. يُخرج المستمع حبة صغيرة حمراء. يسأله الأستاذ: انظر إليها ماذا ترى؟ فيقول: حبة تين حمراء. فيقول له: تلميذي، إن من باطن هذه الذرة الواحدة جاءت أشجار التين الكثيرة، هذه التي انتشرت على الأرض، ثم يقول له: افتح الحبة ماذا تجد فيها؟ فيقول الطلاب: لا يوجد شيء. فيقول له الأستاذ: هذا هو سر ذات الواحد.

ستقولون إن هذا البيان، وهذا المدح، كيف جاء من الآريائيين المتوحشين قبل ألفين وثمانمائة سنة؟.

ريك ودا (نشيد ودا)

العقلاء، يضعون أسماء مختلفة للإله الواحد وهذه هي «آغني» (إله النار)، و«ميترا»[١] (إله المحبة والعقل)، آغني إله العشق، وميترا إله العقل، فهنا وضعوا العقل إلى جانب المحبّة والعشق، ولهذا الأمر واقع ووجود حيث إن النار أول شيء وجد في الدنيا ومن ثم (ميترا) العقل.

العقلاء، يعطون أسماء مختلفة للإله الواحد وهي «آغني»، و«ميترا»، و«وارونا» (إله السماء) (هنا التوحيد يبدو واضحاً جداً) وهذه الآلهة هي التي تبعث الحياة وتعطي القوة، أما ظلّ الآلهة فهو البقاء (نوع من المعرفة الإلهية وعلم معرفة الآلهة، وهو عميق جداً في الروح الهندية)، وكذلك الفناء أو الموت.

---

(١) يعتقد «الميترائيون» أنّ الإلهة «ميترا» ظهرت لأول مرة في الغار على هيئة إنسان، وآمنت بها مجموعة من الرعاة كانوا على مقربة من ذلك المكان. ثم أمسكت ثوراً فذبحته ونثرت دمه على الأرض، فأي مكان سقطت عليه قطرة دم، حلّ فيه الخصب. إلّا أنّ الإلهة «ميترا» لم تبقَ طويلاً، بل صعدت عقب عدّة سنوات إلى السماء، وظلّت روحها على استعداد دائم لمعونة عبادها في الأرض. وحيث إنها ظهرت لأول مرة في الغار، فقد شيّدت ـ من أجل عبادتها ـ المعابد والهياكل في المغارات والكهوف، وما زالت آثار هذه المعابد المتروكة قائمة في مناطق من أوروبّا.. وسيأتي تفصيل هذه الديانة في الجزء الثاني من هذه الكتاب.

من هو إلهنا الذي نتقرّب إليه بتقديم القرابين؟ هو ذلك الوجود -وإن الجبال، والثلوج، والبحار، والأنهار، ليست هو، ولكنها في ذاته (وحدة الوجود)- ذلك الذي حكومته في السماء، ذلك الإله الواحد وهو ما وراء جميع الآلهة، الإله الذي نتقرّب إليه ونصل إليه بواسطة هذه القرابين.

هذا واحد من الأناشيد، والذي يوضح بصورة كاملة التوحيد ووحدة الوجود، وهذا لا يعني أنه إله واحد فقط، وإنما كل الوجود لا يمكن أن يكون بدونه. وحدة الوجود هذه، هي إحدى الأفكار الأساسية في الهند، وهذا هو أحد أجمل الأناشيد في الخليقة.

نشيد الخليقة أو الخلق:

لم يكن هناك وجود ولا عدم ـ صبح أزلي ـ لم تكن السماء مضيئة ولم تكن الأرض مظلمة، لم يكن هناك ليل ولم يكن هناك نهار ـ لم يكن هناك موت ولم تكن هناك حياة ـ ما هو الشيء الذي تختفي فيه جميع الأشياء؟ هل كان جسماً من الماء؟

لم يكن هناك موت ولم يكن هناك شيء أزلي ـ ذات واحدة ـ فقط هي التي تتنفس (بداية خلق الوجود)، كان هو ولم يكن شيء سواه، كانت ظلمة عميقة، لا يمكن العثور

على شيء فيها، محيط بدون ضياء، نطفة من الحياة مخفيّة في ستار الغيب، الذات الواحدة تتجلى من عمق التهابٍ مُحرق.

إنه تماماً يشبه شعر «حافظ» حيث يقول:

ملك العشق، فلم يرَ للنور عيناً وللإنسان نوراً

نرى هنا، أن الوحدة والعشق والجمال، ثلاث كلمات وهنّ اللاتي يخلقنَ الوجود. وبهذه الكلمات الثلاث يخلق الله العالم: الوحدة، الجمال، والعشق.

يقول متصوّفونا: إن الخالق، يعشق جماله وحُسنه، فهو عاشق نفسه. لأن جماله في منتهى الجمال وجبراً يصير هذا العشق (إن جميع هذا الجمال في أدبياتنا يصير مع كلمتَيْ الحُسن والعشق، وهذا يحكي عن فلسفة الخلق العظيم في تصوّفنا).

إن الله نفسه جميل، وعاشق نفسه، ونتيجة هذا العشق انطلقت شرارة الوجود.

إن الصوفي يقول: إن المقصود من كلمة (الأمانة)، هو العشق.

إن الله جمال مطلق، وحُسن مطلق، فهو يحب

العشق، والملائكة ليس عندها عشق ولا تعشق، والجبال أيضاً، والأرض والسماء لا يفهمان معنى العشق والجمال، الإنسان فَهِم العشق، وحوّل الآية التي تقول:

﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ يقولون:

إن هذه الأمانة هي العشق، لأن الجمال المطلق يريد العشق أو يحب العشق، فالإنسان يقبل هذه الأمانة وهي العشق. لم تحمل السماء الأمانة (وجئت أنا بالقُرعة المُقامة). لهذا فإن ارتباط الإنسان بالخالق هو ارتباط العاشق والجميل، ارتباط العشق والجمال، هذا في التصوّف. الله لا يمكن معرفته عن طريق العلم والبحث، لأن العاشق لم يستطعْ الوصول إلى المعشوق، ولم يستطعْ العشق أن يصل إلى الجمال عن طريق التعقل والعلم والتفكير المصلحي. ولكن الوصل والوصول يتحقق عن طريق المحبة والعشق، لماذا؟ لأن العاشق يفقد بحساباته وتعقّله معشوقه، ويصبح بعيداً عنه، يصبح بينَ بين، وبالمقدار الذي يترك فيه تعقله، ويترك القلب يتعلق بالقلب، فإنه سوف يصل إلى معشوقه ويرتبط به.

نرى أن أساس الإشراق يرتبط ويعتمد على القلب،

فهو يعتمد على الشعور والإحساس في معرفة الخالق، وعلى أساس هذه الفلسفة، فإن الذات الإلهية هي وحدها فقط التي تتنفس، وإن نطفة الحياة كانت مستورة ومخفية وراء ستار الغيب، وإن ذات الواحد تجلّت من قلب الشعلة الحارقة، ومن ذلك ولد العشق، والعقل أخذ منه وتأثر به، ومن ثم الشعراء. وبواسطة تأمل القلب والخلوة الباطنية، صار الارتباط بين تلك المخلوقات، بمعنى أن الإنسان والعالم وكل شيء، عرفوا الله.

يأتي الشاعر، ليعبّر عمّا يحس به في قلبه، أما الذي يريد أن يصل بواسطة التعقل العلمي فإنه لا يستطيع.

إن «ألكسيس كارليل» له نفس هذه المقالة وهي مقالة جميلة جداً وعميقة، يقول: إن الشخص الذي يمتلك الحب ويعرف معناه، فإنه يعرف الله بسهولة وبذلك المقدار. ويقول: مَثَله مثل الذي يشم رائحة الورد حيث الأمر يصعب على الشخص الذي لا يعرف إلّا «المعرفة»، وهذا يعني أننا كلما حاولنا أن نستدل بواسطة الاستدلال العقلي والمنطقي فإننا سوف نُبعد الخالق عن ذهننا، وكلما ابتعدنا عن هذه الأمور وجعلنا قلمنا ينطق تحت نور ذات الحق، فإن قلبنا سوف يتعلّق به.

بعدها تكون البذرة قد انفلقت وظهرت القدرات المتمكّنة القوية، فتكون الطبيعة خاضعة، وإرادته القوية في الأعلى. من هو الذي يعرف هذا الطريق؟ وفي هذا المكان من هو الذي سيظهر من خلف الستار ويقول: إن هذا الخلق العجيب المختلف الألوان من أين يأخذ مبدأه؟ إن مصدر هذا الخلق الكبير هو عظيم وأعلى الناظرين ـ وهو الله ـ حيث هو في السماوات العُلى.

وهو يعرف هذا السر (إن الإنسان مهما كان، لم يعرف هذا السر) لم يكن هناك وجود غير الذات الإلهية، الذات الإلهية التي لا تعشق العزلة وتعشق الوجود، تتجلّى منها الثنائية، الثنائية التي تعرف الذات الإلهية وتحافظ عليها، فهو يعرّفها جماله فتعشقه وتميل إليه، يظهر ميله للثنائية وتظهر فيه، فيظهر على شكل بقرة، ومن نفسه وذاته خلق البقرة المادية التي تعشقه وتميل إليه.

البقرة تختفي من شدة الحياء، تقول كيف ارتبط معه إنه أخي؟ ترتبط معه، وتظهر الأبقار الكثيرة على وجه الأرض. يصير مرة أخرى حصاناً، ومنه تأتي الماديات، يرتبط مع الحصان. تختفي من الحياء الأمور المادية، وتقول كيف نرتبط معه وهو أخ لنا؟

ومن تلك الحيوانات يأتي الحصان. يصير طائراً وتظهر المادة من ذلك الطائر.

وعلى هذا الترتيب، تُذكر أسماء الحيوانات واحداً تلو الآخر، حيث في الابتداء، كانت الذات الإلهية وحدها. ترتبط به الأنثى التي ظهرت أو خُلقت منه، فتخلق الطبيعة والمظاهر الحيّة. وتخلق جميع الزواحف على الأرض حتى تصبح الذات الإلهية «ياما» ومنه تُخلق «يامي» (آدم وحواء) ثم يأتي خلق الإنسان.

والآن وبعد أن قرأنا النشيد ماذا نستخلص منه؟

أولاً: التوحيد، حيث إن الذات الإلهية، كانت لوحدها ذات النفس الموجودة ولا يوجد معها شيء، وهذا هو النص التوحيدي في أقدم كتب «ودا».

ثانياً: الوحدة، هذا المفهوم له وجود في أغلب القصص والأساطير الإلهية.

ثالثاً: إن العشق هو عنوان وبداية الخلق وهو هدف الخلق، وهو الذي يوجد القدرة والنار التي توجد الحركة وحتى الخلق. حب الثنائية تظهر في الذات الإلهية، يصير طائراً ويرتبط مع الطائر، وهذا هو العشق.

رابعاً: إن وحدة الوجود، تمثّل جميع الذات الإلهية،

فهو كل شيء، فهو يصير جبلاً وبحراً وحيوانات وطيور، وإن جميع الظواهر الطبيعية مرتبطة به، وهي تجليات له. هناك وحدة وجود ولكنها تظهر بمظاهر وأشكال وأطوار وأبعاد مختلفة، كل هذه كثيرة ومتغيّرة ولكنه ذات واحدة.

خامساً: الوحدة في الكثرة. بمعنى أن هذه الحيوانات المختلفة والطيور الطبيعية المختلفة، حيث إنها كثيرة، ولكن تحت هذه الكثرة، هناك وحدة.

وعلى قول الشاعر «ميرفندرسكي»(١):

هذه العجلة الدوارة الجيدة والجميلة، لصورتها

---

(١) ميرفندرسكي (١٥٦٣-١٦٤٠م): أبو القاسم فندرسكي، المعروف بالمير فندرسكي، حكيم متألّه وشاعر، واحد من أساتذة صدر المتألهين الشيرازي «الملا صدرا». قصيدته اليائية محل الشاهد هنا من القصائد المشهورة بُحث فيها وعنها كثيراً وخمّسوها.. يعتقد الإشراقيون من بين المسلمين بالمُثل الأفلاطونية، ويشير ميرفندرسكي في قصيدته إلى هذا الموضوع بقوله: «إن الفلك بما يحتوي من نجوم، رائع وجميل ** وصورته التي في الأسفل هي نفسها التي في الأعلى.. وصورته السفلى إذا ارتقى عليها بسنام المعرفة ** إلى الأعلى فسوف تكون كالأصل وسوف تكون الصورة العقلية اللانهائية والخالدة ** واحدة سواء وجد الأفراد جميعاً أم لم يوجدوا.. وقد أودع العارفون الماضون هذا الحديث في الرمز ** ولن يدرك هذا الرمز إلا من كان عارفاً.. ولا يدرك عمق هذا الحديث أي فهم ظاهري ** وحتى لو كان الفارابي أو ابن سينا» .ومن المعروف أن الشيخ الرئيس ابن سينا يخالف بشدة الاعتقاد بالمثل الأفلاطونية وقد وجّه إليها انتقادات شديدة وشهّر بها كثيراً.

الموجودة في الأسفل أصل في الأعلى، والناقوس الأصفهاني الذي يطرق في «الكنيست» (معبد اليهود) و«الكنيسة»، و«الميخانة»[١] و«المسجد» ترى فيه روحَ وجوده ونوره.

واحـــد مـــوجـــود ولا أحـــد غـــيـــره
وحـــــده لا إلـــــه إلّا هـــــو

أيضاً يقولون هذه الوحدة في الكثرة.

سادساً: التجانس في التضاد، الظواهر في تضاد، (الثور والبقرة) والبقرة والمادة، هما نفسهما التعبيران «يانغ» و«يين» في الثقافة الصينية.

إن النقيض وعكسه (كما قلنا في الديالكتيك) متضادان، فهما مثبت ومنفي، ولكن هنا يختلف عن مفهوم الديالكتيك، المثبت والمنفي هنا والمتضادان، متجانسان.

---

(١) الميخانة: أو الميغانة، معناها هنا هو «مكان العبادة» أو «مكان التسبيح» والميغانة كانت تُدار من جانب الزرادشتيين وتُستعمل في الأدبيات الفارسية بهذا المعنى، غالباً.. والميخانة في الكلام العامّي تأتي بمعنى «بيت الخلاء».. وتأتي بمعنى «محل المشروبات الرَوْحية».. وللفائدة أقول بأن البعض يلفظها «رُوحية» نسبةً للروح وهو خطأ فاحش، فلا علاقة لهذه المشروبات بالروح، بل هي رَوْحية، أي تُشرب للترويح عن النفس والنسيان والانتشاء بالوهم.. وأضيف تعليقاً على ترجمة المترجم للأبيات المذكورة فأقول: «لا يفسدُ الشّعْر شيءٌ، سوى، ترجمته».. لذلك قمت بإدراج ترجمة أخرى لنفس الأبيات في الحاشية السابقة.

فهما من جنس واحد. نرى أن الذات الإلهية تصبح حصاناً وهي توجد الماديات، ومن هذين الضدين توجد الظواهر الأخرى. نظرية هذين الزوجين هما المثبت والمنفي، حيث إن جميع الظواهر والوجود والطبيعة، تتخلق منها.

آدم وحوّاء:

نرى هنا أيضاً وجوداً للديالكتيكية. ذات الواحد يظهر «ياما» و«يامي» آدم وحوائه، والشبه العجيب بين «ياما» الذي هو الرجل و«يامي» الذي هو الأنثى، حيث وجود آدم وحوّائنا هنا.

الإله، يقول لـ «ياما» يجب أن لا تعشق وتتحدث مع «يامي»، أما «يامي» فتدعو «ياما» إلى الارتباط، ولكنه يقاومها.

هنا كان الأمر الممنوع هو الشجرة أو الثمرة، أما في قصة «برومته»، فكانت النار، وكانت هنا أيضاً العشق، و«ياما» مُنع من العشق والارتباط .

«يامي» تقول، إن مقصودي من الارتباط ليس العشق لأن العشق ممنوع، وإنما قصدي هو الذرية، وإذا لم أكن راضيةً بالارتباط فسوف أفنى، ولن تكون لي ذرية ونسل ولن يكون هناك أخيار.

وهذا يشبه خطاب الشيطان حيث يقول لآدم وحواء، إذا كان الله قد منعكما من أكل الثمرة، فهو لا يريدكما أن تبقيا في الجنة. إذاً فالثمرة هي ثمرة الحياة، وإذا أكلتما منها فسوف تصبحان شبيهيْ الخالق، والله سوف يُغدي عليكما جسداً وهذا يمنعكما من الخلود.

إن «يامي» يمثل مظهر العصيان ويُدعى إلى العشق، ولكن العشق والعصيان أحدهما مقابل الآخر، وهما وجهان لعملة واحدة، ويمنحان الحياة.

نرى في هذين المنبعين أن الواحد منهما بعيد عن الآخر، ولكنهما متشابهان كثيراً. فأولئك هم من الآريائيين، عاشوا قبل ثلاثة آلاف سنة وجاؤوا من شمال أوروبا -أو شمال بحر الخزر- وهؤلاء فلسطينيون أو إسرائيليون، عبريون وآراميون وساميون وعرب، حيث إن منبع كل واحد من الفريقين بعيد عن الآخر جداً، وكلما رجعنا تاريخياً إلى الوراء نجد أن الابتعاد يصبح أكبر.

فالشبه بين هاتين الفلسفتين للخلق، وجميع الفلسفات المرتبطة بخلق العالم، كبير جداً، والبحث فيها يحتاج لفرصة أخرى.

فلسفة الخلق والشعر الفارسي:

في النهاية، يمكننا أن نستعرض بعضاً من أشعار «حافظ»، حيث نعرف أن مسألة هذا الاعتقاد -بالعشق والوحدة والجمال ووحدة الوجود والفلسفة الأولى للخليقة- اهتم الشعر الفارسي بها وجعلها في أولويات شعره.

«حينما يكون للأُنس والمحبة وجود، فلا وجود.. وزمان وجود الحب، ليس هذا الزمان هنا»، وفي هذا الشعر غزل عادي وليس له معنى، ويريد أن يقول إن فلسفة الخلق هي ذات المعنى فقط، حيث لم يكن الوجود. أما وجود العشق فكان موجوداً في ذات الواحد. أما ملك الشعراء «بهار» فيقول:

قلت ما هذا الشيء المدوّر الذي يسمونه الأرض
حجر قديم ومتآكل مرتفع
وهذا النجم الليلي الذي يضيء القعر
من جذور الطبيعة وأصل الطبيعة ارتفع

وهذا جواب، ما هو سر الخلق وما هي فلسفة الخلق. ونفس المعنى أن القلب صار عاشقَ نفسه. وهذا هو سر الخلق!

قل لي ما هي أسرار الأزل، قال مضى
الأزل، صار عاشقاً تجلياته

وهذه الأشعار، شبيهة بالأحاديث الموجودة في كتب

الصوفية: (كنتُ كنزاً مخفياً، فأحببت أن أُعرف، فخلقت الخلق لكي أعرف) فعُرفاننا، لم ينظر للمعرفة، وإنما إلى الحب والعشق وهما بعنوان الوصل والاتصال، وأساس في الارتباط بين الخالق والعبد.

ولهذا طلب من الملائكة أن يسجدوا لآدم لأن الملائكة لا يعرفون العشق، هكذا خلقهم الله وأعطاهم دستوراً وهم ليس لديهم تشخيص وإرادة (الملائكة لا تعرف معنى العشق أيها الساقي...).

لهذه المسألة المهمة والعميقة، معانٍ عالية -لا أقل عالية في لغتنا الفارسية- ولها أشعار حينما نفهمها فإنها لا تساعدنا فقط في فهم عرفاننا وأدبياتنا في اللغة الفارسية، ولكنها تعيننا أيضاً وبصورة دقيقة وعلمية في فهم العرفان الودائي والدين الودائي والتصوّف الهندي أيضاً.

الكلمة عند السَّحَر ـ وقت السحر، ولكن السحر ليس هو البارحة، الليل هو الذي أوجده، الليل أزلي، لقد منحني النجاة من الهم.

وظلمة الليل تلك ـ هي بداية الخلق ـ منحوني ماء حياتي[1].

---

(١) يريد بالظلام، أن العالم كان مظلماً قبل إيجاد الخلق ومن وسط ذلك الظلام وجد النور، كما في بعض القصص والروايات (المترجم).

إن ذات الواحد تجلّت، ومن تجليها وُجد الجمال وصار الإنسان عاشقاً لذلك الجمال، وإن اضطراب وعشق الإنسان، نتيجة لهذا العشق، وخلق الإنسان في مقابل ذلك الحسن والجمال المطلق.

إن الجمال، هو صفة في ذات المخلوق وهي من ذات صفاته، تجلّت وأصبحنا سُكارى بشرابه.

أيضاً ظلام الخليقة معروف جداً في الغزل التوصيفي. ويستعمل في الشعر كلمة فارسية (بيمانه)، ويقول إنها تعني مظهر العشق والمحبة وهذه (أمانة)، والحب والعشق راسخان في عقل الإنسان وفطرته، بمعنى أن الإنسان إذا أراد أن يرجع إلى نفسه وفطرته فإنه سوف يجد الخالق.

رأيت الملائكة ليلاً في (الميخانه) ـ وفكرُ الإنسان مفقود في (البيمانه).

لهذا فإن في مسألة ارتباط الإنسان بالخالق بالشكل الفلسفي الذي تؤمن به «الودائية»، لم يكن فقط معرفةً للعالم، ومعرفة التوحيد والإنسان، فهو معرفة ارتباط الإنسان بالعالم وبوحدة الوجود، وهو معرفة ارتباط الإنسان بالخالق، وهذه الرابطة رابطة عشق. ويمكن القول أن النظرة الفلسفية للكون هي التي أوجدت «ودا»، وهذه النظرة

الكونية أوضحتْ وبيّنت أن روح الإنسان تمتلك قدرةً جميلة وعميقة جداً.

سألوا «مالك بن دينار»[(١)] -وهو من متصوّفينا- أين كنت؟ قال: في الصحراء، حيث أرضية العشق الواسعة، ومثلما يصير الإنسان في جُنينة، أصبحت أنا في جنان العشق.

مع هذا الفكر -العرفان- تصبح النظرة الكونية نظرة أخرى، ويصبح تلقّي الحياة تلقّياً يمتلك معنىً آخر، فالإنسان في هذه الحال يسعى أن يربّي نفسه تربية ماورائية ويرتبط ارتباطاً ماورائياً. ويترك الحياة القائمة على العقل والعدالة والاقتصاد.

---

(١) مالك بن دينار: أبو يحيى، من كبار التابعين ومن أعيان كَتَبَة المصاحف، وُلد في أيام ابن عباس، وتُوفي سنة ثلاثين ومائة هجرية.. وقيل: دخل اللصوص إلى بيت مالك بن دينار فلم يجدوا في البيت شيئًا فأرادوا الخروج من داره فقال مالك: ما عليكم لو صلّيتم ركعتين!.

الدرس السابع

تُعتبر الهند بالنسبة لي محيطاً عظيماً من ناحية، الروح، والثقافة، والمعنويات، والحقائق والأساطير والخرافات، ومن ناحية كل شيء. فلا يوجد في العالم والتاريخ ثقافة معنوية وعرفانية أغنى من الثقافة الهندية. ولهذا السبب فأنا أميل وأعتمد كثيراً على هذه الثقافة.

... لذلك في (هندنا)، لدي إصرار كذلك على أن نتعرف على الهند وأديان الهند، معرفة دقيقة، وهذا الإصرار بسبب الأدلة التالية.

الدليل الأول في وجوب معرفة أديان الهند:

فمن الناحية العلمية فإننا نرى، أن في هذه الثقافة المحيّرة والجذّابة، هناك عظمة، انجذاب، عمق ورقّة إحساس وتفكّر وخيال. فحينما نريد التحدث عن «أثينا»

و«بنارس»[١]، واليونان في القرن الخامس والرابع والثالث والثاني قبل الميلاد -زمان سقراط وأفلاطون وأرسطو وأمثال هؤلاء- نتحدث عن الهند قياساً لتلك الأماكن وعن «جمهورية» أفلاطون قياساً لـ «ودا» و(الأوبانيشاد)، نرى بأننا نحلِّق عالياً، ونحسّ أننا نجتاز دورة من الدراسة الثانوية، وندخل مرحلة عالية في التحقيق والبحث في ما وراء الدرس. وهكذا ابتداءً من فيلسوفٍ شاب وعالم، نصل إلى روح عظيمة مملوءة بالعجائب، حيث ملأت كل حياته .

والآن أيضاً يتولّد عندي هكذا شعور، حينما تحدّثت عن «سارتر» و«كامو» وسمعت أقوالهم. والآن أسمع كلام «طاغور»[٢] و«رادها كريشنان»، أقف عند هذين الشخصين وأحسّ تماماً وقبل كل شيء أنني تلميذ أقوم بخدمة أستاذي الكبير، حيث هو الشرق الآن -هذا الشرق المتخلّف المنحطّ- يمتلك نوابغ عرفانية وروحانية خلّاقة.

---

(١) مدينة مقدّسة في الهند، وهي أبرز المدن السبع المهمة في الهند.

(٢) رابندرانات طاغور: شاعر وفيلسوف هندي. ولد عام ١٨٥٧ في القسم البغالي من مدينة (كالكتا) وتلقى تعليمه في منزل الأسرة على يد أبيه.
كان عالماً وكاتباً مسرحياً وشاعراً وكذلك درس رياضة الجودو.
نال جائزة نوبل في الآداب عام ١٩١٣. اختلف مع الزعيم الهندي غاندي الذي اعتمد على بساطة العيش والزهد كسلاح لمقاومة الاستعمار الانجليزي وهو ما رآه طاغور تسطحياً لقضية المقاومة.

الدليل الثاني لأجل معرفة أديان الهند:

إن عالم الآلة المادي والثقافة البرجوازية المصرفية في الدنيا خلقت الحيوان الاقتصادي وجعلت البشرية تدور في فلك القدرة العلمية والصناعية وفي عظمتها، لكنها فارغة من الداخل ومتحيّرة وجامدة وليس لها عمق يُذكر، وجعلت الناس أقوياء وأذكياء لكنهم يعيشون على سطح الحياة وضعيفي الروحية والأخلاق، فالإنسان اليوم بدأ يتمرّد، تمرّد على الثقافة التجارية والصناعية والحياة المصرفية، هذا في أمريكا وفرنسا وبريطانيا اليوم، فروح التمرّد الفردي هناك دفعت بالإنسان أن يتوجّه إلى الشرق لطلب المعنويات، والشرق يعني الهند.

فاليوم هناك تطلّعات عند الشباب المثقفين الذين يدعون الغربيين للتمرّد على الحياة الصناعية والأنظمة الجافة والحياة المقتدرة المصرفية المادية. وهناك توجهات عند هؤلاء الشباب نحو فضاء الحرية الروحية والعشق والمعنويات الروحية، ويعتقدون أن هذا الأمر موجود في الهند. يريدون أن يتحرروا من تلك المباني الصناعية الضخمة بالمعابد الرمزية الساكتة والتي تذاع فيها آلاف الأسرار على مسامع الناس بصورة مخفية.

إن هذه الوسوسة الشديدة، التي صارت تحكم الغرب اليوم، وهي انتشار الأفكار الشرقية، صارت مثل ذلك الهاجس الموجود عند الشرقيين من سيطرة الغرب عليهم.

ومثلما نحن نتأثر بالغرب ونحن لا نعرف الغرب، فقد مُسخ شبابنا، فنحن نقتبس من الغرب ولكن بدون أن نستفيد من العوامل المجدية والمترقية. كذلك فإن الشباب الغربيين هم بحاجة ماسة إلى الأمور الروحية والعبادية والمعنوية والإحساس البشري والديني والعرفاني، حيث إن هؤلاء الشباب بدأوا لا يُطيقون تلك الحياة البرجوازية المترفة لآبائهم وتلك الأموال التي حصلوا عليها بطريقة استعمار البلدان، والحروب المدمرة والغارات المميتة. فهو يترك ذلك العالم ويأتي إلى هذا العالم، عالم الشرق، حتى يلتهم من المعنويات الروحية والمدارس العرفانية والديانة الهندية، ما يحتاج إليه.

فهم لا يعرفون الشرق مثلما نحن لا نعرف عن الغرب، ونحن نحتاج لتلك المعرفة. لذلك فهو في الوقت الذي يجب أن يستفيد فيه من الشرق كعاملٍ مهم في الترقي، يصبح أسير أعمال لا تجدي نفعاً. لذا فإن معرفة الهند لم تكن لتساعدنا فقط للتعرّف على دين وتاريخ شعب

كبير، وليس فقط في معرفة الإسلام الذي يُعتبر العرفان أحد عناصره البناءّة ويمتلك إشراقاً وعرفانية خاصة وهذا مفيد في عملنا، وليس فقط في معرفة أدبياتنا وثقافتنا وتاريخنا والذي أخذ إلهامه من الهند وصار متأثراً بالمدارس العرفانية الهندية، لهذا فتلك المعرفة وذلك البحث عن الهند يساعدنا اليوم في معرفتنا، وهذا التوجّه والإحساس والانجذاب للروحانية والعرفان الشرقي، موجود في الغرب.

إذاً فمعرفة الهند، تعني في نفس الوقت معرفة هذا القرن ومعرفة آخر المبتكرات الحديثة التي ظهرت على شكل الصناعة الغربية الجافة، وفي روحها.

التعطيل الصيفي:

والآن، وحينما وصلنا في موضوع «تاريخ الأديان» إلى الهند واستفدنا وعرفنا أهمية هذا الدرس، أرى من الأفضل أن أنهي هذه المقدمة عن أديان الهند، وبهذه المقدمة نعطل الدرس حتى بداية العام الدراسي الجديد.

أهم الأدلّة من أجل معرفة الهند:

هناك انجذاب كبير في الغرب نحو الروح الشرقية، وهناك تمرّد شديد على المادية. أما في الشرق فهناك تمرّد

وعدم قبول للأمور المعنوية والعرفانية من قبل المثقفين، وهناك انجذاب شديد واندفاع أشد إلى الأمور المادية، والحياة المادية والمصرفية.

فبينما كان الغرب خلال القرن السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر مندفعاً وبشدّة نحو المادية والحياة المصرفية والقدرة المادية، فاليوم وبعد أن انتصر وأشبع رغباته كاملاً، بدأ ينسحب من تلك الدعوات ويتمرّد عليها. أما نحن وبسبب تخلّفنا ولمدة ثلاثة قرون عن الغرب في هذه الأمور، فاليوم صرنا واقعين تحت تأثير تلك القرون الثلاثة، وأصبحنا نبتعد عن الأمور المعنوية وعن الدين ونقترب شيئاً فشيئاً نحو الفكر المادي والأمور العينية، وأصبحنا نقترب من الفلسفة المادية والبرجوازية المصرفية.

إن هذا الفكر المادي الشديد يعتبر أكبر عاملٍ في أن تكون الروح الدينية أي العرفان، روحاً ضعيفة وجامدة.

في مثل هذا الوضع، فإن معرفة الهند لم يكن تحقيقاً علمياً فقط، بل إنها ستكون في مقابل الحركة الفكرية المادية هذه، والتي لاقت رواجاً في أفكار المثقفين الشرقيين، وستكون أيضاً عاملاً مقاوماً لتلك الدعوة المادية.

وأنا حينما كنت أدرس في أوروبا، كنت أحسّ أن روحي بدأت تسير نحو الجفاف.

تلك الروح التي كانت مملوءة بالروحية الشرقية الخاصة وذلك القلب الذي ينبض، لم أجد لهما آثاراً اليوم. بدأت أحس بالنقص، وهذا النقص ناشىء من عدم قراءة الأمور العرفانية. وعندما نكون هنا، لا يتولّد عندنا هذا الشعور. وأحياناً أسعى أن أكون صوفياً، وصوفياً إفراطياً.

هناك، العامل المادي قوي جداً، لذا يحتاج إلى عمل يقابله لكي يطفىء تلك الأفكار المادية، هذا كان أيام فراغي من الدراسة، لذا كنت أسعى لقراءة، أشعار مثنوي، شرح التعرّف، كشف المحجوب، الأوبانيشاد، الكتب الودائية، وأمثالها من الكتب، حتى أستطيع مقاومة تلك الأفكار.

وغير ثقافتنا الإسلامية، فالهند والمدارس الهندية، كانت إحدى العوامل التي منحتني القدرة، أمام الهجمة المادية المصرفية -أو الفلسفية- الغربية، وهذه المعنويات هي التي جعلتني أقف على حدّ فاصل بين الشرق والغرب.

لذا إن مثل هذا البحث وبتلك الأهمية الحساسة والخاصة له تعقيدات في الفهم فلا يمكن طرحه كلياً. إنني لم أكن

متخصصاً في جميع تلك الأمور التي طرحتها، في المسائل الإسلامية أو المسائل الاجتماعية، أو الأديان أو الإنسان أو الثقافة والحضارة والتاريخ، وجميع المسائل التي تدور في فكري. ولكن أنا، أملك معلومات وفكرة خاصة حول تلك المواضيع والمسائل التي بحثتها، فمثلاً حينما تحدّثنا عن العلوم الإسلامية، فلا يعني هذا أنني أمتلك معلومات كاملة عن المدارس والمذاهب الإسلامية، ولا يمكن أن يكون هذا الأمر، لأنه يجب أن يجمع الإنسان جميع تلك العلوم، المعقول منها والمنقول، وأنا لا أملك هذين الأمرين، لذلك فإن معلوماتي هي فكر خاص وضمن حدود معيّنة، أنا أعرف الإسلام ويعرفني.

مسخ الأفكار والكلام:

اليوم ومن أجل مسخ الكلام والأفكار، هناك وجود لعوامل طبيعية وأخرى غير طبيعية.

عوامل المسخ الطبيعية للكلام والأفكار:

إن العوامل الطبيعية بسيطة جداً وقابلة للتحمّل، وهي تُكرَّر دائماً في العالم، فالإنسان ينتظر، وهو بدون شك يقاوم كل كلام جديد وتقدّم جديد وفكر جديد بواسطة السنن والأفكار التي يمتلكها. والأفكار القديمة، لم يقل أنها سُنة

وهي كانت منذ القدم هكذا، فنحن نحاول الدفاع عنها ونخالف الأمور الحديثة. ألم يقلْ مشركو قريش، إن هذه أساطير الأولين ولها علاقة بأصنامنا، حيث إن آباءنا وأجدادنا كانوا عبدة أصنام، والذين لم يكونوا يمتلكون إنصافاً علمياً، يقولون، هذه الأمور كما هي عليه، هي وحي، فيجب أن تلبس هذا اللباس، وتقول هذه الأمور، وتعمل هكذا، وهكذا تُفسَّر. بمعنى أنهم يقبلون الوحي إذا كان يتحدث عن عاداتهم وتقاليدهم السابقة، وهذه يجب أن تكون من ضمن الوحي الإلهي، وإذا جاء أحد بطريقة أخرى تخالفهم فهو كافر ونجس، ويصبح مهجوراً ويجب أن تُضرب عنقه.

لقد اطّلعت في مكان ما على موضوع مكتوب: (إن بعضهم قد وصل به الأمر أنه وضع بدلاً من منبر رسول الله صلى الله عليه وآله، منصةً للخطابة! والأدهى أنهم يضعون الماء عليها).

وإذا كان مشركو قريش، مكانهم، لقالوا: «إن أجدادنا لم يضعوا الماء على منصة الخطابة، ونحن لم نرَ هذا الأمر ولم نعتدْ عليه، لذلك لا نرتضيه»، أما اليوم، مثلاً، فيقولون، إن وضع الماء على المنصة لم يكن من الأصول والعادات الإسلامية.

وعلى أية حال، هذا أمر طبيعي، فكل مَن كانت عنده فكرة جديدة، وكلام جديد، وتقدُّم حديث، ويمتلك برنامجاً جديداً، فعليه أن يتحمّل جميع ما يُقال ضدّه.

هناك مثقفون كثيرون يريدون التحدّث بما يحملونه من ثقافة جديدة، ولكنهم لا يمتلكون الجرأة ولا المقاومة ولا التحمّل، لذلك لم يستطيعوا أن يقدموا شيئاً.

أما أولئك الذين يستطيعون أن يقدّموا خدمات، فهم يتحملون الضرب بمقدار ما يملكون من فكر واعتقاد إيماني، فقد يسمعون التُّهم والكلام البذيء، وهذا نموذج لجهاد النفس.

العوامل غير الطبيعية (المصنوعة) مسخت الأفكار والكلام:

كلما كانت العوامل الطبيعية بسيطة وسهلة، فإنها تكون عوامل صعبة. وذلك لأن العادات والسنن القديمة يمكن إزالتها بواسطة التعويد والاستحداث، أو أن مقاومة هذا الاستحداث يمكن أن لا تملك الدليل فإنها تخرج من باب المقاومة. فمثلاً حينما استعمل التيار الكهربائي في مشهد ولأول مرة وأناروا حرم الإمام الرضا عليه السلام بالكهرباء، فإن هناك بعض المؤمنين قاموا بتحطيم المصابيح، حيث إن مادة الكحول التي تحترق تسبّب نجاسة الحرم. ثم علموا أن الكهرباء

لم تكن كذلك وإذا قطعوها فإنهم سيعيشون في الظلام، لذلك قبلوا الأمر الواقع.

هؤلاء، دعاة الأفكار القديمة، فحينما يأتي شيء جديد فإنهم يقاومونه ويفتعلون ضجة ضده، ولكنهم حينما يرون أنهم بحاجة إليه فإنهم يصدرون موافقتهم، ويقولون إنه أمر ضروري وليس فيه مضرّة أو مفسدة، وهكذا يوافقون ويقولون إن هذا الأمر، توقّعه وأشار إليه كتابنا السماوي!

أما هؤلاء، فلا يمكن أن يصْحوا، ببساطة وسهولة. هناك مثل إنكليزي يقول: «يمكن أن توقظ النائم، أما الذي يطلب النوم فلا يمكنك إيقاظه». فهؤلاء يبحثون ويسعون إلى النوم، وهؤلاء بكل وقاحة يقفون بوجه كل أمر متكامل .

يريدون أن يمسخوا الأفكار، فمثلاً يقولون: «المطلب الفلاني قد كتبه فلان الكاتب في كتابه»، ولا يقولون هذا المطلب قيل في إحدى الخطب. وعلى الأقل يكون ادعاؤهم مثل ادّعاء ملّا نصر الدين[١]، الذي يعتقد أن حافة عصاه هي مركز الأرض، وكل مَن لم يقبل الفكرة، يقول

(١) ملّا نصر الدين خان (جحا).

له: إذاً اعمل قياساً أو امْتُر الأرض، وببساطة فلا يمكن رده[١]. يقول اقرأ الكتاب الفلاني ولكن هذا الكتاب غير موجود لأنه مثلاً كُتب قبل ثلاثمائة سنة ولا يمكن الحصول عليه في المكتبات، لأنه ليس كتاباً جديداً يمكن العثور عليه في المكتبات[٢]. وأحياناً يكون الكاتب حياً والكتب موجودة ومتوفرة وأما المسألة التي يطرحها فقد تكون تماماً تقابل عقائد الكاتب أو تكون جزءً من تعّصباته[٣]، لذا فإن كذبهم سيظهر للملأ.

وفي ذات يوم يصبح الإنسان متوجهاً إلى أن جميع الأمور أصبحت معقدة، وأن الشخص الفلاني أصبحت عقيدته بهذا الشكل. وإلى أي مكان يذهب الإنسان بعد ذلك فإنه يسمع نفس الفكرة، والموضوع يُطرح وبنفس الوتيرة. مثلاً، يسمع الجميع يرددون أن يوم الاثنين سيكون الشهر الفلاني، فالجميع يبحثون ويرددون موضوعاً خاصاً قد قرأوه في كتاب ما، أو سمعوه من شخص ما، بحيث

---

(١) لا يمكن ردّه لأنه لا يستطيع أحد أن يقيس الأرض بالأمتار، فهذا جواب تعجيزي.

(٢) أيضاً هذا أمر تعجيزي، لعدم توفّر مصدر المعلومات أو الأفكار أو النصوص.

(٣) وهذا أيضاً يندرج تحت الكذب في النقل وعدم الدقة العلمية والأخلاقية. كل ذلك إنما يكون تعصباً من الناقل لإثبات رأيه ولو كذباً.

إنك أينما تذهب، تجد أن الجميع يتحدثون عن تلك الصفحة وذلك الكتاب.

فمن المعروف والواضح أنهم أدخلوا رواية واحدة ومن منبعٍ واحد في أذهان الجميع، وهؤلاء لا يعرفون من أين جاءت هذه اللقمة، وأي يدٍ وضعتها في أفواههم، فهم بعلم أو بدون علم يرددون ذلك.

نسألهم: أنتم قرأتم هذا؟ فيقولون: كلا. نقول: إن لم تقرؤوا، كيف تنسبون هذا كله إلى كتاب غير معلوم؟ يقولون: هذا ما قاله أحد أصدقائه، وقال أنا سوف أجلب لكم الكتاب، ولكن إلى الآن لم يأتِ به.

وهكذا نرى أن المؤسسة تأخذها السهام من كل مكان، ولا يمكننا أن نفهم لماذا، لأنه لم يكن هناك أمر يستوجب كل هذا النقد، فإذا كان الشيء جيداً أو غير جيد، فهو يكون كذلك من بدايته، فكيف يمكن أن يصبح الصديق والصاحب في لحظة واحدة، يصبح إنساناً غير مرغوب فيه، والحال أنه قبل ساعة واحدة فقط، كان رجلاً طيباً.

إن هؤلاء هم الذين بدلوا طريقة استعمالنا في الشرب، وفي انتخاب واختيار اللباس، وفي شكل البناء والأثاث،

فهؤلاء يغيّرون طريقة شرائنا ومصرفنا واقتصادنا، ونحن نعتقد أننا رضينا بهذه الأمور.

فهؤلاء يمتلكون المصانع وآلات الإنتاج، وينتجون البضائع الجديدة، وبينهم وفيهم مَن هو عالم اجتماع، ومؤرخ، وعالم دين، وعالم نفساني، فهم يُخرجون لنا العقائد الجديدة ويعطونا إياها.

ومن الطبيعي أن الذين يخافون من أن يصبح المجتمع مجتمعاً مثقفاً واعياً، ويخشون من انتشار الوعي الإسلامي في العالم وأن تدير العناصر الخيّرة مجريات الأمور في العالم، يسعون إلى تفتيت الوحدة بين مختلف الطبقات، والوقوف بوجه إقامة مجتمعٍ إسلامي لأنه يضرّ بمصالحهم. فهؤلاء لا يريدون أن يُطرح الفكر والثقافة الدينية، لأن هذه النهضة سوف توقف العالم وترفض الأمور التكرارية والتلقينية.

فهؤلاء لن يجلسوا مكتوفي الأيدي أمام مَن يريد أن يهدم ما بنوه وتحملوا أعباء وجوده خلال قرنين، فهم لن يقبلوا أي عذر ولن تكون هناك مسامحة لمَن يريد أن يهدم سنّتهم وما بنوه، بهذه البساطة وهذه السهولة.

فهؤلاء لن يسمحوا للأقلام المفكّرة واللسان الناطق،

أن يثقفوا الناس وأن يقدّموا خدمةً للإسلام. ولن يسمحوا للعلم والبحث اليوم والذي أصبح مفقوداً، أن يقدم خدمة للدين. ولن يسمحوا للتراث الديني العظيم الذي أصبح راكداً، أن يظهر إلى الوجود ويصبح حراً، وأن يبعث الحرية والحياة والمعرفة والشعور بالمسؤولية، عندها يصبح العالم عالماً واحداً متّحداً من شمال أفريقيا إلى الخليج الفارسي، ومن ذلك الجانب إلى الشرق الأقصى، تسوده ثقافة واحدة وإيمان واحد، حيث إن عمر هذا العالم أكثر من ألف سنة وهو عمر مشترك ومصير واحد. هذا العالم الإسلامي الذي يمتلك ثروات عالمية غير متناهية. وإذا حدث هذا، فإن الثقافة والوحدة سوف تعمّ، وإن عوامل النهضة والمعرفة الموجودة في الثقافة والوحدة سوف تَعُمّ، وإن عوامل النهضة والمعرفة الموجودة في الثقافة الإسلامية سوف تظهر من تحت غطاء تلك الخرافات والعادات الخرافية الانحرافية، وسوف تنوجد شعلة منيرة تضيء دنيا الظلام الذي أحاط بالإسلام، وتوقظ أولئك المسلمين الذين ناموا واطمأنوا للتلقين، وسوف يتخذون الإسلام طريقاً ومنهجاً صالحاً، حتى ينحني العالم بأجمعه لتلك الحركة التي ظهرت في العالم ذلك الوقت، والتي كان

روّادها الأعراب الذين كانوا يعيشون في الصحراء، والذين بنوا صرحاً عظيماً في العالم، وقدرةً كبيرة لا تُقهر.

إن أوروبا لديها آلاف التجارب عن الإسلام وحتى القرن العشرين. وخلال الأعوام ١٩١٠ و١٩١٢ فإن أوروبا شهدت تلك العاصفة من الجهاد الإسلامي والمجاهدين المسلمين أو الثقافة الإسلامية، فهناك شخصيات مثل «السيد جمال الدين أسد آبادي»[١]، الذين زلزلوا الأرض

---

(١) جمال الدين الأفغاني (١٢٥٤ - ١٣١٥هـ، ١٨٣٨ - ١٨٩٧م): محمد بن صفدر (صفدر أو صفتر كلمة فارسية معناها: مخترق الصفوف) الحسيني، جمال الدين. مفكّر إسلامي، وأحد رجال عصره الأفذاذ الذين ساهموا في إحياء حضارة الشرق. وُلِد في أسعد أباد بأفغانستان، ونشأ بكابُل. وتلقى العلوم الدينية والعربية وبرع في الرياضيَّات. وكان يُجيد اللغات العربية والأفغانية والفارسية والسنسكريتية والتركية. وله إلمام باللغات الإنجليزية والفرنسية والروسية.
كان كثير الرحلة؛ فقد سافر إلى الهند، وحج سنة ١٢٧٣هـ، ١٨٥٦م وعاد إلى أفغانستان وأقام بكابُل، وشارك في حكومة محمد خان. ثم رحل إلى الآستانة (إسطنبول) سنة ١٢٨٥هـ، ١٨٦٨م وانضم إلى أعضاء مجلس المعارف. ونُفي من تركيا إلى مصر سنة ١٢٨٨هـ، ١٨٧١م؛ فاستقر هناك وعمل على نشر الإصلاح الديني والسياسي، وتتلمذ له كثيرون منهم الشيخ محمد عبده.. ولما نفته الحكومة المصرية سنة ١٢٩٦هـ، ١٨٧٩م رحل إلى حيدر أباد ثم إلى باريس التي أنشأ فيها مع تلميذه الشيخ محمد عبده جريدة «العروة الوثقى». كما أقام نحو أربع سنوات في روسيا، ومكث قليلاً في ألمانيا، فالتقى بشاه إيران ناصر الدين الذي دعاه إلى بلاده، فسافر إليها ثم رحل عنها إلى لندن بعد أن ضيّق=

تحت المستعمرين الأوروبين في آسيا وأفريقيا، ومنهم أيضاً إقبال اللاهوري، الذي كان في وقت، كان المسلمون الهنود فيه، أذلّاء ومنحطّين -خاصة خلال القرون ١٨، ١٩، وأوائل القرن ٢٠- فقد بنى هذا الرجل إسلاماً وثقافة جعل الأوروبيين من جرّائها في وحشة وخوف من الإسلام والمسلمين. ومن أجل إيقاف هذا الفكر الكبير الذي أشعل الحماس عند المسلمين ضد المستعمرين، رفع الغرب شعاراً ضد هؤلاء المفكرين، حيث يقول إن هؤلاء يجب أن يُمسحوا عن وجه الأرض، ويجب أن ينتهوا ويُحاكَموا. فكان سعي الاستعمار أن لا تكون هذه الشخصيات، معروفة. وإذا اشتهروا وأصبحوا

= عليه الشاه. وسافر من لندن إلى الآستانة بدعوة من السلطان عبد الحميد الذي طلب منه الكف عن التعرض لشاه إيران، فترك التحريض على خلعه والكتابة عنه في الصحف.. كان يكتب بتوقيع مستعار في بعض الصحف مثل صحيفة مصر التي كان يصدرها أديب إسحاق ـ أحد مريدي الأفغاني.. وكان الأفغاني واسع الاطّلاع، كريم الأخلاق، كبير العقل. ولم يكن يكثر من التصنيف لانصرافه إلى الدعوة في السر والعلن. من مصنَّفاته: «تاريخ الأفغان»، وهو مطبوع؛ «رسالة الرد على الدهريين»، مطبوعة بترجمة تلميذه الشيخ محمد عبده. وجمَع محمد باشا المخزومي بعض آرائه في كتاب «خاطرات جمال الدين الأفغاني». ولمحمد سلام مدكور كتاب «جمال الدين الأفغاني باعث النهضة الفكرية في الشرق». مرض أخيرًا بالسرطان في فكّه، ويقال: دُسَّ له السُّمّ. وتوفي بالآستانة ونقل رفاته ـ فيما بعد ـ إلى أفغانستان سنة ١٣٦٣هـ، ١٩٤٣م.

معروفين، فإنهم يقولون، يجب أن نقابل هؤلاء ونصورهم كشخصيات ممسوخة وملوّثة، حتى ينفر الناس منهم وعنهم، ولا يتأثرون بهم[1].

معلوم، أن هؤلاء المستعمرين كانوا أذكياء وماهرين، حيث إنهم عملوا لتحطيم ثقافتنا من الداخل، وتعلّقوا في زوايا منازلنا، وتدخلوا في كل أذواقنا ومشاعرنا.

ومقابل هؤلاء، لا يمكن أن يقف هناك أناس لا يمتلكون وعياً وإحساساً، وفي مجتمع أغلب الناس فيه، أميّون. إذا لم تتوجهوا أنتم إلى هذه المسألة فمن الذي

---

(١) لله درّك أيها الأستاذ.. كان المس بالقيادات الفكرية والرسالية والحركات الثورية، مبدأً انتهجه الاستعمار منذ فترة طويلة من الزمن، (وقد أشار إليه وفصّله وشرحه بشكلٍ وافٍ، المفكر الجزائري مالك بن نبي في كتابه «الصراع الفكري في البلاد المستعمَرة» وهو كتاب قيّم جداً، شرح فيه «بن نبي» أساليب الإستعمار في حربه ضد الشخصيات الرائدة، الوطنية منها والإسلامية) وكان هذا المبدأ يعتمد على توهين هذه الشخصيات، ومسح هالة القداسة والاحترام التي يحيطهم بها جمهور الناس من المستضعفين والمظلومين الذين سقطوا تحت نير الاستعمار والاحتلال. وفي عصرنا الحالي، شاهدنا نماذج كثيرة من هذه المحاولات، بذلها الاحتلال الأميركي والصهيوني وعملاؤهم في الداخل، من أجل توهين شخصية قائد المقاومة الإسلامية ورائد مسيرتها في لبنان، وكذلك توصيفهم للقادة الميدانيين، بالإرهابيين الذين يعشقون ثقافة الموت، وغير ذلك كثير.

سيتوجّه إليها؟ هذا التوجّه يتمثّل بكم أنتم أيها الطلبة، الذين جلستم للدرس والاستماع، فأنتم الذين تأخذون بيد المجتمع وترفعونه إلى الأعلى، وتجعلونه في المستوى الإنساني المطلوب، لأن هذه الفاجعة الكبرى التي تصيب العالم الإسلامي والتاريخ والمستقبل، تقع على عاتقكم أنتم.

في المجتمع التقليدي النائم، يحمل الإنسان المثقف أعباء جميع الناس على عاتقه. أما في المجتمع الواعي المثقف، فإن الإنسان والفرد، يتحمّل مسؤولية نفسه فقط. أما في المجتمعات المتخلفة والراكدة والتي لا تتقدّم، فإن مسؤولية هذا الجهل والانحطاط العام، والانحراف الديني، واختفاء الدين الحقيقي، فإن المثقف يحسّ بثقل هذا الأمر ويشعر بمسؤوليته، ولكن هنا تصبح جميع المسؤوليات فداء الجميع، ويكون هناك تعهد أن الجميع يجب أن يسيروا على هذا الطريق.

في قمة التمنيات:

أحد الطلبة اعترض عليّ -وكان اعتراضاً جيداً- يقول، لماذا حينما تتحدثون عن الإسلام وحينما تكتبون، تقولون وبتعصب شديد، يجب أن تكونوا حياديين غير متعصبين،

ويجب أن لا يخرج قلمكم عن طريق التعقّل والعلم والتحقيق، لا تكونوا رافضين ومتأثرين بالعواطف، وهذا ما نجده في كل مكان، حيث تقول كونوا منصفين وغير منحازين، وابقوا باحثين غير متعصبين، ولكن في أي مكان حينما تصل إلى «علي» تنسى كل هذا وتكتب بتعصب وعشق عنه.

رأيت أنه يقول الحق. وأرى في ذلك الوقت، أن التهم التي ينسبونها هي: أن فلان ولايته لم تكن صحيحة! (الحقيقة كبيرة وعجيبة) إنني أجاهد وأحاول مع نفسي دائماً، أن لا أكون مبالغاً في «علي» عليه السلام وأريد أن أبقى في ضمن تلك الحدود التي رسمها الإسلام، وكلما أتحدث وبعلمٍ واطّلاع أتحدث هكذا، ولكن حينما أشعر أن الحديث تعدّى الحدّ الحقيقي المطلوب وأن مشاعري بدأت تطغى، وأنا أرفض دائماً هذه الروح وأرفضها الآن، فإنني أفقد نفسي وتعقّلي، ولهذا أحياناً، أكون مبالغاً في بعض المواقع.

في البداية حينما سمعت هذه التّهم، كنت أتأثر وأقول لماذا يتّهمون حقيقتي! ولكن بعد ذلك صرت أرتاح وأتفاءل، وقد يكون سبب هذا الارتياح والتفاؤل أن علياً منحني إياه. قبلاً كنت أتساءل مع نفسي، أنا شخص في

المجتمع فهل أستطيع أن أقدّم عملاً؟ ومع الفكر الذي أحمله أنا، فمع أي أشخاص ومع أي مجموعة ومع أي مجتمع أستطيع أن أعمل؟

أتساءل مع اليأس، ولكنني واثق ومطمئن، وهذا الاطمئنان وصل إلى درجة لم أكن أملك مثلها طوال حياتي. والعلّة لم تكن أن المثقفين يستقبلون دروسي ومحاضراتي وكتاباتي -حيث إن هذا يعتبر بالنسبة لي افتخاراً عظيماً وبارقةَ أمل- بل بسبب الكلمات البذيئة التي سمعتها، والتي أسمعها الآن .

وهنا توجهت، مسلِّماً أن الحق معي في هذا العمل وأن العقائد التي أحملها هي عقائد صحيحة، والإنسان يجب أن يكون حذراً من أن تكون أفكاره وعقائده باطلة ومتزلزلة، لماذا، لأننا لم نتصل بالوحي. فيجب علينا وبواسطة عقلنا البسيط هذا، أن نستخرج الحقيقة من قلب جميع هذه الاتهامات والعُقَد والأهداف المغرضة ومن عمق هذا التاريخ المظلم والمعقّد.

على الإنسان أن لا يكون ضعيفاً في الطريق الموحش، لأنه في الحقيقة لا يوجد شيء سواه نخشاه، في الدنيا والآخرة، لماذا، لأنه من الممكن أن يكون هذا الوجود

عدواً لنفسه بنفسه، وأن يلغي رفاقه من الوجود. وأحياناً لا يوجد أي عامل مخيف وأي إنسان مخيف يمكن أن نعتبره عاملَ خوف في العالم.

إن هذا الذي أخشاه والذي لم أطمئن إليه هو وحشة عدم وجود الحق والحقيقة، وأحياناً هذا الكلام البذيء يبعث فيّ الأمل والاطمئنان. وحينما تكون لك عداوة مع شخص، فهو يهجم ويستعمل السلاح، والأدوات الجارحة، ويرمي الحجارة في أرضك ومحلك. ولكن حينما لا يملك جرأة على القيام بعمل ولا يمتلك سلاحاً، فهو يجلس مع الآخرين ويقول ما يأتي على لسانه من فُحش - فُحش بمعنى كل ما يصدر عن لسانه من كلام بذيء - وبهذا يصبح واضحاً أنه خسر المعركة، والنصر أصبح من نصيب ذلك الطرف الذي يعاديه. وبهذا فهو يمكنه أن يأتي بألف دليل على أن أقوالكم خاطئة، ويعطي أمثلة عديدة ليبرهن أن ما قلتموه هو خلاف الحقيقة، ويستدلّ بكتب ومقالات وخطب ليس لها قيمة معنوية وثقافية، ويريد أن يثبت أنكم على اشتباه، وأن ما تفهمونه هو خلاف الواقع.

فهو، وفي الوقت الذي يجب أن يستدلّ فيه

باستدلالات صحيحة، يجلس وبطريقة معيّنة، ويقول، أن هذا الرجل هو خسيس جداً.

في التاريخ الإسلامي، وفي كل فترة، تتكرّر الأمور، ولكن لم يجرأ أحد أن يلصق تهمة ما بـ «علي»، فماذا يمكنه أن يقول؟

حينما يجلس عمرو بن العاص مع معاوية ويتحدّثون عن علي، فإنهم لا يستطيعون الوصول إليه بأي تهمة سوى أنه كان كثير المزاح! ويستعمل اللطائف بكثرة، ويعتقدون أن هذه المسائل لا تليق بالخليفة!

وهذا لم يكن في سيرة علي عليه السلام. فهو يقول أنا أدّعي هذا. وبرنامجي هو هذا. وإن طريقتكم هي خلاف الإسلام. يجب أن تسيروا على هذا الطريق. وهذا هو معنى الإسلام الذي جاء من أجله الرسول صلى الله عليه وآله.

في ذلك الوقت يقول أعداؤه: أنت تمزح كثيراً! فأي ربط بين هذا وبين القضية؟ وأي ربط بين هذا وبين اختلافي أنا معك؟

حينها يصبح هدف العدو واضحاً، أنه يستعمل «التلفيق حتى يوجد فاصلة»، ولا يستطيع أن يقوم بأي عمل آخر.

إن «السيد جمال» يصرخ وبصوتٍ عالٍ - وقد لخّص

حياته بصرخته - حتى يستيقظ المسلمون ويتخلّصوا في أفريقيا وآسيا من الانحلال وقيود الاستعمار الإنكليزي والفرنسي والبرتغالي والإيطالي والإسباني، وحتى يرجع المسلمون إلى الإسلام والقرآن.

كان ينادي بالرجوع إلى الجهاد الإسلامي، حتى تخرجوا من هذه الذلّة، ومن هذا الهوان. وكان يقول عليكم أن تتركوا قراءة العَوْذات واستعمال البخور وهذه الأوراد والأذكار، وأن ترجعوا إلى القرآن وتعاليمه حتى يمكنكم أن تطردوا المستعمرين.

فكان يدور في الهند، وأوروبا، وإيران، وتركيا، مثل الروح الملتهبة المجروحة، يصرخ وينادي وينبّه الغافلين عن غفلتهم.

لقد كانت مصر تئنّ تحت وطأة الاستعمار والذل والموت، فبعث فيهم روح التضحية والجهاد مما اضطرّ المستعمرين إلى تبديل حكوماتهم ولمراتٍ عديدة.

إن «السيد جمال» لا يُعتبر مصلحاً إسلامياً فقط، بل يعتبر شخصاً مبارزاً ضد الاستعمار في العالم، ومحرّكاً للعالم ضد المستعمرين.

ويعتبر هو من أوائل الذين أرجعوا النهضة الإسلامية من

حالة القرون الوسطى إلى حالتها الإسلامية الأصلية. وهو الذي طرح فكرة النهضة الإسلامية في العصر الحديث وعلى مستوى الحضارة والثقافة، في هذا الزمان، وعند الجيل الجديد، ويعتبر هو أول مَن اعتمد على الدين والمبادىء الدينية وخاصة الدين الإسلامي، في محاربة المستعمرين ومن أجل الحصول على الحرية في العالم الثالث، ويعتبر هذا من مفاخر الدين الإسلامي حيث إن محاربة الاستعمار تنبع من الفكر الإسلامي، وبهذه الطريقة بعث الحياة والروح في الدين الإسلامي والمبادىء الإسلامية، وأصبح الإسلام هو المحرّك السامي لطالبي الحرية والعدالة والمثقفين وأصحاب الفكر، وكذلك وقف الدين مقابل الهمجية الاقتصادية والفكرية والسياسية للاستعمار .

عندها ماذا سيقول العدو بحق هذا الرجل «الحرّ» والذي نذر حياته للجهاد؟ هل يقولون إنه استولى على أموال الناس وجعلها باسمه، ثم صادرها؟ هل يقولون إن أبناءه يعيشون بأموال الآخرين؟ هل يقولون قسّم وجعل ممتلكات الناس بأسماء إخوانه وأقربائه؟ هل يقولون عنه بأنه عميل أجنبي؟ هل يقولون إنه رجل أمي؟ عبد للآخرين؟ ماذا يقولون؟

لا يستطيعون أن يقولوا شيئاً إلا أنه فقط: «ومن خلال التحقيقات الجديدة، وهذه التحقيقات المقروءة عن مصادر مقربة من السيد جمال، ومن الذين يعرفونه جيداً ولهم علاقة مع عائلته، ويعرفونه منذ الصغر وكانوا معه، قالوا إن فلان ثقة ونحن نعرفه، فيجب أن لا يُذاع هذا السر، إن السيد جمال لم يكن مختوناً (مطهّراً)!».

السيد جمال، الذي جاهد الاستعمار الغربي في أوروبا وأسقط الاستعمار الفكري والثقافي، والذي جاهد العلماء المرتبطين بالكنائس والذين يتهمون رسول الإسلام بأكاذيبهم، والذي هاجم الفكر (المادي) والذين لا يعترفون بالخالق، وأصبح من أعظم المجاهدين الإسلاميين، ولكنه يتلقى طعنة من الخلف ويصبح مطروداً ووحيداً، ويتركه المسلمون وعلماء المسلمين ويكفّرونه.

ومن ثم يأتي العدو، ويدخل المعركة ويبدأ بإلصاق التّهم والدعايات بهذا الرجل، ويصبح معلوماً أن الرجل صار مجرداً من سلاحه.

وبعد ٣٠ أو ٤٠ عاماً، ترتفع صرخته عالياً ويظهر خطّه الذي انتخبه، وتعلّم العالم الإسلامي نهضة جديدة، كلما أرادوا إسكاتها لم يفلحوا.

إن «فرحت عباس»[١] - قائد الثورة الجزائرية الكبرى - في (La nuit coloniale) يقول: إن ثورة الحرية في شمال أفريقيا - ومن ضمنها الجزائر- بدأت من ذلك الوقت الذي أرسلني فيه «السيد جمال»، و«عبده»[٢] وهي النهضة التي تدعو إلى «الرجوع إلى القرآن».

(١) فرحات عباس (١٨٩٩ - ١٩٨٥): رئيس وزراء الحكومة الانتقالية في الجزائر (١٩٥٨ - ١٩٦١) كان من النخبة ذات الثقافة الفرنسية التي لم تتحدث العربية قط. ومثلما كان هناك دولة-مدينة فإن فرحات عباس كان دولة-شخص. فلم تكن له قاعدة ثابتة من المعتقدات أو الأتباع، إلا أن مثابرته وتكيّفه السريع مع المتغيرات المستجدة جعلت منه قوة لا يمكن للدول تجاهلها عند التعامل مع المشكلة الجزائرية.. وحين أعلن فرحات عباس زعيم الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري من القاهرة في نيسان (أبريل) ١٩٥٦ انضمامه رسميًا إلي جبهة التحرير الوطني ومعه بقية مناضلي حزبه. تمّ تقبّله واعتبر الخطوة التي قام بها في الطريق الصحيح، وقُبل في جبهة التحرير الوطنية وعُيّن عضوًا في المجلس الوطني للثورة الجزائرية.

(٢) محمد عبده (١٢٦٦ - ١٣٢٣هـ، ١٨٤٩- ١٩٠٥م): محمد عبده بن حسن خير الله. أحد رجال الفكر الإسلامي النابغين في مصر في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، وعالم من علماء الأزهر ومفتي الديار المصرية. كان خبيرًا بالشريعة ومقاصدها ودارسًا جيدًا للقانون. حاول أن يضع تفكير المسلمين في خط انسجام وتوافق مع المكتشفات العلمية وظروف العصر الحديث، وكان يدعو إلى تحرير الفكر من قيود التقليد وكانت لجهوده وأفكاره آثارها في النهضة الإسلامية. ولد محمد عبده في منطقة دلتا النيل بمصر وتعلم بالجامع الأحمدي بطنطا، وتخرج عام ١٢٩٤هـ، ١٨٧٧م في جامعة الأزهر. كان محمد عبده في صغره من أتباع المفكّر المسلم جمال الدين الأفغاني الذي نادى بالصحوة العالمية للقوى الإسلامية. قاوم محمد عبده السلطات الأوروبية في مصر عدة =

إن أول يوم للثورة الجزائرية، هو اليوم الذي تبنّى فيه «عبده» أفكار «السيد جمال» وأوردها إلى أفريقيا، وإن أول شعلة للثورة هي ثورة «مشروطية إيران» حيث بدأت، فإن أصابع «السيد جمال» فيها - منذ ستين أو سبعين عاماً قبل نهضة الأحرار في تركيا، ومصر وأفريقيا وآسيا - ولن يرجعوا إلى سباتهم ثانية.

إن هذه الانتصارات هي أفكار وحياة السيد جمال وقد ظهرت، أما الأعداء والذين يختفون خلف مظاهر التقدس والدين، ومن أجل إثارة عوام الناس، وتخويفهم من الأفكار النيّرة، وإبقائهم ضمن الحدود الضيقة المطلوبة،

= سنوات، فحينما احتل الإنجليز مصر ناوأهم، وشارك في مناصرة الثورة العرابية، فسجن ثم نفي إلى بلاد الشام سنة ١٢٩٩هـ، ١٨٨١م. لكنه لاحظ مؤخراً أنّ التعاون مع البريطانيين هو أفضل طريقٍ لإنجاز تغييراتٍ في مجالي التربية والاجتماع على المدى الطويل. أصبح محمد عبده محامياً مشتغلاً بالمهنة وصار مفتياً للديار المصرية عام ١٣١٧هـ، ١٨٩٩م.. كتب في الصحف المصرية مثل جريدة «الوقائع المصرية»، وحين سافر إلى باريس أصدر مع صديقه وأستاذه جمال الدين الأفغاني جريدة «العروة الوثقى». واشتغل بالتدريس والتأليف.
له من المؤلفات: «تفسير القرآن الكريم»، لم يتمّه وهو مطبوع؛ «رسالة التوحيد»؛ «شرح نهج البلاغة»؛ «شرح مقامات بديع الزمان الهمذاني»؛ «الإسلام والرد على منتقديه»؛ «الرد على الدهريين». وله رسائل كثيرة مطبوعة. وقد جمع محمد رشيد رضا آثاره في كتاب «تاريخ الأستاذ الإمام». وكتب عنه كُتَّاب كثيرون.

والاستفادة منهم في تنفيذ مآربهم، فإنهم يلصقون مثل هذه التّهم بـ«السيد جمال».

ومن هنا يصبح معلوماً أن شكل مثل هذا التفكّر وهكذا عمل قد انتهى، وأن المجتمع الإسلامي لم يكن ليتوجّه إلى مثل هذه التهم والأكاذيب التي يلفقها الأعداء، وبدأ المجتمع الإسلامي يشخّص طريقه ويتحرّك، لأنه اختار ونهض.

على أية حال، المسألة المهمة اليوم أن من الأصول العقائدية والتي لم أطرحها حتى الآن لا في الجامعات، ولا في المحاضرات، ولا في الكتب، أريد أن أجدولها، وهي عبارة عن مجموعة أصول أعتقد بها أنا، أو نظريات بحثتها سابقاً، أو أبحثها الآن.

فهناك عوامل أريد أن أطرحها لأولئك الذين ينحرفون بواسطة تلك التّهم، وإذا وضّحنا لهم واطّلعوا على النصوص وقرأوها وشاهدوها وتوضّحت لهم الأمور، فإنهم سوف يرفضون أولئك الذين يدسّون ويضعون السم للآخرين.

عوامل، يريدون بواسطتها أن يفرّقوا بين المثقفين وعامة الناس من جانب، وبين الطلاب والناس من جانب

آخر، وعن هذا الطريق يحاولون أن يمرروا فكراً جديداً في هذا الجو والفضاء الراكد. يريدون أن يجعلوا الجميع في يأس، بحيث إذا كان هناك شخص يريد أن يقدّم خدمة على طريقة الإسلام، فإنهم يوجّهون إليه لطمة بحيث لا يستطيع الآخرون الإقدام على مثل هذا العمل، ويصبح عِبرة للجميع، ومن ثم لا يستطيع أحد أن يُقدِم على ما أقدم عليه ذلك الشخص.

فإذاً كلما قدّمنا تفسيراً وشرحاً وافياً لهذه الأصول الاعتقادية، فإن هذا يعتبر نوعاً من الصراع الفكري من أجل إيقاف هؤلاء المسمومين، وطبيعة الصراع هي حول الفكر والاعتقادات، وليست دفاعاً عن شخص ما، لأن الفرد ليس هو القيمة، فهذا «فكر» له قيمة ويستحق الدفاع عنه .

لهذا فأنا لست ذلك الإنسان الذي يتّخذ قرار الدفاع - لأنني لا أمتلك شخصية بحيث أُجلّل، ولا توجد شخصية في حالة صراع معي - بل إن هناك فكراً واعتقاداً يجب الدفاع عنهما، والمسألة ليست مسألة شخصية فتكون مسألة وجهة نظر، أو جهة اعتقادية بحيث تستوجب إفزاع الآخرين.

لهذا أريد كما في مسألة الثقافة، حيث إن هناك مشكلات لغوية واصطلاحات والتي طرحتها في السنوات الأخيرة، أريد أن أفهرس الأمور إلى الطور الذي يكون فيه حد، ومعنى واضح وصريح لكل اصطلاح. وإذا أردت أن أستعرض كل هذا ضمن برنامج الدرس فهذا يستغرق سنتين، وفي هذه المدة سوف تكون الأذهان مشوّشة، لماذا، لأن الطرف الآخر يمتلك جميع الإمكانات وجميع الأمور تحت اختياره، مثل وسائل الارتباط الجمعي والدعايات، أما نحن فلا نمتلك شيئاً ونحن في مقابلهم ضعفاء جداً، أما القوة الوحيدة التي نملكها فهي التقوى العقائدية والإخلاص.

وإذا كنتم أنتم الحاضرين هنا تفهمون هذه الأصول الاعتقادية وهذه البحوث بصورة دقيقة، فستكون هناك مجموعة فكرية كبيرة استقبلت هذه الأمور في مجتمعنا.

الإنسان:

إن للإنسان ثلاثة أبعاد هي: الوعي ـ الحرية والاختيار ـ والإبداع.

١ـ الوعي: إن أحد أبعاد الإنسان هو الوعي والمعرفة،

وبين جميع الموجودات فإن الإنسان وحده فقط وفقط يمتلك الوعي والمعرفة، معرفة بنفسه وبالعالم. ولكن إن أكبر الاستعدادات الموجودة عند الإنسان، هو الاستعداد الإلهي. ففي العالم وفي الوجود، الله فقط هو «العالِم» والإنسان - واللطف في درجات ونوع - «المعرفة الذاتية» و«معرفة الكون»، وهذان الوصفان يختصان بالله وبالإنسان.

إن مصطلح «إلهي» يعتبر مصطلحاً شرعياً كما جاء في الحديث الشريف (تخلّقوا بأخلاق الله)، لذا فإن هناك صفة وعملاً إنسانياً، نسبها إلى صفة من صفات الخالق، فالوصف كاملاً يكون شرعياً.

٢ـ الحرية: إن هذه الكلمة تطرحها اليوم «اكزيستانسياليسم» (الوجودية)[1] وسابقاً كانت قد طرحت،

---

(١) «الوجودية»: حركة فلسفية ظهرت في أوروبا أثناء القرنين التاسع عشر والعشرين الميلاديين. وسميت الوجودية لأن معظم أعضائها اهتموا مبدئيًا بطبيعة الوجود أو الكينونة، فقصدوا بمصطلح «الوجود» الوجود البشري.
نشأت الوجودية من جهود اثنين من مفكري القرن التاسع عشر هما سُورِين كيركيجارد، الفيلسوف الدنماركي اللاهوتي البروتستانتي الذي يُعدّ مؤسس الحركة، وفريدريك نيتشه، الفيلسوف الألماني.
وتشمل قائمة المفكرين الوجوديين في القرن العشرين الفرنسيين: ألبير كامو، وجان بول سارتر، وجابرييل مارسيل، والفلاسفة الألمان: كارل ياسبر، ومارتين هايدجر، والمفكر الروسي الديني السياسي نيقولاس=

موضوع الجبر والاختيار.

الحرية، تعني أن جميع الكون يتحرّك ويُدار على أساس سلسلة العلة والمعلول. فكل ظاهرة نراها فهي تأتي بعلّة جبرية لسابقتها، وهذه تكون علّة لمعلول آخر، إذاً فكل عمل يظهر أو يكون له وجود فهو له علّة وهو سوف يصبح علة أيضاً لمعلول آخر، فمثلاً النفط علّة لشعلة الإضاءة والحرارة، إذاً فالإضاءة والحرارة هما بالجبر جاءا من احتراق النفط، والحرارة كانت معلولة للنفط فهي ستكون علة لتسخين الماء، إذاً وجود جميع الظواهر يكون جبرياً. والإنسان أيضاً باعتباره ظاهرة مادية فهو جاء أيضاً نتيجة سلسلة من العوامل المتتابعة. أما الإنسان فإن هذا الاستعداد الذي يملكه يجعله متحرراً من سلطة الجبر ويجعله يلعب دوراً في مسير سلسلة المراتب الجبرية للعلة والمعلول. فهو هنا يلعب دور العلة .

= بيردييف، والفيلسوف اليهودي مارتن بوبر.
تُعدُّ الوجودية ـ إلى حد كبير ـ ثورة ضد فلسفة أوروبا التقليدية التي وصلت ذروتها لدى الفلاسفة الألمان: إيمانويل كانط، وجورج ولهلم، وفريدريك هيغل. ومال الفلاسفة التقليديون إلى اعتبار الفلسفة علمًا، وحاولوا أن يضعوا مبادئ «المعرفة» الموضوعية الصحيحة بصفة عامة ومؤكدة. ويرى الوجوديون أن المعرفة الموضوعية العامة والأكيدة هي مَثَلٌ أعلى لا يُمكن الوصول إليه. وهم يؤكدون حقيقة أن كل فرد، حتى الفيلسوف أو العالم الذي يبحث عن المعرفة المطلقة، هو كائن بشري محدود فقط.

مثلاً، إن جميع العمليات والعوامل الطبيعية، الفيزيائية، الكيميائية، البيولوجية، البسيكولوجية، العصبية، الدموية، والجوع، كلها أمور جبرية تجري فينا، وكذلك هذه تجري أيضاً بصورة جبرية عند الحيوانات، ومن أجل إيجاد الطعام وتهيئته، تجري عدّة فعاليات لذلك، ومن ثم نتناول الطعام ويتمّ هضمه.

إن جميع هذه الأعمال والعمليات تجري فينا بصورة جبرية ترتبط بعِلل ومعلولات. ولكن خارج هذا الأمر الجبري للعلّة والمعلول فأنا أملك استعداداً واختياراً بحيث أستطيع عدم تناول الطعام، فمثلاً من أجل أداء واجب معين مثل الصوم، أستطيع أن لا أتناول الطعام. أو مثلاً من أجل مراسم دينية أو من أجل نظام غذائي معيّن أو مسألة صحّية، أتمكّن من البقاء جائعاً لمدّة عشر ساعات، أو أكثر من ذلك. هذا كله ناتج عن الإرادة الموجودة عند الإنسان وتحرّره من سلسلة عوامل العلة والمعلول التي فرضتها عليه الطبيعة والعالم المادي .

وكذلك يستطيع الإنسان أن يُظهر رغبة ويقول: «أعمل» أو «لا أعمل». «أختار» أو «لا أختار»، فهو إنسان، وكلما كان هذا الاستعداد ضعيفاً عنده، فهو أقلّ من إنسان،

ضمن صفة معينة ودرجة معينة، وكل مَن هو في نظر العلوم الطبيعية جزء من الناس، ففي نظر العلوم الإنسانية ليس من الناس.

يقول «سارتر»: إذا كان الإنسان مصاباً بالفلج من حين ولادته ومجيئه إلى الدنيا، فإذا لم يصبح بطلاً، فهو المسؤول عن ذلك، لأن الإنسان يمتلك استعدادات على الرغم من إصابته بالشلل -يعني على رغم العوامل الطبيعية- فهو يستطيع أن يجعل من نفسه بطلاً. وكذلك الإنسان الذي يولد من عائلة قوية ومعروفة بالشجاعة -مع أنه يعيش في محيط صحّي ويتناول طعاماً جيداً- فإنهم يضعون أناساً ضعفاء ومرضى.

فمسألة عدم شجاعة أي إنسان، المسؤول عنها الإنسان نفسه، وليست العوامل الوراثية، ولا المحيط، ولا العوامل الاقتصادية والتاريخية. أما الإنسان الذي يستطيع أن يُخفي ويَقضي على كل هذه العوامل، فهو إنسان يستطيع أن يبني مستقبله ويقرّر مصيره، وإذا لم يستطع، فالطبيعة تستطيع، مثله مثل النبات الذي تجف أوراقه في فصل الشتاء وتسقط لأنها لا تستطيع مقاومة العوامل الطبيعية. أما الإنسان فهو يستطيع أن يقهر الشتاء ويجعل حياته فيه ربيعاً أو صيفاً، فهو يستطيع أن

يتحرّر من جبر وقيد الطبيعة، لأنه يمتلك إرادة واختياراً، ويستطيع أن يتحرّر من جبر الطبيعة. وهكذا الإنسان في المسائل الاجتماعية والتربوية وفي تحقيق مستقبله، يمكنه أن يظهر ويستفيد من الاستعدادات الموجودة عنده، لأنه يمتلك حرية واختياراً، وبهذا الدليل هو مسؤول، لأن الإنسان الحرّ فقط هو المسؤول.

٣ـ **الإبداع أو الخلاقية**: إن الإنسان يمتلك قدرة إبداع، ومن الممكن أن يكون أحد معاني الأمانة التي عرضها الله على السموات والأرض والجبال وجميع الموجودات فأبَيْنَها وقبلها الإنسان، هي «قدرة الإبداع» والتي هي في يد الله سبحانه وتعالى، ولم تقبلها أي من الموجودات سوى الإنسان.

يعني أن الاستعداد الإنساني الخاصّ هو استطاعته على البناء. وهذا ما نراه عند الإنسان فقط من بين جميع المخلوقات، فهو يمتلك آلة البناء، لذا فإن بعض العلماء يعرّفون الإنسان بأنه «حيوان يوجد الآلة» أو «صانع للآلة»، وهذا نتيجة احتياجه لها. هذا جميل! ولكن لماذا لا يتمكّن الثعلب أن يضع سلماً لكي يصطاد الأرنب على الشجرة؟ إن هذا الاستعداد الموجود عند الإنسان قد وصل إلى الرشد والتكامل بحيث مكّن الإنسان من صناعته، وهي

أعلى مرحلة عند الإنسان، فالإنسان يصنع سلماً، يبني بيتاً، يصنع آلة، ينسج لباساً، أوجد الكتاب، صار فناناً، ووصل إلى مرحلة أن يصنع نفسه، بمعنى أنه يضع ويغيّر ماهيته الإنسانية. كيف يكون، كيف يبني الإنسان إنسانيته، فهو يختار لنفسه، كيف يجب أن يكون.

وبتعبير «هايدغر»[1]، أن الناس على مرحلتين: فمنهم مَن هو من صنع المجتمع والمحيط، فهو يشبه الثمرة وسائر

---

(١) مارتن هايدغر (١٨٨٩ - ١٩٧٦م): فيلسوف ألماني، كان له تأثير كبير في فلاسفة أوروبا القارية (البلدان الأوروبية فيما عدا المملكة المتحدة)، وأمريكا الجنوبية، واليابان. كان عمله محاولة لتفهّم طبيعة الوجود. وحتى يتسنّى له دراسة هذا الوجود، قام هايدغر بتحليل الوجود الإنساني، لأنه ذلك الشكل من الوجود الذي يمكن معرفته على أفضل وجه. وفي معرض محاولته لتفهم الوجود، فإنه غالبًا ما سعى إلى التنوير الفلسفي في أصول الكلمات، كما سعى للاهتداء إلى التنوير الفلسفي في بصائر الشعراء، وخاصة شاعره المفضل «فريدرتش هولدرلن».
كانت مناقشة هايدغر الشاملة والمستفيضة للوجود البشري، التي أكّدت على القلق، والاغتراب، والموت، سببًا في وصف الكثيرين له بالوجودية. بيد أنه أنكر كونه وجوديًا، مدعيًا أن كل ما في الأمر أنه مهتم بالوجود البشري ليس إلا، وذلك لتفهم الوجود على نحو أفضل.
وُلد هايدغر في بادن ـ ويرتمبرج، ودرس الفلسفة في جامعة فريبرج تحت إشراف «إدموند هوسرل» الذي خلفه هايدغر في عام ١٩٢٨م ليصبح رئيسًا للجامعة. وأفضل مؤلفاته «الوجود والزمن» (١٩٢٧م)؛ «ما فلسفة ما وراء الطبيعة؟» (١٩٢٩م)؛ «مقدمة لما وراء الطبيعة» (١٩٥٣م)؛ «ما التفكير؟» (١٩٥٤م).

العوامل الطبيعية، فهي في كل محيط وماء وهواء تمتلك طعمَ وشكل ذلك المحيط وذلك الماء والهواء، فهؤلاء لم يختاروا أنفسهم بل إن العوامل الجبرية اختارتهم وهيأتهم، البعض هم هكذا، يتلوّنون بلون المجتمع الذي يعيشون فيه، ويتأثرون بالمحيط، فحينما يتغيّر المحيط يتغيرون أيضاً، والأكثرية من هؤلاء. وإذا كان الإنسان صانع التاريخ والمجتمع، فهو الذي يبني مجتمعه وتاريخه، فهؤلاء من نوع آخر، فهؤلاء أناس صنّاع ومغيِّرون، يتحوّلون إلى أناس مؤثرين، فالموضوع هنا يتبدّل، إلى الإنسان الصانع.

تعريف الإنسان:

إذا كانت هذه الأمور كلها تدور حول الإنسان ونعتمد عليها في تعريفه، بمعنى أنها جميعاً عوامل وأبعاد في أساس معرفة الإنسان، لأننا إذا لم نستطع معرفة الإنسان، فإننا لن نتمكن أن نتحدث عن الدين، ولا عن المجتمع، ولا عن الحضارة والفن. فكل كلام لا يصل إلى نتيجة. وبسبب عدم معرفتنا للإنسان لا يمكن أن ننشىء له مدرسة، وكيف يمكننا أن نبني له داراً وأن نشخص حياته، ونحن لا نعرف عنه، ولا نعرف من هو؟

لهذا أسعى أن أعطي تعريفاً كاملاً للإنسان وأريد أن تنتبهوا جيداً، لأن كل كلمة لهذا التعريف انتُخبت طبقَ فكرٍ

معيّن. هناك تعاريف عديدة للإنسان، والتعريف الأكثر ابتذالاً هو أن الإنسان «حيوان ناطق»، لماذا، لأن هناك موجودات كثيرة هي ناطقة ولكنها ليست بإنسان، وهناك أناس كثيرون ناطقون ولكنهم ليسوا من صنف الإنسان.

يقول البعض، أن «الإنسان حيوان ناطق، يعني يفكر»، حيوان ولكنه «يصنع الصور في ذهنه»، وتعاريف من هذا النوع.

أما أنا فلم أقل «موجود»، لأنهم يقولون «الإنسان» «موجود»... فهم من البداية يخطئون، فالإنسان ليس موجوداً، فهو مجموعة إمكانات مختلفة من الممكن أن تكوّن، فنحن في حالة إيجاد، لأننا لم نصبح موجودين الآن، فنحن في حالة الصيرورة، نحن الآن في حالة تكوين.

إن خلقة الإنسان لم تتم، الإنسان يتمكّن أن يكون خالقاً، كيف؟ شكله لم يكتمل الآن.

وخلال التأريخ -التاريخ الماضي والحاضر- وهو ظرف زماني تكوّن فيه الإنسان، لهذا فهو ليس موجوداً، فهو إرادة متناقضة لا تنتهي وهو إرادة تمثل الرفض والعصيان «يفرض نفسه»، لا أقول «يفرض الواقع»، فهو

يفرض ما هو موجود، إلى سوف يوجد.

وعلى خلاف الفلاسفة الذين يجلسون دائماً وينظّرون حتى يعرّفوا الإنسان تعريفاً لائقاً، فأنا وعلى مدى التأريخ أمتلك معلومات ثقافية وحضارية، ودينية، وعن جميع الحوادث التأريخية الكبرى، والأدبيات، والفن -فأنا بمقدار ما أمتلكه من معلومات- خرجت وعرّفت الخصوصيات المشتركة للإنسان، وهذه الخصوصيات المشتركة تخصّ الإنسان في جميع الفترات وفي جميع الأدبيات والأديان والثقافات والفنون، والآن لا أجد الوقت الكافي لكي أشرح هذه الخصوصيات المشتركة واحدة واحدة، ولكن ومن ضمن عملنا، سوف تصبح واضحة وسنشير إليها.

التعريف الكامل للإنسان:

إن الإنسان يمثّل إرادة كاملة لا تنتهي ويمثّل الرفض، ويسعى لامتلاك الفكر، والطلب المطلق، وهو صاحب معرفة ذاتية عن نفسه وعن الكون، وهو متعصب. وكل مَن يمتلك العصبية فهو ليس إنساناً، وأيضاً هناك الكثير من المتعصبين ولكنهم ليسوا أناساً، وذلك الذي يطلقون عليه التعصّب فهو شيء آخر، ويقولون إنه ليس جيداً.

والإنسان صاحب اختيار ويفكّر في بناء المستقبل، ومتعبّد، ومعنى أنه متعبّد فهذا ليس من الأدلّة الكلامية والفلسفية بل هو دليل العينية والواقعية. بمعنى أنه وعلى مدى التاريخ وفي جميع الفترات «وحتى الآن» نرى أن لا وجود للخالق والإله في فكر بعض الأديان «بمعنى أن تصوره موجود عندنا» أما عبادته فموجودة.

فأحياناً نقرأ في بعض القصص، أن لا وجود للدين ولكن العبادة موجودة. فالعبادة أمر أبدي وموجودة دائماً. وإذا أردنا رفض الخالق فإن العبادة موجودة محله. كونفوشيوس، رفض المعابد العبادية ولكنه نفسه أصبح فيما بعد معبوداً. يقول بوذا: لا تسألوا عن الإله، واعبدوا، ومن ثم أصبح بوذا معبوداً وإلهاً. وفي روسيا وفي زمان ستالين، حاولوا أن يمحوا الدين والمسائل المعنوية، وأرادوا أن يوجهوا الجيل الجديد إلى التكنيك والمادية والإنتاج، وأرادوا جذب الآخرين عن هذا الطريق، ولأجل هذا العمل فهناك أحد الكتاب عنده كتاب باسم «لو كولت دو سيمان»، يعني عبادة الأصنام! فهذا القرن صنمي، يعبد الأصنام، والعابد الذي أقصده هو بهذا المعنى.

منتظر: والانتظار جزء من نوع الإنسان.

الماورائية: وأقصد بها وجود إحساس بما وراء الأشياء والأمور المحسوسة الموجودة، وأن كل ترقي الفلسفة والعلوم هو بسبب هذا الدليل وهو أن الإنسان يحاول معرفة الماوراء.

سير متواصل: وهو إعطاء جواب لكل احتياجاته، وهناك احتياجات أخرى تدور وإذا حصلت على جواب فإن الحاجة سوف تزول.

غير مشخَّص: فالإنسان وعلى خلاف جميع الموجودات والتي تمتلك أبعاداً مشخصة ومعيّنة، فإن تعريف الإنسان سيكون غير تلك التعريفات التي عُرّف بها في القرون الوسطى، فالخصائص العينية للإنسان مختلفة، وهذه التي نراها لا تمثّل أبعادَ الوجود، بل تمثّل إمكانات واستعدادات.

مسؤول: إن المسؤولية هي نتيجة أو وليدة الحرية، والإنسان حر فهو مسؤول، عقيدة العبادة هي في أصل صفة الإنسان، فالإنسان حيوان مُعتقِد، الإنسان فقط، لأنه وبسبب أهدافه وعقيدته يضحّي بروحه.

غريب: إن إحساس الغربة موجود في جميع الأديان والمعتقدات والآداب والفنون وهو إحساس إنساني، إنه غريب في العالم.

مضطرب: كلما زادت معرفة الإنسان في الدنيا فإن اضطرابه يصبح أكبر، يقولون إن الإمام علي عليه السلام كان يُغشى عليه أحياناً حينما يكبر عنده الإحساس بالغربة والوحشة في هذه الدنيا، وأولئك الذين يتحدثون بمقدار فهمهم وعقولهم يقولون مثلاً، أن هذا الأمر هو بسبب فقدانه فدك أو أشياء أخرى، ولكن هذه ليست الحقيقة لأن الإنسان الذي يرتفع تفكيره إلى ذلك المستوى العالي الرفيع لا يمكن أن يكون مستقراً ضمن هذه الحدود الدنيوية، لأن الاضطراب هو من علامات وخصوصيات الإنسان المتعالي.

متقدّم وسياسي: يقول أفلاطون، إن الإنسان حيوان سياسي، «بوليتيك»، وقد ترجم بعض العلماء هذه الكلمة بأنها «اجتماعي»، والحال أن المقصود من كلمة سياسي لا تعني الدبلوماسي، وعلى أية حال فهم فسروها بالاجتماعي، والحقيقية ليس الإنسان وحده اجتماعياً. فالنمل وزنابير العسل اجتماعية أيضاً. ولكن كونه أي الإنسان سياسياً فهذه صفة تخصّه فقط، بمعنى أن الشخص الذي يعيش في المجتمع فإن ارتباطه سيكون بالأفراد والمجتمع، ويحسّ ويشعر بمستقبل المجتمع الذي يعيش فيه ويعرفه ويمتلك عنه معلومات كافية، ومقابل كل هذه الأمور فإنه يشعر بأن لديه مسؤولية أمام ذلك المجتمع.

وبسبب هذه المجموعة من الأحاسيس والاستعدادات قالوا إن الإنسان سياسي. وفي الزيارة الجامعة حيث الزائر يخاطب الإمام ويقول «وساسة العباد وأركان البلاد» لهذا فحينما نقول سياسي، نقصد به هذا المعنى.

إلى هنا كان ابتداء لجملةٍ نقولها، أن الإنسان في حالة الصيرورة والبناء الذاتي وبناء المستقبل أو المصير.

الإنسان الذي يقِّدر نفسه، هو يبنيها وهو يتدخّل فيها، والشيء الذي قدّره الله هو هذا الأمر.

هذا هو التعريف والشرح الكلّي للإنسان، وعلى أساس هذا التعريف يمكننا أن نبحث الدين، الإسلام، التاريخ، الحضارة والأدبيات والفن وكل شيء. وهذا هو المفتاح.

خلق الإنسان:

من خلال مطالعتي لمجموعة القصص عن خلق الإنسان في الأديان المختلفة وخاصة خلق آدم في القرآن والتوراة، حيث المسألة مشروحة بشكل أوسع. وكذلك مطالعتي للروايات الخاصة بخلق آدم والجنة وقصة الشيطان وحواء، فإن المسألة تشكّل بالنسبة لي أمراً جاداً وعميقاً جداً، وقد أشرت إلى هذه الأمور في أماكن متفرّقة، ولكن لم أستطع

أن أستعرضها وأشرحها، والآن أقول إن مفاتيح وألغاز الـ«أومانيسم» منطقية ومترقية جداً.

وحسب بعض الآيات فإن الله أراد أن يجعل على الأرض خليفة، أما الملائكة فيعترضون ويقولون أتريد أن تجعل فيها مَن يفسد فيها ويسفك الدماء؟ من هذه المقدمة يتّضح، ومن خلق آدم يتضح، أن الملائكة يمتلكون معلومات مسبقة عن آدم، ومن المحتمل أن يكون آدم ليس هو الأول، بل إن هناك آدم قبله، بل من الممكن أنه ابتداء البشر الفعلي والنوع الفعلي للإنسان وليس النوع المطلق للإنسان.

وقد سئل الإمام الصادق عليه السلام من كان قبل «آدم»؟ قال: آدم. وقبل آدم؟ قال: آدم. وقبل آدم؟ قال: آدم، فقالوا له قبله؟ قال كلما سألتم فالجواب، آدم.

والله سبحانه وتعالى في جوابه للملائكة حيث إنه يعرف جوهرهم وغايتهم فيقول، إني أعلم ما لا تعلمون، بمعنى أن توقّع الملائكة كان صحيحاً، وأن الله سبحانه وتعالى سوف يخلق هذا الإنسان من لَجَن -حمأ مسنون- «طين ذو رائحة كريهة»، أو من ترسّبات السيول، ومن ثم ينفخ فيه من روحه.

إذاً فخلق الإنسان يصبح واضحاً: من طين بإضافة روح من الله، يعني من شيء متعفن وذي رائحة كريهة بالإضافة إلى روح الله، وطبعاً هذه المعاني هي معانٍ رمزية وأصلية.

المعاني التي تُطلق على اللجن، تعني الفساد والتعفن، وفي لغتنا أن الشيء الأكثر انحطاطاً، فساداً وتعفناً، يُقال عنه «لَجِن»[١].

من صلصال كالفخّار: وهذا عنصر من الإنسان وفيه نوع من الرسوب والتحجّر، وأصل الصلصال كالفخار هو التحجّر، والميل إلى الجلوس والقيد، وعدم الحركة.

إذاً فالإنسان من جانب هو لجن، أو طين ترسبات، وفيه نوع من التعفّن والتحجّر، وعنده رغبة في السبات وعدم الحركة. ومن جانب آخر فيه روح الله عزّ وجلّ. وإن أعلى كلمة يمكن أن ينتجها البشر حتى يصل إلى التعالي، العظمة، التقدس، والجمال المطلق، هي كلمة الله. وغير هذه الكلمة، فإن أعلى كلمة تصل إلى العظمة والتعالي هي الروح مقابل الجسد، ومقابل الأمور المادية.

(وحينما قلت، يجب أن نأخذ بالمعاني الرمزية، فلهذا

---

(١) تلجّن الشيء: صار لزجاً. واللّجِن: الوسِخ. واللَجين: العَلف المتّخَذ من الورق المدقوق. واللُجَيْن: الفضّة.

السبب، وهو أنه إذا أخذنا بغير هذا المعنى، فإن كلمة روح الله لن يكون لها معنى، وهذا يصبح خلطاً غير ممكن، وليس له معنى).

فالإنسان يتشكل أو يساوي «أفضل الأفضلين» و«أردأ الأردئين»، وهذا هو الإنسان، حيث إن هناك بعض الناس هم أقذر وأكثر انحطاطاً من أقذر الحيوانات وأدناها، وهناك أناس متعالون ويصلون إلى درجة من التعالي، بحيث يقول الشافعي -إمام المذهب الشافعي-: إن الشافعي يموت ولا يدري مَن ربّه، الله أم علي[1]!.

والآخر يصبح مثل «نيرون» الذي يضرم النار في «روما» ويجلس متفرّجاً على الشعلة والنار الكبيرة التي تحرق الأطفال والنساء وساكني المدينة، وهو يسمع صراخهم وضجيجهم، ويتلذّذ بهذا المنظر وذلك الصراخ، وينشد الشعر ويغنّي.

وهناك إنسان يريد الحرية ويسعى لتحقيقها، فهو بعيد عن أنظار رجال الدولة، وحتى لا يأتون ويطفئون النار

---

(١) هنا يريد الشافعي أن يبيّن عن عظمة الإمام علي عليه السلام وليس بمعنى عدم معرفته الخالق سبحانه وتعالى، بل يريد أن يشير إلى الروح المتعالية عند الإمام علي عليه السلام ووصوله إلى أعلى المراتب الروحية التي يشير إليها المؤلف وهي روح الله (المترجم).

المشتعلة فيه، فإنه يطلب من صديقه أن يرشّ البنزين عليه ويضرم فيه النار، ليكون شعلةَ اعتراضٍ على الأوضاع، ويحمي بهذا العمل اعتقاداته، وشعبه، وإنسانه المعذّب.

وقد شاهدت فيلماً، عن رجل يجلس متربعاً ويضرم النار في نفسه، والحاضرون يحاولون إطفاء النار فيرمون عليه الماء والتراب، ولكنه لا يتحرك من مكانه وسط هذه النار.

انظر إلى مدى الاختلاف!... هناك مَن يحرق مدينة ويجلس متفرّجاً على النساء والأطفال والأبرياء ويتلذّذ بذلك المنظر، وهناك من يضرم النار في نفسه لينجّي بلده وشعبه والنساء والأطفال.

وهناك مثلاً الاختلاف في السعر بين أفضل حصان وأردأ حصان، وهو مبلغ (٢٠٠٠) تومان، وإن هذا الحصان الرديء يُستعمل في جرّ العربات أو سحب الماء، وذلك الحصان الجيد الذي لا يبلغ ثمنه أكثر من (٤٠٠٠) تومان والتي ليس لها قيمة، -فهو مع قيمته الجيدة هذه والتي لا يمكن أن تصل حتى الدراجة البخارية لسرعته- فإن الفرق بينه وبين ذلك الحصان فرق زهيد!. أما الفرق بين ذلك الإنسان وهذا الإنسان، فلا يمكن تصوّره. فهو فاصلة ما بين الطين و«الله» سبحانه وتعالى.

الأمانة:

هناك تعبيرات مختلفة للأمانة، فالمتصوفون يقولون إنها تعني «العشق»، وهناك آخرون يقولون إنها تعني «الإرادة» ومن ضمنهم الشاعر الإيراني مولوي.

جماعة من العلماء يقولون إنها تعني «المعرفة-العلم» والبعض يقولون «الولاية»، وهناك مَن يقول إنها تعني الإمام علي عليه السلام.

ولكن لماذا لم يشخّص القرآن هذه الكلمة؟ لأن هذه هي المعجزة القرآنية، حيث يأتي بكلمة من الممكن أن نطلق عليها معانٍ مختلفة مستخرجة من أبعادها العديدة. وفي الحقيقة كلٌ من هذه المعاني قد لا يصل للهدف المطلوب أو أن الجميع قد يكون صحيحاً أيضاً، لأن الأمانة هي كل الإمكانات الموجودة عند الخالق، وتمثّل كل الإمكانات غير الموجودة في الموجودات الأخرى وهي خاصة بالإنسان، وهذا دليل أفضلية البشر.

الأمانة، هي مجموع كل هذه الأمور التي اختلطت مع بعضها البعض وأخذت شكلاً خاصاً وهو الأمانة، ومن ثم أُعطيت للإنسان. لهذا فإن كل الأوصاف التي توصف بها الأمانة هي صحيحة ولكن، ليست كاملة.

الأمانة: هي عبارة عن تلك المادة، التي يمكن أن ترتقي به إلى أعلى حدٍّ مطلق ومتكامل لا يمكن تصوّره في هذا العالم، فهي إذاً تعني الأمور التي يمكن أن تتجلّى وتتحقق في الإنسان الحاضر والمستقبل، ومنها الإرادة، الاختيار، المعرفة، الشعور، القدرة الخلاقة، العشق، والاطلاع والحكمة -وكثير من الأمور الأخرى التي لا نعرفها نحن، ومن الممكن أن تظهر وتتحقق في الإنسان فيما بعد- كلها أجزاء الأمانة.

وعلّم آدم الأسماء كلها:

... وقد علّم الله سبحانه وتعالى آدم جميع الأسماء، وجلس آدم والملائكة «للامتحان» وللإجابة على أسئلة المفاهيم، مفاهيم الأسماء. واستطاع آدم أن يعطي الجواب، أما الملائكة فقد قالوا: نحن لا نعرف غير تلك الأمور التي نتذكرها. ونجح آدم في الامتحان، وانتصر.

إذاً فالإنسان أفضل من المَلَك، والأفكار والاعتقادات الدينية، حينما تريد أن ترفع إنساناً إلى أعلى مرتبة فإنها تصوّره على شكل الملك، فهم لا يعرفون أنه في فلسفة الخلق، الملائكة أقلّ درجة من الإنسان، وهم يعملون من أجل الإنسان وتحت إرادته.

لهذا فإن الله سبحانه وتعالى علّم الإنسان الأسماء،

أما الإنسان نفسه فقد كان وطبقَ هذا التعليم الأوّلي للحقائق يجيب على السؤال، وإذا كان غير هذا الأمر، فإن المسألة تعني أن الله قد علّم آدم الجواب ولم يعلّمه للملائكة، وهنا يكون في الامتحان إشكال.

إن الإنسان وبالاستفادة من استعداداته الخاصة استطاع أن يقول الحقائق. أما الملائكة فلم يستطيعوا، لأنهم مخلوقات خلقوا هكذا، وعليهم أن يعملوا بالصورة المطلوبة. أما الإنسان فقد خُلق بصورة يمكنه أن يعمل وفق ما يريد ويشخّص الأمور، فهذا هو التفاوت ومسؤولية أفضلية الإنسان في هذا الباب.

وطلب الخالق من الملائكة أن تسجد لآدم:

وحسب ما أعتقده أنا وأفهمه من معاني سجدة الملائكة لآدم، هو تسليم جميع القوى الطبيعية وما وراء الطبيعة المادية والتي نشعر بها نحن مقابل موجود متعالٍ اسمه «إنسان»، الإنسان الآدمي وليس إنسان بني آدم، الإنسان الذي يستطيع أن يكون إنساناً.

إنسان بتلك الاستعدادات التي مُنحت له، وهذه الاستعدادات تعني جميع القوى في الوجود والتي تعمل لأجله. فهو يستطيع أن يتسلّط على جميع الموجودات.

ما هي الثمرة الممنوعة؟

لقد أباح الله سبحانه وتعالى لآدم وحوّاء كل شيء موجود في الجنّة، من أكلٍ وشرب، ولكن منعهم فقط من تناول هذه الفاكهة، فما هي هذه الفاكهة؟

لقد صرّحت التوراة -والقرآن أشار إلى ذلك- بالقول بأن المسألة كانت تتعلق بالرؤيا أو المشاهدة، وطبق الآيات القرآنية فإن الله سبحانه وتعالى خاطب آدم وحوّاء، وأجابا بأنه لا يوجد حياء من وجودهما بدون لباس، ولكنهما وبمجرد تناولهما تلك الفاكهة الممنوعة بدءا يشعران بالخجل من وجودهما بتلك الصورة، ومن ثم اختفيا.

فقد كانوا قبلاً يخاطبون ربهم وهم بدون لباس ولا يشعرون بالخجل، ولكنهم الآن وبعد تناولهم الفاكهة بدأوا يشعرون بحالة الخجل من الله سبحانه وتعالى، وهذا يدلّ على أنه قبل أن يشعروا بهذا الخجل فإنهم كانوا في حالة لم يشاهد فيها أحدهما عورة الآخر، وبعد تناولهم تلك الفاكهة صار النظر ممنوعاً عليهم، لأنهم بدأوا يحسون بالنظر الممنوع، إذاً فالشجرة الممنوعة. هي شجرة المشاهدة.

الإنسان عريان:

يمكننا أن نقول: أن العريان لا يعني بدون لباس، ولكن بمعنى عدم المعرفة والحقارة، وحتى يصبح صاحب معرفة وإحساس ويعرف أنه مركز هذا الكون وأنه صاحب عظمة، عليه أن يكون أعلى رأساً من أي شيء، فهو حينما يصبح صاحب نظر ومعرفة، يدرك حقارته، ويفهم معاني العظمة والكبرياء، فيرى أنه عريان فيستحي من نفسه.

كان آدم هكذا، لا يعرف عن نفسه ومحيطه، حتى تناول تلك الفاكهة الممنوعة فصار صاحب فهم ونظر، وأصبح يستحي من وضعه أمام الله.

(هل كان يريد الله سبحانه وتعالى للإنسان أن يتناول الفاكهة أم لا)؟

يجب أن لا نتلقى هذه المسألة بصورة قصص إنساني، فمثلاً إن الله لا يريد أن يأكل آدم من تلك الفاكهة الممنوعة وإن الله لا يرضى بهذا العمل، فإذا كان الأمر بهذا الشكل فالله سوف يمنع آدم منها. فالله نظم المسألة بهذا الترتيب، حتى يجعل الإنسان إنساناً صاحب وجود، إنساناً موجوداً، وعلى مدى التاريخ، وله حضور.

الفاكهة الممنوعة في الأساطير الغربية وأديان الشرق الأقصى:

وكما قلت سابقاً في أقصوصة «برومته» وفي كتاب الحسين عليه السلام وارث آدم، وفي أساطير اليونان، أن النار كانت شيئاً مُنع الإنسان من الاستفادة منها، أما «برومته» فقد سرق النار من الآلهة وأعطاها للإنسان. ثم وقع «برومته» في الأسر وصار مقيداً بالسلاسل والقيود التي قيدته بها الآلهة ونُفي إلى الأبد، لأنه أعطى النار وهي مصدر المعرفة والرؤيا، للإنسان.

«ياما» و«يامي» -هما آدم وحواء اليابان والشرق الأقصى- ولكنهما مُنعا من النوم سويةً. فإذاً في هذه الديانة، الثمرة أو الفاكهة الممنوعة هي «العشق» أو المحبة، حيث إن «يامي» -حواء- طلبت أن تنام مع «ياما» -آدم- ولكن «ياما» يقول: نحن قد مُنعنا من العشق، و«يامي» تقول، إن هذا العشق لم يكن لهواً ولعباً وإنما هو لإدامة وبقاء الجيل والنسل الباقي، ثم إن «ياما» يرضى بالفكرة. فإذاً الفاكهة الممنوعة هنا، العشق، والعشق بمعنى البقاء والخلود.

في قصة آدم وحواء، إن الشيطان كلما أراد أن ينفذ

إلى آدم، لم يستطعْ. لذا صار مجبوراً أن يذهب إلى «حواء».

حواء مظهر المرأة:

هنا، «حواء» تمثل المرأة. ويقول القرآن: إن حواء خُلقت من آدم، وهذا يعني أنه يريد أن يوحّد الجنس والعِرق خلال التاريخ بين المرأة والرجل، وحتى أن بعض العلماء في القرن التاسع عشر، كانوا يرون أن المرأة من جنس، وأن الرجل من جنس آخر، (انظر إلى عدم الشعور! فإذا كانا في البداية مختلفين، فهما فيما بعد أصبحا مع بعضهما!) والآن هم يعتقدون أن المرأة تقل عن الرجل بعظْمة واحدة حيث إن المرأة خُلقت منها، على الرغم من أن القرآن صرّح بأن الرجل والمرأة متساويان في الجنس والفطرة، حيث إنهما إنسانان متساويان، وإذا كانت المرأة قد عُطلت عن أداء واجبها وصارت ضعيفة وناقصة العقل! فالذنب هو ذنب الرجل.

المراد من هذا التساوي، ليس تساوي الشرائط الاجتماعية ونوع التلقّي الاجتماعي، بل إنه التساوي في الجنس والنوع والتقابل العرقي.

حواء مظهر المحبة:

من جانب آخر فـ«حواء» هي مظهر المحبة والإحساس والشيطان مظهر العقل، حيث إن العقل وحده لا يمكنه أن يسيِّر آدم على الطريق الذي يريده، والعشق لا يمكنه لوحده أن يُقدم على عمل. لهذا فالعقل -الشيطان- وبمساعدة العشق ـ حواء ـ يعطون ثمرة الرؤيا واليقظة، فيأكلها. وهذا يعني أن المشاهدة والنظر حصلا من الآدمي، والعشق والعقل يجب أن يكونا معاً لإنجاز هذا العمل.

يقول ألكسيس كارليل: إن العقل، هو مصباح السيارة والعشق هو محركها. وللحركة والسير يجب أن يعمل الاثنان، فإذا عمل المحرك ولا توجد إضاءة، فالحركة سوف تنتهي إلى الضياع، وإذا كانت المصابيح تعمل والمحرك متوقف عن العمل، فسيحصل التوقف والسكون.

في «الكوميديا الإلهية»[1]، إن «دانتي»[2] -خلال سفره

---

(١) الكوميديا الإلهية: ملحمة شعرية طويلة للشاعر الإيطالي «دانتي أليجيري»، عُرفت في الأدب العالمي بهذا الاسم. بدأها دانتي عام ١٣٠٨م وانتهى منها عام ١٣٢١م وموضوعها الرئيسي هو الحياة بعد الموت، و«دانتي» هو الشخصية الرئيسية فيها.
وتنقسم الكوميديا الإلهية إلى «الجحيم» و«المطْهر والجنة» (الفردوس). وقد أطلق عليها دانتي الكوميديا لأنها انتهت نهاية سعيدة. ثم أضافت إليها الأجيال اللاحقة صفة الإلهية. وقد قسم دانتي الأقسام الثلاثة=

من الجحيم إلى البرزخ وحتى الجنة- يتحرك في البداية بواسطة إرشادات «فيرجيل»، وهذا يمثل مظهر العقل، وفيرجيل يخلص دانتي من الجحيم إلى البرزخ ومن ثم يوصله إلى حدود الجنة، وهنا يقول له إلى هنا ينتهي عملي، ثم تأتي «بياتريس» -وهو اسم لبنت وهي عشيقة دانتي- فتأخذ على عاتقها هداية دانتي والسير به إلى الجنة(١).

= للقصيدة إلى أجزاء أخرى تسمى «الأجزاء الداخلية». ويضم كل من قسمَيْ «المطْهر والجنة» (الفردوس) ٣٣ جزءًا. أما «الجحيم» فيَضُم ٣٤ جزءًا. وتتميز جميع الأجزاء بالإيقاع القوي نظرًا لمقاطعها الموشحية ذات الأبيات الثلاثة.

(٢) دانتي أليجيري (١٢٦٥ - ١٣٢١م): أحد أكبر شعراء إيطاليا في القرون الوسطى، ويُعدّه الكثيرون أحد أكبر شعراء الغرب قاطبة. تُعد ملحمته «الكوميديا الإلهية» من بين الأعمال الكبرى في عالم الأدب، وقد أثنى عليها النقاد، ليس فقط لكونها تشكل شعرًا رفيعًا ولكن لما فيها من حكمة وعلم.

(١) تبدأ القصة بدانتي المفقود في غابة مظلمة، ويمثل ذلك عنده إحساسه بتفاهة حياته، والشر الذي كان يراه في مجتمعه. وفي يوم جمعة صحو، وبعد ليلة من التجوال المؤلم، يتقابل مع الشاعر الروماني «فيرجيل» الذي يَعِدُه بأن يُخرجه من تلك الغابة ويقوده إلى رحلة في العالم الآخر.. ويدخلان الجحيم وهو حفرة فظيعة على هيئة مخروط عميق في باطن الأرض، وفي الحفرة تسع دوائر، حيث يريان جموعًا من الأفراد، يعانون العذاب الذي تصبه فوق رؤوسهم الوحوش الخرافية، والشياطين والمخلوقات الأخرى، وذلك عقابًا على خطاياهم. والملعونون المعذبون هؤلاء شخصيات تاريخية معروفة جيدًا، بعضها من عصر سابق لدانتي غير أن معظمهم من عصر دانتي نفسه. =

هذه القصة تمثل حقيقة سير الإنسان من الجحيم وهي المرحلة المنحطّة في الحياة، إلى الجنة وهي مرحلة التكامل الآدمي، فهذا السير يتحقق بواسطة العقل والعشق.

وفي العرفان وفي كتبنا، العلماء في مسألة معراج الرسول ﷺ يقولون حينما يصل الرسول ﷺ إلى سدرة المنتهى، يقول له جبرائيل إنْ أنا تقدمت خطوة واحدة فسوف أحترق. فهنا مرحلة توقف العقل والتعقل، ومن ثم يجب أن يكون هناك إحساس آخر يحلّق حتى يصل بالإنسان إلى آخر مبتغاه.

= ويغادر كل من «دانتي» و«فيرجيل» الجحيم، ويصلان إلى جبل المَطْهَر ومن هناك يتسلقان إلى شرفات مضيئة فيها الموتى الذين وهبوا الخلاص يبحثون عن الغفران من الخطايا التي اقترفوها على الأرض. ويملأ جو من الأمان والأمل ذلك المكان الخاص بالتطّهر، على عكس المعاناة الكبيرة واليأس اللذين مرّا بهما في الجحيم.

وعند وصولهما إلى الجنة الأرضية على قمة جبل المَطْهَر، يوصي «فيرجيل» بـ«دانتي» إلى مرشدة جديدة هي «بياتريس».

وتُعد هذه الملحمة من نواح عدة، قصيدة حب تمتدح جمال «بياتريس» الأخلاقي، وقدرتها على الوصول بدانتي إلى رؤية الخير الأعظم، إذ إنها تقوده خلال طبقات السماوات العشر، حيث يلتقي بأرواح المباركين. ويقف دانتي في بهجة ونشوة، ويتفهم في النهاية الحقيقة النهائية للحياة وما يعنيه الكون.

وتذهب جماعة من مؤرخي الأدب ونقاده إلى أن دانتي تأثر في هذا العمل بقصة «الإسراء والمعراج» وربما أيضًا برسالة الغفران لأبي العلاء المعري (ت٤٤٩هـ، ١٠٥٧م) وأخذ الفكرة والمنهج عنه.

لماذا منع الله الإنسان من تناول فاكهة المعرفة؟

إن الله منع الإنسان من أكل فاكهة المعرفة والنظر، لأن جميع الآلام والمشاكل هي نتيجة «المعرفة»، فالذين لا يعرفون ولا يرون، لا يعانون من اضطراب وليست عليهم مسؤولية ولا يكونوا في شقاء، ومن ثم بعد الموت لا يوجد هناك حساب وكتاب وعذاب، لأنهم مصنوعون على صورة آلة تعمل مدة من الزمن ومن ثم تُستهلك.

إن هذه المعرفة تضع على عاتق الإنسان مسؤولية جميع الكون، مثل «أطلس»[١] -بطل اليونان- الذي يدفع ثمن جلبه للنار إلى الأرض، نار المعرفة والعلم والإحساس.

---

(١) أطلس: كان واحدًا من مجموعة معبودات تُسمّى الجبابرة في الأساطير اليونانية، إذ تزعم هذه الأسطورة بأن أطلس هو ابن الإله الجبار «لابتيوس» وحورية البحر «كليمن» وأخو «روفيوس». خاض أطلس وغيره من الآلهة الجبابرة حربًا خاسرةً ضد «زيوس» وآلهة الأولمب. عاقب «زيوس» أطلس بإجباره على الوقوف وحمل السماء فوق كتفيه إلى الأبد. طلب هرقل مساعدة أطلس في الحصول على تفاحات من حارسات التفاح الذهبي. فذهب أطلس تاركًا هرقل يسند السماء بدلاً منه. وعندما عاد بالتفاحات رفض أخذ السماء مرةً أخرى على أمل أن يجبر هرقل ليرفعها بصورة دائمة. لكن هرقل خدعه وجعله يأخذ منه السماء. وقف أطلس في إقليم الشمال الغربي الذي يعرف الآن بإفريقيا. ولذلك سميت جبال الأطلس في شمالي غرب إفريقيا باسمه. وكُتُب الخرائط أيضًا سُميت باسمه. وتبيّن كثير من الأعمال أطلس وهو يحمل الأرض أكثر من الأعمال التي تبيّن أنه يحمل السماء على كتفيه.

الجهل، محظوظ ومحسود، لأن الفلاسفة دائماً يعملون على رفعه. والحصول عليه يحتاج إلى أمر واحد، وهو حماقة عدم شكر النعمة التي منحها الله لكل موجود، وليتها لم تؤخذ، وأي شخص لم يكن يحصل عليها، ليته لم يحصل عليها.

عندها خرج آدم وحواء من الجنة:

يحصل الهبوط، والإنسان بعد حصوله على المعرفة والرؤيا والنظر، يخرج من الجنة، ليعيش عيشة السعي والعذاب.

من هو الإنسان الذي يجعل الحياة حياة عذاب وسعي؟ ذلك الإنسان الذي يقول عنه «الطاو»: انظر إلى هذا النبات كيف ينمو في فصل الربيع ويحمل الورود، ومن ثم يعطي ثمره في الصيف، ثم يصفرّ في الخريف، ومن ثم يذهب إلى السبات في الشتاء. فهو لم يكن ليقع ضحية اليأس والاضطراب والغمّ، وهو لم يكن متعهداً ولم يكن مسؤولاً ولم يتحمّل حملاً ثقيلاً، فهو يعمل في هذه الطبيعة كما رُسم له وأريد منه، مثله مثل الآلة.

أما هذا الإنسان وحسب قول «سارتر»، فهو يمتلك المعرفة، ولكنه في حالة تعب وآلام، وكلما أراد أن

يسمو بنفسه نحو التكامل والترقّي فعليه أن يتجرّع عذاب ومرارة الخوف من الوحشة والتخلّف والانحطاط والانحراف والضعف والتخلّف عن المسؤوليات الملقاة على عاتقه.

إن الجاهل لا يشعر بالمسؤولية فهو محظوظ. ولكن كلما زاد إحساسه وشعوره اتجاه أطفاله، وعائلته، ومنطقته، ودولته، ومحيطه والعالم الثالث المُستعمر، وأعلى شعور هو ما كان اتجاه الإنسانية جمعاء، فهنا يحسّ الإنسان بالمسؤولية تجاه هذه الأمور، ويحسّ كأنما مصير العالم والإنسانية ومسؤولية كل فاجعة تقع على الأرض هي بيده وعلى عاتقه، وعذابه لم يكن عذاب اليوم فقط، وإنما آلامه هي آلام القرون الماضية والقرون القادمة أيضاً.

جنة آدم لم تكن الجنة الموعودة:

إن جنة آدم، كانت عبارة عن حديقة أو بستان كما جاء في التوراة، وقد حددت التوراة بدقة عرض وطول هذه الجنة.

لا أريد أن أقول إن الواقع هكذا، ولكن الذي أريد قوله إن هذه الجنة لم تكن هي الجنة الموعودة كما جاء في

الروايات المنقولة في كتبنا، وكذلك ما أشارت إليه بعض الأديان الإبراهيمية أيضاً.

إن الجنة التي تُمنح تحت عنوان ثمرة أتعاب وسعي الإنسان في هذه الدنيا، تمثّل مظهر تكامل مصير الإنسان، وعلى عكس ما يرونه من أن الجنة تعني المكان المغطّى بالأشجار، لأن معنى المجنون هو الإنسان الذي أُخفي أو غُطي عقله، والجنة أيضاً فهي في تزاحم الأشجار والأعشاب تكون مغطاة، بمعنى حديقة مملوءة.

إذاً، «فآدم» كان يعيش في مكان تصلُ يده إلى أي شيء يريد، وبدون تعب ومشقّة، وحتى ذلك الوقت الذي تناول فيه من الشجرة الممنوعة، أُبعد إلى الأرض الجافة الجرداء الموحشة، المملوءة بالعذاب والمشقّة والمسؤولية.

في تلك المرحلة، كان الإنسان ساكناً في الجنة، وهو لا يمتلك معرفة ولا إحساساً بألم أو تعب، فهو لا يعرف شيئاً، ولم يرَ أي مكان، وحين فتح عينيه وكان هناك، ورأى تلك الأمور وعرف أن المسألة قصيرة، أدرك وجوده وما يملك من فكر.

في الجنة كان يأكل ولم يشعر بغربة وألم، فمثلاً أهل منطقة سبزوار عندنا يقولون: أنتم ذهبتم إلى كل مكان

وشاهدتم كل شيء فهل رأيتم منطقة مثل سبزوار -إن لبنها لا يمكن الحصول عليه في مكان آخر- من سمائها تنزل البركة والنعمة؟!

أو أن هناك شخصاً رأيته مثلاً يتألم، سألته ماذا حدث، قلبك أم معدتك؟ أي مكان يؤلمك؟ قال: هذا من عيون الناس! ابن عمي -والذي أحبه كثيراً- من الوقت الذي سمع من الوالدة أننا وضعنا مبلغاً من المال في البنك (ضربني عيناً) حسدني!

بعض الناس هكذا تكون السماء بالنسبة لسبزوارهم، مملوءة بالبركات، وبعضهم يتصوّر أن ابن عمه حسده على هذا المبلغ ٢٨٠ توماناً، الذي لا قيمة له، فالدنيا جنة ولا يوجد شيء ينقصها.

ولكن «كامو» يقول: لا يوجد أي شيء في الدنيا حتى ابتسم. وبوذا يقول: يجب أن يكون سعي الإنسان في الدنيا بأن يكون ارتباطه بشيء يأخذ ويعطي الارتباط، لأن كل شيء لا يرتبط بالقلب -لأن القلب أكبر من جميع العالم- ليس له قيمة.

وهنا لا أريد أن أؤيد كل شيء قالوه، ولكن أريد أن أوضح الفارق فقط.

فالذي يعيش وينظر ضمن هذه الحدود، سوف يفهم وسوف يعيش -تماماً مثل النبتة- فهو يرى أنه داخل الجنة. وكل شيء هو هذه الجنة، بطعامها وشرابها ومناظرها، ولذائذها المختلفة، فالإنسان الذي يعيش بين مجموعة الحيوانات والطيور يختلف عن إنسان يعيش في الجنة وقبل شعوره، فهو ليس لديه أي نقص ولا عذاب ولا يحس بالنقص.

وحينما تناول آدم «الفاكهة الممنوعة»، يبدأ بالإحساس والشعور، ويشعر بالخجل وهو في حالته العارية تلك أمام الخالق العظيم وصاحب الجمال والكمال المطلق، وتتبدّل تلك الجنة بسعادتها ولذّاتها إلى عذاب ومرارة وهبوط، لأن النظر عند آدم جعله يشعر بالحاجة، لأنه ليس في حياة مادية، ولا توجد هناك، مصائب وعذاب ومرارة وسعي عند آدم الذي لم تكن لديه المعرفة، عندها، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ .

الإنسان ظلوم وجهول:

الإنسان ظلوم لأنه حينما أكل تلك الثمرة الممنوعة حُرم من تلك اللذائذ، ومن الجنة التي ليس فيها آلام،

وأصبح موضعاً للاضطراب والآلام. وبدأ يتحمل المسؤولية والعذاب، مسؤولية العذاب التي تحملها على عاتقه البطل «أطلس» بطل اليونان، هي جهله. فهو لم يعرف عواقب الصحوة وامتلاك النظر كيف تكون صعبة ومؤلمة. والآن هناك أيضاً بعض الذين لا يزالون يعيشون في الجنة ولم يكونوا مع الآدميين ولم يأكلوا من الفاكهة الممنوعة. وهناك قليل من أولئك الذين يأكلون من تلك الثمرة الممنوعة ويرون العذاب والآلام في العالم.

قصة الخلق تعتبر من أرقى وأعلى القصص في معرفة الإنسان الديالكتيكي:

وعلى عكس ما يعتقد به أصحاب الأديان العامة وأصحاب الثقافات التي تحمل أفكاراً ضد الدين، فهؤلاء تفكيرهم سطحي وهم بعيدون عن المعاني وعن التعمّق فيها. ففي قصة خلق الدنيا، هناك حكم ومعاني، وفي داخلها رموز وإرشادات تُعتبر من أرقى وأسمى المعارف لمعرفة الإنسان. وإذا وجد هناك تضاد فهذا التضادّ ديالكتيكي، وهو يمثل تضاد «اللجن» و«الله». ففي قصة الخلق والتي تبيّن معنى المسؤولية، ومعنى أن يكون العشق والعقل، مع بعضهما، لكي يصحو الإنسان ويصل إلى

المشاهدة والنظر، وكذلك تبيّن حياء الإنسان حينما يكون صاحب معرفة، وحينما يتبدّل من إنسانٍ عريان وفقير إلى إنسان يتطلّع للمادة والحياة المصرفية.

وهذه الحقيقة يبيّنها الله في خلق آدم، فقال: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾.

إن قصة الخلق لم يطرحها أي إنسان، حيث إن المثقفين غير معتقدين بها، والمعتقدون بها يقولون وبما أن المثقفين لا يؤمنون بها، لذا فليس من المصلحة طرحها، فمن الأفضل أن لا نطرحها إذا كان الأمر هكذا، والأفضل أن لا نعتقد بهذه الأمور، مثلاً أن الله سبحانه وتعالى قد خلق إناءً من الفخار، وترك جسد آدم أربعين ألف سنة في أرض «نجد» حتى يجف تحت الشمس...

هل هذا يعتبر كلاماً؟! إن المسألة لم تكن قصة، بحيث تعتقد بها مدرسة علمية وفلسفية بل حقائق مرتبطة بالإنسان، مرتبطة بمسؤولياته، وطريقاً لأجل معرفته.

وإذا كان هناك فرصة ووقت، فسوف أقوم بتقديم مقارنة لقصة آدم، آدم مع أومانيسم -أصالة الإنسان- اليوناني وأومانيسم سارتر وأومانيسم هايدغر وأومانيسم الوجودية، وكذلك مع أومانيسم القرن التاسع عشر والقرن

العشرين. حينها تنكشف بشكل واضح، قيمة هذه القصة عند مقارنتها مع تلك.

تاريخ الإنسان:

هناك حديث حول «آدم»، بمعنى الإنسان بصورة عامة ونوع الإنسان، وحينما نقول تاريخ الإنسان نقصد «هابيل» و«قابيل». حيث إن هابيل يمثل مظهراً لفترة الرعي، والاشتراك العام بين جميع أفراد المجتمع في المواهب المادية والمنابع والانتاج الحيواني. أما قابيل، فيمثّل إنسان فترة المُلكية الفردية، ومرحلة المصالح الفردية للإنسان، وبداية الصراع الطبقي، والمحرومية والاستغلال والاستثمار والاستعباد للناس، وكذلك يمثل الحاكمية والمحكومية، وبداية الظلم، والانحراف المعنوي والديني. وهذان الاثنان ـ هابيل وقابيل ـ يمثلان بداية تاريخ الإنسان.

هابيل وقابيل:

إن هابيل يُقتل على يد قابيل، وكانت تلك الفترة، فترة الاشتراكية الأولية على أساس العدالة والمساواة العامة. تنتهي هذه الدورة، لتبدأ دورة المُلكية الفردية والاستثمار، وهي الدورة التي تظلّ دائماً تحكم المجتمع، لأن قابيل كان فلاحاً، والزراعة في التاريخ تعتبر المرحلة الأولى

حيث يتحول فيها المجتمع في تحولاته التاريخية من دورة الاشتراكية الأولية في منابع الانتاج إلى مرحلة الملكية الفردية لمنابع الانتاج، وبعدها العبودية، ومن ثم مرحلة الإقطاعية، ومن ثم البرجوازية وغيرها من الدورات.

مسألة الشرك:

الشرك لا يعني أنه لا يوجد دين، فهو دين حكَم المجتمعات البشرية تحت عناوين وألقاب مختلفة، وبصورة رسمية.

الشرك، عبارة عن تعدّد الآلهة -إلهين، إلى ما لا نهاية- وهذه الآلهة يمكن أن تكون عدداً من الأصنام، وعدداً من أرباب الأنواع، أو عدداً من القوى، تمثل قوى ما وراء الطبيعة.

هذه المعبودات، هي أشكال دينية متعددة، قسّمت المجتمعات إلى عدد من الطبقات والمجاميع، حيث إن الوضع الموجود كان يُطلق عليه «دين».

لهذا فإن الشرك، عبارة عن نظرية كونية مبنيّة على تعدّد الآلهة وعلى قدرات مختلفة، ولهذا فإن النظرة الاجتماعية مبنية على عدد من الطبقات المختلفة، وهذه النظرة نظرة موجّهة وطبيعية وأزلية وأبدية ومقدّسة وغير قابلة للتغيير.

فكل إله، يمثّل قبيلة أو قومية معيّنة مثل «زيوس»[١] «يهوه»[٢] «بعل»[٣] أو «فيشنو»[٤] وكل واحد كان يمثّل مظهراً

(١) زيوس: كان لقدماء اليونان آلهة ذكور وإناث أعظمها شأناً «زيوس» الذي كان يُطلق عليه أحياناً اسم «زيوس بتروس»، أي زيوس الأب، ويطلق قدماء الهندوس على هذا الإله اسم «ديوس بيتار»، وقدماء الروم اسم «جوبيتر». وآلهة اليونان تشترك في أغلب الأحيان مع آلهة قدماء الآريين.

(٢) يهوه: إنّ الاسم الخاص للّه سبحانه في الديانة اليهودية هو (يهوه) ويعني الموجود. وقد حظي هذا الاسم بقدسية بالغة لدى اليهود، وأنّ تلفّظه حتى من خلال قراءة التوراة يُعدّ حراماً، وعلى إثر هذا التحريم فإنّ أحداً لا يعلم على وجه الدقّة التلفظ الحقيقي لهذه الكلمة، ولهذا فإنها تُكتب في بعض الكتب العلمية للغرب بدون حركات (YHWH) عملاً بالاحتياط العلمي.

(٣) بعل: صنم عبده الإسرائيليون في حقبة التوراة. وكلمة «بعل» تعني «الرب» أو «السيد» أو «الزَّوج». وقد استُعملت أحيانًا للإشارة إلى الإله عند بني إسرائيل، وهي تشير عمومًا إلى إله العاصفة أو الصنم الذي عبده الإسرائيليون، والذي وهبهم الأمطار في فصل الخريف ليجعل التربة خصبة كما زعموا. وعندما استوطن الإسرائيليون في بلاد كنعان، انقادوا إلى عبادة صنمهم بعل اعتقادًا منهم أنه سيهبهم الخصوبة من أجل رَعْي قطعانهم ونمو زرعهم. وكانت زوجة ملك إسرائيل «آهاب» الملكة «إيزابيل» تعبد «بعلاً». وقد حاولت أن ترد بني إسرائيل إلى دينها، لكنها قوبلت بمعارضة النبي «إلياس» لها. وقد ذُكر هذا في صريح القرآن، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ الصافات: ١٢٣-١٢٥. وذهب أكثر المفسرين إلى أن «بعلاً» التي تعني «ربًا» بلغة أهل اليمن، اسم صنم عبده بنو إسرائيل.

(٤) فيشنو: أحد الإلهَيْن الرئيسيين في الديانة الهندوسية. والإله الثاني هو «شيفا». ويتمتع «فيشنو» حسب اعتقاد الهندوس بطبيعة عطوفة، ويسمونه «الحافظ». وهم يؤمنون بأنه يحاول أن يكفل السعادة للإنسانية.

قومياً، وإن كل قومية تعادي القومية الأخرى، إن الآلهة دائماً في حالة حرب مع بعضها، وكذلك أتباعهم حيث إنهم يرجعون لقوميةٍ أو عنصر واحد، فهم في حالة تنافس، لهذا يمكن أن نقول إن الأمر كان أمراً عِرقياً.

إذاً فالشرك الإلهي، هو دين نُظِّم من أجل الشرك أو التعصّب العرقي. ففي العالم، إن كل إله هو مظهر لعِرقٍ أو قبيلة ما. وفي كل شعب، فإن كل إله يمثّل خليفة العائلة. وفي كل مجتمع، فإن الإله يمثّل مظهر الطبقات حتى يُمكن حفظ العِرق والعائلة والطبقة في هذا التقسيم. ولا يمكن أن تختلط عائلة بعائلة أخرى أو أن يتجاوز مجتمع على مجتمع آخر.

وبما أن الآلهة لهم الأبدية والأزلية، لهذا فإن اختلاف الطبقات، والعوائل والقوميات أيضاً أبدية وأزلية، حتى لا تفكر طبقة ما بإزالة أو تغيير طبقة أو مجتمع آخر.

إذاً فإن الشرك الاجتماعي، هو انعكاس من الشرك الإلهي. لهذا فإن الشرك هو دين تعدّد الآلهة من أجل تنظيم وتوجيه عدد من العرقيات وعدد من الطبقات والعوائل، ومن أجل أن تكون هذه كلها مقدسة دينياً، وحينما تكون مقدسة، تأخذ صفة دينية غير قابلة للانتقاد والاعتراض، وغير قابلة للتصوّر حتى لا يعتريها تغيير.

هذا هو نفَس وروح الشرك على مدى التاريخ، حيث كان وسيلةً بيد الطبقة الحاكمة استفادوا منه في الصراع الطبقاتي والعرقي والعائلي والقومي، ليحكموا الناس.

أنواع الشرك:

يكون الشرك أحياناً واضحاً وظاهراً، «مشرك رسماً» فهو يعتقد بعدد من الآلهة -عدد من الأصنام- والآلهة المتعددة تكون واضحة ومشخصة في دينه، فالصراع مع هذا الشرك يكون صراعاً سهلاً، كما هو زمان الرسول ﷺ حيث حارب هذا النوع من الشرك وانتصر عليه.

وهناك شرك «مزمن» في لباس التوحيد كما هو في الشرك الديني، والصراع مع هذا الشرك يكون صعباً جداً، كما هو الحال مع علي عليه السلام حاربه ولم ينتصر عليه.

جميع أديان التوحيد، حاربوا الشرك وانتصروا عليه، وبعد عدّة أجيال تأتي طبقة تدعى بطبقة المشرفين، طبقة الأولياء الرسميين لدين الرسول الموحِّد ويُعتبرون المبلّغين الرسميين للدين، فهؤلاء يسيطرون على الأمور وتصبح القدرة أو السيطرة بأيديهم.

ولكن هؤلاء مرتبطون بالحاكم، وكانوا مع الحاكم تحت عنوان المتولّين والمعتقدين بالدين، وهم الذين

يديرون الكنيسة والمعبد لذلك الدين، وهؤلاء يمارسون الشرك الاجتماعي تحت اسم التوحيد وفي معابد التوحيد، ويستمر هذا العمل بعمق وشدّة وقوّة، ونلاحظ هذا الشرك المزمن في تاريخ الإسلام والمسيحية واليهودية.

لقد قاوم النبي موسى عليه السلام شرك فرعون، أما بعده، فإن أتباعه من الرومانيين مارسوا الشرك الاجتماعي والنظام الفرعوني وتحت اسم توحيد موسى، و«يهوه» -الإله الواحد- يصبح محل آلهة فرعون السابقين.

ثم يأتي المسيح ليخلّص المعبد الذي كان قد تحوّل إلى سوق يُباع فيه الدين والأشياء الدينية المقدسة. فهو أول مَن رفع شعار التوحيد في الغرب، بحيث أصبحت الدنيا وخاصة دنيا الروم والرومان تعرف معنى التوحيد. أما من بعده، فإن أتباعه جعلوا ثلاثة آلهة استخرجوهم من متون الكتاب ومن خطاباته حتى يتحوّل الأمر إلى تقسيم المجتمع إلى ثلاث طبقات حاكمة.

أما الروحانيون الزرادشتيون وعلماء الدين، فإن «أهورا مزدا» الواحد، يحولونه إلى ثلاثة نيران، نار أهورا مزدا الملوك، ونار أهورا مزدا الروحانيين، ونار أهورا مزدا الفلاحين.

التوحيد

التوحيد، هو عبارة عن نظرة كونية، تبعث وحدة الوجود في فكر الإنسان، وتذوب فيه جميع الأقطاب المضادة وسلسلة المراتب في العالم، ويبقى هناك إله واحد، وأمبراطور واحد موجود، وهدف واحد، وإرادة واحدة.

«لا حول ولا قوة إلّا بالله» هذا شعار فيه معنىً عميق، وهو شعار ثوري، تحوّل اليوم إلى وردٍ من الأوراد. أما سابقاً فكان يعني نفي ما في الكون، ونفي كل شيء سوى الله سبحانه وتعالى.

قلتُ سابقاً أن في المذاهب والأديان الابتدائية، هناك اعتقاد بـ «مانا»، وهي قوة رمزية موجودة في بعض الأرواح الخبيثة، وفي النجوم، وفي بعض المواد الغذائية، وفي بعض الحيوانات وفي أشياء أخرى، ولها أثر في حياة ومصير الإنسان.

إن عبارة «لا حول ولا قوة إلّا بالله» تُبعد كل هذه الأفكار، وتنفي تلك الروح المخفية وآثارها سواء المثبتة أو السلبية من حياة الإنسان.

أما اليوم، فإن بعض الذين يقولون «لا حول ولا قوة

إلّا بالله» يعتقدون أيضاً بوجود «المانا»، وحتى بعض الشخصيات الكبيرة يعتقدون أن لها تأثيراً في مصير الإنسان، ولها وجود حتى في «الشوربة».

والحال أن التوحيد، يعتبر أن الله واحد، والتاريخ واحد، والإنسانية واحدة، وقد عرّفت عقيدة التوحيد هذا الأمر للإنسان، وإن وحدة التاريخ والإنسان ووحدة الإنسان والعالم، كلها تنطوي على بناء التوحيد.

ففي طول التاريخ، كان الناس ضحية لحروب وصراع الطبقات والعرقيات والعوائل، حيث سقط الناس ضحايا نتيجة أكاذيب المدّعين والمتسترين من أصحاب أديان الشرك، وكان هؤلاء الناس، هم الضحية دائماً، من أجل بقاء الشرك الطبقي والعائلي والعرقي. وعلى طول التاريخ، وبالميزان الذي كان دعاة الشرك من الطبقات الحاكمة يثبتون حكمهم، كان الناس يقاومون هؤلاء بوسيلة التوحيد، وكانت أمنيتهم أن يتحقق مبدأ التوحيد بعنوان أنه حقيقة كبرى تسود العالم، وأنه يمثّل البنية التحتية للفكر والاعتقاد، لأنه في هذا المبدأ وهذا النظام، سوف تتحقق الوحدة البشرية والإنسانية. لهذا فإن التوحيد مسألة كبيرة جداً.

شعار التوحيد:

لم يكن «شعار التوحيد» مسألة كلامية أو فلسفية فقط، حيث يجلسون مع بعضهم ويقولون بأي دليل نستدل على أن الله موجود أو غير موجود، أو مثل معلِّميْن اثنين داخل صف واحد أو حاكمين اثنين في مملكة واحدة، ويقولون يجب أن يكون الأمر هكذا أو هكذا. أنا لا أريد أن أقول إن هذا الاستدلال غير صحيح بل إنه صحيح أيضاً، إنما الذي أريد أن أقوله، يكفي أن يجلس العلماء مع بعضهم ويقدمون الاستدلالات. ألم يعلموا أن «بلال» يمكنه أن يقدّم دليلاً فلسفياً ويجلس مع الجميع ويأتون بألف دليل على وجود التضادّ في العالم ويأتي بألف دليل على وجود الله.

لماذا حينما يقول رسول الإسلام «لا إله إلّا الله»، فإن سوق بيع العبيد يهتزّ من هذا الصوت وتضعف قيمة بيع العبيد؟ لماذا يُسْلِم العبيد قبل الجميع؟ لأن «النجاة» تنطوي تحت هذا الشعار؟ لماذا يقول القرآن -عن لسان قريش- يقول الذين اتبعوه أرذل الناس، الناس الفقراء، أصحاب الملابس الممزقة والأرجل الحافية ويرددون شعار التوحيد؟ لأن هؤلاء يعرفون معنى التوحيد أكثر من العلماء والمفكرين والفلاسفة؟

شعار التوحيد اليوم، حتى يمكن معرفته علينا أن نقرأ الكلام والفلسفة، أما التوحيد الذي اجتمع حوله العبيد والفقراء، فهو يمتلك صورة لهذه الحياة وهذا العالم والتاريخ والاجتماع من جهة، ومن جهة أخرى فهو يمثّل الصراع ضد الشرك حتى تتحقق العدالة ويتساوى الناس.

التثليث:

إن التثليث هو نوع من الشرك الطبقي وكما قلت، هو من أنواع الشرك، أما المسألة المهمة فيه فهي أن الطبقة الحاكمة كان لها بُعد واحد، ومن ثم بدأت تتكامل على مدى التاريخ البشري وتتحوّل إلى ثلاثة أبعاد: قدرة سياسية، وقدرة مذهبية وقدرة اقتصادية.

وإن كل نبي يأتي فهو يأتي بواسطة القدرة الدينية -وبمساعدة القوتين السياسية والاقتصادية- يُحكم قبضته، فنبيُّ التوحيد ينتصر، ويأتي بعده أتباعه بعنوان خلفائه ويحكمون الناس.

إن حاخامات اليهود استطاعوا أن يحاربوا عيسى عليه السلام ولكنهم لم يستطيعوا أن يلبسوا لباس قساوسة عيسى، وقساوسة المسيح وبعد هزيمتهم في صراعهم مع الإسلام، لبسوا لباس

الدين والتحقوا بالخلفاء، وهؤلاء هم الذين أصدروا الفتوى ضد الحسين عليه السلام و«الحر» والجميع.

لهذا فإن الطبقة الحاكمة تتجلّى بصورة واحدة في البداية بصورة قابيل، ثم تتكامل وتصبح صاحبة ثلاثة أبعاد: بُعد سياسي، وبُعد مذهبي وبعد اقتصادي، حيث إن القرآن وصفها بوصف جميل بثلاثة أشكال وهي: فرعون والذي يمثل البُعد السياسي، وقارون يمثل البُعد الاقتصادي، وبلعم بن باعوراء يمثّل البُعد الروحاني، حيث إن الثلاثة من نسيج واحد، ويعملون في دلالية واحدة: فواحد مستبد، والآخر مستثمر والثالث مستحمر.

الأنبياء المرتبطون بهذه الأبعاد الثلاثة:

القادة الذين يأخذون شكل الأنبياء في إيران والهند والصين وكذلك القادة الأخلاقيون وأنبياء اليونان، فهؤلاء وبدون استثناء يرتبطون بإحدى هذه الأصول الثلاثة إما عن طريق الأب أو عن طريق الأم: إما الأب من طبقة الاستحمار أو أمه من المستثمرين، فواحد يرتبط بالفرعون والآخر يرتبط بقارون أو يرتبط بالاثنين معاً.

لاوْتسو، كونفوشيوس وبوذا، أنبياء النموذج الودائي. زرادشت، مزدك، ماني، سقراط، أفلاطون وأرسطو، هؤلاء

جميعاً من الطبقة العليا ومرتبطين بالطبقة العليا القابيلية.

ومقابل هؤلاء، هناك مجموعة من الأنبياء هم الأنبياء الإبراهيميون، وهؤلاء وبدون استثناء وكما صرّح الرسول الأكرم ﷺ «لا يوجد نبي إلّا وكان راعياً للأغنام» ويقصد الرسول الأكرم ﷺ بذلك، سلسلة الأنبياء الذين سبقوه ولا يقبل سواهم، وكما قرأنا في التاريخ فإن هذه السلسلة من الأنبياء عملوا في رعي المواشي والأغنام أو كانوا من طبقة الفلاحين والتي تعتبر أقلّ مرتبة من طبقة الرعاة. وحتى الآن فإن أولئك الذين يشتغلون في الأعمال الصناعية هم أقلّ درجة من طبقة الرعاة والفلاحين في المجتمعات الزراعية.

فمثلاً القروي لا يزوّج ابنته إلى شخص يرقّع أو يصنع الأحذية وحتى لو كان أثرى منه، وكذلك للذين يصنعون الآلات، أو الصنّاع، لأن هؤلاء طبقة خاصة، وكذلك الحمّالين. ولأن هؤلاء وخلال مرحلة الإقطاع الزراعية واجهت صنعتهم صدمة آنذاك، ولهذا فإن الصناعة في السابق كانت على خلاف ما هي عليه اليوم.

فالأنبياء الإبراهميون كانوا مرتبطين بهكذا طبقات في المجتمع، وهذه الطبقات تعتبر من الطبقات الأكثر حرماناً في المجتمع.

أُميّ:

إن كلمة أُمي، تعني هذا الارتباط مع أكثر الطبقات حرماناً، وهناك مَن يرى، أن كلمة أُمي تعني الانتساب إلى أُم القرى، أي مكة، وقد وصلوا إلى تعريف عجيب! وهو أن «النبي من أهل مكة». وهناك مَن فسّر الأُمي بمعنى الذي لا يكتب ولا يقرأ. وأنا واقعاً لا أريد أن أقول إنه كان يكتب ويقرأ، أما قول الله سبحانه وتعالى ﴿ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ﴾ ، فهنا، الأمي، صفة متعالية، ولا يعني هذا أن رسولنا لا يقرأ، وعدم القراءة لا تعني نقصاً في الرسول بل إنها فضيلة، ولكن يجب أن لا نقول إن عظمته كانت بسبب أُمّيته. إن «أُمي» هو من كلمة أمّة، وهذا يعني أنه أمة مقابل تلك الأبعاد الثلاثة -حيث كانوا على مدى التاريخ وارثين لقابيل وكانوا يمتلكون القدرة السياسية، والاقتصادية والدينية، على حساب الناس- فهو أمي، يعني مرتبط بالناس، والأمة، وبالطبقة المحرومة، ضحّى، وجُرح، واستُغلّت أمواله وخانوه وهذا كله كان بواسطة أهل الطبقات الثلاث والأشخاص الثلاثة: فرعون، قارون، بلعم بن باعوراء.

فعلى مدى التاريخ، هؤلاء أنبياء ليسوا إبراهميين من جانب التصنيف والوضع الطبقي، فهم مرتبطون بتلك الأبعاد الثلاثة. أما الأنبياء الإبراهميون، فإنهم مرتبطون

بطبقة واحدة وهي طبقة المحرومين. فهم مرتبطون بالأمة، وهم أميّون، وكما هو الحال فإن القراءة والكتابة كانت بيد الطبقة الحاكمة وقرأوا على يد المعلمين والروحانيين، أما عموم الناس فكانوا أمّيين محرومين، لذا فإن الأنبياء، حالهم حال طبقتهم، كانوا محرومين، من القراءة والتحقيق والتحصيل والمدرسة والجامعة.

إذاً فالرسول الأمّي، يعني المرتبط بتلك الطبقة وذلك المجتمع على مدى التاريخ، والذي يرتبط بهذه الطبقة يكون نصيبه الحرمان والعذاب.

المجتمع نوعان: دنيوي وأُخروي:

على مدى التاريخ، فإن المجتمع والناس في حركتهم الديالكتيكية، على نوعين «طالب دنيا» و«طالب آخرة».

فهناك مجتمع، يؤمن بالآخرة والزهد، أو يؤمن بالوهميات والخرافات. وهناك مَن يؤمن بالدنيا والحضارة المادية، ويرون أن خط الأنبياء مخالف لخط المجتمع والناس. فمثلاً في المجتمع الذي يؤمن بالآخرة، مجتمع الزاهد وعابد الأوهام والخرافات كما في الهند، أو الصين، فالنبي الذي يأتي، يأتي بتعاليم مخالفة للحضارة والحياة الاجتماعية والعلم.

لذا نرى أن «لاو تسو» يوصف بأنه شخص أخروي ومنفرد، على عكس كونفوشيوس فإنه قاد مجتمعه نحو المادية والدنيا.

وفي المجتمع «الدنيوي»، فإن الروم أيضاً -قبل عام ٢٣٠٠ إلى عام ٢٠٠٠- كانوا يؤمنون بالحياة المادية ويسعون إلى اكتساب القدرة والمصرف والكماليات والشهوة. وعيسى -وعلى الرغم من الانحراف الاجتماعي- فإنه يوصف بالأخروي والتقي والزاهد والعابد، ثم إن المجتمع وخلال القرون الوسطى أخذ طريق عيسى وصار يوصف بهذه الأوصاف. واليوم فذلك الاعتقاد الذي كان في القرون الوسطى وهو الاعتقاد بالفكر المادي والحياة المصرفية والتجمّل، وهذه المادية اليوم هي امتداد لذلك الفكر المادي السابق، لهذا فإن الأديان المعتقدة بالآخرة أو المذاهب المادية ترتبط وتتأخّر بحسب المحيط الذي ينمو فيه الدين أو المذهب. فإذا كان المجتمع مجتمعاً يؤمن بالآخرة، فإن المذهب سيكون مذهباً يتطلّع إلى الماديات، وإذا كان المجتمع مجتمعاً مادياً فإنه يتطلّع إلى مسائل الآخرة. والإسلام، هو الدين الوحيد الذي يمتلك بُعدين، ففيه نجد الاتجاهين، الدنيا والآخرة، يسيران في المجتمع بصورة تضادّ حتى يُحفظ المجتمع في حالة متعادلة.

الخاتمة:

لطفاً أرجو أن تنتهبوا جيداً حيث إن هذا الأمر هو من تلك الأشياء التي حدث فيها سوء فهم، لأولئك الذين كانوا نياماً وأيضاً لأولئك الذين يجعلون من أنفسهم نائمين.

فالخاتمة تعني أن هناك مدرستين؛ إحداهما باسم المدرسة التوحيدية أو مدرسة الوحي، وهي مدرسة الدين، فهي مدرسة واحدة ولكن حلقاتها مختلفة، وأساتذتها مختلفون. فقد ربوا طلاباً باسم «إنسان» وأخذوا بيده خطوة خطوة إلى الأعلى، وفي النهاية منحوه درجة الدكتوراه أو الاجتهاد، وقالوا له: أنت مجتهد.

والمجتهد يعني أنه يفهم ويعرف جميع العلوم، وأنتم الآن جزء من هذه المدرسة ومعلّميها، فيمكنكم أن تستمروا في البحث والتحقيق وتعطوا للعلم تكاملاً وتقدماً.

فالخاتمة تعني التخرّج، تخرّج الإنسان من مدرسة الوحي والذي يتخرّج يعني بعد النهاية لا يحتاج إلى وحي جديد ولا يحتاج أن يتخرّج من حلقة درس الدكتوراه ويدخل في درس دكتوراه أخرى.

لا أريد أن أقول إن الإنسان لا يحتاج إلى الدين، فأنا أقول: لا يحتاج إلى وحي آخر. فهو وطبق تعليمات

ومعارف هذه المدرسة وكلما زادت معلوماته وبدون أن يأتي نبي جديد ويأخذ بيده ويحلّ المشاكل التي كانت قد وجدت في الأديان السابقة، يستطيع هو وبواسطة معارفه أن يعطي جواباً.

فالإنسان فقط بواسطة تلك المعلومات التي جاء بها خاتم الأنبياء والعمل بها والاجتهاد فيها، يستطيع أن يمضي قُدماً وأن يصل إلى طريق الكمال.

وهنا يصبح الإنسان نفسه وحياً جديداً، مثلما يتخرّج الإنسان من كلية، فهو لا يحتاج إلى أستاذ وصفٍّ جديد، فهو يستطيع وطبق التعليمات التي حصل عليها أن يبحث ويحقق ويستمر.

وأيضاً حينما أقول الخاتمية، فهذا لا يعني أن تكامل الإنسان قد توقف، هل أن تكامل الإنسان في القرن السابع الميلادي -قبل ١٣٠٠ سنة- أصبح متوقفاً؟ لا، بل هو يسعى دائماً للتكامل، فأنا ومنذ الوقت الذي حصلت فيه على الشهادة، فإن عملي وتحقيقاتي زادت ولكن بدون الرجوع إلى أستاذ جديد.

أما، هل أنه أنا لا أحتاج إلى تلك المدرسة التي تعلّمت فيها؟ فأنا لا أزال محتاجاً إليها، ولكن أي احتياج؟ هذا لا

يعني أنني سأذهب مرة أخرى وأقرأ ما قرأته، ولكنه احتياج إلى تلك الأمور الجديدة التي تُقال فيها بأن أعرفها، وأفهمها وأعمل بها، أنا أحتاج إلى الجديد والمتطوّر، إلى الفكر الذي درّسوه لنا.

أنظر إلى مَن علّمني وزرع فيَّ الفكر، لأرى الدنيا وأعيش فيها وأؤدي مسؤوليتي.

فهذا هو معنى الخاتمية، حتى نصل إلى الإسلام، التشيّع، القرآن، وخصائص القرآن، رسول الإسلام، الإمام، معنى الشيعة، دوره التأريخي، الفكري، الثقافي، وايديولوجية الشيعة، ومعنى العدل من وجهة نظر علماء الاجتماع ومقارنة نظام الإمامة مع الأنظمة الأخرى، الجبر التأريخي، الانتظار، الرجعة، مسؤولية المثقفين المسلمين في الوقت الحاضر و...

إلى هنا، ينتهي الجزء الأول من الكتاب، وهناك ثلاثة أوراق ونصف الورقة وردت تحت عنوان (ضميمة ها) لم يترجمها المترجم، ولا ندري ما هو السبب.

نستودعكم الله تعالى الذي لا تضيع ودائعه، ونلتقي معكم في الجزء الثاني من هذا الكتاب قريباً إن شاء الله تعالى.

الفهرس